سلسلة المئويات

عشرون ألف فرسخ تحت سطح الماء

جول ڤيرن

ترجمة: حسين محمد القباني



- رائد أدب الخيال العلمى فى الأدب الفرنسى.
- ولد فى مدينة نانت عام ١٨٢٧.
- بدأ أولى رحلاته داخل «بالون» لمدة خمسة أيام مع رفاقه، وكانت الرحلة الثانية من «كوبنهاجن» إلى جزيرة أيسلندا، بعدها تعددت رحلاته حول الكرة الأرضية.
- أصدر عددا من الروايات منها «خمسة أسابيع فى بالون» و«مغامرات الكابتن هاترس» و«عشرون ألف فرسخ تحت سطح الماء»، «حول العالم فى ٨٠ يوم» «سر الجزيرة» و«رسول القيصر» و«باريس القرن العشرين».

توفى فى عام ١٩٠٥ عن ٧٨ عاما.



إهـــــــداء 2005

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

عشرون ألف فرسخ تحت سطح الماء

جول ڤيرن

ترجمة: حسين محمد القباني

مراجعة: محمود مسعود



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

ماجدة عبد العليم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

توطئة

تحتفل أوروبا هذا العام بمرور أربعمائة عام على صدور أول طبعة لرواية الكاتب الأسبانى «سرفانتس» الخالدة : «دون كيشوت»، والتى تعد من أكثر الكتب توزيعًا ومبيعًا، وترجمةً إلى اللغات الأخرى فى العالم. كما تحتفل أوروبا أيضًا بمرور ثلاثة قرون على صدور أول طبعة فرنسية لترجمة «ألف ليلة وليلة» من العربية إلى الفرنسية عام ١٧٠٥، وهى أول طبعة لألف ليلة وليلة فى العالم، حتى قبل أن تطبع باللغة العربية، وكانت الترجمة إلى الفرنسية عن مخطوط عربى.

كما تحتفل الدانمارك بمرور مائتى عام على مولد كاتب الأطفال الأشهر «أندرسون»، وتحتفل ألمانيا أيضًا هذا العام بشاعرها المسرحى الكبير «شيللر» الذى يمر مائتا عام على رحيله عام ١٨٠٥. أما الأدب الروسى فيحتفل هذا العام بمرور مائة عام على رحيل أوسع الكُتاب الروس شهرة، وهو «أنطون تشيخوف».

وقد رأت مكتبة الأسرة ـ وهى تجدد نفسها هذا العام ـ أن تضيف سلسلة جديدة ضمن سلاسلها، وأطلقنا عليها سلسلة «المئويات». وبحثنا فوجدنا مئويات أخرى منها: مئوية ميلاد الفنان التشكيلى الأسبانى «سلفادور دالى»، ومئوية رحيل الكاتب الفرنسى، صاحب العشرين ألف فرسخ تحت الماء: «چول ڤيرن»، ومئوية ميلاد الفيلسوف الفرنسى «چان بول سارتر».

وفى مصر وجدنا الذكرى المئوية لعالم الأزهر الأشهر فى القرن التاسع عشر، صاحب النظريات الإصلاحية، والأفكار المستنيرة الإمام «محمد عبده»، والذكرى المئوية الأولى لرحيل الشاعر «محمود سامى البارودى»، رب السيف والقلم، والذكرى المئوية الثانية لتولية محمد على ولاية مصر، وهى الولاية التى اتسمت بنهضة شاملة بعد ثلاثة قرون من السُبات العميق إبان الحكم العثمانى.

ومن مئويات الأشخاص إلى مئويات الأماكن نجد مئوية ضاحية مصر الجديدة، وذكرى مرور مائة عام على تأسيس النادى الأهلى المصرى.

والكتاب الذى بين أيدينا الآن هو كتاب : «عشرون ألف فرسخ تحت الماء»، الذى يعد أشهر أعمال الأديب الفرنسى، ذائع الصيت «چول ڤيرن»، رائد أدب الخيال العلمى، والذى اهتم اهتمامًا خاصًا بأدب الرحلات، وقدَّم للمكتبة الإنسانية قرابة ستين عملاً، تُرجمت للكثير من اللغات الحية.

وهذا الكتاب من ترجمة حسين محمد القبانى وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٨.

د. ناصر الأنصارى

تصدير

«جول ڤيرن» (١٨٢٧-١٩٠٥م)

مائة عام على الرحيل

ثمانية وسبعون عامًا، هى عمر الأديب الفرنسى الأكثر شهرة، «جول ڤيرن»، كانت كافية، لأن تصنع منه أسطورة أدبية فى العالم كله. وهذا ما يقلب رؤيته عن نفسه رأسًا على عقب. فقد صرح قبل وفاته قائلاً: - «أعلم أننى سأموت مجهولاً، ولن يذكرنى أحد، فأنا بالنسبة للأدب الفرنسى، شخص غير موجود رغم كل ما قدمته».

ولد «جول ڤيرن» فى مارس عام ١٨٢٧م فى مدينة «نانت» وعاش حياة قاسية، وكان من يراه يظنه متسولاً من رقة حاله. كان يعرض مؤلفاته على الناشرين، فلا يعيرونه اهتمامًا، بل كان على استعداد لبيعها لهم مقابل بضع نقود قليلة تكفى لشراء وجبة يتناولها.

كان «جول ڤيرن» فى طفولته يراقب المسافرين فى ميناء «اللور» بحسد بالغ، متمنيًا أن يسافر مثلهم، ومن هنا جاء اهتمامه بقراءة كتب الرحلات ومنها انتقل لقراءة الأعمال الأدبية المتنوعة، فأصبح منكبًا على كل ما يقع تحت يده من آداب

الفرنسية والإنجليزية فقرأ شكسبير، وهوجو، ووالترسكوت، والكسندر ديماس الأب، وصادق ديماس الابن.

أصدر «جول ڤيرن» قرابة ستين عملاً، تمثل محطات بالغة الأهمية فى مسيرة الإبداع العالمى، واهتم اهتمامًا خاصًا بالخيال العلمى، وتُرجمت أعماله إلى معظم اللغات الحية، وتميز «جول ڤيرن» بتنبؤاته العلمية التى تحقق معظمها الآن، فقد قدم فى روايته «من الأرض إلى السماء» تصورًا بسفر الإنسان إلى القمر، وهو ما حدث بالفعل، بعد ذلك بسنوات، بل بطريقة أقرب ما تكون إلى تصوراته.

«جول ڤيرن»، أديب عاش فقيرًا، منكرا، غير معترف به، لكنه اليوم أحد أبرز الحلقات الثرية، فى سلسلة الإبداع الإنسانى قاطبة.

ويسعد «مكتبة الأسرة» أن تقدم هذا العام كتابه الشهير «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» والذى نقله إلى العربية الأديب المترجم حسين محمد القبانى، وراجعه محمود مسعود، وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٨ عن لجنة التأليف والترجمة والنشر.

مكتبة الأسرة



جول ڤيرن

هذه ترجمة لكتاب:

20.000 Leagues Below The Sea

تأليف

Juless Vernn

مقدمة

تُعد هذه الرواية من روائع القصص العلمى، وقد بلغ من إعجاب العالم بها أن إحدى كبريات الشركات السينمائية أخرجتها منذ عامين فى فيلم ملوَّن عُرض فى مختلف الأنحاء. ولا غرابة فى هذا بعد أن جمعت الرواية كل مقومات الأدب القصصى القيِّم. فإلى جانب عناصر التشويق التى حفلت بها، نراها مليئة بالمعلومات العلمية المفيدة لجميع طبقات القراء.

وقد عُرف جول ڤيرن مؤلف الرواية بأنه يتخذ من الأدب القصصى ثوبًا قشيبًا يغلّف به الآراء العلمية المعترف بها تخفيفًا لجفافها، ويشيع فيها من عناصر التشويق ما يجعل قراءتها ثقافة ومتعة.

وعرف هذا الكاتب الروائى كذلك بأنه كان يسبق زمانه بعشرات السنين، شأنه فى ذلك شأن الكاتب المعروف هـ. ج. ويلز. وكان الاثنان يتباريان فى الكتابة عن عالم (الغد) بالنسبة لعالمهما. وقد تخيل جول ڤيرن الكثير من الحقائق القائمة على أسس علمية، وأثبت الزمن صحة تخيلاته. بل يمكن القول بأنه أسهم بهذا الخيال فى تحقيق كثير من المخترعات العلمية التى كانت مجرد حلم فى صدور معاصريه.

إن الرواية أنموذج رائع لهذا الخيال الخصب الناضج. فقد تخيل الكاتب فيها إمكان اختراع غواصة تسير تحت سطح الماء قبل اختراع الغواصة بنحو أربعين

عامًا. وأعجب من هذا أن الغواصة التى رسمها بخياله لا تكاد تفترق كثيرًا، شكلاً وتصميمًا عن الغواصات التى تم اختراعها بعد ذلك.

وبعد أن اخترع بخياله غواصته الفريدة (نوتيليوس)، استطاع ببراعته الأدبية أن يصور لنا شخصية قائدها وصانعها (الربان نيمو) تصويرًا دقيقًا نابضًا بالحياة. إن الربان يرمز للإنسان المثقف العالم الذى لم يجد من أبناء عالمه فوق اليابسة غير الاضطهاد والجحود والقسوة، فآثر أن يستغل علمه وماله فى استحداث غواصة مزودة بكل أسباب الحياة تحت سطح الماء. ولا يملك القارئ إلا أن يمضى فى مطالعة القصة مشوقًا مبهورًا، فهو يعيش مع الربان نيمو، ويعطف عليه، ويعجب به، ويقدر ظروفه، ويتمنى لو أتيح له أن يقضى بضعة أشهر فى هذه الغواصة الرائعة، ليرى من خلف نوافذها البلورية هذا العالم العجيب..... عالم البحار الذى يشمل أربعة أخماس الكرة الأرضية.

والحق أن چول ڤيرن يعرض لنا عالم البحار عرضًا باهرًا نابضًا بالحياة، مستندًا إلى أسس علمية صادقة، وإلى أبحاث مُعترف بها سبقه إليها الكثيرون من أساتذة علوم الطبيعة والبحار.

ولا مراء فى أن القارئ ستتملكه عوامل الدهشة والابتهاج وهو يرى بأعين أبطال القصة ألوانًا من عجائب البحار فى كل محيطات العالم.... سيشهد فى كل بحر ومحيط أنواعًا وصنوفًا من الأسماك والوحوش البحرية والمحار والأصداف والقواقع وأعراق اللؤلؤ والإسفنج والثدييات البحرية واللافقّاريات وسيشهد أنواعًا لا حصر لها من النباتات ذات الألوان الزاهية، ومن الشُّعب المرجانية والمتحجرات النباتية والعناصر المعدنية التى تزود الغواصة بكل حاجتها من الوقود.

وقد يحتار الإنسان فيما يختص بالتنويه من أحداث هذه القصة الممتعة. هل يصور جولات الغواصة فى مختلف بحار العالم، أو جنوحها فى مضايق توريز واستهداف رجالها لهجوم آكلى لحوم البشر؟ هل يصف المقابر المرجانية تحت الماء، أو النفق المائى تحت برزخ السويس، أو غابة كريسبو فى قاع المحيط،

أو خليج فيمو الزاخر بكنوز الذهب؟ هل يسهب فى تصوير الأخطبوطات الهائلة، أو صيد اللؤلؤ فى مياه جزيرة سيلان، أو مشاهد قارة الأطلنتس الغارقة، أو شاطئها الجليدى الرهيب فى القطب الجنوبى، أو المعركة الدموية الأخيرة بين الغواصة والمدرعة المجهولة الجنسية؟

كلها فى الحق فصول رائعة تنبض بالحياة، وتقوم على أسس علمية صحيحة، وتبدو كأنها من صميم الواقع الذى لا أثر فيه لخيال .

محمود مسعود

الفصل الأول

الصخور العائمة

فى عام ١٨٦٦ أثارت ظاهرة طبيعية غريبة غامضة الاهتمام بين سكان الدول البحرية فى أوروبا وأمريكا. ولم تكن هذه الآثار مقصورة على التجار والملاحين وربابنة وأصحاب السفن والضباط البحريين فى جميع تلك الدول فحسب، بل اشتد الاهتمام بالأمر فى عدد كبير من الحكومات فى القارتين.

وكان مثار هذا الاهتمام الشديد «شىء هائل» تكرر التقاء السفن به. كان شيئًا طويلاً مغزلى الشكل، مشعًا فى بعض الأحيان، وكان أكثر ضخامة وأسرع من الحوت.

وقد اتفقت التقارير المنوعة التى كتبت عن ذلك «الشىء» فى مختلف سجلات السفن بصفة عامة على وصف كيانه، وسرعته العجيبة، وحيويته الغريبة التى بدا أنه متميز. فإذا كان وحشًا بحريًا هائلاً فقد تجاوز فى ضخامته كل نوع سجلته الأسانيد حتى ذلك الحين. وقد رفض علماء مثل: كاثبير ولاسبيد دى موريل ودى كاترفاج الاعتراف بوجود مثل هذا الوحش ما لم يروه بعين العلم.

وإذا نحن أخذنا بمتوسط المشاهدات التى تمت فى أوقات مختلفة، بعد استبعاد التقديرات المتواضعة التى قدرت طول ذلك الشىء بمائتى قدم، والمزاعم المبالغ فيها القائلة بأن عرضه ميل وطوله ثلاثة أميال. كان لنا أن نؤكد فى غير مبالغة أنه يتجاوز فى ضخامة جرمه كل ما يعرفه علماء الأحياء البحرية المعاصرون، بفرض وجوده فعلاً، لكن وجوده لم يكن محل إنكار. فلا عجب،

والإنسان بطبعه ميال إلى العجائب والغرائب، إذا كانت موجة الاهتمام التى بعثها ذلك الشىء قد عمت جميع أنحاء العالم.

وفى العشرين من شهر يولية عام ١٨٦٦، التقت السفينة البخارية «جافرنر هيجنسون» التابعة لشركة كلكتا وبرناك للملاحة البخارية، بهذه الكتلة الضخمة المتحركة على بعد خمسة أميال من شاطئ استراليا الشرقى. وقد ظن ربانها الكابتن بيكر فى بادئ الأمر أنه أمام سلسلة من الصخور المائية غير المعروفة، وبينما هو يستعد لتحديد مكانها، إذا بعمودين من الماء ينبثقان من ذلك الشىء الغامض، ويرتفعان فى الهواء بصوت كالفحيح مسافة مائة وخمسين قدمًا. وإذا لم يكن فى تلك الصخور فوارة ماء متقطعة الانطلاق، فقد تحتم على السفينة جافرنر هيجنسون أن تواجه وحشًا بحريًا هائلاً- لم يعرف حتى ذلك الحين - يرسل من منخاريه عمودين من الماء الممتزج بالبخار والهواء.

ووقع حادث مماثل فى الثالث والعشرين من شهر يوليو فى العام نفسه للسفينة كولمبوس التابعة لشركة «وست أنديا أندباسيفيك» للملاحة البخارية، فى المحيط الهادى، وإذًا فقد وضح أن هذا الوحش البحرى العجيب يستطيع الانتقال من مكان إلى آخر بسرعة مذهلة، إذ لم يمض إلا ثلاثة أيام بين المناسبتين، والمسافة الفاصلة بين مكانيهما تربى على سبعمائة فرسخ[1] بحرى.

وحدث بعد خمسة عشر يومًا، وعلى مسافة ألفى فرسخ من الموضع الذى شوهد فيه ذلك الشىء لآخر مرة أن كانت السفينتان «هيلين» التابعة لشركة ناسيونال، و«شامون» التابعة لشركة الخطوط البريدية البحرية الملكية مبحرتين فى اتجاه الريح فى ذلك الجانب من المحيط الأطلنطى بين أوربا والولايات المتحدة الأمريكية. وعندئذ تبادلت كلتاهما إشارة بأنها رأت الوحش فى مكان يقع بين خط العرض ١٥ : ٤٢ درجة شمالاً، وخط ٣٥: ٦٠ درجة غربًا ولما كانت كل من السفينتين أصغر حجمًا من ذلك الشىء، رغم أن طول كل منهما لا يقل عن ثلاثمائة قدم، فقد قدر أدنى طول للوحش البحرى بما يزيد على ثلاثمائة

---

(١) الفرسخ ثلاثة أميال..

وخمسين قدمًا. والمعروف أن أضخم الحيتان لا يزيد طوله عن مائة وثمانين قدمًا إن وجد حوت بمثل هذا الطول.

هذه المشاهدات توالت الواحدة بعد الأخرى، ثم أضيفت إليها مشاهدات أخرى من سطح عابرة المحيط «لابيرير». كما شاهد ذلك الوحش البحرى الغامض بحارة السفينة «أطنا» التابعة لشركة «أنمان»، وكذلك قدم ضباط السفينة «لا نورماندى» تقريرًا خطيرًا. وأخطر منه ما قدمه ضباط وربان السفينة «لورد كلايد» وقد تركت هذه التقارير أثرها العميق فى محيط الرأى العام. وشاعت الفكاهة والنوادر عن الوحش البحرى «فى الدول المعروفة بالخفة والمرح» أما فى الدول الرصينة العملية كإنجلترا وأمريكا وألمانيا، فقد استأثر هذا الموضوع بأشد الاهتمام.

وأصبح الوحش هو «المودة» الشائعة فى الأوساط الكبيرة. فهو فى المقاهى والمشارب موضع الغناء وفى الصحف مثار السخرية، وفى المسارح محور التمثيليات، لقد أتاح الفرصة لكل أنواع التندر والمضحكات، وأخذت الصحف تعيد ما سبق نشره عن المخلوقات الخيالية ابتداءً من الحوت الأبيض، والوحش الرهيب «موبى ديك» الذى يعيش فى المناطق الشمالية، إلى الأخطبوط الهائل الذى يمكن أن تلتف أذرعته حول سفينة حمولتها خمسمائة طن، وتهوى بها إلى قاع المحيط. كما أعيد نشر الآراء التى كانت معروفة فى الأزمان القديمة، كآراء أرسطو وأفلاطون اللذين اعترفا بوجود مثل هذه المخلوقات العجيبة، وأقاصيص النرويجيين عن الأسقف «بنتوبيدان» وأقاصيص بول هيجيد ثم تقرير المستر هارنجتون الذى لم يستطع أحد أن يشك فى صدق روايته عندما أكد أنه رأى فى عام ١٨٥٧ ـ وهو على ظهر السفينة «كاستيليون» ثعبانًا بحريًا هائلاً.

ولم تلبث ألوان الجدل والمناقشات الأفلاطونية أن حمى وطيسها فى الأوساط والصحف العلمية بين المصدقين والمكذبين. وألهب «موضوع الوحش» الأفكار فى كل مكان، فراح الصحفيون الذين ينعتون أنفسهم بأنهم من ذوى النزعة العلمية يبارون زملاءهم من أصحاب الفكاهة فى كتابة المقالات العديدة فى صدد تلك المساجلات. ولم يخل هذا الجدل العنيف من اشتباكات نزفت بسببها دماء يسيرة

بعد أن شردوا عن موضوع «الوحش البحرى» إلى دائرة الخلافات الشخصية العنيفة.

وبدا فى الشهور الأولى من عام ١٨٦٧ أن هذا الموضوع قد توارى عن الأنظار والعقول، ثم إذا ببعض الحقائق العديدة تعيده إلى بساط البحث مرة أخرى. وقد تحول عندئذ من مشكلة علمية ينبغى حلها إلى خطر حقيقى جدى ينبغى اجتنابه. وفى هذه المدة أصبح للموضوع طابع آخر. فقد استحال إلى جزيرة أو صخرة هائلة ذلك عندما اصطدمت السفينة «مارفيان» التابعة لشركة مونتريال البحرية فى الخامس من شهر مارس عام ١٨٦٧ فى جانبها الأيمن بصخرة ليست مسجلة على الخرائط البحرية فى ذلك الموضع، وكانت تمخر العباب بسرعة ثلاث عشرة عقدة مستعينة بالرياح وبمحركات قوتها ٤٠٠ حصان. ولولا متانة هيكل السفينة لتحطمت بتأثير الصدمة، ولغرقت بركاب تعدادهم ٢٣٧.

وقع ذلك الحادث عند شروق الشمس.. وقد أسرع ضباط المراقبة إلى مؤخرة السفينة، وأطلوا إلى البحر فى اهتمام بالغ. ولكنهم لم يروا أكثر من دوامة عنيفة على بعد مائة متر تقريبًا، وكأنما عصف بالأمواج مؤثر شديد. وبعد أن حُدِّد الموقع بدقة، سارت السفينة فى طريقها دون أن ينالها عطب ظاهرى، ولكن بقى سؤال لم يهتد أحد إلى جوابه: هل اصطدمت بصخرة تحت سطح الماء أم بحطام سفينة ضخمة؟ ولما فُحص قاع السفينة أثناء إصلاحها أسفر عن وجود كسر فى قاعدتها.

وكان من الممكن أن ننسى هذه الحقيقة رغم خطورتها الشديدة مثل كثير غيرها لولا أن الحادث تكرر مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع، وفى ظروف مماثلة مع فارق واحد هو أن جنسية السفينة التى وقعت ضحية الصدمة هذه المرة وشهرة الشركة التى تمتلكها أثارا أشد التعليقات فى أعقاب الحادث.

ففى اليوم الثالث عشر من شهر أبريل عام ١٨٦٧ كانت السفينة سكوتيا التابعة لشركة كونراد تمضى فى طريقها بسرعة ثلاث عشرة عقدة فى الساعة مدفوعة بمحركات قوتها ألف حصان، فى بحر هادئ وريح رخاء.

وبينما كان الركاب مجتمعين بقاعة الطعام الكبرى فى الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة بعد الظهر، أحسوا جميعًا بصدمة خفيفة فى جانب السفينة الأيمن، فى القسم المجاور للرفاص.

إن السفينة لم تصدم شيئًا، ولكن صدمها شىء حاد نافذ أو هو بالأحرى ليس بسطح مستعرض. وكانت الصدمة خفيفة بحيث لم يقلق بسببها أحد لولا أن البحَّار المراقب اندفع إلى ظهر السفينة هاتفًا السفينة تغرق..... السفينة تغرق........»

وأسرع الربان أندرسون فهبط إلى عنبر السفينة حيث رأى ثغرة فى قسمها الخامس ومياه البحر تتدفق، ومن حسن الحظ أن ذلك القسم لم تكن به غلايات وإلا لانطفأت النار فورًا. وسرعان ما أصدر الربان أمره بوقف المحركات، وغاص أحد الملاحين لتقدير مدى العطب. وبعد بضع دقائق كان القوم قد تحققوا أنه حدثت فى قاع السفينة فجوة كبيرة يبلغ محيطها نحو مترين، ولم يكن من الميسور سد هذه الفجوة، فاضطرت السفينة إلى متابعة رحلتها ورفاصها نصف غارق فى الماء.

وكانت عندئذ على مسافة ثلاثمائة ميل من رأس كلير، وبعد تأخير ثلاثة أيام وصلت إلى أرصفة الشركة فى ليفربول بعد أن أثار هذا التأخير قلقًا شديدًا عليها.

وشرع المهندسون عندئذٍ فى فحصها بعد وضعها فى الحوض الجاف فكادوا ألا يصدقوا أعينهم حين رأوا فجوة ذات شكل مثلث متساوى الضلعين تحت علامة الماء بقدر ياردتين ونصف ياردة. وكانت القطعة التى انتزعت من الألواح الحديدية محددة الجوانب بحيث لا يمكن أن يكون السبب فى انتزاعها مجرد صدمة عشواء. وكذلك تبين أن الأدلة التى سببت الفجوة ذات طابع غير عادى. ذلك أنها بعد أن نفذت بقوة هائلة فى ألواح من الحديد سمكها ثلاثة أثمان البوصة، عادت وارتدت بطريقة عجيبة.

تلك هى الحقيقة الأخيرة التى بعثت الموضوع مرة أخرى أمام الرأى العام. ومنذ ذلك الحين «والوحش البحرى» هو المسئول عن جميع الكوارث البحرية التى لا يعرف لها تفسير معقول.

وعلى عاتق هذا «الوحش الخيالى» ألقت شركة لويد البحرية التبعة فى كافة حوادث غرق السفن. وقد نتج عن هذا أن ازدادت المواصلات البحرية صعوبة بين القارتين. وأخذ الرأى العام يشتد فى المطالبة بتطهير البحار من هذا «الوحش البحرى الهائل» بأى ثمن.

الفصل الثانى

«ماله...و..... ما عليه.....»

فى الفترة التى وقعت فيها هذه الأحداث، كنت عائدًا من بعثة علمية فى إقليم نبراسكا. وكانت الحكومة الفرنسية قد ألحقتنى بهذه البعثة بصفتى أستاذًا مساعدًا بمتحف التاريخ الطبيعى بباريس. ووصلت إلى نيويورك فى نهاية شهر مارس محملاً بمجموعات ثمينة ظفرت بها خلال الشهور الستة التى أمضيتها فى نبراسكا. وكان موعد رحيلى إلى فرنسا قد حُدِّد فى أوائل مايو. وبينما كنت أشغل نفسى أثناء فترة الانتظار بتصنيف وترتيب كنوزى المعدنية والنباتية والحيوانية، وقع حادث السفينة سكوتيا.

وكنت على علم تام بالموضوع الذى يشغل أذهان الرأى العام وقتذاك. وهو أمر طبيعى، وقد قرأت الكثير من الصحف الأمريكية والأوربية مرارًا دون أن أفوز بطائل. لقد حيرنى هذا اللغز، ومن ثم ترددت فى الوصول إلى نتيجة ما.

كان الموضوع يشغل الأذهان عند وصولى إلى نيويورك. وكانت نظرية الجزيرة أو الصخور العائمة التى أيّدها بعض الناس دون تفكير منطقى قد لقيت إعراضًا تامًا. لأنه إذا لم يكن فى باطن هذه الصخور آلة متحركة، فكيف تغير مكانها بمثل هذه السرعة المذهلة؟ ولهذا الاعتبار أيضًا لم يؤخذ بنظرية هيكل سفينة عائم أو حطام ضخم غارق.

و إذن، فلم يبق إلا تفسيران محتملان لهذا اللغز. كان لكل منهما أنصاره. التفسير الأول أن هذا «الشىء» وحش بحرى هائل، والثانى أنه غواصة ذات قوة

محركة ضخمة. وهذه النظرية الثانية لم تستطع الصمود - رغم احتمالها - أمام التحريات الدقيقة التى أجريت فى القارتين. فإن امتلاك فرد من الناس لمثل هذه الآلة لم يكن من الأمور الممكنة. وإلا فأين ومتى تم صنعها؟ وكيف استطاع أن يحتفظ بسر تركيبها؟ أما الحكومة فتستطيع حقًا أن تمتلك مثل هذه الآلة المدمرة. كما كان يمكن فى ذلك الوقت العصيب الذى تضاعفت فيه قوة الأسلحة الحربية أن تمتلك إحدى الدول هذا السلاح الرهيب دون علم الدول الأخرى. فبعد قنابل المدافع جاءت الطوربيدات، وبعد هذه جاءت قذائف الغواصات، وبعدها الأسلحة المضادة لها........ أو هذا على الأقل ما أرجو.

ولكن نظرية «السلاح الحربى» لم تلبث أن تهاوت أمام تصريحات مختلف الدول التى نفت امتلاكها لمثل هذا السلاح، ولما كانت مصالح الناس قد تأثرت إلى حد كبير بسبب صعوبة المواصلات بين القارات، فإن أحدًا لم يشك فى صدق هذه التصريحات الرسمية. وفضلاً عن ذلك فإن الاحتفاظ بالسرية أشد تعذرًا على الحكومات منه بسر سلاح على الأفراد. ومن ثم فإن نظرية «الغواصة» قد استبعدت نهائيًا بعد التحريات التى أجريت فى إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وأمريكا، وحتى تركيا.

وقد شرفنى الكثيرون باستطلاع رأيى فى هذا الموضوع عقب وصولى إلى نيويورك. ونشرت صحيفة النيويورك هيرالد أنها (سألت العالم المحترم «بيير أروناكس». الأستاذ بمتحف التاريخ الطبيعى بباريس عن رأيه فى هذا الموضوع..) وفيما يلى بعض فقرات من المقالة التى نشرتها فى اليوم الثلاثين من شهر إبريل:

«فى استطاعتى أن أقرر بعد استعراض مختلف الآراء والنظريات واحدة واحدة، وبعد الإلمام بجميع الاحتمالات التى استبعدت، أن احتمال وجود وحش بحرى هائل القوة، أمر لابد من التسليم به.

إن أبعد أعماق المحيطات لا تزال خافية علينا.. فماذا يحدث فى تلك الأعماق؟ أى مخلوقات يمكن أن تعيش فى أعماق تبعد اثنى عشر أو خمسة عشر ميلاً تحت سطح الماء؟ إننا لا نكاد نستطيع أن ندرك التكوين الذى تتألف منه

تلك المخلوقات. وأيًا كان الأمر فإن تفسير هذه المشكلة المعروضة علىّ قد يتصل بكيان هذه الظاهرة الرهيبة. فنحن إما أن نكون على علم بجميع المخلوقات المختلفة التى تعمر كوكبنا، أو أننا نجهل أمرها. فإذا لم نكن نعرفها جميعًا، وإذا كان الكثير من الأحياء المائية لا يزال سرًا غامضًا بالنسبة لنا، فالمعقول أن نسلم بوجود أسماك أو وحوش بحرية تهيئها طبيعتها للحياة فى الأعماق التى نعجز عن الوصول إليها، وإنها تصعد لسبب ما إلى سطح البحر بين حين وآخر.

أما إذا كان الأمر بالعكس، أى أننا نعرف كل أنواع المخلوقات الحية، فينبغى بطبيعة الحال أن نبحث عن الوحش الذى يشغلنا هكذا بين الحيوانات البحرية المصنفة، وفى هذه الحالة، أميل إلى الاعتقاد بوجود كركدن بحرى هائل «حوت بقرن كبير» إن «الكركدن» البحرى العادى يبلغ طوله غالبًا ستين قدمًا. فإذا نحن ضاعفنا هذا الطول خمس أو عشر مرات، وجعلنا له من القوة ما يتناسب مع هذه الضخامة، وتصورت أن زعانفه الضارية تتضاعف بنفس النسبة لوجدنا الوحش المنشود. إن حيوانًا كهذا سيطابق الحجم الذى حدثنا به ضباط السفينة «شانون» وسنجده مزودًا بالأداة التى اخترقت السفينة سكوتيا، وبالقوة اللازمة لشق هيكل باخرة، والواقع أن (الكركدن) البحرى مسلح بما يشبه السيف العاجى أو الحربة كما يسميها بعض أساتذة العلوم الطبيعية وهى الناب الرئيسى فى فمه، ولها صلابة الفولاذ. وقد وُجدت بعض هذه الأنياب مطمورة داخل أجسام الحيتان التى ينجح (الكركدن) دائمًا فى القضاء عليها، ومنها ما كان ينتزع بصعوبة من قيعان السفن التى تعرضت لهجوم هذه الوحوش. وفى متحف كلية الطب بباريس ناب من هذا النوع طوله نحو مترين، ومحيطه عند القاعدة خمس عشرة بوصة.

ولنفرض الآن أن هذا السلاح أقوى عشر مرات، وقد زود به مخلوق أقوى من الكركدن العادى بهذا القدر أيضًا، وأنه اندفع بسرعة عشرين ميلاً فى الساعة. وهنا تقع إذًا صدمة قد تؤدى إلى الكارثة المتوقعة. ولهذا فإنى سأفترض ـ حتى أظفر بمعلومات أوفى ـ أن ذلك الوحش المجهول هو كركدن هائل الجسم ـ مسلح لا بأنياب أو حربة، ولكن بحراشيف تكسوه كالدرع الحديدية لها فى نفس الوقت

قوة محركة ذاتية. وعلى هذه الصورة يمكن تفسير هذه الظاهرة المحيرة اللهم إلا إذا وجد شيء يفوق كل ما سمع الناس به أو شاهدوه أو تصوره خيال متخيل أو صادفه إنسان، وهو فى نطاق المحتملات».

لقد تركت مقالتى أثرًا طيبًا فى النفوس وأثارت شتى المجادلات بين الناس، وظفرت بفريق من المؤيدين، فقد أتاح التفسير الذى قدمته حرية التحليق فى أجواء الخيال، ذلك أن العقل البشرى يحب هذه الأخيلة الرائعة عن وجود مخلوقات خارقة للطبيعة. والواقع أن مياه البحار هى خير مجال لهذه التصورات، وهى البيئة التى يمكن أن تعيش وتنمو فيها أحياء تعتبر الوحوش البرية كالفيلة والخراتيت أقزامًا بالقياس لها. إن هذه المساحات المائية الشاسعة تضم بين جوانبها أضخم الحيوانات الثديية المعروفة، ولعلها تشتمل أيضًا على حيوانات غير فقّارية ذات أحجام هائلة وعلى كائنات بحرية يروع تصورها، مثل (الكابوريا) التى قد تزن مائتى طن أو الجمبرى الذى يجاوز طوله مائة ياردة. وكيف لا يحتمل شيء كهذا؟ ألم توجد من قبل حيوانات برية معاصرة للأجيال البيولوجية كالزواحف والطيور وحيواناتٌ رباعية الأيدى والأرجل، خلقت جميعًا فى أحجام هائلة؟ لقد خلقها الله فى تلك الأحجام الهائلة ثم لم تلبث أن أخذت تصغر على مر العصور. فلماذا لا يكون فى أعماق البحار المجهولة أنواع من الأحياء الجبارة بقيت على أحجامها الأصلية؟ إن البحار لا تتعرض للتغيرات كما تتعرض اليابسة، فلماذا لا تخفى فى أعماقها الأنواع الأخيرة من هذه المخلوقات الهائلة التى تعتبر السنوات من أعمارها قرونًا، والقرون آلافًا من السنين؟

ولكنى تركت نفسى تستسلم لأحلام لم تعد كذلك فى نظرى. فلأدع الأحلام والأوهام بعد أن أحالها الزمن إلى حقائق مروعة. وأعود فأقول إن الرأى قد استقر على طبيعة هذه الظاهرة، وأن الناس قد سلموا دون جدال بوجود حيوان بحرى هائل لا يمت بصلة إلى الأفاعى البحرية الأسطورية.

ولكن إذا كان بعض الناس قد رأوا فى هذا الأمر مجرد مشكلة علمية تتطلب الحل فإن آخرين ممن كانوا أكثر واقعية - لا سيما فى أمريكا وإنجلترا - قد فكروا فى تطهير المحيط من هذا الوحش الهائل تأمينًا للمواصلات البحرية.

وبعد أن أصدر الرأى العام قراره على هذه الصورة، كانت الولايات المتحدة أول من نزل إلى ميدان العمل، فاتخذت الترتيبات فى نيويورك لإعداد بعثة عاجلة تتولى مطاردة هذا «الكركدن» البحرى ووضع تحت إمرة البعثة فرقاطة ذات سرعة كبيرة تسمى «إبراهام لنكولن» عهد بقيادتها إلى الريان فارجوت الذى بادر إلى تزويدها بالمهمات والأسلحة.

ولكن حدث ما يحدث عادة فى مثل هذا المقام، فمنذ أن تقرر مطاردة الوحش، مضى شهران لم يسمع فى خلالهما شىء عنه، وكأنى به قد فطن إلى المؤامرة التى تحاك للإيقاع به. فقد كثر الحديث عنه حتى عبر أسلاك المحيط التى تربط بين القارتين وزعم بعض الظرفاء أن صاحبنا الماكر قد صادر إحدى البرقيات أثناء إرسالها، وإنه الآن يستغل هذه المعلومات لصالحه.

وهكذا لم يعرف المسئولون من أين تبدأ المطاردة بعد إعداد الفرقاطة لمعركة طويلة الأمد وبعد تزويدها بأقوى معدات الصيد، وأدى التأخير إلى زيادة الضيق ولنفاد الصبر حتى حل اليوم الثانى من شهر يولية، إذ ورد تقرير يقول: إن إحدى السفن التجارية التابعة لشركة سان فرانسسكو، والعاملة على الخط الملاحى بين كاليفورنيا وشنغهاى، قد التقت بالوحش منذ ثلاثة أسابيع فى شمال المحيط الهادى.

وكان لهـذ ا النبأ تأثير بالغ، فلم يمنح الريان فارجوت أكثر من مهلة أربع وعشرين ساعة للرحيل. وكانت الفرقاطة معدة تمامًا بالمؤن والوقود، وكان ملاحوها على أتم أهبة، ولم يبق لها إلا إيقاد النار فى الأفران.

وقبل إبحار إبراهام لنكولن من ميناء بروكلين بثلاث ساعات تلقيت الرسالة التالية:

«سيدى. إذا كنت تود الانضمام إلى بعثة الفرقاطة إبراهام لنكولن، فإن حكومة الولايات المتحدة يسرها كل السرور أن ترى فرنسا ممثلة بشخصك فى هذه البعثة، وسيفرد لك الريان فارجوت مقصورة خاصة».

المخلص

ج. ب. هوبسون. وزير البحرية

الفصل الثالث

«كما يشاء سيدى»

لم يكن يدور بخلدى قط قبل وصوله رسالة المستر ج. ب هوبسون بثلاث ثوان أنى سأقوم بمطاردة ذلك الكركدن البحرى، وبعد ثلاث ثوان من قراءة الرسالة، استقر رأيى على أن يكون شغلى الشاغل وهدفى الرئيسى فى الحياة هو السعى إلى تخليص العالم من هذا الوحش.

ولكنى كنت حديث العهد بالعودة من رحلة مضنية، وكنت متلهفاً للراحة فى «جنة نباتاتى» بين مجموعاتى العزيزة النادرة بيد أنى لم ألبث أن نسيت التعب، والرغبة فى الراحة، والمجموعات العزيزة، وقبلت العرض الذى قدمته إلىَّ الحكومة الأمريكية دون مزيد من التفكير.

وقد قلت لنفسى: «وفوق هذا فإن جميع الطرق البحرية تؤدى إلى أوربا» وقد يكون الكركدن ظريفًا معى فيستدرجنى إلى الشواطئ الفرنسية ومن المحتمل أن يسمح لنا بصيده قريبًا من البحار الأوربية إكرامًا لى. وعندئذٍ لن أقبل أقل من نصف ياردة من نابه العاجى لمتحف التاريخ الطبيعى بباريس...».

ولكن الكركدن كان فى الوقت الراهن موجودًا فى شمال المحيط الهادى، وهى منطقة أبعد ما تكون عن طريق العودة إلى فرنسا.

ولم ألبث أن ناديت خادمى فى شىء من نفاد الصبر:

- كونسايل.. كونسايل!.

وكان كونساي الهولندى شابًا وفيًا، شجاعًا صحبنى فى كافة رحلاتى حتى غدوت شديد الثقة به.. وكان بطبيعته قوى الأعصاب، محبًا للنظام كمبدأ، متفانيًا فى أداء واجبه بحكم العادة، لا ينم وجهه إلا عن أقل الدهشة أمام مختلف مفاجآت الحياة، بارعًا فى القيام بأعماله، سبّاقًا إلى إنجاز ما يناط به، ولكنه رغم اسمه الذى يفيد معنى النصح، كان ضنينًا بنصحه على كل إنسان.

وقد نجح كونساي فى الإلمام ببعض المعارف بحكم اتصاله بمحيط العلماء فى «جنة النباتات» فهو أخصائى قدير فى تصنيف مواد التاريخ الطبيعى، ولكن علمه كان يقف عند هذا الحد.. فلست أظن أنه كان يعرف الفرق بين الحوت والقرش.... ورغم هذا فإنه كان شابًا باسلاً.

لقد تبعنى كونساي خلال الأعوام العشرة الأخيرة إلى حيثما كان يدعونى داعى العلم، ولم يحدث أن شكا من طول الرحلة أو مشقاتها، أو من إعداده لحقائب السفر سواء إلى الريف أو إلى أقصى مكان كالصين أو الكونغو. كان يمضى معى إلى كل مكان دون سؤال. وكانت صحته بمنعة من كافة الأمراض، وكان قوى العضلات، ولكن قواه المفكرة كانت فى حكم العدم. كان فى الثلاثين من عمره بينما كنت فى الأربعين..

ولم يكن يعيب كونساي إلا نقيصة واحدة هى تمسكه الشديد بالرسميات ولا أذكر أنه حدثنى مرة إلا بضمير الغائب مما كان يثير أعصابى أحيانًا.

وعدت أناديه وأنا أبدأ استعداداتى للرحيل بانفعال متزايد:

ـ كونساي!...

وكنت فى الواقع شديد الاطمئنان إلى هذا التابع الوفى فقد درجت على ألا أسأل إذا كانت ظروفه تسمح بمصاحبته لى فى أسفارى. ولكن الرحلة هذه المرة قد تكون طويلة محفوفة بالمخاطر وهى تقوم على مطاردة وحش قادر على إغراق سفينة وكأنها قشرة بندقة. ومثل هذه الرحلة تحتاج إلى تفكير حتى من أشد الناس استخفافًا. ترى ماذا يكون رأى كونساي إذًا؟

وللمرة الثالثة ناديته:

- كونسايل!

فأقبل كونسايل يقول:

- هل ينادينى سيدى؟

- نعم يا بنى.. أعد الحقائب لسفرنا معًا فى خلال ساعتين.

فرد كونسايل بهدوء:

كما يشاء سيدى.

- لن نضيع دقيقة واحدة. جهز كل أدوات الرحلة، ولا تنس أن تجمع من المعاطف والقمصان والجوارب أكبر عدد. أسرع.

- ومجموعات سيدى؟

- سنتدبر أمرها فيما بعد.

- ماذا؟ ألا نأخذ معنا هذه المجموعات النادرة من الحفريات والمتحجرات والنباتات وغيرها؟

- سنبقيها فى الفندق..

- والبابيروزا الحية؟

- ستتولى إدارة الفندق إطعامها فى غيبتنا. وفضلاً عن ذلك سأصدر التعليمات بنقل مجموعات الأحياء إلى فرنسا.

فقال كونسايل:

- إننا لن نعود إلى باريس إذًا؟

فأجبت بلهجة لولبية:

- بل سنعود حتمًا. ولكن بطريق دائرى.

- الطريق الذى سيختاره سيدى.

- أوه. إنه ليس طريقًا مستقيمًا حقًا. سنبحر فى السفينة إبراهام لنكولن.

ـ كما يروق لسيدى..

ـ أنت تعرف مسألة الوحش يا كونسايل. الكركدن المشهور. إننا سنخلص البحار منه. إنها مهمة جليلة ولكنها ـ محفوفة بالخطر أيضًا. فنحن لا نعرف إلى أين نذهب. إن هذه الحيوانات شديدة المراوغة. ولكننا ذاهبون على كل حال. ومعنا ريان يقظ مفتوح العينين.

فقال كونسايل:

ـ كما يفعل سيدى سأفعل.

ـ ولكن عليك أن تفكر. فإنى لن أخفى عنك شيئًا. رحلة من نوع لا يعود الناس منه دائمًا.

ـ كما يشاء سيدى.

وبعد ربع ساعة كانت حقائبنا معدة. لقد حزمها كونسايل بيد بارعة مدربة، وكنت واثقًا أنه لم ينس شيئًا؛ لأنه كان يصنف القمصان والملابس كما يصنف الطيور والثدييات.

وهبط بنا مصعد الفندق إلى البهو الكبير فى الطابق الأول، ثم نزلت بضع الدرجات المؤدية إلى الطابق الأرضى حيث سويت حسابى فى مكتب الصراف المزدحم دائمًا، وطلبت أن تنقل إلى باريس خزائنى المشتملة على الحيوانات المحنطة، والنباتات المجففة، وبعد أن فتحت حسابًا جاريًا لنفقات إطعام البابيروزا قصدت إلى المركبة يتبعنى كونسايل.

ونقل متاعنا فورًا إلى السفينة ونحن فى أثره وسألنا عن الريان فارجوت، فقادنى أحد البحَّارة إلى مؤخرة السفينة حيث وجدتنى أمام ضابط لطيف بسيط يده إلىَّ مصافحًا وهو يقول:

ـ السيد بيير أروناكس؟

ـ نعم. وهل أنت الريان فارجوت؟

ـ نعم مرحبًا بك يا أستاذ. إن مقصورتك معدة لاستقبالك.

فـأحنيت رأسى له ثم تركتـه لمبـاشـرة واجبـاته، وهبطت إلى المقـصـورة التى أُعدت لى.

لقـد أحسن اختيار الفـرقاطة إبراهام لنكولن وأُعدت لمهمتها الجديدة إعدادًا طيبًا. كانت سفينة حربية كبيرة السرعة مزودة بأجهزة حرارية عالية تسمح للبخار المضغوط بالعمل مدى سبع درجات، وبهذه القوة يمكنها الانطلاق بسرعة ثمانية عشر ميلاً وثلاثة أعشار الميل فى الساعة. ولكنها، مع هذا كله، لم تكن كفئًا لمطاردة الوحش الهائل.

وكانت الاستعدادات الداخلية فى السفينة تضاهى أهميتها البحرية. وقد سرتنى المقصورة المعدة لى، إذ كانت فى القسم الخلفى حيث تقع غرفة الحراسة.

وقلت لكونسايل:

ـ سوف تشعر بالراحة هنا.

ـ نعم سنشعر فيها بنفس الراحة التى يشعر بها القوقع الناسك داخل صدفته!

وتركت كونسايل يفرغ حقائب السفر، وصعدت إلى سطح السفينة لأرى الاستعدادات الدائرة للرحيل، وكان الربان فارجوت يصدر أوامره فى تلك اللحظة برفع مراسيها. إذن فلو أننى تأخرت ربع ساعة لأبحرت السفينة بدونى، ولأفلتت منى هذه الرحلة العجيبة الخارقة التى ليس لها مثيل والتى قد يستقبل الرأى العام أنباءها متشككًا.

ولكن الربان فارجوت لم يكن راغبًا فى أن يضيع يوم أو ساعة قبل أن يجوب البحار التى شوهد فيها الوحش آخر مرة. فقد استدعى المهندس وقال له:

ـ هل بلغ البخار أقصى درجة؟

ـ نعم يا سيدى.

فهتف قائلاً:

ـ لتتحرك السفينة إذًا.

وسرعان ما بدأت السفينة تتهادى بين مئات الزوارق والمراكب المكتظة بالمتفرجين، ثم مرت فى مسيرها برصيف بروكلين حيث احتشدت عليه وعلى امتداد ذلك الجانب من نيويورك المطل على نهر إيست، جموع غفيرة من المتفرجين الذين راحوا يلوحون بآلاف المناديل تحية للسفينة حتى بلغت خليج هدسون عند طرف امتداد شبه الجزيرة الذى تتكون منه مدينة نيويورك.

ومضت السفينة بعد ذلك محاذية لشاطئ نيوجرسى وعلى الضفة اليمنى للنهر الجميل حيث تكثر البيوت الخلوية. ومرت فى طريقها بقلعتين حيتها كل منهما بإطلاق مدافعهما الضخمة، فردت إبراهام لنكولن التحية برفع العلم الأمريكى ثلاث مرات. وكانت نجومه التسع والثلاثون تتألق فى بهاء من قمة السارية المرتفعة. وعادت السفينة فخففت من سرعتها أثناء اجتيازها للقناة الضيقة التى تحف بها العوامات، وأخيرًا مضت أمام الشاطئ الرملى الطويل حيث وقف عدة آلاف من المتفرجين يحيونها مرة أخرى.

وظلت الزوارق المتقاطرة خلفها تتبعها حتى بلغت المنارة العائمة التى كان الفرعان الضوئيان المنبعثان منها يحددان مدخل قناة نيويورك.

ودقت الساعة إذ ذاك الثالثة بعد الظهر، وهبط المرشد البحرى من السفينة إلى الزورق الذى كان ينتظره عن كثب. وازدادت نيران السفينة قوة وطفق رفاصها يضرب الأمواج بسرعة متزايدة، وأخذت تسير محاذية لشاطئ جزيرة (لونج إيلاند) الرملى الخفيض. ولما كانت الساعة الثامنة وقد اختفت عن الأنظار أضواء جزيرة «فاير إيلاند» فى الشمال الغربى، اندفعت السفينة بأقصى سرعتها تستقبل مياه المحيط الأطلنطى المظلمة.

الفصل الرابع

قاذف الحربة

كان الربان فارجوت ملاحًا بارعًا جديرًا بالسفينة التى يتولى قيادتها. وكان التجاوب بينه وبينها رائعًا حتى لكأنهما شخص واحد. كان روحها وقلبها النابض. ولم يكن يخامره شك فى وجود الوحش البحرى، ومن ثم لم يكن يسمح لأحد فى السفينة بالمجادلة فى ذلك. كان يؤمن به إيمان البسطاء بأساطير التنين. إيمانًا يرتكز على العقيدة لا النظر. إن الوحش موجود. وهو قد أقسم أن يخلص البحار منه فإما أن يقتل الربان فارجوت هذا الكركدن البحرى أو يقتل الوحش الربان فارجوت... ولا وسط بين الاثنين.

وكان ضباط السفينة يشاطرون رئيسهم رأيه. وكان من الطريف أن نسمع أحاديثهم ومناقشاتهم واختلافهم وتقديرهم لمختلف الفرص التى قد تتاح لهم لملاقاة هذا الوحش، كل هذا وهم يرقبون بعين ساهرة مياه المحيط المنبسطة الشاسعة. وإذا كان أكثر الضباط فى الرحلات العادية يضيقون عادة بمهمة المراقبة، فقد اختلف الحال فى هذه الرحلة، إلى حد أن البحَّارة كانوا يتزاحمون عند غروب الشمس حول الجبال المرفوعة وهم لا يطيقون البقاء على سطح السفينة. ولم تكن السفينة قد أخذت تشق طريقها بعد فى المياه المشتبه فيها فى المحيط الهادى.

والواقع أن البَّحارة، ماكانوا يشتهون شيئًا كملاقاة الكركدن البحرى وصيده بحراب الحيتان وجره إلى السفينة، وتقطيعه إربًا. وكان الربان فارجوت قد رصد

جائزة قدرها ألفا دولار لأول بحّار أو ضابط يشاهد الوحش البحرى. وقد ذكرت فيما سبق أن الريان فارجوت زود السفينة بكل ما تحتاجه من معدات لصيد الوحش البحرى الهائل. ولا أظن أنه كان يمكن أن تجهز سفينة لصيد الحيتان بأحسن مما جهزت به إبراهام لنكولن، فقد كان لدينا كل ما هو معروف من أدوات صيد هذه الوحوش ابتداءً من الحربة اليدوية إلى السهام الشائكة التى تنطلق من بنادق صغيرة إلى القذائف المتفجرة من مدفع السفينة.

وكان فى مقدمة السفينة مدفع ساحلى متين سميك القاعدة ضيق الفوهة. وقد شاهدت نموذجًا منه فى معرض باريس عام ١٨٦٧. وكان فى مقدور هذا السلاح القيِّم - الأمريكى الصنع - أن يطلق بسهولة قذيفة مخروطية الشكل زنتها تسعة أرطال إلى مسافة لا تقل عن عشرة أميال.

وهكذا لم تكن السفينة إبراهام لنكولن مزودة بكل وسائل التدمير فحسب وإنما الأهم من هذا أنه كان بين رجالها نيدلاند الملقب باسم ملك صيادى الحيتان بالحراب اليدوية.

كان نيدلاند - كنديًا موفور البراعة، لا يضارعه أحد فى إتقان مهنته الخطرة. وكان يتمتع بالمقدرة، والثبات والجرأة، مع قسط كبير من الدهاء. وهكذا لم يكن ينجو من حربته إلا حوت ماكر مراوغ، وكان فى نحو الأربعين من عمره يجاوز فى طوله ستة أقدام، قوى البنية ذا رصانة وصمت، به ميل إلى العنف أحيانًا، وإذا استفزه شىء بلغ عنفه أقصاه. وكانت هيئته تسترعى الأنظار، ولا سيما قوة نظره التى كانت تسبغ على وجهه مسحة فريدة.

وفى يقينى أن الريان فارجوت قد أحسن باستخدام هذا الرجل، فهو يساوى كل رجال السفينة إذا قيس بحدة النظر وبراعة اليد. ولست أستطيع مقارنته بشىء أفضل من منظار مكبر قوى يمكن أن يكون فى الوقت نفسه مدفعًا معدًا للانطلاق على الدوام.

إننى أرسم الآن صورة هذا الزميل الباسل كما عرفته فيما بعد. فنحن الآن صديقان قديمان تربط بيننا وشائج قوية من الصداقة التى ولدتها ووطدتها

الأخطار المشتركة.... آه يا صديقى الشجاع. إننى لأرجو أن أعيش مائة عام أخرى لكى تطول ذكرياتى عنك.

والآن ماذا كان رأى نيدلاند بصدد الوحش البحرى؟ لا مفر من الاعتراف بأنه لم يكن يؤمن بوجود ذلك الكركدن البحرى. أى أنه كان وحده دوننا لا يشاطرنا هذا الاعتقاد الشائع.

وذات ليلة بعد إبحارنا بثلاثة أسابيع، كانت السفينة تسير محاذية لرأس «كاب بلان» ، على مسافة ثلاثين ميلاً من شاطئ باتاجونيا ، ولم يبق إلا أسبوع تمخر بعده السفينة عباب المحيط الهادى.

وكنت فى تلك الليلة جالسًا فى مؤخرة السفينة مع نيدلاند نتبادل الحديث فى شتى المسائل ونمد البصر إلى ذلك البحر الغامض الذى بقيت أعماقه حتى الآن بعيدة عن عين الإنسان وكان طبيعيًا أن أعرج بالحديث إلى موضوع الكركدن الجبار، وأن أناقش مختلف فرص النجاح أمام البعثة. ولما رأيت نيدلاند قد تركنى أمضى فى الحديث دون أن يقول هو نفسه شيئًا، شددت الضغط عليه قائلاً:

ـ حسنا يا نيد.. ألم تقتنع بوجود الكركدن البحرى الذى نطارده؟ ألديك أسباب معينة تفسر عدم تسليمك بوجوده؟

فنظرنيدلاند إلىَّ برهة قبل أن يجيب، ثم ضرب جبينه بيده كعادته، ثم أغمض عينيه كأنما يستجمع نفسه وقال أخيرًا:

ـ ربما كانت لدى هذه الأسباب يا مسيو أروناكس.

– ومع ذلك فأنت صيَّاد حيتان محترف. أنت خبير بالحيوانات الثديية البحرية الكبرى، وعلى ذلك يسوغ لك قبول نظرية الكركدنات المائية الهائلة، ويجب أن تكون آخر مَنْ يشك فى مثل هذه الظروف.

فرد نيد قائلاً:

– هذا هو ما يخدعك من أمرى يا سيدى. ليس عجيبًا أن يؤمن عامة الناس بالمذنبات الغريبة أو بوجود الوحوش الأسطورية فى باطن الأرض. ولكنك لن

تجد فلكيًا، أو عالماً فى طبقات الأرض يؤمن بهذه الخرافات. وكذلك شأن صيَّاد الحيتان. إنى طاردت كثيرا من الوحوش البحرية، وأصبت بحربتى عددًا كبيرًا منها، وقتلت طائفة أخرى. ولكن مهما تكن قوتها أو تسلحها الطبيعى، فلا يمكن لذيولها أو معدات دفاعها أن تخترق ألواح السفينة الحديدية.

– ومع ذلك قيل يا نيد إن بعض السفن قد شقها ناب كركدن بحرى ضخم، فأجاب الكندى بقوله:

– لعلها سفن من الخشب. وإن كنت لم أرها حتى الآن. وحتى أجد الدليل على عكس ما أظن، فإنى لا أعترف بقدرة الحيتان أو الوحوش البحرية على إحداث مثل هذا التأثير.

– أنصت إلىَّ يا نيد.

– لا. لا يا سيدى إنى أصدق كل شىء إلا هذا. لعله يكون نوعًا من المحاريات الضخمة.

– كلا. هذا غير ممكن.. فإن المحاريات كائنات بحرية رخوة الجسم.

فقال نيد:

– إذن فأنت تعتقد حقًا يا سيدى بوجود هذا الوحش البحرى؟

– نعم يا نيد إنى أكرر كلامى باقتناع يقوم على أساس من منطق الحقائق فأنا أومن بوجود حيوان من نوع الثدييات البحرية القوية التكوين والمنتمية إلى الفصيلة الفقارية كالحوت والدرفيل وغيرهما، وهو مزود بناب قرنى ذى قوة اختراق فائقة.

فغمغم نيد بكلمة غامضة وهو يهز رأسه كمن يرغب عن كل إقناع.

فاستطردت أقول:

– قدر ياصديقى الفاضل أنه إذا وجد مثل هذا الحيوان وكان يعيش فى أعماق البحار فلابد أن يكون تكوينه ذا قوة تفوق كل شبه ومقارنة.

فقال نيد:

- ولماذا يكون له مثل هذا التكوين؟

- لأنه سيحتاج إلى قوة لاحد لها للبقاء فى الأغوار العميقة ولمقاومة الضغط المائى. فالمعروف أن الضغط الجوى يوازى عمودًا من الماء ارتفاعه اثنان وثلاثون قدمًا، والحقيقة أن عمود الماء لن يكون بمثل هذا الارتفاع؛ لأن مياه البحر أشد كثافة من الماء العذب. فأنت حين تغوص فى الماء يا نيد، يكون فوقك بضعة أعمدة من الماء بعضها فوق بعض، طول كل منها اثنان وثلاثون قدمًا، وهكذا يتحمل جسمك فى الماء ما يوازى الضغط الجوى بضع مرات، وبعبارة أخرى ١٥ رطلاً لكل بوصة مربعة من جسمك. ومن هنا يمكن القول أيضا أن الهبوط إلى عمق ٣٢٠ قدمًا، تحت سطح الماء معناه تحمل ضغط يوازى عشرة ضغوط جوية، وعلى عمق ٣٢٠٠ قدم يكون الضغط موازيًا لمائة ضغط جوى، أى يبلغ ستة أميال ونصف ميل تقريبًا، وهذا بدوره يساوى القول بأنه إذا أمكنك بلوغ مثل هذا العمق فى المحيط، فإن كل بوصة مربعة من جسمك تحتمل ضغطًا مقداره ١٤٩٩٣ $\frac{1}{3}$ رطلاً. فهل تعرف كم عدد البوصات المربعة فى مسطح جسمك:

- ليس لدى فكرة عن هذا.

- نحو ٦٥٠٠ فإذا عرفنا أن الضغط الجوى على البوصة المربعة من الجسم هو ١٥ رطلا، فإن الجسم الإنسانى فى هذه الحالة يتعرض لضغط جوى مقداره نحو ٩٧ ألف رطل.

- لم أكن أفطن إلى هذه الحقيقة؟

- نعم كنت تنسحق تحت مثل هذا الضغط. أما فى الجو فالهواء ينفذ إلى داخل جسدك بضغط يعادل الضغط الخارجى، ومن ثم فهناك توازن تام بين الضغط الخارجى، والضغط الداخلى، وهذا التوازن هو الذى يجعلك تحتمل الضغط دون مضايقة.. ولكن الأمر فى الماء يختلف.

فقال نيد وقد تزايد اهتمامه:

- نعم فهمت. لأننى سأكون فى داخل الماء وليس الماء فى داخلى.

- تمامًا يا نيد فإذا كنت فى عمق ٣٢ قدمًا تحت سطح البحر يكون الضغط الواقع عليك بقدر ٩٧,٥٠٠ رطل، وعلى عمق ٣٢ ألف قدم يصير الضغط ٩٧,٥٠٠,٠٠٠ رطل أى أنك فى هذه الحالة تسحق تمامًا وتصبح كالفطيرة.

فهتف نيد:

- يا الله!

- فإذا كانت الحيوانات البحرية الفقّارية تستطيع البقاء فى تلك الأعماق، لاسيما تلك التى يبلغ مسطح أجسامها ملايين البوصات المربعة، فيجب أن نقدر مدى الضغط الواقع عليها، بمئات من الأرطال ولك أن تقدر إذًا مدى مقاومة تكوينها الجسدى وقوة بنيانها حتى تستطيع احتمال مثل هذا الضغط.

فقال نيد:

- يجب إذًا أن تكون مكسوة بدروع حديدية سمكها ثمانى بوصات!

- نعم. يمكنك إذًا أن تتصور مبلغ الدمار الذى تحدثه مثل هذه الكتلة إذا هى اندفعت بسرعة قطار سريع إلى هيكل إحدى السفن.

ولكن نيد أبى أن يسلم، فعدت أقول:

- ألم أستطع إقناعك؟

- لقد أقنعتنى بشىء واحد يا سيدى، وهو أنه إذا كان فى قاع المحيط حيوانات كهذه فلابد أن تكون بالقوة التى وصفت.

- ولكن إذا لم تكون موجودة أيها العنيد، فكيف تفسر حادث السفينة سكوتيا؟

فقال نيد مترددًا:

- لأنه.. لأنه...

- استمر.

- لأن هذا الحادث.. غير صحيح!

ولم تكشف هذه الإجابة إلا عن عناد صيَّاد حيتان، ولم أحاول فى يومى أن أثقل عليه أكثر من هذا القدر، ولم يكن ثمة شك فيما وقع للسفينة سكوتيا.. فقد كانت الثغرة حقيقة ملموسة بحيث اضطر رجال السفينة للعمل على سدها. ولا أظن أن ثغرة ما فى سفينة عرف أمرها بجلاء كما عُرفت هذه الثغرة، فهى لم توجد من تلقاء نفسها. ومادامت لم تنجم عن صخور أو آلات غاطسة فمن المحقق أنها نتجت من أداة نافذة لحيوان ما.

وأعتقد الآن. وبعد كل الأسباب التى سلف استنتاجها. أن ذلك الوحش ينتمى إلى نوع من الحيوانات البحرية الفقارية وعلى التخصيص من نوع الثدييات المائية الضخمة، أما عن عائلته بين فصائل الحيوانات المذكورة، وهل هو حوت أو درفيل أو كركدن، فتلك مسألة يكون حلها بعد سلسلة من العمليات. فلكى يتسنى هذا الحل لابد من تشريح الوحش المجهول.. ولكى يتم التشريح لابد من اقتناصه. ولكى يتم اقتناصه لابد من صيده بالحرية، وهى مهمة نيدلاند. ولإتمام هذه المهمة لابد من رؤيته، وهى مهمة بحَّارة السفينة، ولكى نراه لابد من ملاقاته، وهى مهمة الصدفة وحدها.

الفصل الخامس

فى تيه المصادفات

ظلت رحلة السفينة إبراهام لنكولن فترة من الوقت خالية من الأحداث، وأخيرًا وقع حادث كشف عن براعة نيدلاند المدهشة ومدى ما يمكن أن نضع فيه من ثقة.

ففى اليوم الثلاثين من شهر يونية، كانت السفينة تمخر قريبًا من شاطئ جزائر فوكلاند حيث صادفنا بعض صيَّادى الحيتان الأمريكيين وسألناهم عن الكركدن البحرى فقالوا إنهم لم يشاهدوه، ولكن واحدًا منهم وهو ربان السفينة مونرو طلب من نيدلاند حين علم بوجوده فى السفينة إبراهام لنكولن أن يعاونه فى صيد حوت شوهد عن كثب، ولما كان الكابتن فارجوت راغبًا فى رؤية نيدلاند وهو يعمل، فقد سمح له بالانتقال إلى سفينة مونرو. و قد حالف الحظ الصياد الكندى بدلاً من أن يصيد بالحربة حوتًا واحدًا، صاد حوتين بضربة مزدوجة أصابت واحدة منهما أحد الحوتين فى قلبه، وصادوا الثانى بعد مطاردة دامت بضع دقائق.

ومن المؤكد أن الوحش البحرى لو قدر له أن يصاول نيدلاند، فلست بالذى يراهن فى صفه.

وفى اليوم السادس عشر من شهر يوليه، حوالى الساعة الثالثة، ضاعفنا السرعة وقطعنا الخمسة عشر ميلاً الباقين نحو الغرب حتى وصلنا إلى تلك الجزيرة

المنعزلة التى أطلق عليها بعض الملاحين الهولنديين اسم رأس هورن، وهى إحدى مدن بلادهم.. وفى اليوم التالى كانت سفينتنا تمخر عباب المحيط الهادى.

وهنا هتف البحَّارة جميعًا:

- راقبوا الماء بكل دقة.

ولم تنقطع العيون، والمناظر المكبرة عن المراقبة لحظة واحدة كلما فكر أصحابها فى جائزة الألفى دولار، وما برحت الأنظار تطوف بسطح المحيط ليلاً ونهارًا. وحتى البحَّارة المعروفون باسم الخفافيش الآدمية لأن قوة أبصارهم تزداد ليلا بمعدل ٥٠٪ لم يكفوا عن المراقبة طمعًا فى الجائزة.

ومهما يكن فإنى لم أقلّ عنهم اهتمامًا بالمراقبة رغم عدم تفكيرى فى الجائزة. كنت لا أبرح ظهر السفينة فيما عدا بضع دقائق أقضيها فى تناول الطعام، ودون أن أحفل بالمطر أو حرارة الشمس، وكنت وأنا أشرف على البحر من مقدمة السفينة أو من أحد جوانبها.. أكاد ألتهم بنظراتى الملهوفة ذلك الزبد الذى يعلو سطح الماء الممتد إلى غاية البصر. وكم من مرة شاركت الضباط البحَّارة انفعالهم كلما تمطى أحد الحيتان ورفع ظهره الأسود فوق متن الأمواج. إذ ذاك كان سطح السفينة. يزدحم فى لحظات، وكانت السلالم الداخلية تقذف إلى السطح سيلاً من الضباط والبحارة شاخصين بأعين قلقة وأنفاس لاهثة لعلهم يرون الوحش البحرى، وكنت أنظر وأمعن النظر حتى أكاد أفقد البصر، بينما كان تابعى كونسايل يظل هادئًا ويقول لى:

- لو أن سيدى لا يكثر من النظر هكذا، لاستطاع أن يرى أكثر.

ولكن يا لضيعة الآمال، كانت السفينة إبراهام لنكولن تخفف من سرعتها ثم تتعقب الوحش.. فإذا هو لا يعدو أن يكون حوتًا أو قرشًا عاديًا ثم لا يلبث أن يختفى بين هتاف الاستياء.

وكان نيدلاند دائبًا فى إنكاره لما يحدث.. بل كان يتظاهر بالانصراف عن النظر إلى سطح المحيط فى غير نوبة المراقبة المحددة له إلا إذا شاهد حوتا بالقرب من السفينة. ورغم أن قوة إبصاره العجيبة كانت تغدو ذات فائدة كبرى

لنا، فإن ذلك الكندى العنيد كان يلزم مقصورته ثمانى ساعات نهارًا أو ليلاً حيث يقرأ أو يستسلم للنوم. وكان يرد على بقوله:

- ها. لست أعتقد بوجود ذلك الوحش المزعوم. وحتى لو وجد، فكيف يمكن أن نلتقى به؟ ألسنا نضرب فى المحيط اعتباطًا؟ سأسلم بأن الوحش شوهد فى شمالى المحيط الهادى مرة أخرى، ولكن قد مضى شهران على ذلك، وطبقًا لما عرف عن مزاج صاحبنا هذا فإنه لا يجب أن يطيل البقاء فى مكان واحد حتى لا يترهل، فهو يتمتع بقدرة هائلة على الحركة هنا وهناك، وأنت تعرف يا أستاذ كما أعرف أن الطبيعة لا تتصرف اعتباطًا وأنها لا تمنح الحيوان البطىء موهبة السرعة إن لم يكن بحاجة إليها ، وإذن، لو وجد هذا الوحش. فهو الآن فى مكان بعيد.

لم أدر بماذا أجيب على هذا. كان جليًا أننا ماضون على غير هدى، ولكن ماذا كان فى وسعنا أن نفعل غير هذا؟ ثم إن الفرص أمامنا كانت جد محدودة ومع هذا فلم يكن أحد فى الوقت نفسه يشك فى نجاح مهمتنا، بل لم يكن على ظهر السفينة بحار واحد يرفض المراهنة على وجود الوحش البحرى وعلى قرب ظهوره.

وبلغنا أخيرًا المنطقة التى شوهد فيها الوحش آخر مرة. والواقع أنه لم يكن أحد على ظهر السفينة يعيش عيشة طبيعية. فقد كان البحَّارة جميعًا تحت وطأة انفعال عصبى يند عن الوصف ، لم يكن أحدًا يأكل أو ينام طبيعيًا، وكانت المخاوف الشديدة تملأ نفوسنا نحو عشرين مرة فى اليوم نتيجة خطأ فى التقدير أو خداع بصرى يستهدف له بحَّار جالس فوق الأشرعة. وكانت هذه الانفعالات المتكررة على تلك الصورة تجعلنا فى حالة من شدة الاضطراب لابد أن يعقبها رد فعل قريب.

والواقع أن رد الفعل المتوقع لم يطل انتظاره.. لقد ظلت إبراهام لنكولن مدى ثلاثة أشهر كان كل يوم فيها كمائة عام. ومضت تذرع مياه المحيط الهادى الشمالى، فلم تدع حوتًا لاح لها إلا تعقبته وتحولت عن طريقها، واستدارت فجأة

أكثر من مرة، وتقلبت فى شتى المسالك دون سابق إنذار، ولم تترك بقعة على الشواطئ الصينية أو اليابانية دون أن تجوس خلالها. ورغم ذلك لم تشهد سوى المياه الشاسعة، ولم نبصر شيئًا يشبه الكركدن البحرى أو جزيرة غاطسة أو حطام سفينة، أو حاجزًا بحريًا عائمًا، أو شيئًا من خوارق الطبيعة.

وهكذا ابتدأ رد الفعل.وقد تجلى فى أول الأمر فى انحطاط الهمة الذى استحوذ على عقولنا وفتح باب الشكوك فى نفوسنا. وساد السفينة إحساس جديد أيسره خجل وأكثره غضب. وكان البحَّارة ينعتون أنفسهم بالغفلة لاستدراجهم إلى هذه المهمة الوهمية، مما أثار شديد سخطهم. ولم تلبث المناقشات المستفيضة التى ظلوا يتداولونها طوال العام أن تبددت فجأة، وإذا كل منهم لا يفكر إلا فى تعويض ساعات الطعام والنوم التى ضحوا بها فى حماقة.

وانقلب الجميع - بما عرف فى العقل البشرى من مرونة طبيعية، من إفراط إلى تفريط، فإذا أشد المتحمسين للمهمة، أكثرهم تخاذلاً، وسرى رد الفعل من أعماق السفينة حيث عمال الوقود إلى مقاصير الضباط، والحق أنه لولا شدة حزم الربان فارجوت، لأديرت مقدمة السفينة نهائيًا صوب الجنوب. ومهما يكن فما كان لهذا البحث غير المجدى أن يستمر أكثر من هذا، وأعتقد أنه لم يقدر لفريق من البحَّارة الأمريكيين أن أبدوا من الحماس ما أبدى بحارة السفينة إبراهام لنكولن. ومن ثم لن يعزى إخفاق البعثة إلى قصور منهم فى هذا المقام، وهكذا لم يبق أمامنا إلا طريق العودة.

وقدم إلى الربان التماس بهذا المعنى، ولكنه أصر على موقفه، وعندئذٍ لم يحاول البحَّارة إخفاء استياءهم. مما كان له تأثير على العمل فى السفينة. ولست أعنى أنه حدثت ثورة فى السفينة، ولكن الربان لم يلبث بعد أن طال عناده فترة من الزمن أن طلب - كما فعل كولومبوس من قبل. أن يصبر البحَّارة ثلاثة أيام فإذا لم يظهر الوحش خلال هذه المهلة، فإن على المكلف بالدفة أن يدير العجلة لكى تتجه السفينة إلى المياه الأوربية.

وانقضى يومان، وظلت السفينة ماضية بنصف سرعتها، وأدليت مقادير كبيرة من اللحوم المقددة فى أثرها لاستدراج الوحش، ولكنها ذهبت طعامًا للأسماك

المفترسة، ثم توقفت السفينة وأرسلت جميع قواربها فى مختلف الاتجاهات، ولكن ليلة الرابع من شهر نوفمبر مضت دون كشف سر اللغز المقترن بأعماق البحر.

كانت اليابان تقع فى اتجاه الريح على مسافة تقل على مائتى ميل، ودقت الأجراس مؤذنة بالساعة الثامنة وأنا مستند إلى حاجز السفينة وتابعى كونسايل بجانبى يحدق فى الظلام الوشيك، والضباط يكتسحون الأفق بمناظيرهم الليلية، وفيما أنا أنظر إلى كونسايل لاحظت أن هذا التابع الشجاع قد تأثر بعض الشىء بالجو السائد، أو هذا على الأقل ما بدا لى، ولعل أعصابه كانت - لأول مرة - تستجيب لفضول طرأ عليه.

قلت له:

- حسنا يا كونسايل هذه فرصتك الأخيرة للحصول على ألفى دولار.

- هل يسمح سيدى أن أخبره بأنى لم أهتم أبدًا بالحصول على الجائزة، وأنه حتى لو رصدت مائة ألف دولار لما أثار ذلك اهتمامى؟

- أنت على حق يا كونسايل إنها كانت مهمة سخيفة على أى حال. إننا أضعنا الوقت والصبر، وكان أولى بنا أن نكون فى فرنسا منذ ستة أشهر.

- نعم.. فى مسكن سيدى الصغير نصنف مجموعات سيدى من المتحجرات ونضع البابيروزا فى قفصها بحديقة النباتات لكى تستأثر باهتمام أهل باريس جميعًا.

- أجل يا كونسايل. وفضلاً عن هذا سنكون أضحوكة للناس.

فقال كونسايل بهدوء:

- هذا أكيد، أظنهم سيضحكون من سيدى. ولابد أن أقول..

- ماذا يا كونسايل؟

- إن سيدى يستحق هذا تمامًا.. فعندما يتشرف الإنسان بأن يكون من العلماء كسيدى. فإنه لا يتعرض..

لم يتم كونسايل إطراءه فمن خلال السكون المخيم على الجميع، سمع نيدلاند يصيح قائلاً:

- انظروا إلى هناك إن ما نبحث عنه يبدو عند الأفق.

الفصل السادس
بأقصى سرعة

اندفع رجال السفينة جميعًا نحو صيَّاد الحيتان إثر صيحته: الربان والضباط والبحَّارة والخدم حتى المهندسون تركوا الآلات، وعمال الأفران تركوا أفرانهم وكان الأمر قد صدر بوقف السفينة، فكانت تتحرك بقوة الاندفاع الذاتى. وكان الظلام كثيفًا، فلم أتمالك من التساؤل: ترى ما الذى رآه نيدلاند، وكيف استطاع أن يتحقق مما رأى؟

شعرت بقلبى يخفق بشدة.

وعلى مسافة نحو ستين مترًا من الجانب الأيمن للسفينة، بدا سطح البحر كأنه مضاء من سطح الماء، وأدركنا أن الوحش كامن فى مكان ما بالأعماق، مرسلاً ذلك الضوء القوى المحير الذى ورد ذكره فى تقارير كثير من الربابنة، وكان الضوء منيرًا جسمًا هائلاً بيضاوى الشكل، مستطيلاً جدًا تتركز فى وسطه بؤرة الضوء الباهر لا يلبث أن يتلاشى بالتدريج.

وهتف أحد الضباط قائلاً :

ـ هذا مجرد انعكاس وهج ساطع لجزئيات فوسفورية.

فقلت له بلهجة اليقين:

ـ لا ياسيدى. ليس بين الأحياء المائية المضيئة ما يشع مثل هذا الضوء. إنه ضوء كهربائى . فضلاً عن هذا .. انظروا ... إنه يتحرك نحونا..

وتعالت صيحة مشتركة من السفينة ، ولكن الريان هتف قائلاً:

ـ السكوت . ارفعوا المراسى وغيّروا الاتجاه.

وهكذا حاولت السفينة أن تهرب ولكن الوحش الخارق أخذ يقترب منها بسرعة مضاعفة.

وتسمرنا فى أماكننا، وانعقدت ألسنتنا من فرط الذهول الذى فاق إحساسنا بالخوف، ولحق الوحش بنا، ودار حول السفينة التى كانت تنطلق عندئذٍ بسرعة أربع عشرة عقدة فى الساعة، وغمرها بحلقة من الضوء كأنها ذرات غبار مشع، ثم ابتعد مسافة ميلين أو ثلاثة تاركًا وراءه سحابة فوسفورية كالبخار المنساب من قاطرة بخارية. وفجأة اندفع الوحش عائدًا إلى السفينة بسرعة مخيفة من وراء الأفق المظلم حيث ذهب ليستجمع قواه. ثم توقف فجأة على مسافة عشرين قدمًا، ثم ذهب. إنه لم يغطس لأن ضوءه الساطع لم يتلاش تدريجيًا بل مرة واحدة كأنه انطفأ. ثم عاد للظهور مرة أخرى فى الجانب الآخر من السفينة. إما بالالتفاف حولها أو الانسياب من تحتها. وكان من المتوقع بين لحظة وأخرى أن يقع الاصطدام الذى قد يكون قاضيًا علينا.

وغمرتنى الدهشة لموقف السفينة من هذا الأمر فقد كان الوحش يهاجمها بدلاً من أن تهاجمه، وسألت الريان عن السبب، فقال وقد ارتسمت على وجهه الهادئ دائمًا ، أبلغ أمارات الدهشة:

ـ إننى لا أدرى يامسيو أروناكس مدى قوة هذا المخلوق الذى أنازله، ولذلك لن أخاطر بالسفينة فى الظلام بحماقة وتهور. ينبغى إذًا أن ننتظر ضوء النهار وعندئذ سيتغير الموقف إلى النقيض.

ـ ألم يبق لديك شك يا كابتن فى طبيعة هذا الوحش ؟

ـ لا ياسيدى. الواضح أنه كركدن بحرى هائل ، وهو أيضًا كهربى.

فأضفت قائلاً :

ـ وربما لا نستطيع الاقتراب منه إلا كما نستطيع الاقتراب من ديناميت أو طوربيد.

- لعل فيه من المتفجرات ما هو أشد وأفتك، فإذا صح هذا ، فهو أفظع وحشًا وُجد فى الخليقة. وهذا ما يجعلنى ألتزم جانب الحذر.

وظل كافة رجال السفينة ساهرين تلك الليلة. لم يفكر أحد فى النوم. ولم يكن فى مقدور السفينة أن تجارى الوحش فى سرعته، فقد بقيت سائرة بنصف سرعتها. واقتدى بها الكركدن فجعل يسير إلى جانبها ويدفع بالأمواج إليها، وكأنما قرر ألا ينسحب من ميدان النزال.

ومهما يكن فقد اختفى حوالى منتصف الليل: تلاشى ضوءه كوردة مشعة هائلة. وفى الساعة الواحدة إلا سبع دقائق صباحًا. سمعنا صفيرًا يصم الآذان كالذى يحدث من عامود ماء يندفع بقوة عظيمة.

وكنت إذ ذاك واقفًا مع الريان ونيدلاند فى مؤخرة السفينة، نرسل البصر فى لهفة من خلال الظلام المطبق فقال الريان:

- يا نيدلاند. هل سمعت من قبل حوتًا يهدر؟

- نعم ياسيدى الريان . سمعت كثيرًا . ولكنى لم أسمع مثل هدير هذا الوحش الذى ربحت جائزة الألفى دولار لأنى أول من رآه.

- أجل لقد أصبح لك الحق فى هذه الجائزة. ولكن . أخبرنى هل هو هذا نفس الصوت الذى يصدر عن الحيتان؟

- نعم يا سيدى . ولكن هدير هذا الوحش أشد بصورة لا نظير لها. لا مجال للخطأ هنا. ومن المؤكد أنه وحش بحرى هائل موجود فى هذه المياه. وأرجو أن تأذن يا سيدى بأن نتبادل معه بضع كلمات عند شروق الشمس.

فقلت أنا فى لهجة تنم عن الشك:

هذا إذا سمح له مزاجه بالاستماع.

فقال الصيَّاد الكندى:

- دعنى أقترب منه مدى انطلاق أربع حربات وأنا أعرف كيف أرغمه على الاستماع لى.

فاستطرد الربان قائلاً :

- ولكن لكى نقترب منه يجب أن أضع تحت تصرفك أحد زوارق صيد الحيتان.

- بالتأكيد يا سيدى.

- ولكن فى ذلك مخاطرة بحياة رجالى.

فرد الصياد ببساطة قائلاً :

- وحياتى أيضًا .

وفى نحو الثانية صباحًا ، ظهرت بؤرة الضوء مرة أخرى، بنفس إشعاعها السالف على مسافة نحو خمسة أميال فى اتجاه الريح. ورغم بُعد المسافة وهدير الأمواج والرياح كنا نسمع ضربات ذلك الوحش بل وأنفاسه اللاهثة. ويبدو أن الهواء كان يندفع فى رئتى الوحش الهائل حين يطفو على السطح للتنفس وكأنه البخار المندفع فى اسطوانات محرك بقوة ألفى حصان.

وقلت لنفسى :

- ها . إن حوتًا له قوة آلاف فرسان لهو حوت بديع حقًا.

وبقينا جميعًا على أتم الأهبة حتى مطلع النهار، ثم أخذنا فى إعداد أجهزة الصيد؛ فقام الضابط الأول بحشو البنادق التى تطلق الحراب إلى مسافة ميل، والمدافع البعيدة المرمى بالقذائف المتفجرة التى تصيب أقوى الوحوش بالجراح القاتلة. واكتفى نيدلاند بشحذ حربته التى كانت بين يديه سلاحًا رهيبًا.

وبدأت طلائع الفجر تنساب، ومع أول أضوائها ، اختفى النور الكهربائى المشع من الكركدن البحرى، وفى الساعة السابعة صباحًا انتشر حول السفينة ضباب كثيف حجب كل شىء حتى لم تستطع أقوى المناظير اختراقه.

وتسلقت السارية الكبرى حيث وجدت بعض الضباط قد سبقونى إلى أطرافها. وبدا الضباب ينقشع حوالى الثامنة صباحًا، وفجأة سمعنا صوت نيدلاند وهو يصيح كما حدث فى الليلة السابقة :

- إن الوحش فى الجانب الأيمن من السفينة .

فتحولت جميع الأنظار إلى الاتجاه الذى أشار إليه. وهناك على مسافة ميل ونصف ميل من السفينة، رأينا جرمًا أسود ضخمًا يبرز بما يجاوز الياردة فوق الأمواج ، وكان ذيله المضطرب بعنف يثير دوامات هائلة. ولا أذكر أن هناك حيوانًا بحريًا معروفًا يمكن أن يضرب الأمواج بمثل هذه القوة. وكان ثمة أثر طويل ساطع البياض ينم عن مسير الوحش ويرسم على سطح الماء قوسًا كبيرًا.

واقتربت السفينة من الوحش البحرى ، واستطعت أن أراه بوضوح، وبدا لى أن التقارير التى قدمها ربابنة السفينتين شانون وهلفيا قد بلغت فى وصف حجمه. وقد قدرت طوله بما لا يزيد عن مائة وخمسين قدمًا ... أما بقية أبعاده فلم أستطع أن أرى إلا أنها متناسبة مع طوله.

وبينما كنت أراقبه، إذا بعمودين من الماء والبخار ينبثقان من منخاريه ويرتفعان إلى مسافة خمسين ياردة مما طابق رأيى فى كيفية تنفسه. واستخلصت نهائيًا أنه ينتمى إلى فصيلة الثدييات البحرية الفقارية التى تنحدر من أسرة الحيتان الضخمة.. ولكنى لم أكن واثقًا إلى أية فصيلة من فصائل هذه الأسرة كان ينتمى هذا الوحش.. فإن هذه الأسرة تنقسم إلى ثلاث فصائل: الحيتان، والكاتشالوت «القياطس» والدرافيل، وينتمى الكركدن البحرى إلى الفصيلة الأخيرة .

ووقف البحارة ينتظرون بصبر نافد أوامر الربان الذى ما لبث بعد أن راقب الوحش باهتمام أن استدعى كبير المهندسين وقال له :

- هل البخار على تمامه؟

- نعم يا كابتن .

- إذن، أوقد النيران وأطلق البخار بكل قوته.

فانبعث الهتاف ثلاثاً لهذا الأمر. وقد حلت ساعة النزال، وبعد لحظات كانت مداخن السفينة تطلق سيلاً كثيفًا من الدخان الأسود، وسطحها يهتز بهدير المراجل.

واندفعت السفينة إبراهام لنكولن بأقصى قوتها إلى الوحش التى تركها تقترب منه حتى أصبحت على بعد عشرين مترًا تقريبًا، وإذا به يبتعد قليلاً وكأنما ترفع عن الغطس، ولكنه ظل محتفظًا بالمسافة التى بينه وبين السفينة.

واستمرت هذه المطاردة ثلاثة أرباع السّاعة دون أن تقصر المسافة بينهما ولو أربع ياردات، وكان الواضح أن السفينة لن تدركه قط وهى بهذه السرعة.

وعبث الربان بلحيته فى ضيق، ثم قال يخاطب نيدلاند:

- يانيدلاند. هل ترى أنه يحسن إنزال قوارب الصيد؟

فأجاب نيدلاند قائلاً :

- لا ياسيدى . لأن هذا الحيوان لن يسمح لأحد بصيده إلا حينما يشاء .

- إذًا ماذا يجب أن نفعل؟

- نطلق السفينة بكل سرعتها ، وأقف أنا فى المقدمة إذا سمحت، حتى إذا أصبحنا منه على مرمى حربة قذفته بها.

- حسنًا جدًا ،

قال الربان هذا . وأمر المهندس بمضاعفة السرعة.

وانتقل نيدلاند إلى الموقع المعين، وازدادت نيران السفينة ضرامًا، وانطلق الرفاص يدور بسرعة ثلاث وأربعين مرة فى الدقيقة، واندفع البخار من الصمامات، ونظر الربان إلى مقياس السرعة، فسجل ثمانية عشر ميلاً ونصف ميل فى الساعة. ولكن الوحش كان ماضيًا بنفس هذه السرعة أيضًا..

وظلت السفينة منطلقة كذلك ساعة أخرى دون أن تقترب من الوحش قيد ياردة، وكان هذا الوضع ينطوى على مهانة إذ كانت من أسرع السفن فى البحرية الأمريكية، وأخذ البحّارة يشعرون بالتعب المتزايد، فراحوا يسبون الوحش الذى ترفع عن الرد، ولم يكتف الربان بفتل لحيته، وإنما بدا يعض عليها بأسنانه. وأخيرًا استدعى المهندس مرة أخرى وقال له :

ـ هل بلغت أقصى ضغط عندك؟

ـ نعم ياسيدى.

فأمره الريان أن يفعل كل ما فى وسعه دون أن تنفجر السفينة، وسرعان ما أهيلت أكوام الفحم داخل الأفران، وتزايدت سرعة السفينة، واهتزت ساريتها من جديد. ولما قيست هذه السرعة كانت تسعة عشر ميلاً وثلاثة أعشار الميل.

وصاح الريان :

ـ أطلقوا البخار كله.

فأطاع المهندس، وسجل قياس الضغط عشر درجات، ولكن الوحش ظل منطلقًا بسرعة تسعة عشر ميلاً وثلاثة أعشار الميل بنفس السهولة التى كان ينطلق بها بسرعة ثمانية عشر ميلا ونصف ميل.

يالها من مطاردة . لا أستطيع أن أصف شعور الانفعال الذى كان يعصف بكل كيانى. وظل نيدلاند منتصبًا فى موقعه، والحربة فى يده. وقد سمح لنا الوحش مرارًا بالاقتراب منه وأحيانًا بلغ اقترابنا منه حدًا جعل نيدلاند يرفع يده لقذف الحربة، ولكن الوحش كان يندفع بعيدًا بسرعة ثلاثين ميلاً فى الساعة . بل كان يسخر من السفينة أحيانًا عندما راح يدور ويدور حولها.

وانطلقت صيحة غضب من جميع الأفواه، فقد دقت الساعة الثانية عشرة دون أن نتقدم عما كنا عليه فى الثامنة صباحًا، وأخيرًا قرر الريان فارجوت أن يتخذ وسائل أكثر حزمًا فقال:

ـ آه ، إذن فهذا الوحش ينطلق بأسرع من سفينتى! حسنًا سنرى هل يستطيع أن يسبق قذيفة مدفع! ارسل يا رئيس البحَّارة رجالك إلى المقدمة.

وسرعان ما تم حشو مدفع المقدمة وتصويب فوهته ثم إطلاقه . ولكن القذيفة مرت من فوق الوحش ببضعة أقدام ، وما برح يسبق السفن بنصف ميل.

وصاح الريان قائلاً :

ـ ليحاول مدفعىّ آخر إصابة هذا الهدف.. سأدفع خمسمائة دولار لمن يصيب الوحش، وتقدم مدفعى عجوز رمادى اللحية ، ويخيل إلىَّ أنى أرى الآن وجهه الهادئ وهو يقترب من المدفع ، ثم وهو يعده ويسدده بإحكام. وأعقب ذلك صوت انفجار مرتفع اختلط بهتاف البحَّارة.

وبلغت القذيفة هدفها . وأصابت الوحش . ولكنها انزلقت من سطحه الدائرى وسقطت فى البحر وهى على مسافة ميلين من مكاننا .

وصاح الريان :

ـ سحقًا لهذا لابد أن يكون هذا الوحش مغلفًا بألواح حديدية سمكها ست بوصات . ولكننى سأناله ولو فجرت السفينة فى هذا السبيل.

وكان الأمل معقودًا فى أن يبلغ التعب من الوحش حد الإعياء، وألا يكون بمنعة من الكلال كالآلة البخارية . ولكن تعاقبت الساعات دون أن يبدو منه دلائل الإعياء.

وينبغى القول، تقديرًا للسفينة أنها احتملت هذا الصراع دون كلل. ولست أقدر المسافة التى قطعناها فى ذلك اليوم الأنكد بأقل من ثلاثمائة ميل. ولكن الليل أقبل ونحن فى انطلاق على المحيط المضطرب.

وخطر لى فى تلك اللحظة أن مهمتنا قد انتهت عند هذا الحد، وأننا لن نرى ذلك الوحش الفريد مرة أخرى.

ولكنى كنت مخطئًا؛ لأن الضوء الكهربائى لم يلبث أن لاح مرة أخرى فى العاشرة والدقيقة الخمسين مساءً على مسافة ثلاثة أميال منا فى اتجاه الريح، وكان واضحًا باهرًا كالليلة السابقة.

وبدا كأن الكركدن البحرى هامد الجسم. ولعله بعد إرهاقه فى اليوم السابق كان مستغرقًا فى النوم فى مهده المائج وكانت تلك فرصة قدر الريان أن يستغلها.

وأصدر أوامره .

وزحفت السفينة إبراهام لنكولن بنصف سرعتها فى حذر كأنما تخشى أن توقظ غريمها . ولم يكن من النادر أن يلتقى الصيادون فى عرض البحار بالحيتان وهى مستغرقة فى النوم. وحدث أن أصاب نيدلاند بحرابه بعضها فى هذه الحالة.

وهكذا عاد الصيَّاد الكندى إلى موقفه السالف فى مقدمة السفينة.

واقتربت السفينة بسكون. وأوقفت محركاتها على بعد نحو ستين مترًا من الوحش، ولكنها ظلت تتقدم . وكان السكون العميق مخيمًا على سطحها، ولم نلبث أن أبصرنا على مسافة مائة قدم بؤرة الضوء الذى كان يزداد توهجًا حتى بهر أبصارنا .

وفى تلك اللحظة رأيت نيدلاند ـ وأنا مستند إلى الحاجز الأمامى ـ ممسكًا فى مكانه أسفل منى بحبل، وقد راح يهز الحربة المخيفة بيده الأخرى وهو على مسافة عشرين قدمًا من الوحش الساكن.

وفى لمح البصر ، قذف بالحربة ، وسمعت رنينها وكأنما قد اصطدمت بجسم صلب.

وفجأة انطلق الضوء الكهربائى، وتدفق عمود ماء ضخم على سطح السفينة يكتسحها كالسيل من الأمام إلى الخلف، فهوى الرجال أرضًا، وتقطعت الحبال، وأعقب ذلك صدمة مروعة، وألقى بى من فوق حاجز السفينة قبل أن أتمكن من الصمود ، وسقطت فى البحر.

الفصل السابع

حوت من نوع مجهول

استطعت رغم دهشتى من هذا السقوط المفاجئ أن أحتفظ بحواسى. وكنت فى أول الأمر قد غصت إلى عمق نحو عشرين قدما، ولما كنت سباحًا ماهرًا، ولم تفقدنى السقطة حضور الذهن فقد استطعت بعد رفستين قويتين أن أعود إلى السطح.

وكان الظلام كثيفًا، ولكنى استطعت أن أرى كتلة سوداء تختفى نحو الشرق وتختفى معها أضواؤها على البعد. إنها السفينة إبراهام لنكولن. ومعنى هذا أنى فقدت كل أمل فى النجاة.

وأطلقت صيحة استغاثة وأنا أسبح نحو السفينة بضربات يائسة ولكن ملابسى أخذت تعوقنى بعد أن ألصقها الماء بجسدى. وهكذا شلت حركاتى وبدأت أهوى إلى القاع.

- النجدة!

- كانت تلك صيحتى الأخيرة، فقد امتلأ فمى بالماء، وحاولت مستميتًا أن أقاوم السقوط فى الأعماق.

ولكنى شعرت فجأة بيد قوية تمسك ملابسى وتردنى بقوة إلى سطح الماء ثم سمعت هذه الكلمات تتردد فى سمعى :

- إذا تكرم سيدى بالاعتماد على كتفى، استطاع أن يحسن السباحة. فأمسكت بذراع تابعى الوفى كونسايل وأنا أهتف:

- أنت!.. أنت!.!..

فأجاب كونسايل:

- نعم يا سيدى .

- هل قذفت بك الصدمة إلى الماء أيضًا؟

- لا... ولكن لما كنت فى خدمة سيدى فقد تبعته.

لقد رأى ذلك التابع الكريم أن ما فعله أمر طبيعى جدًا.

وسألته قائلاً:

- وماذا عن السفينة؟

فقال وهو يسبح على ظهره :

- السفينة؟ أعتقد أنه يحسن بسيدى ألا يعتمد عليها.

- لماذا؟

- لأنى وأنا أقفز فى الماء سمعت الموكل بعجلة الدفة يقول إن الرفاص والدفة تحطّما.

- نعم بناب الوحش، وهذا هو التلف الوحيد الذى أصابها كما أظن، ولكنها بدون دفة لن تفيدنا بشىء.

- إذن فقد ضعنا.

فقال كونسايل بهدوء:

- ربما ولكن لا يزال أمامنا الآن بضع ساعات، وفى بضع ساعات يمكن أن تحدث أمور كثيرة.

وكان لهدوء كونسايل أثر طيب فى نفسى، فأخذت أسبح بقوة، ولكن ملابسى كانت تعوقنى وتجذبنى إلى أسفل كأنها ثقل من الرصاص، وهكذا تعذر علىّ أن أظل طافيًا ، ولاحظ كونسايل موقفى فقال:

– هل يسمح لى سيدى بشق ملابسه؟

ثم دس فى ملابسى مدية مفتوحة وشقها بسرعة من أعلى إلى أسفل، ثم ساعدنى فى التخلص منها بينما كنت أسبح،.. وبعد أن عاونته بنفس الكيفية أخذنا نسبح جنبًا إلى جنب.

ولكن موقفنا فى الوقت نفسه لم يكن أقل شناعة فمن المحتمل أنهم لم يفطنوا إلى اختفائنا، وحتى لو أنهم فطنوا. فما كان فى مقدور السفينة إنقاذنا وهى بغير دفة، وهكذا كان الأمل الوحيد فى نجاتنا هو إرسال قواربها للبحث عنا. وقع الاصطدام فى نحو الحادية عشرة مساء. وحوالى الواحدة صباحا غمرنى إعياء شديد، وتصلبت أطرافى خدرًا، فاضطر كونسايل، أن يشدد من عزيمتى، وهكذا أصبحت نجاتنا متوقفة عليه وحده ولكنى كنت أسمع المسكين وهو يلهث، فأدركت أنه لن يستطيع الاستمرار فى الكفاح.

وهتفت به قائلاً:

– دعنى أغرق دعنى.

فرد قائلاً:

– أدع سيدى؟ مستحيل. سأغرق معه.

وفى تلك اللحظة بزغ القمر من وراء سحابة كبيرة كانت الرياح تدفعها نحو الشرق. وتألق سطح البحر بأشعته الفضية، ورفعت رأسى فرأيت السفينة وكانت على مسافة خمسة أميال من مكانينا وبدت كتلة سوداء لا تكاد تبين ولكن لم أر قاربًا ما.

وحاولت أن أصيح مستنجدًا، ولكن لم يكن ثمة فائدة من الصياح لبعد المسافة.

ثم إن شفتى المنتفختين لم تدع صوتًا يخرج منهما، ولكن كان بوسع كونسايل الكلام، وسمعته يهتف مرارا مستنجدا.

وتوقفنا عن الحركة برهة لنرهف السمع، وخيل إلينا أن ما سمعناه فى تلك اللحظة لا يعدو أن يكون طنينا فى آذاننا، ولكن بدا لى أن صيحة انبعثت استجابة لإغاثة كونسايل. فغمغمت قائلا:

- هل سمعت؟

- نعم.. نعم.

وأرسل كونسايل فى الفضاء صيحة يائسة أخرى وفى هذه المرة لم يكن ثمة التباس فقد جاوبنا صوت آدمى، فهل كان صوت ضحية أخرى لحادث الاصطدام، أو أنه زورق إنقاذ ينادينا فى الظلام؟

وبذل كونسايل جهدًا خارقـــا فاعتمد على كتفى بينما بذلت جهدًا أخيرًا للسباحة دونه ثم رفع نصف جسمه فوق سطح الماء، وأرسل صيحة عالية. وعندئذ خارت قواى وانزلقت أصابعى، وامتلأ فمى بالماء الأجاج، وسرت البرودة فى جسمى، فرفعت رأسى لآخر مرة قبل أن أهوى فى الماء.

وفى تلك اللحظة اصطدمت بشىء صلب، فتشبثت به مستميتًا، ثم شعرت بنفسى أرتفع فوق سطح الماء، ثم فقدت وعيى، ولكنى لم ألبث أن أفقت إثر تدليك شديد شعرت به، وفتحت عينى قليلاً وغمغمت:

ـ كونسايل ؟

ـ هل سيدى ينادينى ؟

ورأيت فى تلك اللحظة على ضوء القمر المنحدر عند الأفق ، وجهًا آخر غير وجه كونسايل.. ولكنى عرفته فورًا ، فهتفت قائلاً :

ـ نيدلاند!.

فأجاب الكندى:

ـ نعم ياسيدى . يبحث عن جائزته .

ـ هل سقطت فى البحر عند ما اصطدمت السفينة؟

ـ نعم ولكنى أسعد حظاً إذ وجدت جزيرة عائمة.

ـ جزيرة عائمة؟

ـ نعم أو بتعبير أفضل صاحبنا الكركدن الهائل.

ـ ماذا تعنى يانيدلاند؟

ـ أعنى إننى عرفت الآن لماذا لم تنفذ حربتى فى الوحش وإنما تثلمت .

ـ لماذا يانيد . لماذا ؟

ـ لأن الوحش مغلف بألواح من الحديد.

وتسلقت بسرعة إلى قمة ذلك الشىء الغاطس الذى وجدنا فيه ملاذنا. وضربته بقدمى فقد بدا لى بوضوح أنه جسم صلب لا ينفذ فيه شىء وليس تلك المادة الرخوة التى تتكون من أجرام الثدييات البحرية الهائلة. ولكن هذا الجسم الصلب لم يكن بأية حال درقة عظمية لحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ. بل لم أستطع أن أضعه بين الزواحف البرمائية كالسلاحف والتماسيح لأن سطحه المسود الذى ركبنا عليه لم يكن ذا حراشيف ، بل كان أملس مصقولاً.

وأحدثت ضربة قدمى رنيناً معدنيًا، وبدا لى رغم ما يبدو فى هذا من موجبات الدهشة، أن الضربة وقعت على ألواح حديد (مبرشم) لم يبق ثمة مجال للشك. فإن هذا الحيوان أو الوحش أو الظاهرة الطبيعية التى حيرت دنيا العلماء، وخدعت البحارة فى قصص المعمورة، كان فى الواقع، ظاهرة أبعث على الدهشة، ظاهرة من صنع الإنسان. إن اكتشاف وجود أغرب الكائنات الأسطورية والخرافية ما كان ليثير دهشتى إلى هذا الحد. إن ما يدخل فى باب البساطة أن نجد أشياء معجزة تكون من صنع الخالق، ولكن رؤية المستحيل يتحقق على يد الإنسان فذلك ما يبلبل كل خيال.

لقد تمددنا على قمة شىء يشبه غواصة بدا لى قطرها كسمكة هائلة من الصلب. كان هذا رأى نيدلاند، ولم يسعنى أنا وكونسايل، إلا أن نشاطره رأيه. وقلت له :

فأجاب صياد الحيتان :

ـ هذا ما يظهر ومع ذلك فإنى لم أر فى خلال الساعات الثلاث التى أمضيتها فى هذه الجزيرة العائمة أية علامات للحياة.

ـ ألم تتحرك من مكانها.

ـ لا يامسيو أروناكس. إنها مستقرة بين الأمواج. ولكنها لا تتحرك.

ـ مهما يكن فإننا نعرف دون أدنى شك أنها ذات سرعة هائلة. ولما كانت السرعة لا تتولد إلا عن آلة ، ولابد للآلة من شخص يوجهها فإنى أستخلص من هذا أننا نجونا.

فغمغم نيدلاند بتحفظ. وعندئذ، وكأنما جاء ذلك تعزيزًا لحجتى، سمعنا صوتًا كغليان الماء فى مؤخرة ذلك الجهاز العجيب، ويبدو أنه رفاص من النوع اللولبى، ثم بدأ يتحرك. فأسرعنا نتعلق بسطحه الأعلى الذى برز من الماء نحو ياردة ومن حسن الحظ لم تكن سرعته كبيرة.

وغمغم نيدلاند قائلا :

ـ طالما كان يتحرك أفقيًا . فليس عندى ما أقوله، أما إذا تراءى له أن يغوص، فإنى لا أضمن حياتى بدولارين.

كانت تلك هى الحقيقة الواضحة، وإذًا فقد صار لزامًا أن نبادر بالاتصال بما قد يكون داخل الجهاز من كائنات. فنظرت إلى سطحه باحثًا عن فتحة، ولكنى رأيت الألواح مشدودة بعضها إلى بعض بإحكام شديد.

يضاف إلى هذا أن القمر اختفى إذ ذاك وتركنا فى ظلام مطبق. وكان علينا أن ننتظر حتى شروق الشمس لنقرر الوسيلة التى نستطيع بها أن ننفذ إلى داخل الغواصة.

وهكذا كانت نجاتنا متوقفة على مزاج الرجال المسئولين الذين يديرون عجلة هذا الجهاز فإذا خطر لهم أن يغوصوا كنا من الهالكين، ومتى يتم هذا؟ لم يكن

لدىّ شك فى إمكان الاتصال بهم، وكان من المؤكد أنهم إذا لم يكونوا مجهزين بالهواء الداخلى بطريقة ما، فهم مضطرون للصعود بين آن وآخر إلى سطح المحيط لتجديد ذخيرتهم من الهواء النقى. وإذن فلابد من وجود فتحة تصل بين داخلها هذا الجرم العائم وبين الجو.

أما الأمل فى نجاتنا على يد الربان فارجوت، فكان علينا أن نستبعده تمامًا. ذلك أننا كنا نندفع غربًا بسرعة معتدلة نسبيًا قدرتها باثنى عشر ميلاً فى الساعة. وكان الرفاص يضرب الأمواج بانتظام دقيق، وكان أحيانًا يبرز ويدفع الماء المضىء إلى علو كبير.

وفى نحو الساعة الرابعة صباحًا، ازدادت سرعة الجهاز فكنا نقاوم بصعوبة الأمواج وهى تضربنا بكل عنفها وما كان يصحبها من دوار لابد منه.

ومن حسن الحظ أن لمست يد نيدلاند سياجا مشدودا إلى قمة السطح الحديدى فاستطعنا أن نتشبث به بكل قوانا.

وانقضت أخيرًا تلك الليلة المديدة، ولا تستطيع ذاكرتى المبتورة أن تستعيد كافة الانطباعات التى اقترنت بها. ولكنى أذكر بوضوح شيئًا ما برح يعاود ذاكرتى. فبين فترات سكون البحر والرياح بدا لى مرارا أنى أسمع أصواتًا مبهمة.. لونًا من نغمات غامضة تنساب من أوتار بعيدة.... فأى سر إذن ينطوى عليه هذا الجهاز الملاحى الغائص، الذى كان العالم كله يلتمس عبثًا معرفة كنهه؟ وأية كائنات تعيش فى هذا المركب الغريب؟ وأية أداة آلية تتيح له أن ينطلق بمثل هذه السرعة الجبارة؟

وعندما لاح ضوء النهار كان ضباب الصباح يكتنفنا من كل جانب، ولكن ما لبث أن تبدد، عندئذ بدأت أفحص بعناية تامة ذلك السطح الأفقى الذى كنا فوقه شعرت بأنى أغوص تدريجيًا.

فصاح نيدلاند وهو يرفص الألواح الرنانة:

- يالشيطان، افتحوا أيتها المخلوقات التى لا تعرف معنى الضيافة!

ولكن كان من العسير أن يسمع صوته بسبب هدير الرفاص الذى يصم الآذان ومن حسن الحظ أن عملية الغوص توقفت.

وأخيرًا سمعنا من داخل المركب صليلاً وكأنه مزاليج حديدية تسحب بعنف. ثم رفع ولاح رجل أرسل صيحة عجيبة ثم اختفى فورًا.

وبعد لحظات خرج إلينا فى سكون ثمانية رجال أشداء ملثمين، ما لبثوا أن سحبونا إلى داخل هذه الآلة الرهيبة.

الفصل الثامن

حركة فى قلب حركة

تمت عملية خطفنا الوحشية بسرعة البرق، ولست أدرى ماذا كان شعور زميلىّ وهما يدفعان إلى جوف هذا السجن العائم. أما من ناحيتى فقد سرَت فى جسمى رعدة خاطفة جمدت الدماء فى عروقى... ترى بمن سنلتقى؟

لا شك أنهم طائفة جديدة من القراصنة الذين استباحوا حرية البحار بوسائلهم الخاصة.

وما كاد غطاء الفتحة الضيقة يغلق فوقى حتى شملنى ظلام كثيف. ولم تستطع عيناى المبهورتان بالضوء الخارجى أن تتبينا شيئًا فى الداخل. وأحسست بقدمىّ العاريتين تلمسان درجات سلم حديدى، وتبعنى نيدلاند وكونسايل وهما بين أذرع قوية. وفى نهاية السلم فتح الباب، ثم أغلق على الأثر محدثًا صوتًا رنانًا.

وأصبحنا بمفردنا ولكن أين. هذا ما لم أعرفه أو أستطيع تصوره. كان الظلام يغمرنا. ظلام كان شاملاً بحيث لم أستطع بعد دقائق أن أتبين حتى تلك الومضات الخافتة التى تبدو فى أشد الليالى ظلامًا.

وفى أثناء ذلك كان نيدلاند الذى تملكه الاهتياج لهذه التطورات، قد استسلم لثورة غضبه فهتف قائلاً:

- إن هؤلاء الناس ما كانوا ليصبحوا أسوأ من هذا لو أنهم من أكلة لحوم البشر. ولن يدهشنى أن يكونوا كذلك. ولكنى لن أدعهم يأكلوننى دون اعتراض.

فقال له كونسايل فى هدوء:

ـ هدئ من روعك ياصديقى نيدلاند لا تغضب سلفًا، فنحن لم نوضع بعد على النار.

ـ لا. ولكننا داخل الفرن. إن هذا الجحر الذى وضعونا فيه كالفرن تمامًا، ومن حسن الحظ أن سكينتى الحادة لا تزال معى، وسأعرف كيف أستعملها. إن أول من يضع يده علىَّ من هؤلاء الأوغاد.

وعندئذ قلت له:

ـ لا تسخط يانيد. ولا تورط نفسك بالعنف الذى لا يجدى. من يدرى أنه ليس هناك من يسترق السمع؟ الأفضل أن نحاول معرفة طبيعة المكان الذى نحن فيه.

وأخذت أتحسس طريقى وبعد أن تقدمت خمس خطوات لمست جدارًا مصنوعًا من ألواح الحديد (المبرشمة) ولما استدرت اصطدمت بمائدة خشبية بالقرب منها بضعة مقاعد. كانت أرضية السجن مفروشة بحصير سميك أخفى وقع أقدامنا. ولم يكن بالجدران أى باب أو نافذة، ولم يلبث كونسايل الذى تقدم فى الجهة المقابلة أن التقى بى، فعدنا معًا إلى وسط الغرفة التى ناهزت مساحتها عشرين قدمًا فى عشرة. أما ارتفاعها فإن نيدلاند لم يستطع قياسه رغم طول قامته.

وانقضى نصف ساعة دون أن يحدث أى تغيير فى الموقف، ثم إذا بأبصارنا تنتقل فجأة من الظلام الدامس إلى ضوء أشد ما يكون سطوعًا. لقد أضئ سجننا كله مرة واحدة، أو بمعنى آخر، امتلأ بنور ساطع بلغ من قوته أننى لم أستطع أول الأمر احتمال سطوعه. وقد رأيت من شدة سطوعه وقوته أنه نفس الضوء الكهربائى الذى كان يتألق حول الجرم الغائص كأنه ظاهرة فسفورية رائعة. وبعد أن أغلقت عينى مكرهًا فتحتهما ثانية فرأيت أن مصدر الضوء شبه كرة مصقولة تضىء فى الجزء الأعلى من الغرفة.

وصاح نيدلاند قائلاً وهو يشرع المدية فى يده متخذًا موقف الدفاع.

ـ حسنًا سنرى أخيرًا.

فقلت وأنا أخشى التناقض فى حديثى:

ـ نعم. ولكن الموقف لا يزال غامضًا.

فقال كونسايل الهادئ:

ليتذرع سيدى بالصبر.

وأتاحت لى إضاءة الغرفة فجأة الفرصة لفحصها بإمعان، فإذا هى لا تشتمل إلا على مائدة وخمسة مقاعد، أما الباب الخلفى فكان مغلقًا بطريقة مجهولة ـ ولم يكن ثمة صوت يصل إلى أسماعنا، وقد بدا كل شىء ساكنًا داخل الجهاز. فهل تراه كان يتحرك أم كان ثابتًا على سطح المحيط، أم غائصًا فى الأعماق؟ ذلك ما لم أستطع أن أتكهن به.

وأيا كان الأمر، فإن الكرة المضيئة لم ترسل ضوءها بدون سبب، وكنت أرجو ألا يطول الوقت حتى يكشف البحارة عن وجودهم، وكان لهذا الشعور ما يبرره فلم نلبث أن سمعنا صليل مزاليج وقضبان تسحب، ثم فتح الباب وأقبل رجلان، أحدهما قصير القامة، مفتول العضلات، عريض الكتفين، كبير الأطراف ضخم الرأس غزير الشعر أسوده كثيف الشارب، ينم كل شىء فى مظهره عن حيوية أهل الجنوب التى تميز أبناء الأقاليم فى فرنسا.

أما الثانى فهو جدير بمزيد من الإسهاب فى الوصف. لقد طالعت على الفور سمات السيطرة مرتسمة على وجهه الساخر: «ثقة بالنفس يدل عليها ثبات ارتكاز رأسه على كتفيه. وانطلاق النظرات من عينيه السوداوين فيما حوله ببرود الواثق من قوته، وسكون مرجعه إلا أن لون بشرته يدل» على هدوء الدماء فى عروقه، ونشاط يتمثل فى سرعة اختلاج حاجبيه، وشجاعة لأن تنفسه العميق ينبى عن انطلاق وحيوية. لقد أحسست رغمًا عنى بطمأنينة فى وجودى معه، وتوقعت أن أجد الخير على يديه. وكان يبدو فيما بين الخامسة والثلاثين والخمسين وكان طول قامته واتساع جبينه واستقامة أنفه ودقة فمه، وجمال أسنانه، ورقة يديه تنم

كلها عن حدة المزاج، والواقع أنه كان أبدع طراز بين الرجال صادفته فى حياتى: وكانت ثمة خاصة غريبة بصدد عينيه اللتين كانتا تتباعدان بعض الشيء، فقد كانت لهما القدرة على أن تشملا بنظرة واحدة ربع الأفق. وقد اقترنت هذه الميزة التى بينتها فيما بعد بقوة إبصار تفوق حتى قوة نيدلاند. فإذا أراد هذا الرجل أن يتبين شيئًا، قطب حاجبيه وضم جفنيه ليختصر مدى الرؤية والنتيجة هى نظرة تنفذ إلى أعماق الإنسان. إنه بهذه النظرة يخترق الأمواج السائلة التى تبدو غامضة لنا وكأنما يقرأ ما فى أغوار البحر.

وكان كلاهما يغطى رأسه بقلنسوة من فراء كلب البحر ويلبس حذاء من جلد سبع البحر. وملابس من نسيج خاص يسمح لهما بالمزيد من حرية الحركة.

وأخذ أطولهما وكان يبدو بوضوح أنه الرئيس، يفحصنا فى عناية بالغة دون أن ينطق بكلمة. ثم استدار نحو صاحبه وتحدث إليه بلغة لم أستطع أن أفهمها. كانت لغة ذات رنين وتناسق ومرونة بدت فيها حروف الحركة منوعة فى أساليب نطقها.

فأجاب الآخر بهزة من رأسه وهو يفوه بكلمتين أو ثلاث بلغة غير مفهومة وبدا من نظراته أنه يوجه السؤال إلى مباشرة.

فرددت بلغة فرنسية سليمة قائلاً: إننى لا أفهم لغته، ولكن بدا لى أنه لا يفهم الفرنسية، وهكذا ازداد الموقف حرجًا.

وقال تابعى كونسايل:

- إذا سرد سيدى قصتنا، فربما استطاع هذان السيدان أن يفهما بضع كلمات منها.

وبدأت فى سرد مغامرتنا. بنبرات واضحة دون أن أترك أدق التفاصيل.

وذكرت أسماءنا وصفاتنا وأخذ الرجل ذو العينين الرقيقتين الهادئتين ينصت إلىّ بهدوء بل وفى تأدب واهتمام ملحوظ ولكن لم يبد على وجهه ما يدل على الفهم. ولما فرغت لم يفه بكلمة واحدة.

وكان ثمة وسيلة أخرى وهى اللغة الإنجليزية ـ فلعل أحدهما يفهم هذه اللغة الواسعة الانتشار وكنت أحسن القراءة بالألمانية أيضًا، وإن لم أكن أحسن التحدث بهما. لذلك قلت لنيدلاند:

ـ جاء دورك يانيدلاند. استفد من إتقانك للغة الإنجليزية. عسى أن تكون أكثر منى توفيقًا.

ولم يكن نيدلاند بحاجة إلى إغراء فما لبث أن راح يقص أمرنا بالإنجليزية. ثم انتهى بقوله صدقًا، إننا نكاد نموت جوعًا. ولشد ما كان اشمئزازه حين أدرك أنه لم يكن أكثر توفيقًا منى. فإن زائرينا لم يبد عليهما أدنى تأثر. وكان واضحًا أنهما لا يعرفان الفرنسية أو الإنجليزية. وبينهما كنت أفكر فيما ينبغى أن نفعل بعد هذا، إذا بكونسايل يقول لى:

ـ هل يسمح لى سيدى أن أتحدث إليهم بالألمانية؟

فهتفت قائلا:

ـ ماذا؟ أتعرف الألمانية؟

ـ كما يعرفها أبناؤها.

ـ حسنًا! ابذل جهدك يا صاحبى.

وأخذ كونسايل للمرة الثالثة يسرد قصتنا ولكن دون جدوى.

وعندئذ استجمعت كل ما تعلمته من اللغة اللاتينية فى المدرسة، وتحدثت عن مغامرتى بهذه اللغة القديمة، ولو أن شيشرون سمعنى لأصم أذنيه وأرسلنى إلى المطبخ. ولكننى رغم كل ما بذلت من جهد كانت النتيجة سلبية.

وبعد هذه المحاولة الأخيرة، تبادل الرجلان كلمات قليلة بلغتهما المجهولة، ثم انصرفا دون أن يبدو منهما ما يطمئننا. وأغلق الباب خلفهما.

وانفجر نيدلاند غاضبًا للمرة العشرين وصاح قائلاً:

ـ هذا أمر شائن. كيف نتحدث إلى هؤلاء الأوغاد بالفرنسية والإنجليزية والألمانية واللاتينية دون أن يتأدب أحدهما ويرد علينا.

فقلت لصاحبى الغاضب:

- هدئ نفسك، فإن الغضب لن يجدى نفعًا.

فاستمر نيدلاند فى غضبه قائلاً:

- ولكن هل تعلم ياسيدى البروفسور أنه من الممكن أن نموت جوعًا فى هذا القفص الحديدى؟

فقال كونسايل:

- آه. إن فى مقدورنا بشىء من الفلسفة أن نقاوم فترة أخرى.

فقلت:

- ينبغى يا صاحباى ألا نركن لليأس. فقد كنا قبل الآن فى ظروف أسوأ من هذه أرجو أن تتفضلا بالانتظار قبل أن تصدروا الحكم على ربان هذه العائمة وملاحيها.

فقال نيدلاند:

- لقد انتهيت إلى رأى فى هؤلاء الناس. أنهم أوغاد.

- حسنًا. وإلى بلد ينتمون. بهذا الوصف؟

- بلد الأوغاد..

- ياصاحبى نيد الفاضل. إن هذا البلد لم يسجل بعد على خريطة العالم بما فيه الكفاية. وأنا أعترف أن من العسير معرفة جنسية هذين الرجلين. فلا هما إنجليزيان أو فرنسيان أو ألمانيان هذه حقيقة مؤكدة. وعلى كل حال فإنى أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الريان ومساعدهما من البلاد الجنوبية. فإن لهما سمات أبناء البحر الأبيض المتوسط. ولكن هل هما من الإسبان أو الأتراك أو العرب أو الهنود؟ إن هيئتهما لا تيسر لنا التأكد من هذا أما لغتهما، فهى غير مفهومة إطلاقًا.

فقال كونسايل:

- هذه مساوئ عدم الإلمام بكل اللغات، أو مساوئ عدم الاقتصار على لغة

عالمية واحدة.

فقال نيدلاند:

- ما كان هذا ليجدينا نفعًا. ألا ترى أن لهؤلاء الناس لغة خاصة. لغة اخترعوها بقصد إدخال اليأس على نفوس أمثالنا من الشرفاء الذين يطلبون الطعام؟ ولكن فى أى بلد فى العالم إذا أنت فتحت فمك وحركت فكيك ثم أطبقت أسنانك وشفتيك فهم الناس ما تريد. ألا تعنى هذه الحركات فى كندا وفى جزائر سوسيتى مثلما تعنى فى باريس وغيرها من البلاد أنك جائع وتطلب ما تأكله؟

فقال كونسايل:

- أوه. هناك أناس يبلغ بهم عدم الفهم أن..

وبينما هو يفوه بهذه الكلمات فتح الباب، ودخل خادم يحمل إلينا ملابس كتلك التى كان يرتديها الغريبان فأسرعنا بارتدائها.

وفى خلال ذلك كان الخادم الذى بدا لنا أصم أخرس هو أيضًا يضع على المائدة أدوات الطعام لثلاثة أشخاص.

فقال كونسايل:

- هذه بوادر مشجعة.

وقال نيدلاند:

- أراهن بكل تأكيد أنه لا يوجد هنا شىء يصلح للأكل. ربما لا يزيد عن كبد السلحفاة البحرية أو زعانف سمك القرش، أو شرائح كلب البحر.

فقال كونسايل:

- سنرى قريبًا.

ووضعت الأطباق ذات الأغطية الفضية على المائدة فى نسق جميل ينم عن مدنية هؤلاء الذين سنتعامل معهم. ولولا ذلك الضوء الكهربائى الذى كان يغمرنا لتصورت نفسى جالسًا فى فندق آدلفى بمدينة ليفربول أو فى الجراند أوتيل

باريس. ولم يكن على المائدة خبز أو خمر. لا شىء غير الماء القراح الذى لم يكن مستساغًا لنيدلاند بأية حال. ومن بين ألوان الطعام التى وضعت أمامنا تعرفت على أنواع كثيرة من الأسماك المطهوة بإتقان. ولكن كان بينها أنواع أخرى لم أستطع معرفتها رغم طيب مذاقها. ولم يكن فى مقدورى أن أعرف موطنها من دول العالم. وكانت أدوات الطعام أنيقة، تدل على الذوق الجميل، وكل قطعة منها كانت تحمل الحرف «ن» مع هذا الشعار:

«الحركة فى قلب الحركة»

أى حركة مستمرة فى قلب شىء متحرك. أما الحرف «ن» فلا شك أنه الحرف الأول من اسم الرجل الغامض الذى يسيطر على أغوار المحيط.

وكان نيدلاند وكونسايل فى شغل عن هذه الملاحظات بالتهام كل ما وضع أمامهما. وقد انتهى أمرى بأن حذوت حذوهما.

وأخيرًا أحسسنا بالشبع، ثم بالرغبة فى النوم، وهو رد فعل طبيعى بعد الإرهاق الذى أحسسنا به خلال تلك الليلة التى لا نهاية لها ونحن نكافح الموت.

وما أن رقد صاحباى على السجادة حتى استغرقا فى نوم عميق، ولكنى لم أنم بهذه السرعة فقد كانت الأفكار العديدة تملأ ذهنى، كما أخذت المشكلات الكثيرة التى تواجهنا تطالبنى بالحل، وظلت الخيالات والصور تطرد النوم عن عينى: فأين نحن؟ أية قوة عجيبة تحملنا فى أحشائها؟ لقد شعرت، أو خيل إلىّ، بهذه الآلة العجيبة تغوص بنا إلى أعمق أعماق البحر واستبدت بذهنى الأحلام مفزعة. فرأيت فى طيات هذه الأحلام عالمًا خفيًا من الحيوانات من بينها هذه الغواصة التى بدت حية، متحركة، هائلة مثلها. وأخيرًا هدأت أفكارى واندمجت خيالاتى فى عالم الأحلام ثم سرعان ما استغرقت فى نوم عميق.

الفصل التاسع

غضبة نيدلاند

لم أدر كم لبثنا نيامًا، ولكن لابد أننا نمنا فترة طويلة، لأننا أحسسنا بالراحة بعد الإرهاق الشديد. وكنت أول من استيقظ، أما صاحباى فلم يتحرك أحدهما.

ولم تمض فترة على قيامى من فراشى الصلب حتى شعرت بصفاء فى ذهنى وجعلت أتلفت حولى.

لم يتغير شىء فى الغرفة. فقد ظل السجن سجنًا، والسجناء على حالهم. وانتهز الخادم فرصة نومنا فرفع أدوات الطعام عن المائدة. ولم يكن ثمة ما يدل على قرب حدوث أى تغيير فى حالتنا وقد سألت نفسى جادًا هل قدر علينا أن نعيش أبدًا فى هذا القفص؟

لقد بدا هذا الاحتمال أبعث على الأمل، لأنى كنت أشعر رغم صفاء ذهنى بانقباض فى صدرى كان الهواء الكثيف يثقل على رئتى. والظاهر أننا استنفدنا الجزء الأكبر من الأوكسجين فى الغرفة رغم اتساعها. فإن الفرد يستنفد فى الساعة الواحدة الأوكسجين الموجود فى نحو ٨٥ لترًا من الهواء وهذا الهواء بعد أن يثقل بمثل هذه الكمية من ثانى أوكسيد الكربون يغدو غير محتمل.

وكان من المحتم إذن تجديد جو سجننا بأقرب وقت، بل جو الغواصة غالبًا، وتبعًا لذلك عرض لذهنى هذا السؤال: «ماذا يفعل ربان هذا المسكن العائم؟ هل يحصل على الهواء بوسائل كيمائية وذلك بالعمل على امتداد حرارة الأوكسجين

الموجود فى كلورات البوتاسيوم، بامتصاص ثانى أوكسيد الكربون بالبوتاسيوم الكاوى؟ وفى هذه الحالة لا بد له من الاتصال باليابسة ليحصل على المواد اللازمة لهذه العملية. هل يقتصر على تزويد الغواصة باحتياطى من الهواء المضغوط فى اسطوانات ضخمة ثم يطلقه وفقًا لاحتياجات رجاله؟

ربما، أم لعله يتبع الوسيلة الطبيعية الاقتصادية البسيطة فيرتفع بالغواصة إلى سطح البحر للتنفس، كالثدييات الهائلة - ثم يجدد مؤونته من الهواء النقى كل أربع وعشرين ساعة؟ أيا كانت وسيلته فى هذا الشأن، فقد بدا لى أن الوقت قد حان للعمل دون أى تأخير.

واضطررت إلى مضاعفة التنفس لاستخلاص الكمية القليلة الباقية من الأوكسجين فى الغرفة وفجأة أنعشنى تيار هواء نقى محمل برائحة المياه المالحة. إنه هواء البحر باعث الحياة الذاخر باليود.

وفتحت فمى على سعته، فتشبعت رئتاى بالذرات الرطيبة وشعرت فى الوقت نفسه بالمركب تأرجح والظاهر بأن الوحش المكسو بألواح الحديد ارتفع كالحيتان. ولما شبعت تنفسًا، تلفت حولى أبحث عن جهاز التهوية الذى جاءنا بالنسيم المنفس الرحيم، ولم يطل بى الوقت حتى عثرت عليه.

وبينما أنا منشغل بهذه الملاحظات استيقظ صاحباى فى نفس الوقت تقريبًا. ولا شك أنهما استيقظا بتأثير الهواء المنعش. وقد فرك كلاهما عينيه وتمطى. ونهض على الأثر وقال لى كونسايل بأدبه المعهود:

- هل نام سيدى مستريحًا؟

- جدًا.. وأنت يا نيدلاند؟

- نمت نومًا عميقًا يا سيدى البروفسور، ولكننى - إذا صح ظنى - أتنفس الآن هواء البحر.

كانت هذه حقيقة لا يخطئ فهمها أحد من رجال البحر. وقد أخبرت الكندى بما حدث أثناء نومه فقال:

- إن هذا يفسر الهدير الذى سمعناه حين كان الكركدن البحرى المزعوم على مرمى النظر من السفينة إبراهام لنكولن.

- نعم يانيدلاند كان ذلك صوت تنفسه.

- ترى ما الوقت الآن إلا إذا كنا فى وقت العشاء.

- وقت العشاء يا نيد! قل ساعة الإفطار على الأقل، فإننا فى الواقع قد نمنا نحو أربع وعشرين ساعة.

فقال نيدلاند:

- لن أجادلك. ولكن سواء كنا فى وقت العشاء أو الإفطار فإنى على استعداد للترحيب بالخادم إذا جاءنا بأحدهما.

فقال كونسايل:

- بل بالاثنين معًا.

فقال الكندى:

- نعم بالتأكيد. فإن لنا الحق فى وجبتين، وأنا مستعد من ناحيتى لأن أقوم بالواجب نحوهما.

فقلت:

- حسنًا يانيد. لابد لنا من الانتظار.. فالواضح أنه ليس فى نية هذين الرجلين تركنا نموت جوعًا، وإلا لما كان هناك داع لتقديم طعام العشاء لنا أمس.

فقال نيد:

- إلا إذا فعلوا ذلك بقصد تسميننا.

فقلت:

- إننى أحتج. فنحن لم نقع فى أيدى أكلة لحوم البشر.

فقال الكندى بلهجة الجد:

ـ من يدرى؟ فلعل هؤلاء الناس حرموا طويلاً من اللحوم الطازجة.

وفى هذه الحالة سيرحبون طبعًا بلحم أشخاص أصحاء أقوياء كالأستاذ وتابعه وأنا.

فقلت:

ـ اطرد هذه الأفكار يانيدلاند. وأهم من هذا كله ينبغى ألا تدع الغضب يفسد علاقتنا بمضيفنا وإلا زاد موقفنا سوءًا.

فقال صياد الحيتان:

ـ أيًا كان الأمر، فأنا أشعر بأشد الجوع، وسواء كنا فى وقت العشاء أو الإفطار، فإن الطعام لم يصل بعد.

فقلت له:

ـ لأنه يجب أن تخضع للنظام المتبع فى المركب. ويبدو أن ساعة بطوننا متقدمة عن مواعيد الطعام هنا.

فقال كونسايل بهدوء:

ـ علينا إذن أن نضبط ساعات بطوننا.

فرد عليه الكندى المتضجر قائلاً:

ـ هكذا أنت دائمًا ياكونسايل، لا تستخدم قط أعصابك أو عصارتك الهضمية. دائمًا هادئ بوسعك أن تصلى على روحك فى ساعة الاحتضار وأن تموت جوعًا دون شكوى.

فقال له كونسايل:

ـ وما فائدة الشكوى؟

ـ إن الشكوى مفيدة. إنها تخفف عن الإنسان إحساسه بالضيق. وإذا كان هؤلاء القراصنة، وأنا أقول القراصنة حتى لا أغضب البروفسور الذى لا يحب أن أسميهم أكلة لحوم البشر. إذا كان هؤلاء القراصنة يحسبون أنهم سيبقوننى فى

هذا القفص لأموت مختنقًا دون أن يسمعوا رأيى فيهم، فإنهم مخطئون. هلم يا مسيو أروناكس لنتحدث بصراحة، هل تظن أنهم سيبقوننا طويلاً فى هذا القفص الحديدى؟

- أصارحك يا صديقى لاند أنى لا أعرف عن هذا الأمر أكثر مما تعرف.

- ولكن ما هو رأيك الخاص؟

- فى رأيى أن المصادفة جعلتنا نطلع على سر خطير، فإذا كان من صالح أصحاب هذه الغواصة المحافظة على هذا السر، وإذا كان صالحهم هذا أثمن من حياة ثلاثة أشخاص، فاعتقادى أن حياتنا معرضة لأشد الخطر. أما إذا كان الأمر بالعكس، فإن هذا الوحش الذى ابتلعنا سينتهز أول فرصة ليلفظنا إلى العالم المأهول بأمثالنا.

فقال كونسايل :

- إلا إذا أدمجنا فى عداد بحارته. وعندئذ يحتفظ بنا هكذا.

فرد نيدلاند قائلاً:

- حتى تلتقى بنا سفينة أسرع أو أبرع من إبراهام لنكولن، فتسيطر على وكر هؤلاء القراصنة، وترسلهم ونحن معهم إلى حيث نلفظ أنفاسنا الأخيرة على أطراف سارياتها.

فقلت له:

- أحسنت الاستنتاج يا نيدلاند. ولكنى أعتقد أن اقتراحًا كهذا لم يعرض علينا بعد، وإذن فمن العبث أن نناقش ما سيكون عليه موقفنا فى تلك الحالة. أعود فأقول إنه لابد أن ننتظر، وأن نقدر الظروف، وألا نفعل شيئًا. إذ ليس ثمة ما يمكن فعله.

فأجاب صياد الحيتان الذى لم يشأ النزول عن رأيه:

- بالعكس يا سيدى البروفسور. فالواجب ألا نقف مكتوفى الأيدى.

- وماذا نفعل؟

- نهرب.

- إن الهرب من سجن على اليابسة من الأمور الصعبة غالبًا. أما الهرب أما الهرب من سجن فى غواصة فهو فى رأيى مستحيل.

فقال كونسايل:

- تكلم يا صديقى نيد؟ ما رأيك فى اعتراض البروفسور؟ لا أعتقد أن الأمريكى ضعيف الحيلة.

لم يسع نيدلاند إلا أن يلزم الصمت محرجًا. فإن الهرب فى ظروف كالتى فرضتها علينا المصادفات أمر جد مستحيل. ولكن الكندى نصفه فرنسى، وقد بدا هذا فى جوابه، إذ قال بعد تفكير دام دقائق.

- إذن يامسيو أروناكس أنت لا تدرى ماذا ينبغى أن يفعل من لا يستطيعون الإفلات من سجن؟

- لا أدرى يا صديقى.

- إن الأمر جد يسير.. عليهم أن يعدوا أنفسهم للبقاء فيه.

- فقال كونسايل:

- أعتقد هذا. فإن البقاء فيه أفضل من الإقامة فوق سطحه أو تحت قاعه..

وأضاف نيدلاند بقوله:

- ولكن بعد أن تلقى بالحراس والسجانين فى خارجه؟

- ماذا يا نيد؟ أتفكر جديًا فى الاستيلاء على هذه السفينة؟

- نعم كل الجد.

- إن هذا مستحيل.

- كيف يستحيل هذا يا سيدى؟ قد تسنح لنا الفرصة المناسبة ولا أرى ما يمنعنا من انتهازها. فإذا كان فى هذه الآلة عشرون رجلاً، فلن يخنقوا فرنسيين وكنديًا، فيما أظن.

كان من الأفضل أن أسلم برأى صياد الحيتان على أن أجادله، وهكذا اكتفيت بأن رحت أقول:

- دع مثل هذه الفرصة تسنح يا مسترلاند، وسترى بعد ذلك. ولكنى أرى فى خلال هذا أن تحد من ضجرك، فنحن لا نستطيع أن نتصرف إلا بالحيلة، ولن نستطيع اقتناص الفرص السانحة بالاستسلام للغضب. عدنى إذن أنك ستقبل الموقف دون مزيد من الغضب.

فقال نيدلاند فى لهجة تبعث على تمام الطمأنينة:

- أعدك يا بروفسور ألا تبدر من فمى كلمة عنيفة واحدة، وألا تصدر عنى حركة تنم عن الغضب، حتى لو أنهم قاموا على خدمتنا على المائدة بغير اللياقة المنشودة.

فقلت له:

- إنى أسجل عليك هذا الوعد يا نيد.

وتوقفت المحادثة عند هذا الحد، وأخلد كل منا إلى أفكاره الخاصة. وأقرر من ناحيتى، ورغم توكيدات صياد الحيتان أنى لن أستسلم للأوهام. فإنى لم أسلم باحتمال سنوح الفرص المواتية التى تحدث نيدلاند عنها. فلكى تدار الغواصة على هذه الصورة الناجحة لابد أن يكون لها قوة كبيرة من الملاحين، وتبعًا لذلك يتعين علينا فى حالة الاشتباك، أن نواجه رجالاً موفورى العدد وفوق هذا وأهم من هذا كله، يجب أن نكون أحرارًا وليس الأمر كذلك بل لم أر وسيلة ما للخروج من هذه الزنزانة الحديدية المحكمة من حولنا. وإذا كان لربان هذه الغواصة سر يخفيه - وهو أمر يبدو محتمل على الأقل - فإنه لن يسمح لنا بحرية التنقل على سطحها. والآن هل يعمد إلى التخلص منا بالعنف أم يلقى بنا فى ركن قصى من أركان الأرض؟ هذا كله من الأمور المجهولة. لقد بدت لى هذه النظريات جد محتملة. ولابد أن يكون الإنسان صياد حيتان لكى يخامره الأمل فى اقتناص حريته مرة أخرى.

وبدا لى أن نيدلاند يزداد غضبًا بتأثير الأفكار التى استحوذت على عقله فقد سمعته يغمغم بالسباب فى صوت خفيض خشن، ورأيت فى نظراته مرة أخرى أمارات التهديد والوعيد. وما لبث أن نهض وراح يذرع الغرفة كالوحش السجين فى قفص، وضرب الجدران بقدمه وقبضة يده. وفضلاً عن هذا فإن الوقت كان ينصرم، والجوع تشتد وطأته، وفى هذه المرة لم يظهر الخادم. فإذا كان هؤلاء الناس يريدون بنا خيرًا حقًا، فقد أسرفوا فى نسيان حالتنا المحزنة.

وتزايد غضب نيدلاند وهو يتعذب بوخزات معدته القوية، حتى خشيت رغم وعده لى أن ينفجر فى وجه رجال الغواصة عند حضورهم مرة أخرى.

وانصرمت ساعتان أخريان، واشتد غضب نيدلاند، فراح يصرخ وينادى بأعلى صوته، ولكن دون جدوى. فقد كانت الجدران الحديدية صماء، وبدت الغواصة ساكنة تمامًا، وغدا السكون مرهقًا شديد الوطأة.

ولم أعد أجرؤ على التفكير مرة أخرى فى المدة التى قد نبقى فيها مهملين منعزلين داخل هذه الزنزانة الحديدية. وأخذت الآمال التى كنت أتصورها بعد أن تتيسر لى مقابلة ربان السفينة تتلاشى واحدًا بعد الآخر. واختفت من ذاكرتى الصورة التى كونتها عن الرجل، من نظرة رقيقة، وأمارات للكرم على وجهه، ونبل فى مظهره، وعدت أتصور صاحب هذه الشخصية الغامضة كما ينبغى أن يكون رجلا قاسيًا لا يرحم. أحسست أنه بعيد عن محيط الإنسانية. لا تنفذ إليه مشاعر الرحمة. عدو لدود لإخوانه فى البشرية، نذر لهم كراهية لا تخبو أوارها.

ولكن هل ينوى هذا الرجل إذن أن يدعنا نهلك جوعًا وإعياء فى هذا السجن الضيق، فيدفعنا إلى ارتكاب الأعمال الفظيعة التى يفضى إليها الجوع الوحشى؟ إن هذه الفكرة المرعبة التى استبدت بذهنى، وجسمها الخيال، مهدت للخوف الأهوج أن يجتاحنى.

أما كونسايل فقد ظل هادئًا. واستمر نيدلاند فى هياجه. وفى تلك اللحظة سمعنا جلبة فى الخارج ووقع أقدام ترن فوق الألواح الحديدية، ثم تحركت المزاليج، وفتح الباب، وأقبل الخادم.

واندفع نيدلاند قبل أن أستطيع منعه نحو القادم المنكود وألقى به أرضًا وأطبق على عنقه، فكاد الخادم يختنق من قبضته القوية.

وبينما كان كونسايل يحاول إنقاذ الضحية من يدى نيدلاند وقد هممت أن أنضم إليه لمساعدته إذا بى فجأة أقف مسمرًا فى مكانى لدى سماعى هذه العبارة فقال بالفرنسية:

هدئ من نفسك يا مستر لاند. وأنت يا بروفسور أرجو أن تنصت لى...

الفصل العاشر

نيمــو

كان المتكلم ربان السفينة. وما أن سمع نيدلاند هذه الكلمات حتى نهض فجأة وانسحب الخادم، الذى كاد أن يختنق، من الغرفة متعثرًا بإشارة من سيده. وقد بلغ من سيطرة الربان على السفينة، أن الخادم لم تبد منه إيماءة تنم عن الامتعاض الذى لابد أنه أحسه حيال الكندى. ووقف كونسايل الذى بدا عليه الاهتمام برغمه، ووقفت أنا مذهولا، ننتظر فى سكون نتيجة هذا الحوار.

ووقف الربان مستندًا إلى جانب المائدة، مشبكًا ذراعيه، ينظر إلينا باهتمام بالغ، وبعد بضع دقائق من الصمت الذى لم يخطر لأحدنا أن يقطعه راح يقول بصوت هادئ نفاذ:

ـ أيها السادة إننى أتكلم الفرنسية والإنجليزية والألمانية، واللاتينية بطلاقة. وكان يمكن أن أرد عليكم أثناء مقابلتنا الأخيرة. ولكنى أردت أولا أن أعرفكم، ثم أفكر بعد ذلك فيما قلتم. إن قصة كل منكم تطابقت فى جوهرها، وقد أكدت لى حقيقة شخصياتكم. وأنا الآن أعرف أن المصادفة هى التى جمعتنى بالبروفسور بيير أروناكس أستاذ التاريخ الطبيعى بمتحف باريس، والمرافق لإحدى البعثات العلمية الأجنبية، وتابعه كونسايل ونيدلاند الكندى صياد الحيتان، وثلاثتكم من ركاب السفينة إبراهام لنكولن إحدى سفن البحرية الأمريكية.

وأجبت على حديثه بإيماءة من رأسى، إذ لم يكن ثمة موجب للجواب، ذلك أن هذا الرجل كان يعبر عما يريد بسهولة تامة، دون أن تشوب حديثه لهجة أجنبية، ومع ذلك شعرت أنه ليس واحدًا من مواطنى.

وقد استطرد فى حديثه قائلاً:

ـ وربما بدا لكم أنى جعلتكم تنتظرون زيارتى الثانية لكم طويلاً. وإنما كان ذلك لأنى بعد أن عرفت شخصياتكم، أردت أن أتدبر فيما ينبغى أن أفعل بكم. وقد ترددت فى هذا طويلاً. فإن أسوأ أنواع المصادفات قد ألقت بكم فى طريق رجل قطع كل علاقة تربطه بالمحيط الإنسانى.. لقد جئتم لتفسدوا علىّ وجودى..

فقلت له :

ـ فعلنا هذا بغير عمد.

فكرر العبارة الأخيرة وهو يرفع نبرات صوته قليلاً:

ـ بغير عمد، هل بغير عمد كانت السفينة إبراهام لنكولن تطاردنى فى كافة البحار؟ هل كان انضمامكم إلى السفينة بغير عمد؟ وهل بغير عمد أصابت قذائفكم سفينتى؟ وهل قذف المستر لاند حربته علينا بغير عمد؟

فرددت عليه قائلاً؟

ـ لاشك أنك لا تعلم مدى الضجة التى سببتها فى أوربا وأمريكا، عندما كانت السفينة إبراهام لنكولن تطاردك فى أعالى البحار، كان جميع من أقلتهم يعتقدون أنهم يطاردون وحشًا بحريًا.

فلاحت على شفتى الربان ابتسامة خفيفة ثم استطرد قائلاً بصوت أهدأ:

ـ هل تجسر أن تؤكد يا مسيو أروناكس أنكم ما كنتم لتطاردوا غواصة كما طاردتم الوحش البحرى؟

وأحرجنى هذا السؤال فإن الربان فارجوت ما كان يتردد فى هذا حتما، كان يعد تدمير مثل هذه الآلة واجبًا محتومًا عليه كواجبه إزاء الوحش البحرى الهائل الذى ظنه أولا.

واستطرد الربان يقول:

- أترى يا سيدى من حقى معاملتكم كأعداء.

لم أُجب بشىء ولسبب جد معقول. فقد كان الريان يملك القوة، وهى تهدم أقوى الحجج.

واسترسل فى حديثه قائلاً:

- لقد ترددت كثيرًا. لاشىء يرغمنى على استضافتكم. فى مقدورى أن أضعكم على سطح هذه الغواصة التى لجأتم إليها ثم أغوص إلى الأعماق وأنسى كل اعتبار بأنه كان لكم وجود. لو فعلت هذا لما كنت إلا مستعملا حقى.

فأجبت قائلاً:

- لعلك تقصد حق رجل الغاب لا حق الإنسان المتمدين.

فأسرع الريان يجيب قائلاً:

- لستُ يا بروفسور من الذين يطلق عليهم وصف الرجل المتمدين. لقد فصمت علاقتى بالمجتمع الإنسانى نهائيًا ولأسباب تبدو فى نظرى طيبة. وإذن فأنا لا أطيع قوانينه، وأحب ألا تشيروا إليها قط مرة أخرى أمامى.

كان يعبر عن رأيه هذا بوضوح وقد امتزجت نظراته بوميض الغضب والاحتقار. وطالعتنى لمحة من ماض رهيب فى حياته. إنه ينزع نفسه من محيط القوانين الإنسانية. بل جعل نفسه مُستقلاً عنها، متحررًا من قيودها إلى أبعد حدود التحرر، فمن إذن يجرؤ على مطاردته إلى أعماق البحار، وهو فوق سطحها يفسد كل الجهود المبذولة منك؟ وأية دروع مهما بلغت قوتها تستطيع احتمال ضربات مهمازه؟ بل ليس هناك رجل يستطيع محاسبته على كلماته إنما حسابه عند الله، وإلى ضميره إن كان له ضمير.

طافت هذه الخواطر بسرعة فى ذهنى بينما كان الرجل العجيب صامتًا، مستغرقًا فى أفكاره منطويًا على نفسه، وتطلعت إليه فى روع ممزوج بالاهتمام، تمامًا كما فعل أوديب وهو يتطلع إلى أبى الهول.

وبعد فترة من الصمت غير وجيزة عاد الريان إلى الحديث. فقال:

ـ لهذا كله ترددت. ولكنى رأيت أنه من صالحى ما قد يتفق مع مشاعر الرحمة التى لا تخلو منها النفس الإنسانية. ومن ثم يمكنكم البقاء فى سفينتى مادام القدر جاء بكم إليها.. سأمنحكم الحرية. وفى مقابل هذه الحرية التى ستكون طبعًا نسبية أطالبكم بشرط واحد. ويكفينى وعد شرف منكم أنكم ستخضعون لهذا الشرط..

فقلت له :

ـ تكلم يا سيدى أظنه شرط يمكن أن يقبله الرجل الشريف.

ـ نعم وهذا هو الشرط: قد تضطرنى أحداث معينة غير منتظرة إلى إبقائكم داخل غرفتكم بضع ساعات أو أيام. ولما كنت راغبًا عن استعمال العنف، فإنى أنتظر منكم فى هذه الحالة، أكثر مما أنتظر من غيركم الطاعة التامة. ووفقًا لهذا التصرف فإنى أحتمل جميع المسئوليات. بل إنى أرفع عنكم كل تبعة عندما أحول بينكم وبين رؤية ما لا ينبغى أن تروه. فهل تقبلون هذا الشرط؟

إذن فقد كانت فى السفينة أمور فريدة، على الأقل، وينبغى ألا يراها من لا يزالون يعيشون فى نطاق القوانين الاجتماعية التى أنكرها الربان وتبرأ منها.

ولم ألبث أن أجبت قائلاً:

ـ قبلنا ولكننى فقط أرجو أن تسمح لى بتوجيه سؤال.. سؤال واحد:

ـ ما هو؟

ـ ما هو مدى الحرية التى ستمنحها لنا؟

ـ حرية التجول داخل الغواصة دون قيد ومشاهدة كل ما يجرى أمامكم إلا فى أحوال نادرة وبعبارة موجزة هى الحرية التى أتمتع بها أنا وزملائى هنا.

وكان جليًا أننا لم نفهم أحدنا الآخر فقلت:

ـ معذرة يا سيدى. لكن هذه الحرية لا تزيد عن حرية السجين فى التجول داخل سجنه... وهى غير كافية لنا.

ـ يجب أن تعدوها كافية.

ـ هل تريد أن تقول إنه ينبغى علينا أن نتخلى عن كل فكرة فى رؤية أوطاننا وأهلينا وأصدقائنا؟

ـ نعم يا سيدى. ولكن التخلى عن ذلك النير الثقيل الذى يسميه الناس بالحرية قد لا يكون مؤلمًا كما تظن.

وعندئذ قال نيدلاند:

ـ أصارحك أنى لم أعدك قط وعد شرف ألا أحاول الهرب.

فقال الريان ببرود:

ـ إنى لم أطلب وعد شرف منك يا مستر نيدلاند.

فقلت: وقد أفلت زمام شعورى برغمى:

ـ سيدى إنك تستغل موقفك تجاهنا. وهذه قسوة.

ـ كلا يا سيدى بل هى الشفقة بعينها. أنتم أسرى حرب عندى. وإنى أبقى عليكم فى حين أن فى استطاعتى بكلمة واحدة أن أقذف بكم إلى أعماق المحيط. لقد هاجمتمونى. لقد جئتم واكتشفتم سر وجودى كله. فهل تظنون أنى سأعيدكم إلى عالمكم مرة أخرى؟ أبدًا.

وأبانت هذه الكلمات عن تشبث الريان بما عقد العزم عليه. وإنه لا جدوى من المناقشة معه.

ولهذا قلت:

ـ إذن فأنت يا سيدى تخيرنا ببساطة بين الحياة والموت؟

ـ كما تقول.

ـ لا جواب عندنا على مثل هذا السؤال. ولكن ليس هناك كلمة شرف يمكن أن تربطنا بسيد هذه الغواصة.

فقال الريان:

ـ هو ذاك يا سيدى...

ثم استطرد يقول برقة:

ـ والآن اسمحوا لى أن أتم ما أريد أن أقوله لكم. إننى أعرفك يا مسيو أروناكس. فأنت ـ دون صاحبيك ـ لن تجد ما تشكو منه فى هذه المصادفة التى ربطت بينك وبينى. لقد قمت بأبحاثك بقدر ما سمحت به العلوم المعروفة على اليابسة. ولكنك على ظهر سفينتى ستتاح لك الفرصة لكى ترى ما لم يره إنسان من قبل. إن كرتنا الأرضية ـ بفضلى ـ ستفضى لنا بأسرارها الأخيرة.

ولست أنكر أن هذه الكلمات تركت أثرًا كبيرًا فى نفسى. لقد لمس نقطة الضعف عندى حتى نسيت برهة أن تدبر هذه المسائل القدسية لا تستحق فقدان الحرية. وفضلاً عن هذا تركت للمستقبل تسوية هذه المشكلة. الخطيرة، وهكذا اكتفيت بأن قلت:

ـ ما هو الاسم الذى نناديك به يا سيدى.

فأجاب الربان:

ـ الربان نيمو. هذا كل ما يجب أن تعرفوه عنى. وكذلك أنتم لن تكونوا بالنسبة لى أكثر من ركاب الغواصة نوتيليوس.

ثم استدعى الربان أحد الخدم، وأصدر إليه أوامره بلغة أجنبية لم أستطع أن أفهمها، ثم التفت إلى نيدلاند وكونسايل وقال لهما:

ـ إن طعامكما معد فى مقصورتكما الخاصة. فأرجو أن تتبعا هذا الرجل.

فغادر رفيقاى فى البلوى الزنزانة التى اعتقلا فيها أكثر من ثلاثين ساعة. والتفت إلىّ الربان قائلاً:

ـ والآن يا مسيو أروناكس. إن إفطارنا معد. اسمح لى أن أتقدمك.

وتبعت الربان نيمو إلى ما يشبه دهليز تضيئه الكهرباء، وهو يماثل ما يوجد بالقسم الأوسط فى السفينة. وبعد مسيرة نحو عشرة أمتار، فتح أمامى باب ثان يفضى إلى غرفة الطعام مزخرفة ومؤثثة بأناقة بالغة. فعلى جانبها رأيت

خزانتان من الخشب البلوط المطعم بالأبنوس، تلمع فوق أرففهما أوانى الخزف والزجاج النفيس وكان فوقهما صحاف انعكس عليها الضوء المرسل من السقف، ولكن خفف من بريقه رقة الطلاء وتناسقه. وفى وسط الغرفة أعدت مائدة إعدادًا أنيقًا. وما لبث الريان نيمو أن أشار إلى مقعدى قائلاً:

- تفضل بالجلوس وتناول طعامك بشهية الرجل الذى يوشك على الموت جوعًا.

وكان طعام الإفطار مجموعة من الأطباق كل محتوياتها من نتاج البحر. وكان بعضها غريبًا فى مادته وفى طريقة إعداده. ورغم طيب مذاقها فقد كانت لها نكهة غريبة لم ألبث أن ألفتها وكان يبدو أنها أكلة غنية بمادة الفسفور.

ونظر الريان نيمو إلىّ - رغم أنى لم أبادره بسؤال، فقد أدرك ما يجول بذهنى وقال:

- إن معظم هذه الألوان من الطعام غريبة عنك. ولكن يمكنك أن تأكل منها دون خوف. فهى صحية ومغذية، وقد استغنيت منذ أمد بعيد عن طعام البر ومع ذلك لم يصبنى سوء. وكذلك بحارتى وهم جميعًا أصحاء، يتناولون هذا الطعام.

- إذن فكل هذه الألوان من إنتاج البحر؟

- نعم إن البحر يمدنا بكل حاجياتنا. إنى ألقى أحيانًا شباك الصيد خلف الغواصة ثم أسحبها وهى تنوء بحمولتها. وأحيانًا أخرى أهبط للصيد فى هذه المناطق التى تبدو بعيدة عن متناول الإنسان فأقتنص الصيد الذى يرتع فى غابات الأعماق. إن قطعانى مثل قطعان الراعى القديم نبتون. ترعى دون خوف فى مروج المحيط الشاسعة، إن لى فيها مزرعة مترامية أقوم بنفسى على فلاحتها، ويمدها خالق الكون بأسره بكل شىء.

فقلت وأنا أنظر إلى الريان نيمو فى شىء من الدهشة:

- أستطيع أن أفهم بسهولة أن شباك صيدك يمكن أن تزود مائدتك بأسماك طيبة وأن فى مقدورك اقتناص أنواع الصيد البحرى فى غابات الأعماق. ولكننى لا أفهم كيف يمكن أن تحصل على ذرة من اللحم الحيوانى البرى.

- إن مـا تظنه يا بروفسـور من لحم حـيـوان البـر، ليس فى الواقع إلا لحم السلحفاة البحرية وأمامك أيضًا طبق من كبد الدرفيل له مذاق لحم الخنزير المطهو بالتوابل. إن طاهى الغواصة رجل بارع تفنن فى إعداد مختلف منتجات البحر. تذوق كل هذه الأطباق. هذه مربى من نبات (الهولوتيورا) البحرى ولو ذاقها أحد أبناء الملايو لقال إنه لا مثيل لها فى العالم. وهذه كريمة مصنوعة من نبات (السيناشيا). وهذا سكر أنتجناه من طحلب (الفوقس) الموجود فى بحر الشمال. وأخيرًا اسمح لى أن أقدم لك حلوى شقائق النعمان المحفوظة التى تضارع ألذ أنواع الفاكهة.

وبينما جعلت أتذوق ألوان الطعام هذه، بدافع الفضول لا بدافع الذواقة الخبير أخذ الربان نيمو يمتعنى بأقاصيصه العجيبة قائلاً:

- والبحر لا يمدنا بالطعام فحسب، بل بالملابس أيضًا، فهذه الملابس التى نرتديها الآن منسوجة من ألياف نوع معين من الأصداف، ومصبوغة بألوان قرمزية مظللة باللون البنفسجى، وهى مستخرجة من نبات (الأبليزيس) الموجود فى البحر الأبيض المتوسط. وإن العطور التى ستجدها على منضدة الزينة فى مقصورتك، مستخرجة كلها من نباتات بحرية. وإن حشايا سريرك مصنوعة من أرق أنواع العشب الموجود فى المحيط. وقلمك مصنوع من زعانف الحوت، ومدادك من كحول مستخرج بوسائلنا الكيمائية كل شىء يأتينا من البحر. وكل شىء سيعود يومًا إليه.

- هل تحب البحر يا كابتن؟

- نعم إننى أحبه. إن البحر لى كل شىء. إن أنفاسه نقية صحية. إنها صحراء هائلة لا يشعر فيها الإنسان قط بالوحشة؛ لأنه يحس بالحياة تنبض حوله فى كل مكان. إن البحر ليس ملكًا للطغاة المستبدين ولا يزال من الممكن فوق سطحه أن تهضم الحقوق، وأن يتحارب الناس. وأن يلتهم بعضهم بعضًا وأن ترتكب كل الفظائع البشرية. ولكن سيطرة هذه القوى تتوقف تمامًا على عمق ثلاثين قدمًا من السطح. وفى هذا العمق البسيط يضمحل نفوذهم. وتختفى قوتهم. نعم

ياسيدى. عش بين أحضان الماء فهناك التحرر والاستقلال. هناك لا سلطان لأحد علىّ. هناك الحرية الكاملة.

وفجأة توقف الربان نيمو إبان حديثه الحماسى. فهل وجد نفسه قد اندفع فى الحديث وتجاوز تحفظه المعهود؟ هل قال أكثر مما يريد؟ لقد راح يذرع الغرفة. وقد اشتد به الانفعال وأخيرًا هدأت أعصابه، واستعاد محياه سكينته المألوفة. ثم التفت إلىّ وقال:

ـ والآن يابروفسور. إذا شئت أن تجوس خلال غواصتى نوتيليوس، فأنا طوع أمرك.

الفصل الحادى عشر

الغواصة نوتيليوس

ونهض الربان نيمو، وتبعته إلى باب مطوى فى الناحية الخلفية من الغرفة، ودلفت منه إلى غرفة فى حجم التى تركناها.

كانت المكتبة، وكانت بها خزانات الكتب العالية المصنوعة من خشب الورد، تحمل أرففها مجموعات كثيرة من الكتب المجلدة تجليدًا فاخرًا، وكانت ممتدة على مدار الغرفة وتنتهى فى أسفلها بأرائك وثيرة مكسوة بالجلد البنى، ومصنوعة بطريقة تهيئ كل أسباب الراحة، وكان ثمة مكاتب خفيفة متحركة تُطوى وتبسط طبقًا لرغبة القارئ. لكى يضع فوقها الكتب أثناء المطالعة. وفى وسط الغرفة رأيت منضدة كبيرة عليها عدة صحف قديمة.

وكان الضوء الكهربائى يغمر هذه المكتبة المتناسقة، وينساب من أربعة مصابيح مصقولة متداخلة إلى نصفها فى فجوات خاصة بالسقف؛ ولذا أثارت هذه الغرفة البالغة الأناقة والانسجام شديد إعجابى حتى لم أكد أصدق عينى.

وقلت لمضيفى الذى ألقى بنفسه على إحدى الأرائك:

- إن لديك هنا يا كابتن نيمو مكتبة يفخر بها أى قصر من القصور العالمية. وإن عجبى ليشتد حين أذكر أن هذه المكتبة الذاخرة تتبعك إلى أعمق أعماق المحيط.

فأجاب الربان بقوله:

- حيث يمكن الاستمتاع بالمزيد من العزلة والهدوء يابرفسور؟ هل كانت مكتبتك فى المتحف تتيح لك مثل هذا الهدوء الشامل؟

- لا ولابد أن أعترف أنها جد متواضعة إذا قورنت بمكتبتك... ولا شك أن مجموعتك تتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف مجلد.

- بل عشرة آلاف مجلد يا مسيو أروناكس. إن هذه المجلدات هى الصلات الوحيدة بينى وبين اليابسة ولكن آخر عهدى بعالمكم يوم أن غطست نوتيليوس تحت سطح الماء لأول مرة وفى ذلك اليوم اشتريت آخر كتبى ومطبوعاتى وصحفى. ومنذ ذلك الحين وأنا أتمنى لو أن الناس عندكم كفوا عن التفكير أو الكتابة. إن هذه الكتب يابرفسور رهن إشارتك. ولك أن تقرأ منها ما تشاء.

فشكرت الريان نيمو، ويممت شطر أرفف المكتبة، فرأيتها تشتمل على مجموعة كبيرة من كتب العلوم والآداب والسلوك بجميع اللغات. ولكنى لم أجد بينها كتابًا واحدًا فى الاقتصاد السياسى. ويبدو أنها ممنوعة تمامًا فى نطاق الغواصة. وقد أثار عجبى ما لاحظته من أن الكتب صفت بغير ترتيب معين من ناحية اللغة التى كتبت بها. وقد دل هذا الاضطراب على أن ربان السفينة يستطيع أن يقرأ بسهولة تامة أى كتاب يقع بين يديه مصادفة.

وقال الريان نيمو:

- ليست هذه مكتبة فحسب، وإنما هى أيضًا غرفة للتدخين.

فهتفت قائلاً:

- غرفة تدخين! هل تدخنون هنا إذن؟

- بالتأكيد.

- إذن فإنى يا سيدى مضطر للاعتقاد بأنك متصل بهافانا!

فأجاب الريان قائلاً:

- لا يامسيو أروناكس. تقبل منى هذا السيجار. ورغم أنه لم يأت من هافانا فإنك ستنعم به إذا كنت عريقًا فى التدخين.

تناولت السيجار الذى قدمه إلى وكان يشبه فى شكله نوع السيجار المعروف باسم «لوندر» ولكن بدا أنه مصنوع من أوراق الذهب. وأشعلته من موقد صغير مثبت فوق قاعدة أنيقة من البرونز، ثم جعلت أمتص أنفاس التبغ الأولى بمتعة المدخن الذى أمضى يومين بلا تدخين. وقلت:

- هذا شىء عظيم. ولكنه ليس تبغًا.

فأجاب الربان:

- كلا إن هذا لم يأت من هافانا ولا من الشرق. إنه نوع من أعشاب البحر، غنى بالنيكوتين، والبحر يمدنى به، ولكن بقدر. فإذا لم تكن مشوقًا إلى سيجار اللوندر، يابرفسور. فلك أن تدخن من سيجارى هذا ما تشاء.

وفيما كان الربان نيمو يتحدث فتح بابًا آخر مواجهًا للباب الذى دخلنا منه إلى المكتبة، فدلفت إلى صالون واسع الأرجاء، ساطع الضوء. كان غرفة رحيبة ذات أربعة جوانب، كسيت جدرانها بالخشب. طولها ثلاثون قدمًا وعرضها ثمانية عشر، وارتفاعها يناهز الخمسة عشر وكان السقف المضىء والمحلى بالنقوش العربية يسكب فيضًا من الضوء الرقيق الواضح على كل العجائب المجمعة فى هذا المتحف، فقد كانت الغرفة فى الواقع متحفًا جمعت فيه يد رجل نابه سخى قدير كل كنوز الطبيعة والفن، ونثرتها فى جوانبها بهذا «الاضطراب» الفنى المعروف فى مراسم الفنانين.

كان بها نحو ثلاثين لوحة مصورة بريشة أكابر الفنانين علقت بين ألوان المنسوجات الموشاة التى تناثرت بينها بألوانها الزاهية.

لقد رأيت لوحات فنية سبق أن أعجبت بكثير منها، فى المجموعات الفنية الخاصة فى أوربا وفى معارض الرسم. والظاهر أن أمارات الذهول التى رآها ربان النوتيلوس مرتسمة على وجهى جعلته يقول:

- أرجو المعذرة يا برفسور عن الطريقة غير اللائقة التى استقبلتك بها وعن اضطراب هذه الغرفة.

فأجبته قائلاً:

- سيدى. هل تسمح لى، دون أن أسعى إلى معرفة شخصك، أن أقول إنك فنان؟

- فنان هاو فقط. وقد كنت فى بادئ الأمر أهوى جمع هذه الآثار الفنية. كنت أجمعها بشراهة وبغير كلل حتى استطعت أن أظفر بأشياء ذات قيمة كبرى. وما تراه الآن هو آخر ما جمعته من عالمكم الذى أصبح فانيا فى نظرى. إن فنانيكم المعاصرين، هم الآن فى نظرى قدامى، مضى عليهم فى خيالى، ألفان أو ثلاثة آلاف سنة وكل أساطين الفن فى رأيى ينسحب عليهم هذا العمر.

فقلت وأنا أشير إلى مجموعات من النوتات الموسيقية للويبر وروسينى وموزار وكثيرين غيرهم رأيتها متناثرة فوق بيانو ضخم مثبت فى أحد جدران الغرفة:

- وهؤلاء الموسيقيون؟

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- إن هؤلاء الموسيقيين - فى رأيى - معاصرون للموسيقار الإغريقى القديم أوريفيوس. إن جميع الفوارق التاريخية تتمحى فى ذاكرة الموتى، وأنا أعد نفسى ميتًا.. ميتًا كأصدقائك الذين ماتوا ودفنوا تحت الثرى.

وتوقّف الربان نيمو عن الحديث، وبدا كأنما استغرق فى تأملات عميقة فرحت أنظر إليه باهتمام بالغ وأنا أحلل فى صمت ما كان يرتسم على وجهه من تعبيرات غريبة. لقد احترمت إخلاده إلى التأمل ورحت أستعرض التحف التى ازدان بها الصالون. وكانت مؤلّفة فى مجموعها من نباتات بحرية، وأصداف وغيرها من منتجات المحيط التى عثر عليها ولاشك الربان نيمو بنفسه. وقامت فى وسط الصالون نافورة مياه مضاءة بالكهرباء. يتساقط رذاذها فى حوض هو عبارة عن صدفة بحرية كبيرة يبلغ محيطها سبع ياردات، وهى من هذه الناحية أكبر حجمًا من الصدفة الكبيرة البديعة التى أهدتها جمهورية البندقية إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا والتى يتكون منها الآن حوضان للماء المقدس فى كنيسة سان سلبيس بباريس.

وكان يحيط بهذا الحوض خزائن زجاجية أنيقة ذات مشابك نحاسية، ضمت أنواعًا من أثمن المنتجات البحرية التى يمكن أن تقع عليها عين عالم طبيعى، صفت مصنفة ومعروفة بأسمائها.

وللإنسان أن يتصور مبلغ سرورى كأستاذ للطبيعيات بما رأيت. فقد شاهدت فى الخزائن مجموعة تجل فى قيمتها عن كل تقدير. وبين الأنواع التى وعتها ذاكراتى، تلك السمكة الملكية الأنيقة المعروفة باسم سمكة المطرقة الموجودة فى مياه المحيط الهندى؛ رأيتها بنقاطها البيضاء المتألقة على أرضية حمراء وبنية. إنها سمكة رائعة، باهرة الألوان، ذات زعانف وأشواك منتصبة. وهى نوع نادر فى متاحف أوربا وقد قدرت ثمنها بثمانمائة جنيه. رأيت سمكة أخرى من هذا النوع صيدت فى بحار أستراليا، وهى لا تقتنى إلا بصعوبة، كما شاهدت أصدافًا هشة بيضاء يمكن أن تطيرها الأنفاس كفقاعات الصابون، وأنواعًا مختلفة من (الأسبروجيلوم) الجاوى: وهو نوع من الأنابيب الجيرية الملفوفة بلفائف ورقية، لها قيمتها الكبرى عند هواة التحف.

ورأيت كذلك مجموعات كاملة من أصداف التروكى. بعضها أصفر مائل للخضرة يوجد فى البحار الأمريكية وبعضها أحمر قاتم وموطنه المياه الاسترالية، وغيرها من خليج المكسيك وهى تمتاز بأصدافها المطرزة الشكل. وكان أندر من هذا كله أصداف نيوزلاندا الرائعة المهمازية الشكل.

وقامت بعيدًا عن كل أولئك وفى أقسام خاصة، عقود من اللؤلؤ باهرة الجمال نفذت إليها الأضواء الكهربائية كألسنة من نار وكان من بينها حبات من اللؤلؤ وردية اللون، انتزعت من أصداف البحر الأحمر. وأخرى خضراء وصفراء وزرقاء وسوداء، استخرجت من المحيطات كافة، ومنها أنواع مستخرجة من المجارى المائية فى بحار الشمال. ورأيت أخيرًا أنواعًا متعددة من اللؤلؤ النادر الذى لا يقدر بثمن جمعت من أندر أنواع المحار. وكان بعض هذه اللآلئ أكبر حجمًا من بيض الحمام، وأغلى ثمنًا من لؤلؤة تابريز التى بيعت لشاه إيران بمبلغ ثلاثة ملايين فرنك، وكانت تفوق اللؤلؤة التى يقتنيها إمام مسقط، واعتقادى أنه ليس لها مثيل.

وإنه لمن المستحيل تقدير قيمة هذه المجموعة. ولابد أن الربان نيمو قد أنفق الملايين فى اقتناء هذه الأنواع المختلفة وفيما كنت أسائل نفسى من أين جاء بالأموال التى تكفى لإشباع هوايته إذا هو يقطع على أفكارى قائلاً:

ـ إنك تفحص يابرفسور مجموعات أصدافى، ومن المؤكد أنها تثير اهتمام أى أستاذ فى علم الطبيعة. ولكن لها فى نفسى مكانة أعظم، لأننى توليت جمعها كلها بنفسى. وليس على سطح الكرة الأرضية بحر لم أبحث فى أعماقه عما أريد.

فقلت له:

ـ إننى أفهم يا كابتن.. أفهم متعة الحياة بين هذه الكنوز. فأنت أحد الذين يجمعون الكنوز لذاتها ولا يوجد فى أوربا متحف يضم مثل هذه المجموعات من منتجات البحار. ولكن إذا أنا قصرت كل إعجابى عليها فلن يبقى مزيد من الإعجاب أسبغه على السفينة التى تحمل الكنوز.

ولست أريد أن أنفذ إلى أسرارك، ولكن لا مفر لى من الاعتراف بأن الغواصة نوتيليوس بما فيها من قوى محركة، وبالكيفية البارعة التى تدار بها، وبالآلات الدافعة التى تسيرها ـ كل أولئك يذكى فى نفسى أشد الفضول. إنى أرى مثلاً ـ على جدران هذه الغرفة ـ آلات معلقة أجهل طريقة استعمالها.

ـ عندما قلت لك أنك مطلق الحرية فى غواصتى هذه، كنت أعنى أن كل جزء فيها مباح لك فحصه ودراسته. إن الآلات سوف تراها فى غرفتى، حيث يسعدنى إطلاعك عليها. ولكن تعال معى لتلقى نظرة على مقصورتك الخاصة.

وتبعت الربان نيمو الذى غادر الصالون من أحد أبوابه الكثيرة التى تبدو وهى مغلقة كأنها ألواح فى الجدار، حتى وصلنا إلى وسط الغواصة، ومن هناك قادنى إلى مؤخرتها حيث وجدت أنه لم يخصص لى مجرد مقصورة، بل غرفة أنيقة ذات فراش ومنضدة للزينة، وقطع مختلفة من الأثاث، ولم أستطع إلا أن أشكر مضيفى الذى قال وهو يفتح بابا:

- إن غرفتك مجاورة لغرفتى. وغرفتى تُفضى إلى الصالون الذى غادرناه الآن.

ودخلت غرفة الريان فإذا هى صارمة فى بساطتها وكأنها صومعة ناسك. فلم يكن بها من الأثاث غير سرير حديدى ومكتب وبعض أدوات الزينة، وكان يغمرها جميعًا ضوء قوى. ولم يكن بها شىء من أدوات الترف وإنما ألزم الضروريات وحسب.

وأشار الريان نيمو إلى مقعد وقال:

- تفضل بالجلوس.

ولما أطعت بدأ يتحدث.

الفصل الثانى عشر

كل شىء بالكهرباء

قال الريان نيمو وهو يشير إلى الآلات المعلقة على جدران الغواصة:

- سيدى، هذه هى الآلات اللازمة لقيادة الغواصة نوتيليوس. وهنا كما هو الشأن فى غرفة الصالون، أراها دائمًا أمام نظرى، وهى تحدد مكانى واتجاهى بدقة فى أعماق المحيط. أنت تعرف بعض هذه الآلات.

فأجبته قائلاً:

- نعم إننى أفهم بعض الآلات العادية اللازمة للملاحة البحرية. ولكنى أرى آلات أخرى لاشك لازمة لتلك المطالب الفريدة فى غواصتك، هذا القرص ذو المؤشر المتحرك هو مانيوميتر «مضغط» أليس كذلك؟

- نعم واتصاله بالماء يبين لى مقدار الضغط الخارجى ويحدد مدى العمق فى الوقت نفسه.

- وهذه المقاييس التى أراها من نوع جديد؟

إنها أجهزة لقياس الحرارة فى مختلف الأعماق تحت سطح الماء.

- وهذه الآلات الأخرى لا أستطيع أن أتصور حقيقتها؟

- لابد هنا أولا من بعض الإيضاح. إن فى هذه الغواصة أداة قوية سريعة سهلة طيعة تقوم بأعمال مختلفة، ولها السيطرة الأولى هنا، كل شىء عندنا يتم عن

طريقها، إنها من جهازى الآلى بمثابة الضوء، والحرارة، بل بمثابة الروح. هذه الأداة هى الكهرباء.

- نعم يا كابتن. إن لديك مصدرًا عظيما لسرعة الحركة لا ينطبق تمامًا مع قوة الكهرباء المعروفة. فإن القوة الهائلة في الكهرباء لا تزال حتى يومنا هذا محدودة لا تنتج إلا أيسر القوى.

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- يا سيدى البروفسور. إن القوى الكهربائية التى لدى غير متاحة لغيرى ومعذرة إذا أمسكت عن الإدلاء بمزيد من البيانات.

- وأنا لن ألح يا سيدى، سأقنع بإبداء دهشتى من هذه النتائج العجيبة ولكنى سألقى عليك سؤالاً واحدًا فقط لا لزوم للجواب عنه إن كان سؤالاً غير سديد. إن العناصر التى تستخدمها لإنتاج هذه القوى الكهربائية الفذة لابد أن ينضب معينها. فمادة الزنك مثلاً.. كيف تحصل على حاجتك منها وأنت على غير اتصال باليابسة؟

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- هاك الجواب على سؤالك. ينبغى أن أبين لك بادئ ذى بدء أن فى أعماق البحر مناجم زنك وحديد وفضة وذهب، لا يتعذر استخراج هذه المعادن منها. ولكنى لا أعتمد على هذه المعادن الأرضية، بل عقدت العزم على التماس وسائط توليد الكهرباء اللازمة لى من البحر وحده.

من البحر؟

- نعم يابروفسور. ولم أجد صعوبة فى الاهتداء إلى هذه الوسائط. كان من الممكن الحصول على الكهرباء بإنشاء دورة للتيار الكهربائى بين أسلاك غاطسة فى أعماق متفاوته، فتتولد الكهرباء من فوارق درجة الحرارة التى تتعرض لها الأسلاك. ولكنى آثرت استخدام طريقة أخرى أفضل.

- وما هى؟

ـ أنت تعرف العناصر التى تتولد منها مياه البحر؟ إن كلوريد الصوديوم يكوّن نسبة ملحوظة بينها وأن هذا الصوديوم هو الذى استخرجه من الماء وإذا مزجته بالزئبق ـ استعضت بهذا عن الزنك فى توليد الكهرباء. والزئبق لا ينفد قط، وإنما ينفد الصوديوم ومياه البحر تمدنى به. وفضلاً عن هذا فإن القوى الكهربائية الناتجة من مركبات الصوديوم ضعف القوى المتولدة من مركبات الزنك.

ـ إننى أفهم بوضوح يا كابتن ملاءمة الصوديوم فى الظروف التى تكتنفك. فالبحر يشتمل عليه. هذا بديع ولكن لا يزال عليك أن تستخلصه منه فكيف تفعل هذا؟ إن فى مقدورك طبعًا أن تستخلصه عن طريق جهازك الكهربائى ولكن استهلاك الصوديوم نفسه فى عملية الاستخلاص الكهربائية سيجاوز ما تحصل عليه. وبهذا تستهلك أكثر مما تنتج.

ـ إننى لا أستخدم التيار الكهربائى فى استخلاص الصوديوم من الماء وإنما أستخدم حرارة الفحم.

ـ الفحم؟

فقال الربان نيمو:

ـ سنسميه فحم البحر، إذا شئت.

ـ وهل فى مقدورك استخراج فحم البحر من مناجمه فى أعماق المحيط؟

ـ سوف ترانى وأنا أقوم بهذه العملية يا مسيو أروناكس. وكل ما أسألك هو شىء من الصبر؛ وإن وقتك هنا سيتسع للصبر. إننى أحصل على كل شىء من المحيط.. إنه يولد الكهرباء، والكهرباء تزود الغواصة بالضوء ـ أو بكلمة واحدة بالحياة.

ـ ولكن ليس بالهواء الذى نستنشقه؟

ـ إن بوسعى إنتاج الهواء اللازم لحاجتى. ولكنى لا أفعل، لأنى أصعد إلى سطح البحر كلما أردت. ولكن إذا كانت الكهرباء لا تزودنى بالهواء اللازم

للتنفس، فإنها تدير المضخات الكبيرة التى تختزنه فى أسطوانات خاصة تتيح لى عند الضرورة أن أطيل بقائى تحت سطح الماء ما شئت.

فقلت له:

- سيدى الريان. إننى لا أستطيع إلا إبداء إعجابى. لقد اكتشفت ما سوف يتهيأ للإنسان اكتشافه فى يوم ما، ولا شك وأعنى بهذا القوة الجبارة الهائلة التى فى الكهرباء.

فقال الريان نيمو ببرود:

- لست أدرى إذا كان الجنس البشرى سوف يوفق إلى هذا الكشف، وأيا كان الأمر فإنك تعرف الآن التطبيق الأول الذى حققته من هذه الأداة الثمينة. إنها الكهرباء التى تمدنا بضوء يفوق ضوء الشمس نفسه ثباتًا ودوامًا. انظر الآن إلى هذه الساعة. إنها ساعة كهربائية، وهى بدقتها تتحدى أحسن الساعات المعروفة باسم الكرنومتر. لقد قسمتها إلى أربع وعشرين ساعة، كما هو الشأن فى الساعات الإيطالية، إذ لا يوجد بالنسبة إلىّ ليل أو نهار، ولا شمس ولا قمر... وإنما هو هذا الضوء الصناعى الذى أهبط به إلى الأعماق. إن الساعة الآن العاشرة صباحًا.

- نعم. هذا هو الوقت بالتحديد.

إن هذا القرص المدلى أمامنا يشير إلى سرعة الغواصة... إنه متصل عن طريق سلك كهربائى بالرفاص. انظر. إننا الآن نسير بسرعة متوسطة مقدارها خمسة عشر ميلاً فى الساعة.

ثم استطرد الريان نيمو قائلاً وهو ينهض:

- لكننا لم نفرغ بعد. إذا تبعتنى فسنذهب إلى القسم الخلفى فى الغواصة.

وتبعت الريان نيمو فى القسم الأوسط إلى حيث رأيت ما يشبه البئر بين حاجزين مانعين للماء. وكان ثمة سلم حديدى مشدود بمشبك من الصلب إلى أحد الحاجزين يفضى إلى الطرف العلوى. ولما سألت الريان عن الغرض من وجود هذا السلم.

قال:

ـ إنه يؤدى إلى الزورق.

فقلت بدهشة:

ـ ماذا: ألديك زورق؟

ـ مؤكد. زورق رائع، خفيف متين. غير قابل للغرق يصلح للصيد أو للنزهة.

ـ إذن فكلما أردت ركوب الزورق تضطر للصعود بالغواصة إلى سطح الماء.

ـ كلا مطلقًا إن الزورق مثبت بسطح الغواصة فى فجوة خاصة به. وله سطح عازل يمنع عنه تسرب الماء. وهو مشدود إلى الغواصة بأربطة من الصلب. وهذا السلم يؤدى إلى فجوة فى سطح الغواصة تتصل بأبواب عازلة بفجوة مماثلة فى مكان الزورق، وعن هذا الطريق أستطيع الوصول إليه. ثم أغلق أنا الباب الثانى المؤدى إلى الزورق. وذلك بالضغط اللولبى. وأخيرًا أدخل الزورق، وأفك الأربطة، فيندفع صاعدًا إلى سطح الماء بسرعة كبيرة، ثم أفتح الباب المؤدى إلى سطحه، ثم أنصب الشراع وأمسك بالمجدافين وأنطلق حيث أريد.

ـ ولكن كيف تعود؟

ـ إنى لا أعود إلى الغواصة، بل هى تأتى إلى.

ـ بأمر منك؟

ـ نعم ويتم الاتصال بينى وبينها بسلك كهربائى. وهكذا أبرق إليها بتعليماتى.

فقلت وأنا فى نشوة من هذه العجائب:

ـ ليس هناك ما هو أبسط من هذا حقًا.

وبعد أن تجاوزنا درجات سلم يؤدى إلى إفريز الغواصة، رأيت مقصورة طولها نحو أربعة أمتار جلس فيها نيدلاند وكونسايل يلتهمان الطعام. وكان بعدها باب يفضى إلى المطبخ طوله تسعة أقدام، يقع بين مخازن الغواصة الرحيبة، وفيه تستخدم الكهرباء فى الطهى بدلاً من الغاز. فقد مدت تحت المواقد أسلاك كهربائية متصلة بشبكات من البلاتين، يتم عن طريقها توزيع الحرارة وضبطها

بانتظام. كما أن هذه الأسلاك كانت تمد بحرارتها جهازًا للتقطير يهيئ بعملية التبخير، مياه الشرب النقية. ومن المطبخ تفرع حمام فاخر مزود بصنابير للماء البارد والساخن. ويجاور المطبخ عنبر للنوم طوله ثمانية عشر قدمًا. ولكن الباب كان مغلقًا فلم أستطع أن أرى أثاثه حتى أتبين منه عدد الرجال الذين يعملون فى الغواصة. وفى الطرف الأقصى رأيت حاجزًا رابعًا يفصل بين عنبر النوم، وغرفة الآلات. ثم فتح باب آخر ودخلت مع الريان نيمو غرفة صفت فيها الآلات المحركة بترتيب دقيق؛ ولا غرابة فهو لا ريب مهندس من الطراز الأول. وكانت الغرفة جيدة الضوء لا تقل مساحتها عن خمسة وستين قدمًا، كانت مقسمة إلى قسمين: القسم الأول يحتوى على المواد المولدة للكهرباء والثانى على الأجهزة المحركة للرفاص. وقد دهشت فى أول الأمر. حين شممت رائحة غريبة فى الغرفة.

ولما رأى الريان أنى فطنت لها قال:

- إنها رائحة الغاز الذى يتسرب قليل منه بسبب استعمال الصوديوم، وهو لا يسبب مضايقة لأننا نطهر جو الغواصة صباح كل يوم بتعريضها للهواء النقى.

وفى هذه الأثناء كنت أفحص الآلات باهتمام كبير فقال الريان:

- إننى أستخدم آلات «منز» لا آلات «رومكروف» فى إدارة الآلات. لأن الأولى أقوى وأكبر وأحسن إعدادًا، وقد دلت التجارب على أنها أفضل، والكهرباء المولدة، تمر إلى مؤخرة الغواصة حيث توجد مغانط كهربائية ضخمة مركبة على أجهزة خاصة من الروافع والتربينات التى توصل الحركة الناتجة إلى محور الرفاص. وهذا المحور الذى يبلغ محيطه تسعة عشر قدمًا يدور بسرعة مائة وعشرين دورة تقريبًا فى الثانية.

- وما هى السرعة التى تحصل عليها منه؟

- نحو خمسين ميلا فى الساعة.

وهنا شعرت أن فى الأمر سرًا، ولكنى لم ألح فى استقصائه. إذ كيف تستطيع الكهرباء أن تعمل بمثل هذه القوى الهائلة ومن أين تتولد تلك القوى التى لا يكاد يكون لها حد؟

أهى وليدة ضغط جبار لنوع جديد من الأجهزة؟ هل تتحول الكهرباء إلى هذه القوى الهائلة المحركة عن طريق أجهزة خاصة مجهولة؟ ولعله من المصادفات الغريبة أن اكتشافًا من هذا النوع قد عرف أمره وفيه تقوم مجموعة الروافع بتوليد قوة عظيمة. فهل يمكن أن يكون المخترع قد التقى بالربان نيمو؟

وأخيرًا قلت:

- إننى يا كابتن نيمو أعترف بالنتائج، وأسعى إلى تفسيرها. لقد رأيت غواصتك وهى تعمل أمام السفينة إبراهام لنكولن وإنى أعرف الآن مبلغ سرعتها. ولكن لا يكفى أن يستطاع السير دائمًا وإنما ينبغى أن يعرف الإنسان وجهته. ينبغى أن تكون قادرًا على توجيه نفسك إلى اليمين أو اليسار... إلى أعلى أو إلى أسفل. فكيف تصل إلى الأعماق الكبرى حيث الضغط المائى المتزايد الذى يبلغ المئات من قوة الضغط الجوى؟ كيف تصعد إلى سطح المحيط أو تظل فى مستوى معين من العمق؟ هل جانبت السداد بتوجيه هذه الأسئلة إليك؟

فقال الربان بعد تردد يسير:

- لا أبدًا يابروفسور. بما أنك لن تغادر هذه الغواصة أبدًا فهيا بنا إلى الصالون، وهو مكان الدرس الحقيقى، وهناك ستعرف كل ما تريد معرفته عن الغواصة نوتيليوس.

الفصل الثالث عشر

أرقـــام

بعد لحظة كنا جالسين على أريكة فى الصالون ندخن السيجار. وبسط الريان أمامى خارطة بارزة تمثل أرجاء الغواصة، ثم بدأ بيانه قائلاً:

- إليك يا مسيو أروناكس مختلف أبعاد الغواصة التى أنت فيها. إنها تشبه أسطوانة مستطيلة مخروطية الطرفين، كالسيجار. ويبلغ طولها بالتحديد ٢٣٢ قدمًا وأقصى عرضها ٢٦ قدمًا. وهى مستطيلة إلى حد كاف، منحدرة الجوانب حتى ينزلق الماء عنها بسهولة، ولا يعوق سرعتها. وتبلغ مساحة سطحها ١٠١١ مترًا وخمسة وأربعين سنتيمترًا وحجمها ١٥٠٠ متر مكعب، ووزنها ١٥٠٠ طن وتحتل من الماء مساحة قدرها ٥٠ ألف قدم.

«وعندما وضعت تصميمات هذه السفينة للعمل تحت سطح الماء، قررت أن أجعلها فى حالة توازن أى أن يكون تسعة أعشارها غاطسًا، والعشر الباقى ظاهرًا فوق الماء وهى بهذا التقدير تحتل من الماء مساحة تبلغ تسعة أعشار حجمها، أى نحو ١٣٥٦ مترًا مكعبًا وثمانية وأربعين سنتيمترًا. ولهذا لم أتجاوز فى صنعها هذا الوزن، طبقًا للأبعاد المذكورة. وهى مكونة من هيكلين، أحدهما داخل الآخر، تشدهما مشابك حديدية قوية ولهذا السبب فإنها تقاوم الضغط الشديد وكأنها كتلة سميكة غير مفرغة من الداخل. وجوانبها لا تلين أبدًا تحت أى ضغط، لأن بناءها المحكم المتماسك يتيح لها أن تتحدى أعتى البحار.

وعند ما تطفو الغواصة يكون عشرها فقط هو الظاهر فوق سطح الماء، وقد زودتها بخزانات يتناسب حجمها مع حجم هذا العشر، وتستطيع أن تستوعب من الماء ١٥٠,٧٢ طنًا. فإذا أنا ملأت هذه الخزانات بالماء، غطست الغواصة تمامًا تحت السطح. وهذه الخزانات موجودة فى المناطق السفلى منها. وما على إلا أن أدير الصمامات، فتمتلئ الخزانات، وتهبط الغواصة إلى ما تحت سطح الماء».

وعندئذ قلت:

- حسنا يا كابتن. إننى أستطيع أن أفهم كيف يمكنك الاحتفاظ بالغواصة على مستوى سطح المحيط. ولكن عندما تهبط إلى الأعماق. ألا تعانى أجهزة الغواصة ضغطًا مائيًا من أسفل يوازى ضغطًا جويًا كاملاً لكل ثلاثين قدمًا من الماء؟

- نعم هذا صحيح.

- إذن فأنا لا أدرى كيف تهبط بالغواصة إلى الأعماق، ما لم تملأها كلها بالماء.

فأجاب الربان نيمو قائلاً:

- أرجو يا سيدى البروفسور ألا تخلط بين علوم التوازن وبين علوم القوى المحركة، وإلا تعرضت لأخطاء فاحشة إن الهبوط إلى الأعماق لا يحتاج إلا إلى جهد جد يسير، لأن للأجسام قابلية الهبوط... هل ترى مدلول كلامى؟

- إننى منصت إليك يا كابتن.

- عندما أردت البت فى زيادة ثقل الغواصة لكى تهبط إلى الأعماق لم يكن على إلا أن أعمل على تخفيف كثافة الضغط المائى كلما ازدادت هبوطًا.

- هذا واضح.

- والآن... إذا كان الماء كما نعرف غير قابل للضغط العالى، فإنه من الممكن ضغطه بدرجة يسيرة جدًا.. بل أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة أنه يمكن ضغطه بنسبة ٠,٠٠٠٠٤٣٦ فى كل ضغط جوى، أى فى كل ثلاثين قدمًا من الماء تحت السطح. فإذا أردت أن أهبط إلى عمق ألف متر، وجب على أن أرعى تخفيض الكثافة تحت ضغط ثلاثين ضغطًا جويًا. وعلى هذا يجب أن أزيد ثقل وزن

الغواصة إلى ١٥١٣,٧٩ طن بدلاً من ١٥٠٧,٢. أى أن الزيادة اللازمة فى الوزن هى فقط ٦,٧٧ طن. والغواصة مزودة بخزانات يمكن أن تحمل مائة طن من الماء. فأنا حين أريد الصعود إلى سطح الماء أفرغ الخزانات من هذه الكمية الضخمة حتى يطفو عشرها فوق السطح.

ولم أستطع الاعتراض أمام هذا الحديث المؤيد بالأرقام.

- إننى معجب بتقديراتك يا كابتن، ومن الحماقة أن أجادلك فيها لأن التجارب أثبتت صحتها كل يوم. ولكننى أرى أن هناك مشكلة حقيقية.

- وما هى يا سيدى؟

- عندما تكون على عمق ألف ياردة، فإن جوانب الغواصة تحتمل مقدار مائة ضغط جوى، فإذا أردت عندئذ تفريغ الخزانات مما فيها من الماء لتخفيف وزن الغواصة بغية الصعود إلى السطح، فإن على مضخات التفريغ أن تتغلب على هذا الضغط الشديد البالغ مائة ضغط جوى أى الذى يساوى ضغط مائة كيلو جرام على السنتيمتر المربع. ولا شك أن مثل هذه المضخات تحتاج إلى قوى..

فأسرع الربان نيمو يقول:

- إلى قوى لا يمكن أن ينتجها غير الكهرباء. إن القوة الجبارة فى آلاتى لا يكاد يكون لها حدود. وإن مضخات الغواصة لقوية أشد القوة كما رأيت بنفسك حين غمرت بعمودين من الماء سطح السفينة إبراهام لنكولن كالسيل العرم. وفضلاً عن هذا فإنى أستخدم خزانات إضافية لأهبط بالغواصة إلى عمق يتراوح بين ١٥٠٠ وألفى متر، وذلك لإنقاذ أجهزتى من الضغط العالى. فإذا تراءى لى أن أقوم بزيارة قاع المحيط على عمق فرسخين أو ثلاثة، فإنى أستخدم وسائل أخرى أبعد مدى وإن كانت لا تقل دقة وإحكامًا.

- وما هذه الوسائل يا كابتن؟

- إن حديثى عنها يستدعى الكلام عن طريقة تسييرى للغواصة.

- إننى أشد ما أكون شوقًا لسماعه.

- إننى أستعمل لقيادة غواصتى أفقيًا، دفة عادية تحركها عجلة ذات آلات وحبال وعندما أسيرها عموديا فإنى أستخدم ألواحًا انسيابية مشدودة إلى الجوانب وإلى وسط الغواصة ذات روافع ضخمة. فإذا كانت هذه الألواح فى مستوى متواز مع الغواصة فإنها تسير أفقيًا، وإذا مالت إلى أسفل أو إلى أعلى، فإن الغواصة بقوة رفاصها - ترتفع أو تهبط حسب رغبتى والزاوية التى أحددها. بل وإذا بدا لى الارتفاع بسرعة مضاعفة، فإنى أستخدم الرفاص فيؤدى ضغط الماء إلى جعل الغواصة ترتفع عموديًا كالبالون فى الهواء.

فهتفت قائلاً:

- مرحى يا كابتن. ولكن كيف يستطيع الموكل بالدفة أن يسلك الاتجاه الذى ترسمه له فى وسط الأعماق.

- إنه يقف فى مقصورة من الزجاج فى أعلا الغواصة مزودة بعدسات مكبرة.

- ويمكن للزجاج مقاومة مثل ذلك الضغط؟

- نعم فإن الزجاج الذى تحطمه ضربة، له قوة احتمال كبرى، ففى خلال تجارب لصيد السمك أجريناها فى عام ١٨٦٤ بالضوء الكهربائى فى البحار الشمالية وجدنا ألواحًا من الزجاج فى البحار الشمالية يقل سمكها عن ثلث بوصة تقاوم ضغطًا قدره ستة عشر ضغطًا جويًا. وأنا أستعمل زجاجًا لا يقل سمكه عن ثلاثين مثلاً لهذا النوع.

- فهمت الآن. ولكن أيًا كان الأمر فالظلام سائد تحت الماء. فكيف يمكن أن تتبين طريقك؟

- يوجد كشاف كهربائى قوى خلف المقصورة الزجاجية، تضىء أشعته البحر مدى نصف ميل إلى الأمام.

- آه. الآن أستطيع أن أعرف سر هذا الإشعاع الفسفورى الذى حيرنا ونحن نظن أنه منبعث من الكركدن البحرى. هل أستطيع أن أسألك الآن عما إذا كانت الإصابة التى أحدثتها فى السفينة سكوتيا قد وقعت مصادفة.

ـ نعم كانت الغواصة تسير على عمق نحو خمسة أمتار تحت سطح الماء عندما وقع الاصطدام.. هل كانت له نتائج سيئة؟

ـ لا يا سيدى. ولكن ما رأيك فى الصدمة التى أحدثتها فى السفينة إبراهام لنكولن؟

ـ أعترف أنه كان من المؤسف جدًا حدوث ما حدث لإحدى القطع الممتازة فى البحرية الأمريكية. ولكنها هاجمتنى، وكان على أن أدافع عن نفسى. وفضلاً عن هذا فقد اكتفيت بأن أجعلها عاجزة عن القدرة على الإضرار بى. ولن يصعب إصلاحها فى أقرب ميناء.

وعندئذ هتفت بلهجة الاقتناع:

ـ الواقع يا سيدى الربان أن النوتيلوس سفينة رائعة.

فراح الربان يقول بحمية صادقة:

ـ نعم يا بروفسور. وأنا أحبها وكأنها قطعة من لحمى. فإنه على رغم المخاطر التى تتعرض لها سفنكم بسبب تقلبات البحار، ورغم أن أهم ما يشغل بال ركاب البحر ويزعجهم هى أعماقه المجهولة، فإننا نحن الموجودين فى هذه الغواصة لا نخاف شيئًا، لا نخاف حدوث التواء بها، لأن هيكلها المزدوج من الحديد الصلب. وليس بها أشرعة ولا حبال ينال منها تقاذف الأمواج ويطيرها الهواء. وليس بها مراجل للبخار نخشى انفجارها ولا نار نفزع من اندلاعها، لأن الجهاز مصنوع من الحديد لا الخشب. ولا فحم نخشى نفاده، لأن الكهرباء هى أداتنا الآلية. ولا نخاف الاصطدام لأنها السفينة الوحيدة التى تتحرك فى الأعماق وليس ثمة عواصف نناجزها، لأن السكون التام يسود تحت سطح الماء بأمتار قليلة. إن نويتليوس ياسيدى هى سفينة السفن. وإذا صح أن مهندس السفينة يثق بها أكثر من منشئها، وأن منشئتها يثق بها أكثر من ربانها، فإنك ستدرك مبلغ ثقتى بغواصتى هذه وأنا ربانها ومنشئها ومهندسها فى وقت واحد.

وكان الربان نيمو يتحدث بطلاقة أخاذة، وكانت نظراته المتوقدة وإشاراته الحارة. تنم عن مدى حبه للغواصة. أجل كان يحبها حب الوالد لابنه.

وقلت له:

- ولكن كيف استطعت أن تصنع هذه الغواصة العجيبة سرًا؟

- لقد رتبت أن يصنع كل جزء منها فى مكان مختلف من الكرة الأرضية وكانت الأجزاء المختلفة تصلنى بعناوين وأسماء مستعارة. فالهيكل مصنوع فى مصانع كوريرز. ومحور الرفاص فى شركة بن بلندن. والألواح الحديدية. فى مصانع لارد بليفربول، والرفاص نفسه فى شركة سكوت بمدينة جلاسجواما خزاناتها فقد صنعت فى شركة كابل بباريس، والمحركات فى شركة كروب الألمانية. ومقدمتها فى مصانع موتالا بالسويد، والآلات الحاسبة فى شركة إخوان هارت بنيويورك وهكذا. وقد أرسلت طلباتى إلى جميع تلك الشركات والمصانع بأسماء مختلفة.

- ولكن كيف أمكنك ترتيب جميع الأجزاء؟

- لقد أنشأت مصنعًا فى جزيرة غير مأهولة بالمحيط. وهناك أخذت مع عمالى، أعنى أصحابى البواسل الذين علمتهم وأرشدتهم، فى تركيب أجزاء الغواصة. فلما فرغنا أشعلنا النيران فى كل ما تبقى من عملنا بالجزيرة، بل ما كنت أتردد فى نسفها لو استطعت.

- لا شك أنها كلفتك أموالاً طائلة.

- إن ثمن الطن الواحد فى السفينة المصنوعة من الصلب ٤٥ جنيهًا، ويبلغ وزن غواصتى ١٥٠٠ طن، أى أن ثمنها يتراوح بين ٦٧ ألف وخمسمائة جنيه وثمانين ألف جنيه. ولكن هذا ثمن الهيكل فقط. أما جملة الثمن شاملة للأعمال الفنية ومجموعات التحف فيناهز مائتى ألف جنيه.

- لابد أنك من الأغنياء.

- بل واسع الغنى.. إننى أستطيع فى سهولة سداد ديون إنجلترا كلها.

فجعلت أحملق فى هذا الرجل الفريد وأنا أتساءل: أهو يستغل تسليمى بكلامه وتصديقى له، ويتمادى فيما يقول؟

الفصل الرابع عشر

النهر الأسود

إن المحيط الهادى يمتد من الشمال إلى الجنوب فيما بين الدائرتين القطبيتين، ومن الغرب إلى الشرق فيما بين آسيا وأمريكا، فى مساحة قدرها ١٤٥ درجة من خطوط الطول. وهو أهدأ المحيطات سطحًا، فتياراته بطيئة، ومده خفيف وأمطاره غزيرة، وذلك هو المحيط الذى شاءت الأقدار أن تدفع بى إليه فى مثل هذه الظروف الضرورية.

وقال الريان نيمو:

- والآن يابرفسور، سنحدد مكاننا ونقطة بدء الرحلة إذا سمحت. الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعًا وسنصعد إلى السطح.

وضغط على زر كهربائى ثلاث مرات، فأخذت المضخات تدفع الماء إلى خارج المستودعات، وكان مؤشر المانوميتر يتحرك ويعين عن طريق فوارق الضغط المائى مراحل صعود الغواصة.. وأخيرًا توقف.

فقال الريان:

- لقد وصلنا.

ومضينا إلى السلم الرئيسى المفضى إلى السطح. وصعدنا الدرجات الحديدية وإذا نحن على سطح الغواصة تونيليوس.

وكان إفريز سطحها يعلو الماء بقدر ثلاثة أقدام لا أكثر وكانت مؤخرة الغواصة ومقدمتها مخروطتى الشكل مما أوحى إلى تشبيها بالسيجار. وقد لاحظت أن

ألواحها الحديدية كانت متحركة الأطراف، كالحراشيف التى تغطى أجسام الزواحف الأرضية الكبيرة. ومن ثم أدركت السبب فى حسبان هذه السفينة حيوانًا مائيًا رغم المناظير القوية.

ورأيت فى مقدمة الغواصة ومؤخرتها مقصورة متوسطة الارتفاع، انسيابية الجوانب، صنع جانب منها من زجاج العدسات السميك، وكان فى إحداها عامل الدفة الذى يوجه الغواصة فى الطريق المرسوم، وفى الأخرى مصباح كهربائى كشاف يضىء له خط السير.

وكان البحر بديعًا والسماء صافية، والغواصة لا تكاد تستقر بحركة الأمواج وكان النسيم الرقيق الآتى من الشرق يداعب سطح الماء، والأفق خاليًا من السحب مما يعين على حسن الرؤية ولم يكن ثمة شىء فى مدى البصر: لا صخرة ولا جزيرة، ولا السفينة إبراهام لنكولن، ولا شىء غير المياه الخاوية.

وشرع الربان نيمو يرصد المكان عن طريق موضع الشمس من السماء. وانتظر بضع لحظات حتى بلغ قرص الشمس مستوى معينا من الأفق. وكان يقوم بعمله دون أن يعرو وجهه أدنى اختلاف، ولو كانت الآلة فى يد تمثال لما بدت أكثر ثباتا.

وقال الربان أخيرًا:

- هذا وقت الظهيرة... وعندما تكون مستعدًا...

فألقيت نظرة على الماء الذى بدا لونه أصفر قليلا بسبب السواحل اليابانية. ولم ألبث أن عدت إلى الصالون حيث حدد الربان موضعنا بأجهزته المختلفة، ثم قال:

- إننا يامسيو أروناكس فى غرب خط الطول ١٢٧:١٥ درجة فقلت لأستدرجه إلى الكشف عن جنسيته:

- بالنسبة إلى أى خط رئيسى..

- إننى ياسيدى أستعمل أجهزة قياس معدة لتحديد المواضع بالنسبة لخطوط جرينتش، وباريس وواشنطن، ولكننى تكريما لك سأستعمل الجهاز المعد للعمل على خط باريس.

لم أفد شيئًا من هذا الجواب ولكننى أحنيت رأسى، بينما استطرد وهو يقول:

- إننا الآن على خط طول ٣٧ درجة ، ١٥ شرطة غربى خط باريس. وعلى خط عرض ٣٠ درجة و٧ دقائق شمالا . ومعنى هذا أننا نبعد الآن نحو ثلاثمائة ميل من شواطئ اليابان، وفى هذا اليوم الثامن من شهر نوفمبر، وفى ساعة الظهيرة تبدأ رحلتنا الاستكشافية فى أعماق البحار.

فقلت:

- أسأل الله أن يحفظنا.

وأردف الريان قائلا:

- سأتركك الآن يابرفسور لدراستك وقد أصدرت تعليماتى بالسير فى الاتجاه الشمالى الشرقى على عمق خمسين ياردة من سطح الماء. وإليك هذه الخرائط التى تبين لك اتجاه سيرنا وموضع الغواصة من الأعماق.. وإنى إذ أترك الصالون تحت أمرك، أرجو أن تأذن لى بالانصراف.

وانحنى الريان نيمو تحية وبقيت بمفردى مستغرقًا فى أفكارى التى كانت تدور كلها حول ربان هذه الغواصة، ترى هل سأعرف يومًا اسم الدولة التى ينتمى إليها هذا الرجل، الذى يفخر بأنه لا جنسية له؟ وهذه الكراهية التى أضمرها للجنس البشرى... هذه الكراهية التى قد تدفعه إلى ارتكاب ألوان من الانتقام الرهيب. ما سببها؟ إننى أنا الذى كانت حياتى بين يديه لم أجد منه غير استقبال فاتر، وإن لم يخل من كرم الضيافة. ولكنه أعرض عن يدى التى مددتها إليه، ولم يبسط يده إلى قط.

وبقيت ساعة كاملة مستغرقا فى هذه الخواطر، أسعى للنفاذ إلى هذا الغموض الذى أثار أشد اهتمامى. ولم ألبث أن اتجه نظرى إلى الخارطة الكبيرة الموضوعة فوق المنضدة.. ووضعت أصبعى على النقطة التى حددت موضعنا من خطوط الطول والعرض.

إن للبحر أنهاره الكبيرة كما هو الحال فى القارات.. إنها تيارات خاصة تعرف بحرارتها وألوانها وأشهرها هو المعروف باسم تيار الخليج، وقد اكتشف العلم مجارى خمسة تيارات رئيسية إحداها شمالى المحيط الأطلسى، والثانى جنوبى المحيط نفسه، والثالث شمالى المحيط الهادى والرابع جنوبه، والخامس جنوبى المحيط الهندى ومن المحتمل أنه كان يوجد تيار سادس فى شمال المحيط الهندى عندما اتصل بحر آرل وبحر قزوين ببحيرات آسيا العظمى حيث تكونت مساحات شاسعة من الماء.

وفى المكان الذى وضعت عليه أصبعى من الخارطة، وكان ثمة تيار من هذه التيارات ينساب فى مياه المحيط.. إنه التيار الأسود اليابانى الذى يعبر مضيق ملقا، بعد أن يترك خليج البنغال حيث تدفئة أشعة الشمس الاستوائية وينطلق إلى الشاطئ الآسيوى، ثم ينعطف إلى شمالى المحيط الهادى حتى جزائر اليوشان حاملا جذوع أشجار الكافور وغيرها من المنتجات المحلية مما يجعله يبدو قاتم اللون بالنسبة لأمواج المحيط الصافية، وبعد ذلك تتلاشى أمواج المحيط الشاسع، وقد أحسست أنى سأمضى مثله إلى نفس المصير، حين لاح لى نيدلاند وكونسايل لدى الباب، والواقع أن رفيقَىّ تسمرا فى مكانهما لمرأى العجائب التى تجلت لأعينهما.

وقد هتف الكندى قائلا:

- أين نحن.. أين نحن؟ فى متحف مدينة كوبيك؟

وقال كونسايل:

- إذا سمح لى سيدى قلت إننا فى مكان قريب الشبه بفندق دى سوميرار.

فقلت:

- يا صديقاى.. لستما فى كندا ولا فى فرنسا أنتما فى الغواصة نوتيليوس، وعلى عمق يزيد عن خمسين مترًا تحت سطح البحر.

فقال كونسايل:

- إننا نصدق ما يقول سيدى. ولكن هذا الصالون جدير بأن يدهش أى إنسان حتى ولو كان هولنديًا مثلى.

وفى خلال هذا سألنى نيدلاند - الذى لم يكن يهتم كثيرًا بعالم الأصداف البحرية - عن مقابلتى للريان نيمو ، هل استطعت أن أعرف من هو، من أين جاء وإلى أين يمضى، أو إلى أية أعماق يهبط بنا، وبالإحمال راح يمطرنى بآلاف الأسئلة التى لم أجد وقتًا للإجابة عليها.

وقد ذكرت له كل ما أعرفه، أو على الأصح كل مالم أعرفه، ثم سألته عما رأى وعما سمع من جانبه فأجاب قائلا:

- إننى لمن أسمع ولم أر شيئًا. بل إنى لم أر ملاحى الغواصة. فهل كان هذا مصادفة. أم هى الكهرباء أيضًا؟

- الكهرباء.

فقال نيدلاند بإصرار:

- نعم هذا ما قد يظنه كل إنسان. وأنت يا مسيو أروناكس، هل تعرف عدد الرجال فى الغواصة؟ وهل تعرف إن كانوا عشرين أو خمسين أو مائة؟

- أنا لا أعرف أكثر مما تعرف يا نيدلاند. ويحسن أن نتخلى فى الوقت الحاضر عن كل تفكير فى الاستيلاء على الغواصة أو فى الهرب منها، إنها تحفة رائعة من الصناعة الحديثة. ولو لم أرها لندمت على ضياع فرصة كهذه إن كثيرًا من الناس يقبلون أن يحلوا محلنا لكى يعيشوا بين هذه العجائب.إن الشىء الوحيد الذى يجب أن نفعله هو أن تلزم الهدوء. وأن ترقب ما يجرى أمامك.

فهتف نيدلاند قائلا:

- أرقب. ليس هناك ما أراقبه. إننا لا نستطيع أن نرى شيئًا فى هذا السجن، إننا مستترون بعيون محجوبة، وما كاد نيدلاند ينطق هذه الكلمات حتى ساد الظلام فجأة.

لقد انطفأ الضوء المنساب من السقف بسرعة شديدة آلمت عينى بسبب هذا التغيير، وهو ما يحدث أيضًا للعينين عند الانتقال فجأة من الظلام إلى النور الوهاج.

وقد لزمنا الصمت ولم نتحرك ونحن لاندرى أية مفاجأة سارة أو مزعجة تنتظرنا. ولكننا سمعنا صوتًا انسيابيًا كصوت تحريك ألواح فى جوانب الغواصة.

فقال نيدلاند:

- هى النهاية:

وفجأة سطع الضوء فى جانبى الصالون عن طريق فتحتين بيضاوين وبدت مياه البحر متألقة بضوء الكهرباء الباهر.

وكان ثمة لوحان من البللور يفصلان بيننا وبين الماء. وقد سرت فى جسمى رعدة أول الأمر حين فكرت فى احتمال انكسار هذا الفاصل الرقيق. ولكن المقابض النحاسية التى كانت تشده أتاحت له قوة مقاومة لاحد لها.

إن صفاء مياه البحر معروف للجميع، فهو أكثر صفاء من المياه العذبة. ذلك أن الأملاح المعدنية والمواد العضوية التى يشتمل عليها تضاعف شفافيته. وفى بعض نواحى المحيط فى جزائر الأنتيل، يمكن الإنسان أن يرى بوضوح من سطح البحر قاعه الرملى على عمق يزيد عن مائة وثلاثين مترا . والمعروف أن أشعة الشمس لا تخترق مياه البحر إلى أبعد من تسعمائة قدم. ولكن فى هذا العالم المائى الذى تتحرك فيه الغواصة، كانت الكهرباء تتولد فى أحضان الأمواج نفسها، فلم يكن المشهد مجرد ماء مضاء، بل كان ضوءًا سائلا.

ونحن إذ سلمنا بوجود الضوء الفسفورى فى أعماق البحار، فإن الطبيعة تدخر للأحياء البحرية مشهدًا من أشد مشاهدها عجبًا. وقد أمكننى تأكيد هذه الحقيقة عن طريق آلاف الأشعة الصادرة من هذا الضوء الكهربائى.

وكان ثمة نافذتان من البللور على جانبى الصالون نبصر منهما هذه الأعماق المجهولة. وكان ظلام الصالون يضاعف من قوة الضوء الخارجى، حتى إنه كان فى مقدورنا أن نبصره وكأنه ألواح البللور الشفاف فى معرض مائى كبير...

وبدا لنا أن الغواصة لا تتحرك. وذلك لأنه لم يكن ثمة معالم للطريق ولكننا مع هذا نرى أحيانًا خطوط المياه المضطرية الناشئة من مقدمتها، تنساب أمام أعيننا بسرعة كبيرة.

ووقفنا أمام هذه النوافذ مستسلمين للعجب، ولم يقطع أحدنا سكون الدهشة الذى خيم علينا حتى قال كونسايل:

ـ حسنا أيها الصديق نيد.. لقد أردت أن ترى فها أنت ذا ترى الآن..

فهتف نيدلاند قائلا وقد نسى غضبه ومشروعاته للهرب بتأثير هذه المفاتن الآسرة:

ـ إن هذا شىء عجيب. من ذا يرفض الحضور إلى هنا لمشاهدة هذه العجائب؟

فهتف قائلا:

ـ الآن أستطيع أن أفهم حياة هذا الرجل. إنه صنع لنفسه عالمًا خاصًا من العجائب والمدهشات.

فقال نيدلاند:

ـ ولكننى لم أر أية أسماك.

فقال كونسايل:

ـ وماذا يهمك من هذا يا صديقى نيدلاند مادمت لا تعرف عنها شيئًا؟

فصاح نيدلاند:

ـ أنا! صياد السمك؟!

عندئذ قامت مناقشة بين الرجلين لأن كلا منهما كان يعرف عن الأسماك معلومات تختلف عن معلومات الآخر.

وربما كان كونسايل يعرف عنها أكثر مما يعرف صاحبه. ولكنه وقد أصبح صديقًا لنيدلاند، أبى أن يبدو أقل منه علمًا ومن ثم قال:

ـ إنك يانيد صياد أسماك ماهر جدًا لقد اصطدت كثيرًا من هذه الأحياء الطريفة ولكننى أراهن أنك لا تعرف كيفية تصنيفها.

فقال صياد الحيتان:

- بل أعرف أنها مقسمة إلى نوعين. نوع صالح للأكل ونوع غير صالح.

فقال كونسايل:

- هذا تصنيف الجائع.. ولكن هل تعرف الفرق بين الأسماك العظمية والغضروفية؟

- ربما كنت أعرف ياكونسايل.

- والرتب الفرعية التى ينقسم إليها كل من هذين النوعين الكبيرين؟

فأجاب الكندى:

- يمكننى أن أقول نعم.

- إذن اسمع وتذكر.. إن الأسماك العظمية تنقسم إلى ست رتب. الرتبة الأولى هى المعروفة باسم «الأكانثوبتريمجى» التى يكون فكها الأعلى كامل النمو له خياشيم متحركة على هيئة المشط. وتضم هذه الرتبة خمس عشرة أسرة، أى ثلاثة أرباع الأسماك المعروفة، مثل سمك البرش النهرى.

فقال نيدلاند فى ازدراء.

- سمك المياه العذبة.

واستطرد كونسايل قائل:

والرتبة الثانية هى السمك الجوفى وهى رتبة من السمك الذى تنبت زعانفه البطنية وراء الصدر دون أن تتصل بعظام الكتفين. وتضم هذه الرتبة خمس أسرات معظمها يعيش فى المياه العذبة مثل السالمون والكراكى المصبوغة، والشبوط الخ.

فقال نيدلاند:

- وكلها أنواع لذيذة الطعم.

ـ والرتبة الثالثة هى أسماك السبرا كانز، وهى التى تنبت زعانفها البطنية تحت الصدر وتتصل بعظام الكتفين. وتضم هذه الرتبة أربع أسرات: مثل البكلاه وسمك الترسة، والبياض وسمك موسى إلخ.

فهتف نيدلاند وهو لا يفكر فى هذه الأنواع إلا من زاوية صلاحيتها للأكل.

ـ عظيم جدًا.

فقال كونسايل دون أن يرتبك:

ـ والرتبة الرابعة هى أسماك الزواحف «الأبود» ذات الأجسام الطويلة الخالية من الزعانف والمكسوة بجلد سميك عادة، وهذه الرتبة تضم أسرة واحدة مثل ثعبان البحر، وسمك الذئب، وسمك الحربة، والرماح إلخ..

فقال نيدلاند:

ـ أنواع متوسطة.. متوسطة لا أكثر.

فاستطرد كونسايل قائلا:

ـ والرتبة الخامسة هى أسماك «اللldدفيادى» التى تتميز بامتداد عظام الرسغ مما يكون لها نوعًا من الذراع الذى يدعم زعانف الصدر، مثل سمك الأنجلو «سمك عريض الرأس» أو سمك الضفدع.

فقال نيدلاند مشمئزًا:

ـ إنه نوع ردىء

ـ والرتبة السادسة والأخيرة هى أسماك البلكتوناث التى تضم بين أنواعها الأسماك ذات العظام الفكية دون أن يكون لها زعانف بطنية حقيقية وهى تضم أسرتين مثل سمك الشمس.

فهتف الكندى قائلا:

ـ وهو نوع تخجل منه أوانى الطهى.

فقال كونسايل العالم:

- هل فهمت يا صديقى نيد؟

- أبدًا يا صديقى كونسايل. ولكن استمر فى حديثك فإنه على كل حال شيق.

فاستطرد كونسايل قائلا دون أن يتزايل:

- أما عن الأسماك الغضروفية، فإنها تنقسم إلى ثلاث رتب فقط.

فقال نيد:

- وهذا أحسن

- الرتبة الأولى أسماك السايكلستوم، ذات الفم المستدير والخيشوم ذى الفتحات العديدة، وهى تضم أسرة واحدة، مثل سمك الدنيا أوكالانكيس.

فقال نيدلاند:

- لابد أن تعتاد هذا النوع حتى تحب أكله.

- والرتبة الثانية هى أسماك السلاخو ولها خياشيم تشبه خياشيم أسماك الرتبة الأولى ولكن فكها الأسفل متحرك وهذه الرتبة التى تعتبر أهم أصناف السمك . تضم أسرتين مثل سمك القرش وسمك السَّفَن.

فهتف نيدلاند قائلا:

- ماذا؟ أتقول إن القرش والسفن من نفس الرتبة؟ إذن أنصحك ياصديقى ألا تضعهما فى إناء واحد.

واستطرد كونسايل يقول:

- والرتبة الثالثة هى أسماك الاستريون ذات الخياشيم المفتوحة بشق واحد وهى تضم أربع فصائل، مثل سمك الاسترجون.

فقال نيدلاند:

- حسنًا يا صديقى كونسايل... لقد جعلت ختام هذه الأنواع خيرها وأفضلها. أهذا كل مالديك؟

- نعم يانيد. ولكن لا تنس أنك وأنت تعرف هذا كله فأنت لا تعرف شيئًا لأن كل أسرة من هذه الأنواع والرتب تنقسم إلى فصائل، وأقسام للفصائل، وفروع وأصناف.

فقال نيدلاند وهو يعتمد على زجاج النافذة:

- حسنا ياكونسايل. إننى أرى الآن بعض الأصناف تمر أمامى .

فصاح كونسايل:

- نعم بعض الأسماك كأننا الآن فى معرض مائى

فقلت:

- إن المعرض المائى ليس إلا قفصًا . أما هذه الأسماك فإنها طليقة كالطير فى الهواء.

فقال نيدلاند:

- لابأس ياكونسايل. أخبرنى عن أسمائها . أخبرنى بأنواعها.

فقال كونسايل:

- أنا؟ ليس هذا شأنى إن هذه مهمة سيدى البرفسور.

وفى الواقع إن تابعى وإن كان مصنفًا مجتهدًا، فإنه لم يكن بالعالم الطبيعى. ولست أدرى ما إذا كان يستطيع التفريق بين سمكة التونة وسمكة البلطى. أما الكندى فقد كان بعكسه يعرفها بأسمائها دون تردد.

وقد توليت الإجابة قائلا:

- هذه سمكة البالستر.

فقال نيدلاند:

- وهى بالستر من النوع الصينى أيضًا.

وغمغم كونسايل قائلا:

- إنها فصيلة البالستر، من أسرة الاسكليردروم من رتبة البلكتونات لاشك أن صاحبينا هذين جديران بأن يكون منهما عالم طبيعى ممتاز.

ولم يكن الكندى مخطئًا. فقد كان ثمة قطيع من أسماك البالستر بأجسامها البدينة وجلودها المرقطة، وسلاحها الذى يشبه الحراب على زعانفها الظهرية، يمرح حول الغواصة، وقد جعلت كل منها تحرك صفوف الريش الأربعة القائمة على جانبى الذيل. ولم يكن ثمة ما هو أبدع من ظهورها الرمادية وبطونها البيضاء، والنقط الذهبية المتألقة بين الأمواج. وقد رأيت بينها سمكة الورنك الهزاز كأنها ورقة تلعب بها الريح. كما رأيت وأنا فى أشد السرور سمك الورنك الصينى ذا الظهر الأصفر والبطن القرمزى الفاتح والأسهم الثلاثة وراء العين إنه لنوع نادر حقًا.

وظل جيش كامل من هذه الأحياء البحرية يرافق الغواصة مدى ساعتين، وقد عرفت بين هذه الأنواع التى بدت كأنها تتبارى فى استعراض بهائها وسرعتها، أسماك الرأس الأخضر، والسرموليه المعلم بخطين مزدوجين أسودين، وسمك الجوبى بذيله المستدير وجلده المضىء بالنقط البنفسجية، وسمك «المكرونة» اليابانى بجسمه الأزرق ورأسه الفضية، والأسماك المذهبة الرءوس بخطوط سوداء تصل إلى ذيولها، وسمك الألستون بأبواقها التى تشبه المزامير وسمك الوودكوك الذى يبلغ طول بعضه ثلاثة أقدام، ثم أسماك السلامندر اليابانى وثعابين البحر التى يبلغ طولها ستة أقدام والتى تتألق عيناها الصغيرتان وتنفرج أفواهها الكبيرة عن أسنان حادة

وبلغ إعجابنا مداه إذ كان نيدلاند يذكر اسم السمك، وكونسايل يفصل أنواعه، وأنا مبتهج بروعتها وجمال تكوينها وذلك أنه لم يسبق لى قط أن رأيت هذه الأحياء البحرية حية طليقة فى مواطنها الطبيعية، ولن أذكر مختلف الأنواع التى مرت أمام أعيننا المبهورة، ولا تلك المجموعات من أسماك البحار اليابانية والصينية فإنها أكثر عددًا وتنوعًا من طيور الجو. وقد جعلت تسبح حولنا مأخوذة ولا شك بالضوء الكهربائى.

وفجأة سطع الضوء مرة أخرى فى الصالون وأغلقت الألواح الحديدية على النوافذ البللورية واختفى المنظر الباهر. ولكنى بقيت بعد ذلك طويلا وأنا فى شبه حلم حتى وقعت عيناى على الأجهزة المعلقة على الجدران وكانت البوصلة لا تزال تشير إلا أننا نسير فى اتجاه الشمال بشمال غرب. وكان المانوميتر يدل على أن الضغط يساوى خمسة ضغوط جوية. أى بعمق ألفى ياردة، أما مقياس السرعة فكان يدل على أننا نسير بسرعة خمسة عشر ميلا فى الساعة.

وتوقعت قدوم الربان نيمو. ولكنه لم يظهر وكانت الساعة تناهز الخامسة. وما لبث لاند وكونسايل أن عادا إلى مقصورتهما، وقصدت إلى غرفتى الخاصة حين كان طعام العشاء معدًا، وكان على التحديد من أطيب أجزاء سلحفاة «الهوكسبل» ومن سمك السرموليه الذى كان كبده المطهو بذاته يكون طبقًا لذيذًا هذا إلى قطع من الفليتو المصنوع من سمك الامبراطور هولر كامنتوس الذى كانت نكهته تفوق نكهة السالمون الممتاز.

وأمضيت السهرة فى القراءة والكتابة والتفكير وأخيرًا غلبنى النوم فتمددت على الأريكة الوثيرة واستغرقت فى نوم عميق بينما كانت الغواصة نوتيليوس تنساب مسرعة فى تيار «النهر الأسود».

الفصل الخامس عشر

دعوة مكتوبة

استيقظت فى اليوم التالى ـ التاسع من شهر نوفمبر ـ بعد نوم طويل دام اثنتى عشرة ساعة. وأقبل كونسايل يسأل كعادته «كيف قضى سيدى ليلته» ولكى يقدم خدماته. وكان قد ترك صاحبه الكندى مستغرقًا فى النوم كما لو كان النوم هو مدار حياته كلها.

وتركت تابعى الشجاع يثرثر بأسلوبه المعهود دون أن أعنى كثيرًا بالإجابة على كلامه. فقد كنت قلقًا لغياب الربان نيمو خلال مشاهد الليلة السابقة، وكنت آمل أن أراه مرة أخرى فى هذا اليوم.

وبادرت إلى ارتداء الملابس المصنوعة من منتجات البحر. وكان تكوينها موضع تعليقات كثيرة من كونسايل. فذكرت له أنها منسوجة من خيوط حريرية لامعة تربط نوعًا من المحار الذى يكثر على سواحل البحر الأبيض المتوسط بالصخور. وقديمًا كانت بعض المنسوجات تصنع من هذه الخيوط. كالجوارب والقفازات، وهى تجمع بين نعومة الملمس والدفء وعلى هذا الأساس يمكن كساء بحارة الغواصة بنفقات زهيدة، دون الاحتياج إلى شجيرات القطن والأغنام ودود القز، من إمدادات اليابسة.

ولما فرغت من ارتداء ملابسى، ذهبت إلى الصالون، فوجدته خاليًا.

وانصرم اليوم كله دون أن أتشرف بزيارة من الربان نيمو، ودون أن تفتح ألواح نوافذه البللورية، ولعلهم أرادوا ألا نمل هذه المشاهدة الجميلة.

وكانت الغواصة لا تزال فى اتجاهها السالف وكانت سرعتها اثنى عشر ميلا فى الساعة، على عمق يتراوح بين خمسين وستين ياردة.

ومر اليوم التالى على هذا النمط... نفس إعراض الجميع عنا.. ونفس العزلة....

لم أر أحدًا من رجال الغواصة. وأمضى نيدلاند وكونسايل أكثر اليوم معى، وقد اعترتهما الدهشة لغياب الربان، ترى أهذا الرجل الفريد مريض. هل ينوى أن يغير نهجه معنا؟

وأيًا كان الأمر، فقد كنا نستمتع بالحرية الكاملة - كما قال كونسايل. وكان الطعام يقدم إلينا بوفرة وبأسلوب رقيق. لقد حرص مضيفنا على تنفيذ الاتفاق الودى بيننا وبينه. فلم يكن لنا أن نشكو. ففضلا عن موقفنا الحرج كانت له مزاياه الكبيرة إلى حد لا يدع لنا سبيلا للشكوى أو الاتهام.

وفى هذا اليوم بدأت تدوين هذه المغامرات، مما أتاح لى تسجيلها بدقة بالغة، ومن الطريف أنى كتبتها على ورق مصنوع من أعشاب البحر.

وفى وقت مبكر من صباح اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر، أحسسنا بتيارات الهواء النقى تنتشر فى جوانب الغواصة مما دل على صعودنا إلى سطح الماء لتجديد زادنا من الأوكسجين. وذهبت إلى السلم الرئيسى، وصعدت إلى إفريز السطح. وكانت الساعة السادسة صباحًا، والجو مكفهر والبحر معكر ولكنه هادئ لا موج فيه. وتمنيت مقابلة الربان نيمو هنا.. فهل تراه يأتى؟ إننى لم أبصر سوى الرجل المكلف بعجلة القيادة فى مقصورته الزجاجية. ومن ثم فقد جلست فى أعلى بقعة وأخذت أنهل نسائم البحر فى ابتهاج وسرور...

وأخذت السحب تتقشع رويدًا رويدًا بتأثير أشعة الشمس. وكان ظهور السحب إيذانًا بهبوب الرياح طوال ذلك اليوم. ولكن الرياح لم يكن لها أدنى تأثير بالنسبة لى. وفيما كنت أمتع بصرى بمشهد شروق الشمس وبما يثيره فى النفس من بهجة وانتعاش، إذ سمعت وقع أقدام تصعد إلى إفريز السطح فتأهبت لمخاطبة الربان نيمو، ولكن القادم لم يكن سوى ضابط الغواصة الأول الذى شاهدته مع

الريان فى زيارته الأولى لنا. وبدا أنه لم يلحظ وجودى على السطح، وإنما اكتسح الأفق بمنظاره القوى المقرب، ثم اقترب من رأس السلم وتفوه ببعض كلمات أسجلها هنا بنصها؛ لأنها كانت تقال كل صباح وفى نفس هذه الظروف. وهذه الكلمات هى:

"Nantron Respoc Borni Verch".

أما ماهو معنى هذه الكلمات فذلك ما لا أعرفه.

وبعد أن تفوه الضابط الأول بكلماته هبط مرة أخرى إلى داخل الغواصة.

وخطر لى أنها ستستأنف طريقها تحت الماء ولهذا تبعته وعدت إلى غرفتى.

وانقضت خمسة أيام على هذه الوتيرة دون أى تغيير فى موقفنا وفى صباح كل يوم كنت أصعد إلى السطح وكان الضابط يكرر كلماته الآنفة الذكر، أما الريان نيمو فلم يظهر لنا.

وبدأت أعتقد أننى لن أرى الريان مرة أخرى، ولكنى فوجئت فى اليوم السادس عشر من شهر نوفمبر أثناء دخولى غرفتى مع نيدلاند وكونسايل برؤية رسالة موجهة إلى وموضوعة على المائدة.

وفضضت الرسالة وكانت الكلمات مكتوبة بخط واضح ثابت وبحروف شبه ألمانية.

«إلى البروفسور أروناكس بالغواصة نوتيليوس».

«يدعو الريان نيمو البروفسور أروناكس إلى رحلة صيد غدًا فى غابة جزيرة كريسبو، ويرجو ألا يعوق البروفسور شىء عن قبول الدعوة، ويسره أن يستقبل زميليه أيضًا».

وهتف نيدلاند قائلاً:

- رحلة صيد!

وأضاف كونسايل قائلاً:

- وفى غابات جزيرة كريسبو.

وقال نيدلاند:

- إذن فإن صاحبنا هذا يرسو على البر أحيانًا.

فقلت وأنا أعيد قراءة الخطاب:

- يبدو أن الأمر كما تقول.

وأجاب نيدلاند بقوله:

- حسنا، يجب أن نقبل الدعوة. متى وصلنا إلى اليابسة كان لنا أن نقرر ما نفعله، وفضلا عن هذا فلن آسف إذا أتيح لى أن آكل بعض اللحم الطازج.

ونظرت إلى الخارطة لأرى موقع جزيرة كريسبو منها، فإذا هى تقع فيما بين خط عرض ٣٢,٤٠ درجة شمالا وخط طول ١٦٧,٥٠ درجة غربًا. ولما كانت جزيرة صغيرة اكتشفت عام ١٨٠١ على يد الكابتن كريسبو وسجلت فى بعض الخرائط الإسبانية القديمة باسم روكسادى لابلاتا، أى «الصخرة الفضية» وكنا عندئذ على مسافة ١٨٠٠ ميل من مبدأ رحلتنا. وكانت الغواصة قد غيرت اتجاهها نحو الجنوب الشرقى. وأشرت بأصبعى لصاحبى على الصخرة الغارقة فى وسط المنطقة الشمالية من المحيط الهادى وقلت:

- إذا كان الربان نيمو، يرسو على اليابسة أحيانا، فإنه يختار على الأقل الجزر المهجورة.

فهز نيدلاند كتفيه دون أن يقول شيئًا ثم ما لبث أن انصرف مع كونسايل وبعد طعام العشاء الذى قدمه الخادم الأخرس الجامد، أويت إلى فراشى يخالجنى بعض القلق.

وفى اليوم التالى، أحسست حين استيقظت بالغواصة ساكنة تمامًا، فارتديت ملابسى بسرعة وقصدت إلى الصالون.

وهناك وجدت الربان نيمو جالسًا فى انتظارى. فما أن رآنى حتى نهض وانحنى تحية لى، ثم سألنى إذا كان من الملائم لى أن أرافقه:

- هل أستطيع أن أسألك يا كابتن كيف تمتلك غابات فى جزيرة كريسبو رغم أنك قطعت الصلة بينك وبين الأرض؟

فقال الريان:

- إن غاباتى يابروفسور ليست غابات أرضية، بل غابات بحرية. فهتفت قائلاً:

- بحرية؟

- نعم يابروفسور.

- وأنت تدعونى للذهاب معك إليها؟

- نعم. ودون أن ينالك أى بلل.

- ولكن كيف نصطاد؟ ببندقية؟

- نعم ببندقية.

وظننت أن الريان جُن، وشفت ملامح وجهى عن هذا الظن. ولكنه لم يلبث أن طلب منى أن أتبعه وكان علىّ أن أمتثل لكل شىء وقد دخلنا غرفة الطعام حيث وجدنا الإفطار معدًا.

وقال الريان:

- هل تسمح يا مسيو أروناكس بمشاركتى طعام الإفطار دون كلفة؟ سنتحدث أثناء الطعام كما أننا لن نجد فى طريقنا إلى الغابة مطعمًا نأكل فيه ولهذا أرجو أن تفطر كرجل ربما لا يتغدى إلا فى ساعة متأخرة.

وأقبلت على الطعام بشهية كبيرة. وكان مؤلفًا من أصناف مختلفة من السمك وشرائح من لحم الهوليثوريا والزوفيت الفاخر مطهوة بمختلف أعشاب البحر. وشربنا ماءً صافيًا، وحذوت حذو الريان فأضفت قطرات من شراب كحولى تقطر من أعشاب بحرية تعرف باسم «رودومينيا بالماتا»، وقد أخذ الريان نيمو فى تناول طعامه دون أن يقول شيئًا أول الأمر، وأخيرًا قال لى:

- عندما دعوتك للصيد فى غابتى البحرية، خطر ببالك أننى مجنون.

لقد تسرعت فى الحكم على. فأنت تعرف مثلى أن فى مقدور الإنسان أن يعيش تحت سطح الماء. فحين نرتدى ملابس عازلة محكمة، ونضع على رءوسنا

خـوذات مـعـدنيـة ونحـصل على الهـواء من أجـهـزة فـوق السطح ترسل إلينا بالمضخات.

- إذن فهى أجهزة الغواصة؟

- نعم ولكنها أجهـزة خاصة يستطيع الغواص فيها أن يتخلص من الأنبوب المطاطى المتصل بالمضخة. إنه نفس الجهاز الذى اخترعه اثنان من مواطنيك، ولكنى أدخلت عليه من التحسينات ما يجعله صالحًا لاغراضى الخاصة، وسوف يتيح لك المخاطرة فى الهبوط إلى أعماق البحر دون حدوث أذى. إنه يتكون من مستودع من ألواح الحديد السميكة لاختزان الهواء المضغوط تحت خمسين ضغطًا جويًا. ويربط هذا المستودع على الظهر بأربطة كما يفعل الجندى بعتاده، ويتكون جزء المستودع الأعلى من صندوق يحتفظ فيه بالهواء بواسطة مفاتيح. ولا يتسرب هذا الهواء إلا بضغطه العادى. ويخرج من هذا الصندوق أنبوتان من المطاط ويتصلان بشبه قناع يكسو الفم والأنف بإحكام، وإحدى الأنبوبتين تدفع بالهواء النقى إلى الرئتين والأخرى تطلق الهواء الفاسد خارجًا واللسان يغلق أيهما حسب الحاجة إلى التنفس. ولكننى وأنا أعانى ضغطًا شديدًا فى قاع البحر مضطر إلى وضع رأسى فى كرة نحاسية تفتح فيها الأنبوبتان.

فقلت:

- عظيم جدًا يا كابتن نيمو... ولكن الهواء الذى تحمله معك سوف يستهلك سريعًا، لأنه لن يصلح للتنفس بعد أن تصبح نسبة الأوكسجين فيه ١٥٪.

- لقد ذكرت لك يابروفسور أن مضخات الغواصة تسمح لى باختزان الهواء تحت ضغط كبير وفى هذه الحالة يمكن لمستودع الجهاز أن يزودنى بالهواء الصالح للتنفس لمدة تسع أو عشر ساعات.

فقلت:

- ليس لدى اعتراضات أخرى، ولكننى سأسألك عن شىء واحد. يا كابتن... وهو كيف تضىء طريقك فى قاع المحيط؟

ـ بجهاز رومكورف يا مسيو أروناكس. إنه يتكون من ملف بنزن الذى أديره بالصوديوم وهناك سلك يستجمع الكهرباء المولدة ويوجهها إلى مصباح صنع لهذا الغرض خاصة. وفى هذا المصباح زجاجة حلزونية تحتوى على كمية قليلة من غاز الكربون، وعند ما يدار الجهاز يصبح الغاز مضيئًا ويطلق ضوءًا أبيض مستمرًا وعلى هذا النحو تزود بالهواء والضوء.

ـ ولكن أى نوع من البنادق تستعمل يا كابتن نيمو؟

ـ إنها ليست بندقية بارود. وإنما بندقية تنطلق بضغط الهواء وإلا فكيف أستطيع أن أصنع بندقية بارود دون الحصول على الكبريت أو الفحم الحجرى أو ملح البارود.

فأضفت قائلاً:

ـ وعدا هذا فإن إطلاق النار تحت الماء فى وسط أكثف من الهواء بمقدار ثمانمائة وخمس وخمسين مرة، يواجه مقاومة شديدة لا بد من التغلب عليها.

ـ ليس فى هذا صعوبة. فهناك نوع من بنادق فلتون مزودة بأجهزة إقفال يمكن إطلاقها فى مثل هذه الظروف، ولكننى أكرر القول بأنه نظرًا لعدم وجود بارود لدى، فإنى أستخدم الهواء المضغوط ضغطًا عاليًا، وهو ما تزودنى به الغواصة.

ـ ولكن مثل هذا الهواء لابد أن يستهلك عاجلاً.

ـ حسنًا. أليس لدى مستودعات ردكايرول التى تزودنى بكل حاجياتى من هذا الهواء. وفضلاً عن هذا فسوف ترى بنفسك يا مسيو أروناكس أننا لن نستنفد الكثير من الهواء أو الرصاص أثناء رحلتنا للصيد فى الغابة البحرية.

ـ ولكن يبدو لى أن الأهداف لن تكون واضحة ولن تصيب منها مقتلا فى محيط أكثر كثافة من الجو وأقل ضوءًا.

ـ سيدى إن كل طلقة من هذه البنادق تصيب مقتلا. وإن الحيوان البحرى ليسقط ميتًا حالما تلمسه القذيفة ولو مسًا ضعيفًا.

ـ لماذا؟

ـ لأن القذائف ليست رصاصًا عاديًا. فإن لدينا كبسولات من الزجاج المتفجر وفى الغواصة كميات كبيرة منه. هذه الكبسولات الزجاجية المكسوة بالصلب والمثقلة فى القاع بالرصاص، هى زجاجات ليدن التى يحول فيها التيار الكهربائى إلى ضغط عال. وهى تتفجر لأقل صدمة، فيسقط الحيوان صريعًا مهما تكن قوته، إن هذه الكبسولات لا تزيد فى حجمها عن الرصاصة رقم ٤ ويمكن أن تحتوى خزانة البندقية العادية على عشر كبسولات منها.

فقلت وأنا أنهض عن المائدة:

ـ لن أناقش أكثر من هذا، ولم يبق أمامى إلا أن أحمل بندقيتى، إننى سأتبعك إلى حيث تذهب.

وبعد ذلك قادنى الربان نيمو إلى مؤخرة الغواصة، ثم استدعيت صاحبى اللذين تبعانى فورًا وقصدنا حجرة صغيرة بالقرب من غرفة الآلات، حيث ارتدينا ملابس السير فى الأعماق.

الفصل السادس عشر

فى قاع البحر

كانت الغرفة الصغيرة بمثابة ترسانة ومخزن ملابس فى الغواصة، فقد رأيت على جدرانها عشرات من أجهزة الغوص فى انتظارنا.

وما أن رآها نيدلاند حتى أبدى نفورًا بينًا من ارتداء إحداها. فقلت له:

- ولكن يا عزيزى نيدلاند إن غابات جزيرة كريسبو ليست إلا غابات تحت البحر.

وهكذا خاب أمل صياد الحيتان حين رأى أحلامه بصدد اللحم الطازج تتلاشى.

وأخيرًا قال:

- وأنت يا مسيو أروناكس. هل سترتدى واحدًا منها؟

- لابد من هذا يا سيد نيد.

فهز صياد الحيتان كتفيه وأجاب قائلاً:

- لك يا سيدى أن تفعل ما تريد. أما أنا فلن أرتدى إحداها إلا إذا أرغمت على ذلك.

فقال الربان نيمو:

- لن يرغمك أحد.

فقال نيد:

- وهل ينوى كونسايل أن يغامر بذلك؟

فأجاب كونسايل:

- سأتبع سيدى حيثما يذهب.

واستدعى الربان اثنين من بحارة الغواصة لمساعدتنا فى ارتداء ملابس الغوص الثقيلة المصنوعة من المطاط والمصممة خصيصًا لمقاومة الضغط العالى. وكانت تبدو كحلة مدرعة بمالها من مرونة وقوة احتمال. كانت مؤلفة من بنطلون وسترة: فأما البنطلون فكان طرفاه ينتهيا بحذاء غليظ ذى نعل من الرصاص الثقيل، وكان نسيج السترة مشدودًا بأربطة من النحاس متشابكة فوق الصدر لتحميه من ضغط الماء تاركة للرئتين حرية التنفس، وكانت أكمام السترة تنتهى بقفاز لا يقيد حركات اليدين بأى حال.

وبعد قليل فرغنا من ارتداء هذه الملابس أنا وكونسايل والربان نيمو وأحد بحارته، وكان رجلا هرقلى الجسم. ينم منظره عن القوة المفرطة: ولم يبق إلا أن يضع كلانا رأسه فى الكرة النحاسية، ولكنى قبل أن أقوم بهذه العملية سألت الربان أن يأذن لى بفحص البنادق التى سنأخذها.

وقد سلمنى أحد البحارة بندقية عادية الشكل كانت مؤخرتها المصنوعة من الصلب والمجوفة من الداخل كبيرة الحجم فهى بمثابة مستودع للهواء المضغوط الذى كان ينطلق إلى أنبوبة معدنية عن طريق صمام يعمل بزنبرك. وكان ثمة صندوق للقذائف صغير مثبت فى فجوة خاصة بمؤخرة البندقية. يحتوى على نحو عشرين رصاصة كهربائية تدفع عن طريق الزنبرك إلى «ماسورة» البندقية وكلما انطلقت رصاصة أصبحت الثانية معدة.

وقلت:

- إن هذه البندقية يا كابتن نيمو كاملة وسهلة الاستعمال. وكل ما أرجوه الآن هو تجربتها، ولكن كيف نصل إلى قاع البحر؟

- إن الغواصة يا بروفسور قائمة الآن على عمق ثلاثين ياردة وما علينا إلا أن نبدأ الرحلة.

- ولكن كيف سنخرج منها؟

- سترى حالا.

وضع الريان نيمو خوذته على رأسه، وحذوت أنا وكونسايل حذوه ونحن نسمع من نيدلاند هذه العبارة التهكمية «صيد طيب» وكان طرف السترة العلوى ينتهى بياقة نحاسية شدت إليها الخوذة المعدنية. وما أن تم ارتداء الملابس حتى بدأ الجهاز الموضوع على الظهر عمله. وقد وجدت من ناحيتى أنى أستطيع التنفس بسهولة.

وبعد أن تم إعداد كل شىء وجدت أنى لا أستطيع التقدم خطوة واحدة. ولكن هذا كان متوقعًا؛ فقد شعرت بأنى أدفع إلى مقصورة ملحقة بغرفة الملابس، وتبعنى رفاقى مدفوعين بنفس الكيفية. وسمعت بابًا مزودًا بمفصلات ذاتية يغلق ورائى، وإذا نحن فى ظلام دامس.

وبعد لحظات سمعت صفيرًا عاليًا أحسست بالبرودة تسرى من قدمى إلى صدرى وكان واضحًا أن الغرفة تمتلئ بماء البحر من صُنبور خاص. وفتح باب آخر فى جانب الغواصة ولاح ضوء يسير وبعد لحظة كانت أقدامنا تطأ قاع البحر.

والآن كيف أستطيع أن أسجل مشاعرى وأنا أسير تحت سطح البحر؟ إن الألفاظ قاصرة عن التعبير عن هذه الروائع. وإذا كانت فرشاة الرسم نفسها تعجز بالألوان عن تصوير تأثيرات هذه العناصر المائية الفريدة فكيف يكون ذلك فى طوع العلم؟

وكان الريان نيمو يسير فى المقدمة ورفيقه على مسافة خطوات يسيرة وبقيت مع كونسايل وكأنما كان يمكن أن نتبادل الحديث من خلال الخوذات المعدنية. ولم أعد أشعر بثقل ملابس الغوص أو الحذاء أو مستودع الهواء أو بالكرة المعدنية المجوفة التى كان راسى يتأرجح داخلها كاللوزة فى غلافتها.

وأدهشنى الضوء الذى أنار القاع على عمق ثلاثين قدمًا تحت سطح المحيط بقوته وسطوعه، فقد كانت أشعة الشمس تنفذ من حجاب الماء وتتحلل إلى ألوان الطيف، وكان يمكن رؤية الأشياء بوضوح على مسافة مائة وعشرين ياردة. أما فيما وراء ذلك فقد كان الضوء يتدرج فى ظلال بديعة الألوان ثم يتلاشى وتسود العتمة. وكانت المياه حولى تبدو أشد كثافة من جو اليابسة. ولكنها تقاربه شفافية. أما فوقى فقد كان بوسعى أن أبصر سطح البحر الهادئ.

وكنا نسير على أرض رملية ناعمة مستوية لا أثر فيها للتموجات، كما يحدث فى شاطئ رملى مسطح تنطبع فيه آثار الأمواج. وكانت هذه السجادة الرائعة تعكس أشعة الشمس بقوة مدهشة، وكنت أستطيع فى هذا العمق البالغ ثلاثين قدمًا أن أبصر كما لو كنت فى وضح النهار.

ولبثت ربع ساعة أسير فوق هذه الرمال البراقة المرصعة بغبار المحار الملون الأملس. وكانت مقدمة الغواصة التى لاحت لى وكأنها صخرة مستطيلة تختفى تدريجيًا، ولكن مصباحها إذ جن الليل كان كفيلاً بتسهيل عودتنا إليها. وكنت وأنا أسير أجذب أستار الماء بيدى فلا تلبث أن تنسدل ورائى، أما آثار قدمى على الرمال فكانت تتلاشى بضغط الماء.

وسرعان ما وصلت إلى مجموعة من الصخور البديعة المكسوة بأنضر أعشاب البحر، ولأول وهلة داخلنى انفعال خاص بهذا الجو المحيط بى؟

وكانت الساعة إذ ذاك العاشرة صباحًا. وكانت الشمس ترسل أشعتها على سطح الأمواج فى زاوية حادة وعند التقاء الشمس بسطح البحر كان الضوء يتحلل وكأنه ينفذ من منشور بللورى إلى ألوان الطيف السبعة التى تنعكس فى رونق وبهاء على الأزهار والصخور والأعشاب والرمال والمحار. وكان المنظر فى جملته يبهر العين لتشابكه، وألوانه المتباينة التى تتعاقب بين الأخضر والأزرق.... وصفوة القول كانت جميع الألوان التى فى جعبة رسام موهوب.

وتوقفت مع كونسايل أمام هذا المشهد الرائع. فقد كانت زهور الإيريس المبرقشة، وأكوام المرجان الصافى. ونبات الإسفنج، وشقائق النعمان المتكاثفة

بإطاراتها القوية تشكل حديقة بحرية غناء مموهة بطلاء كالرخام الناشئ من قواقع البورنيتا، ومزخرفة بقرون استشعارها السماوية اللون. كما كانت أزهار نجوم البحر ترصع الرمال، والقواقع تترك فى زحفها على الرمال آثارًا كأنها الوشى. وكم تملكنى الأسى وأنا أدوس بقدمى هذه الأنواع التى لا حصر لها من النباتات والأزهار والأحياء البحرية الدقيقة والمحار والأصداف وغيرها من كنوز المحيط التى لا يحصيها عدد. ولكن كان علينا أن نتابع السير بينما كانت أنواع وأصناف أخرى من الحيوانات البحرية تسبح فوقنا بمختلف ألوانها وأشكالها وسماتها وكأنها مظلات عجيبة تحمينا من أشعة الشمس. ولو كان الوقت ليلاً لأضاء لنا سمك الباتوفيريان الطريق بإشعاعه الفسفورى.

شاهدت هذه الأعاجيب كلها فى مساحة ربع ميل مربع. ثم سرعان ما تبدلت طبيعة التربة فبعد السهول الرملية، أخذنا نسير فى منطقة موحلة زلقة تتكون من أجزاء متساوية الأصداف الرملية والجيرية ثم انتقلنا إلى مراع من أعشاب البحر اللينة التى تفوق أفخر أنواع السجاد التى صنعتها يد الإنسان وفى الوقت الذى انبسطت فيه تحت أقدامنا هذه الخضرة البحرية. كانت هناك نباتات أخرى تطفو على سطح الماء وقد لاحظت أن الخضراء منها كانت قريبة من سطح الماء أما ذات اللون الأحمر فكانت تقع فى عمق متوسط. وبقيت النباتات ذات اللون الأسود أو البنى تكون حدائق النباتات وأحواض الزهور فى أعماق المحيط البعيدة. وأن أسرة الأعشاب البحرية تضم أكبر وأصغر أنواع النبات فى الكرة الأرضية.

وكنا قد غادرنا الغواصة منذ نحو ساعة ونصف، وكان الوقت يناهز الثانية عشرة ظهرًا، وقد عرفنا هذه الحقيقة من استقامة أشعة الشمس التى لم تعد تتحلل إلى ألوان الطيف. وهكذا اختفت هذه الألوان الساحرة تدريجيًا وتلاشت الظلال الزمردية والياقوتية، ومضينا نسير بخطوات منتظمة كان لها فوق الأرض رنين أدهشنا وضوحه، ذلك أن أقل صوت كان يصل إلى الأذن بسرعة لم تألفها اليابسة. والواقع أن الماء أفضل من الهواء فى توصيل الصوت. بنسبة أربعة إلى واحد.

وبدأت الأرض تنحدر تدريجيًا وأخذ الضوء يزداد خفوتًا لقد كنا فى عمق يجاوز مائة ياردة. وتحت ضغط يوازى عشرة ضغوط جوية. ولكن ملابس الغوص كانت أصغر من أن أشعر معها بوطأة هذا الضغط وكل ما أحسست به هو اضطراب يسير فى مفاصل أصابعى، وحتى هذا لم يلبث أن تلاشى. أما التعب الذى كنت متوقعًا أن نشعر به فى هذه الجولة، وبهذه الملابس العجيبة فلم يكن له وجود. فقد كنت أتحرك بسهولة مدهشة والماء خير عون لى.

وكنت رغم هذا العمق البالغ ثلاثمائة قدم - لا أزال أرى أشعة الشمس، ولكن فى غير وضوح. فقد أعقب ضوءها الباهر، ضوء أحمر كالشفق الذى يفصل بين الليل والنهار. ومع ذلك كان هذا الضوء كافيًا لهدايتنا فى الطريق وهكذا لم يتحتم علينا بعد أن نستعين بمصابيحنا.

وفى تلك اللحظة توقف الربان نيمو، منتظرًا وصولى إليه، ثم أشار بإصبعه إلى كتلة عائمة بدت من بين الظلال على مسافة يسيرة، فقلت لنفسى:

- إنها جزيرة كريسبو.

ولم أكن مخطئًا.

الفصل السابع عشر

غابة فى قاع المحيط

وصلنا أخيرًا إلى مشارف الغابة التى تعتبر بلاشك من أجمل ممتلكات الربان نيمو الشاسعة. كان ينظر إليها على أنها ملك يمينه، وإلا فأين الذى يستطيع أن ينازعه هذا الحق؟ وكانت هذه الغابة تتكون من أشجار كثيفة. وما أن نفذنا من عقودها الضخمة حتى أدهشنى وضع أغصانها الفريد الذى لم ألاحظه من قبل.

لقد استرعى نظرى أن الأعشاب التى تكسو الأرضية والأغصان والنباتات الأكبر حجمًا، كانت منحنية متدلية أو منتشرة أفقيًا، لم يكن بينها أى نبات حتى ولا الألياف الدقيقة إلا وقد امتد رأسيًا كقضيب من الحديد. وكذلك كانت نباتات الفاسكى والليالناس تنمو فى خطوط رأسية مستقيمة تسيطر عليها كثافة العناصر التى تنميها. وعند ما أحنيت بيدى بعضها استردت وضعها الرأسى فورًا، لقد كنا فى عالم النباتات الرأسية الصاعدة.

ولم ألبث أن ألفتُ هذه الأوضاع الغريبة كما ألفت الظلمة اليسيرة التى تشملنا. وكانت الأرض تبدو مكسوة بكتل لم يكن من السهل اجتنابها. ولكن الغابةِ فى جملتها بدت لى أكمل وأغنى من غابات المناطق القطبية أو الاستوائية. وقد اختلط الأمر علىّ لأول وهلة، فكنت أخطئ فى التفريق بين بعض الحيوانات والنباتات. ومن ذا الذى لا يخطئ فى عالم بحرى يتحد فيه عنصر النبات والحيوان اتحادًا يكاد يكون كاملاً.

وقد لاحظت أن كل هذه النباتات البحرية ليست لها جذور، وإنما هى عالقة فقط بالرمال أو الأصداف أو الصخور، إنها لا تستمد غذاءها وحيويتها من شىء غير الماء. وكان أكثرها ينبت بدل الأوراق نصالاً نباتية الأشكال تتعاقب ألوانها بين الوردى والأحمر الزاهى والأحمر العادى والزيتونى والبنى....

وبين هذه الأشجار المختلفة التى تبلغ فى أحجامها أشجار المناطق المعتدلة، وتحت ظلالها الرطيبة رأيت كتلاً من أدغال الزهور الحية وأعنى بها مختلف أنواع القواقع والمحار وحيوانات الإسفنج وغيرها من الأحياء البحرية الدقيقة التى تشبه النبات والزهور بألوانها وخطوطها وتفتح أوراقها. ولكى تتم الصورة العجيبة رأيت السمك الطائر، الذى كان يطير من غصن إلى غصن وكأنه أسراب من الطيور الطنانة...

وفى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر أشار لنا الربان نيمو بالتوقف، فلم يؤسفنى هذا. ولم نلبث أن تمددنا تحت دغل من نبات الألاريا التى كانت نصالها تندفع إلى أعلى كالسهام.

وبدت لى هذه الراحة القصيرة ممتعة. ولم يكن ينقصنا إلا لذة الحديث، ولكن الحديث كان مستحيلاً، كل ما استطعته هو تقريب خوذتى المعدنية الكبيرة من خوذة كونسايل، فرأيت عينيه تلمعان رضى؛ وكان يتحرك فى ملابس الغوص بطريقة تثير أشد الضحك.

وقد أدهشنى بعد مسيرة هذه الساعات الأربع أنى لم أشعر باشتداد الجوع. ولست أدرى ما السبب، ولكنى كنت أشعر برغبة قوية فى النوم كما هو شأن جميع الغواصين. لقد أغمضت عينى وراء زجاج الخوذة السميك واستغرقت فى نوم غلاب لم يحل بينى وبينه حتى ذلك الحين سوى المسير؛ وكان الربان نيمو وصاحبه القوى قد ضربا لنا المثل فى الخضوع لسلطان النوم بعد أن رقدا على أرضية هذا العالم البللورى.

ولست أدرى كم لبثت نائمًا، ولكنى حين استيقظت كانت الشمس مائلة إلى المغيب، وكان الربان نيمو قد استيقظ ونهض واقفًا بينما كنت أتمطأ، ولكن مشهدًا مفاجئًا جعلنى أثب واقفًا.

رأيت على بعد خطوات منى عنكبوتًا بحريًا ضخمًا يبلغ ارتفاعه أكثر من ياردة يحدق إلىَّ بعينيه الحولاوين ويتأهب للوثوب علىَّ، ورغم أن سمك ملابسى كان كافيًا لحمايتى من لدغة هذا العنكبوت الوحشى فإنى لم أستطع كتمان حركة تنم عن الفزع، واستيقظ كونسايل وبحار الغواصة على صوت حركتى. وأشار الربان نيمو للبحار إلى ذلك الوحش البحرى المخيف وإذا بضربة عنيفة من مؤخرة البندقية تقضى عليه... ورأيت مخالبه البشعة وهى تتلوى بحركات تشنجية فظيعة..

وذكرتنى هذه الحادثة بأن ثمة حيوانات أخطر قد تكمن فى هذه الأعماق المظلمة. وأن ملابس الغوص قد لا تحمينى من هجماتها، والواقع أن شيئًا كهذا لم يخطر ببالى من قبل. ولهذا قررت التزام الحذر. وكنت أظن أن هذه الراحة هى نهاية رحلتنا ولكنى تبينت خطئى؛ فإن الربان نيمو بدلا من العودة إلى الغواصة استأنف السير.

واستمرت الأرض فى الانحدار حتى أفضت بنا إلى مزيد من الأعماق. وأعتقد أن الساعة كانت الثالثة بعد الظهر حين بلغنا واديًا ضيقًا بين هضبتين عاليتين على عمق أربعمائة قدم تحت سطح الماء، ويرجع الفضل إلى ملابس الغوص التى جعلتنا نحتمل الضغط المائى ونحن فى هذا العمق فقد كنا على عمق ٢٧٠ قدمًا تحت المستوى الذى لا يستطيع الإنسان تجاوزه دون أجهزة الغوص، وقد عرفت مدى العمق الذى وصلنا إليه لأن الظلمة صارت مطبقة بحيث لم يكن فى مقدورنا أن نرى إلى أبعد من عشر خطوات، وبينما كنت أسير وأنا أتحسس طريقى رأيت فجأة ضوءًا أبيض يسطع. لقد أضاء الربان نيمو مصباحه الكهربائى فاقتديت به أنا والبحار وكونسايل، وتم ذلك بإدارة لولب يصل بين قطعة سلك والزجاجة الحلزونية المضيئة. وقد أضاءت هذه المصابيح الأربعة الطريق حولنا إلى مسافة خمس وعشرين ياردة.

وتابع الربان نيمو توغله فى أعماق الغابة المظلمة التى أخذت أشجارها تقل تدريجيًا كلما تقدمنا. وقد لاحظت أن العنصر النباتى كان يختفى أمامنا بأسرع

من اختفاء العنصر الحيوانى، فبينما كانت بعض المناطق خالية من النبات إذا هى فى ذات الوقت زاخرة بأنواع من الأحياء البحرية المختلفة.

وخطر لى ونحن نسير أن مصابيحنا لا يمكن إلا أن تلفت أنظار بعض سكان هذه الأعماق المظلمة. ولكنها إذا كانت لم تقترب منا فإنها على الأقل تبعتنا من مسافة غير قصيرة، ورأيت الربان نيمو مرارًا وهو يتوقف ويصوب بندقيته ثم لا يلبث بعد تدقيق النظر أن ينهض ويستأنف السير.

وحوالى الساعة الرابعة انتهت هذه الرحلة العجيبة أخيرًا، فقد ارتفع أمامنا جدار من الصخور الشامخة. إلى هضبة من الجرانيت يستحيل أن يتسلقها إنسان. تلك هى جزيرة كريسبو. وفجأة توقف الربان نيمو وتوقفنا نحن بإشارة منه. فهنا كانت آخر حدود مملكته.

وبدأنا طريق العودة. وتقدم الربان فرقته الصغيرة كالمعتاد دون تردد ولا التواء؛ وبدا لى أن عودتنا إلى الغواصة لم تكن من نفس الطريق الذى جئنا فيه، فقد كان الطريق شديد الانحدار يشق السير فيه ولكنه أفضى بنا إلى السطح بسرعة، على أن عودتنا إلى المناطق العليا لم تكن مفاجئة على النحو الذى يسبب الأضرار المهلكة للغواصين. وسرعان ما وضح الضوء مرة أخرى وأخذ يزداد. وكانت الشمس عندئذ قد مالت إلى المغيب وصبغت المرئيات بهالات طيفية.

وعلى عمق عشر ياردات أخذنا نسير بين أسراب من السمك الصغير من كل صنف أكثر كثيرًا من طيور الجو وأخف منها حركة ولكننا لم نلتق حتى ذلك الحين بحيوان بحرى يستحق أن نصوب إليه بنادقنا.

وفجأة رأيت الربان نيمو يرفع بندقيته على كتفه ويقتفى أثر شىء متحرك بين الشجيرات، ولم يلبث أن أطلق البندقية فسمعت فحيحًا يسيرًا ثم رأيت حيوانًا يسقط على مسيرة خطوات منا.

كان «قندسا» أو كلب البحر بديع الصورة وهو الحيوان الوحيد من ذوات الأربع الذى يعيش فى الماء فقط. وكان طوله خمسة أقدام مما يضاعف من قيمته

المادية. وكان جلده الكستنائى اللون فى أعلى، الفضى فى أسفل يجعل منه فراء نفيسًا يشتد الإقبال عليه فى روسيا والصين. وأعتقد أن هذا الفراء اللامع الناعم الملمس لا يقل ثمنه عن ثمانين جنيهًا. وأخذت أتأمل بإعجاب هذا الحيوان البحرى الثديى برأسه المستديرة وأذنيه القصيرتين وعينيه المستديرتين وشواربه البيضاء كالقط. وأقدامه ومخالبه ذات الأغشية. لقد كان صيادو السمك يَجِدُّون فى طلب صيد هذا الحيوان الثمين حتى أصبح نادرًا؛ وأخذ يلتجئ إلى البقاع الشمالية من المحيط الهادى حيث يحتمل أن ينقرض نوعه فى زمن قريب، وما لبث تابع الربان نيمو أن حمل هذا الحيوان فوق كتفه ثم تابعنا السير.

وفى الساعة التالية كنا نسير فى سهل رملى مترامى الأطراف كان يرتفع أحيانًا قرب سطح الماء بمقدار ياردتين وبضع بوصات، وكنت أرى فوقنا انعكاس صورنا وهى انعكاسات تمثلنا تمامًا وإن جعلت رءوسنا إلى أسفل وأرجلنا إلى أعلى..

وكانت لجج الأمواج فوقنا تبدو كالسحاب فوق رءوسنا. وهو سحاب ما يكاد أن يتجمع حتى يتلاشى سريعًا، كما كنت أرى ظلال الطيور الكبيرة وهى تحلق فوق سطح الماء.

وفى هذه المناسبة أتيح لى أن أشهد انطلاق بندقية الصيد بضربة فذة تستهوى الصياد. فقد راح طائر كبير عريض الجناحين يرفرف فوقنا فرفع تابع الربان نيمو بندقيته إلى كتفه وأطلقها عندما حلق الطائر قريبًا من سطح الماء فهوى الطائر صريعًا فى متناول يد الصياد البارع الذى تلقفه. وكان كطائر القادوس.

ولكن هذه الحادثة لم تعطل سيرنا.. وقد نال منى الجهد كل منال حتى لمحت آخر الأمر ضوءًا باهتًا على بعد نصف ميل. فقدرت أنه لن تنقضى عشرون دقيقة حتى نصل إلى الغواصة حيث أستطيع التنفس بسهولة. فقد بدا لى أن مستودع الهواء الخاص بى لم يعد فيه كفاية من الأوكسجين بيد أنى لم أحسب حسابًا لحادث آخر وصولى إلى الغواصة.

كنت إذ ذاك خلف الربان نيمو بنحو عشرين خطوة عندما استدار نحوى فجأة وطرحنى بيده القوية أرضًا بينما فعل تابعه مثل هذا بكونسايل. ولم أستطع أول الأمر أن أعرف كيف أواجه هذا الهجوم المفاجئ ولكنى اطمأننت حين رأيت الربان راقدًا على الأرض بجوارى فى سكون تام.

تمددت فى ظل شجيرة من نوع الإرجياء. وما كدت أرفع رأسى حتى رأيت أجرامًا ضخمة ذات إشعاعات فسفورية تمر صاخبة عن كثب منى.

لقد شعرت بالدماء تجمد فى عروقى لدى رؤيتى كلبى بحر يهددان حياتنا وكانا مخلوقين رهيبين ضخمى الذيل تنبعث منهما نظرات جوفاء جامدة ذات إشعاع فسفورى، كلاهما وحش مروع يمكن أن يحطم رجلا مكتمل النمو بين كفيه. ولم أدر هل حاول كونسايل أن يعرف نوعهما وفصيلتهما. وإنما الذى أدريه أنى لاحظت بطونهما الفضية وأفواههما الضخمة وأنيابهما الحادة التى كنت أنظر إليها بعين الضحية لا بعين العالم الذى يفحصها من الناحية العلمية.

كانت هذه الحيوانات الوحشية ضعيفة النظر لحسن الحظ. وهكذا مر كل منهما بجانبنا دون أن يرانا وإن كنا لن نسلم من احتكاك زعانفه القوية بنا. وكذلك نجونا بمعجزة من خطر كان أشد من تعرض الإنسان لنمر فى غابة.

وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الغواصة بمساعدة ضوء المصابيح الكهربائية وكان بابها الخارجى قد ظل مفتوحًا. وقد أغلقه الربان نيمو بعد أن دخلنا القمرة الأولى ثم ضغط على لولب فسمعت المضخات وهى تعمل فى الداخل وشعرت بالماء يهبط من حولى. وبعد لحظات كانت القمرة الأولى خالية من الماء تمامًا وعندئذ فتح الربان الباب الداخلى المؤدى إلى غرفة الملابس.

وبعد أن تخففت من ملابس الغوص، عدت إلى غرفتى وأنا مكدود لفرط حاجتى إلى الطعام والنوم، ولكن العجب كان يملك على نفسى لما رأيت من غرائب هذه الرحلة تحت البحر.

الفصل الثامن عشر

أربعة آلاف فرسخ تحت المحيط الهادى

زايلنى التعب فى صباح اليوم التالى، فصعدت إلى سطح الغواصة، فى نفس الوقت الذى كان فيه الضابط الأول يقول عبارته اليومية المعهودة وعند ذلك خطر لى أن لهذه العبارة علاقة بحالة البحر وأن معناها «ليس هناك شىء على مدى البصر».

وكان المحيط فى الواقع خلوًا من أى شىء فلم يكن ثمة شراع فى الأفق. واختفت جزيرة كريسبو أثناء الليل وامتص البحر ألوان الطيف الشمسى. فيما عدا الأشعة الزرقاء التى انعكست منه فى كل اتجاه، زاهية بديعة. وانبعثت موجة كبيرة تتراوح على سطحه متعاقبة.

وبينما أنا أتأمل هذا المنظر الرائع للبحر، إذ أقبل الربان نيمو وبدا لى أنه لم يفطن إلى وجودى؛ فقد انهمك فى سلسلة من العمليات الفلكية. ولما فرغ منها يمم شطر مقصورة الكشاف حيث وقف مستندًا إليها وراح يرقب سطح المحيط.

وفى خلال هذه الفترة صعد إلى سطح الغواصة نحو عشرين رجلاً من بحارة الغواصة وهم أقوياء أشداء البنية، وقد أقبلوا لسحب شباك الصيد التى ظلت مطروحة فى الماء طوال الليل. وكان جليًا أن هؤلاء البحارة ينتمون إلى جنسيات مختلفة رغم الطابع الأوربى الذى يشملهم: لقد تبينت منهم الإيرلندى والفرنسى وبعض السلاقيين واليونانيين، وكانوا قليلى الكلام، يتخاطبون بلهجة غريبة لم

أتمكن حتى من معرفة مصدرها من اللغات ولهذا لم أستطع تبادل الحديث معهم.

ورفعت الشباك من الماء. وكانت من نوع «الكالوت» المستعمل لصيد السمك على شاطئ نورماندى بفرنسا. وهى عبارة عن جيوب كبيرة تظل نصف مفتوحة بعوامات وسلاسل خفيفة مشدودة إلى أطرافها السفلى. وعند سحب هذه الجيوب، تكتسح الثقالات الرصاصية أرض المحيط وتجمع داخل الشباك كل ما يعترض سبيلها. وفى هذا الصباح جاءت الشباك بأنواع غريبة من حقول السمك هذه. وقد رأيت بينها أسماك اللوفيادا بحركاتها المضحكة مما جعلها تستأثر باسم «السمك المهرج».

وأعتقد أن هذه الحصيلة لم تكن تقل عن تسعمائة وزنة من السمك. وهى حصيلة بديعة، ولكنها لا تدعو إلى الغرابة؛ فإنه ينبغى ألا نشعر بنقص فى حاجتنا إلى الطعام.

وسرعان ما أنزلت هذه المنتجات البحرية المختلفة من الباب الخارجى المؤدى إلى مخازن المؤونة لتقدم بعضها طازجًا، ويحفظ بعضها الآخر.

وبعد أن تمت عملية الصيد وتجديد مؤونة الهواء خطر لى أن الغواصة ستستأنف رحلتها تحت سطح الماء فتأهبت للعودة إلى غرفتى عند ما استدار الريان إلىَّ قائلا:

- أليس المحيط قد وهب حياة حقيقية يا بروفسور؟ إنه أحيانًا رقيق، وأحيانًا أخرى عاصف، لقد نام فى الليلة الماضية مثلنا. وها هو ذا الآن قد استيقظ بعد نوم هادئ.

ولاحظت أن الريان لم يقل لى مرة «طاب صباحك أو سعدت مساء» وكأن صاحب هذه الشخصية كان يواصل معى حديثًا بدأه من قبل.

واستطرد يقول:

- انظر.. إنه يستيقظ بتأثير الشمس. وإنه لمن الطريف جدًا أن ترقب تفاعله الحيوى. إن له نبضًا وعروقًا. إن له انتفاضات ودورة دموية حقيقية كدورة الدماء فى الحيوانات.

وكان الواضح أن الربان نيمو لم ينتظر منى جوابًا. كان يتحدث كأنما يتحدث إلى نفسه وهو يتوقف بين عبارة وأخرى. وكأن حديثه تأملات مسموعة.

وعاد يقول:

- نعم إن للمحيط دورة حقيقية. وقد اكتفت الإرادة الإلهية فى خلقها لهذه الدورة بمضاعفة الأملاح القلوية والخلايا الحيوانية. فالقلويات تنشئ اختلاف الكثافات التى تؤدى بدورها إلى خلق التيارات السطحية والتحتية، وأن التبخر الذى لا يحدث أبدًا فى المناطق الشمالية القصوى يكثر حدوثه ونشاطه فى المناطق الاستوائية، يؤدى بدوره إلى التبادل الدائم بين المياه الاستوائية والمياه القطبية. وفضلا عن هذا فإنى شعرت بالتيارات الرأسية التى يتكون منها جهاز التنفس الحقيقى للمحيط. لقد رأيت ذرات مياه البحر وهى تسخن على السطح، ثم تهبط إلى الأعماق حيث تصل إلى مستواها العادى من الكثافة فى درجة ٢ مئوية تحت الصفر، ثم تعود إلى الصعود بعد أن تصبح بالبرودة أخف وزنًا. وأنت تعرف فى القطبين نتائج هذه الظاهرة الطبيعية، وستدرك وفقًا لقانون الطبيعة، أن التجمد لا يمكن أن يحدث قط إلا على سطح الماء.

وفيما كان الربان يقول هذا، ساءلت نفسى:

- هل ينوى هذا الرجل الجرىء أن يمضى بنا إلى هناك؟

وفى خلال ذلك توقف الربان عن الحديث وراح يتأمل هذه العناصر التى كان يدرسها بلا انقطاع. وما لبث أن استأنف حديثه قائلاً:

- إن الأملاح توجد بكميات ضخمة فى البحر يابروفسور. ولو أنك استخرجت كل ما فى مياه البحار من هذه الأملاح لحصلت على أربعة ملايين ونصف مليون ميل مربع منها أى ما يمكن لأن يكسو سطح الكرة الأرضية بطبقة سمكها أكثر من عشر ياردات ولا تحسب أن وجود هذه الأملاح يرجع إلى بذخ من الطبيعة وإنما هو يجعل مياه البحر أقل قابلية للتبخر، كما يمنع الرياح من نقل كميات كبيرة من البخار الذى حين يتكثف قد يغرق المناطق المعتدلة. إن لهذه الأملاح دورها الكبير فى توازن القوى الطبيعية للكرة الأرضية.

وأمسك الريان نيمو عن الحديث ونهض وسار بضع خطوات، ثم عاد إلى قائلاً:

أما مئات الملايين من الدويبات الحيوانية التى تعيش بالملايين فى قطرة الماء والتى يزن الثمانمائة ألف منها مقدار ملليجرام واحد فإن لها دورًا لايقل أهمية. إنها تمتص الأملاح البحرية، وتحلل العناصر الصلبة فى الماء وبالتالى تصنع الأراضى الصخرية. إنها تكون أحجار المرجان وعروق اللؤلؤ. وعند ما تفقد قطرة الماء عناصرها المعدنية، يخف وزنها فترتفع إلى السطح حيث تمتص الأملاح الباقية من عملية التبخر، فتثقل، وتهبط حاملة عناصر معدنية جديدة لكى تمتصها الدويبات الحيوانية، وهكذا دواليك. وهذا سر التيارات الرأسية المزدوجة صعودًا وهبوطًا: حركة دائمة.. وحياة متجددة.. إنها أروع حيوية من الحياة على اليابسة، وأشد غزارة، وأعظم نماءً فى كل جزء من المحيط.. إن أسباب موت الإنسان فى المحيط كما يقال هى أسباب الحياة لملايين الملايين من الأحياء.. ولى أيضًا.

وخيل إلى أن الريان نيمو قد تبادل إلى شخص آخر أثناء هذا الحديث وأثار فى نفسى أحاسيس عجيبة.

وأضاف قائلاً:

- هنا حياة حقة. وبوسعى أن أتصور الأساس الذى ستقوم عليه المدن البحرية فى المستقبل، وأعنى بها المدن فى داخل البحار، ومجمعات المنازل الغائصة التى سوف تصعد كغواصتى هذه صباح كل يوم إلى سطح الماء للتنفس: مدن متحررة مستقلة، إن وجد مثلها حقًا. ولكن.. من يدرى .. فلعل بعض المستبدين الطغاة..

وختم الريان نيمو عبارته بحركة عنيفة من يده، يمم شطر الفتحة العليا واختفى فى جوف السلم، ولم ألبث أن تبعته وقصدت إلى الصالون وبدأ الرفاص فى العمل وبدا من قياس السرعة أن الغواصة تسير بسرعة عشرين ميلا فى الساعة.

ومضت أسابيع قلت فيها زيارات الربان نيمو لى فلم أكن أراه إلا بين حين وآخر وكان الضابط الأول يحدد بانتظام خط سير الغواصة على الخارطة، وهكذا تيسر لى أن أتابع سيرها بدقة.

وحدث فى خلال الليلة الفاصلة بين التاسع والعاشر من شهر ديسمبر، أن شاهدنا قطعان الأحياء البحرية اللافقرية المهاجرة وهى تتجاوز الملايين. وكانت مهاجرة من المناطق المعتدلة إلى المناطق الحارة، مقتفية آثار سمك الرنجة والسردين. وجعلنا نراقبها من نوافذنا البللورية وهى تسبح فى اتجاه خلفى مقتفية آثار الأسماك الأخرى، فتأكل الصغيرة ويأكلها الكبيرة، محركة فى عنف واضطراب أذرعها العشرة التى وضعتها الطبيعة فوق رءوسها كالحيات ذات الرئة.

وقد ظلت الغواصة رغم سرعتها البالغة، مبحرة ساعات متوالية بين هذه الحشود. وظفرت شباكها بمقادير كبيرة منها، تعرفت بينها على الأنواع التسعة المعهودة فى المحيط الهادى.

وكان البحر أثناء الرحلة سخيًا بالمشاهد الجميلة العجيبة المذهلة التى كانت تتعاقب بلا حصر، كان البحر يغير مشاهده وتشكيلاته إمتاعًا لنواظرنا. وقدر لنا ألا نظفر فحسب بالتأمل فى آثار صنع الخالق فى هذا العالم المائى بل أن ننفذ كذلك إلى أرهب أسرار المحيط.

وذات يوم كنت جالسًا فى الصالون أقرأ، وجلس كونسايل ونيد لاند يتفرجان من خلال النوافذ البللورية على المياه المضاءة وكانت الغواصة مستقرة على عمق ألف ياردة فى منطقة مهجورة لا يظهر فيها سوى الأسماك الضخمة لمامًا.

ومالبث كونسايل أن قطع علىّ القراءة قائلاً بصوت غريب:

- هل يسمح سيدى بالانتقال إلى هنا؟

فنهضت وذهبت إلى النافذة ونظرت من خلالها فرأيت فى ضوء الكهرباء الساطع كتلة سوداء ضخمة ساكنة معلقة فى وسط الماء. وتأملتها بإمعان محاولاً أن أعرف طبيعة هذا الوحش الضخم، ولكن فكرة خطرت ببالى فجأة جعلتنى أهتف قائلاً:

ـ سفينة.

فقال نيدلاند:

ـ نعم سفينة معطوبة غارقة فى وضع رأسى.

وكان الرجل على حق. فقد كنا بالقرب من سفينة غارقة لا تزال أشرعتها المهلهلة معلقة بسلاسلها، وكان هيكلها يبدو سليمًا مما جعلنى أعتقد أنها لم تغرق إلا منذ ساعات معدودة وكان على السفينة كما بدا لى أن تضحى بساريتها الكبرى للنجاة. وكانت السفينة مائلة على جانبها وقد امتلأت بالماء. والواقع أن هيكل هذه السفينة التى كانت من قبل عامرة بالحياة بدا مشهدًا أليّما تحت الأمواج. ولكن كان أبعث منه على الألم مشهد سطحها وما عليه من جثث تعلقت بالحبال. لقد أحصيت خمسًا منها. عامل الدفة وامرأة كانت بالقرب من المؤخرة حاملة طفلها بين ذراعيها كانت فى ريعان الشباب، إذ استطعت أن أتبين فى الضوء المنساب من الغواصة ملامحها التى لم تكن المياه قد شوهتها بعد. ويبدو أنها رفعت ابنها إلى أعلى فى محاولة أخيرة بينما التفت ذراعا الصغيرة حول عنقها. وكانت مناظر البحارة مروعة وقد بدا أنهم كانوا يبذلون آخر محاولة لتخليص أنفسهم من الحبال التى تشدهم إلى السفينة. وبدا عامل الدفة وحده هادئًا رصينًا قد التصق شعره الأشيب بجبينه وتشبث بعجلة الدفة وكأنما أخذ على عاتقه أن يوجه السفينة ـ حتى فى غرقها ـ إلى أعماق المحيط.

ياله من مشهد! لقد انعقدت ألسنتنا، وخفقت قلوبنا بعنف وسرعة إزاء مشهد هذا الحطام الذى سجلته نواظرنا فى اللحظة الأخيرة، وكنت فى خلال هذا أرى أسماك البحر الكبيرة وهى تتجه إلى اللحم البشرى بأعين جائعة.

ودارت الغواصة عندئذ حول حطام السفينة الغارقة فقرأت هذه الكلمات على مؤخرتها:

«فلوريدا ـ ساندرلاند».

الفصل التاسع عشر

فاينكورد

كان هذا المشهد فاتحة المروع سلسلة من مشاهد الكوارث البحرية التى قدر للغواصة أن تلتقى بها فى طريقها. ولّما كانت تسير فى بحار مطروقة فكثيرًا ما كنا نشاهد هياكل السفن الغارقة وقد دب التعطن إلى حطامها فى وسط المياه. وفى المناطق الأشد عمقًا كنا نرى المدافع والقذائف والمراسى الحديدية والسلاسل وغيرها من الأشياء الحديدية وقد تآكلت بفعل الصدأ.

وانقضى أسبوع لم أر فيه الربان نيمو. وفى صباح اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر دلف إلى الصالون وقد بدا وكأنه لم يفترق عنا أكثر من خمس دقائق. وكنت عندئذ أتتبع خط سير الغواصة على الخارطة حين اقترب منى ووضع إصبعه على موضع منها ثم فاه بهذه الكلمة الواحدة.

- فاينكورد..

وكان لهذا الاسم أثر السحر فى نفسى فهو اسم الجزائر التى فقدت فيها سفينتا الربان لابيروز.

ومن ثم نهضت فورًا وقلت:

- هل تمضى بنا الغواصة إلى فاينكورد؟

فأجاب الربان قائلاً:

- نعم يا بروفسور.

- وهل أستطيع أن أزور هذه الجزائر المشهورة التى فقدت فيها السفينتان بوسّول واسترولوب؟

- إذا شئت يا بروفسور.

- ومتى سنصل إليها؟

- لقد وصلنا فعلاً يا بروفسور.

وتقدمت الريان نيمو إلى السطح، حيث وقفت أدير النظر فى لهفة إلى انحناء الأفق.

رأيت فى الجهة الشمالية الشرقية جزيرتين بركانيتين متساويتى الحجم تحيط بهما الحواجز المرجانية وهكذا كنا أمام جزيرة فاينكورد - وهذا هو اسمها الحقيقى - وإن كان دومونت دورفيل قد أطلق عليها اسم الجزيرة (دى لاريشرش). وكانت الغواصة فى مواجهة ميناء فانو الصغير. وبدت الأرض مكسوة بالخضرة من الشاطئ إلى مرتفعات الوسط. التى تتوجها قمة كابوجو وهى ترتفع عن سطح البحر ثلاثة آلاف قدم.

وبعد أن عبرت الغواصة حلقة الصخور الخارجية عن طريق ممر ضيق دخلت إلى منطقة حواجز المرجان حيث لا يزيد عمق الماء عن ستين أو ثمانين باردة. وقد رأيت فى ظلال الخمائل المتكاثفة بعض سكان الجزيرة الهمج الذين أدهشهم اقترابنا - ولعلهم ظنوا جسم الغواصة المستطيل الزاحف على سطح الماء وحشًا بحريًا هائلاً ينبغى حماية أنفسهم منه - وفى تلك اللحظة سألنى الريان نيمو عما أعرف عن كارثة الريان لا بيروز فقلت:

- هو ما يعرفه كل إنسان.

فقال بصوت ينم عن تهكم يسير:

- وهل يمكن أن تخبرنى بهذا الذى يعرفه كل إنسان؟

وعندئذ ذكرت له ما ورد فى آخر مؤلفات دومونت وما قيل عن هذا الموضوع إذ قال: «فى عام ١٧٨٥ عُهِد إلى الريان لابيروز ونائبه الكابتن لانج فى القيام

برحلة حول العالم. ولهذا الغرض جهز السفينتين بوسول واسترولوب، وبعد ذلك لم يعُرف شيء عن السفينتين».

وفى عام ١٧٩١ أعدت الحكومة الفرنسية التى أقلقها الأمر، السفينتين لايشرش واسبيراتس اللتين أبحرتا من ميناء برست بقيادة الريان بروني دافتر يكاستو. وقدعرف بعد شهرين أن بقايا حطام السفينتين المفقودتين شوهدت بالقرب من سواحل جورجيا الجديدة. ولكن الريان دانتر يكاستو تجاهل هذا واتجه إلى الجزائر التى قدر أنها موضع غرق سفينتى لابيروز.

ولم يصل فى بحثه إلى شيء ومرت السفينتان اسبيرانس ولاريشرش بجزيرة فاينكورد. دون أن تتوقفا عندها. ولازم سوء الحظ هذه الرحلة، فقد توفى الريان دانتر يكاستو كما مات اثنان من الضباط وعدد كبير من البحارة.

وكان أول من عثر على الآثار الأولى لحطام السفينتين هو الريان ديلون أحد خبراء الملاحة القدامى فى المحيط الهادى. ففى منتصف شهر مايو عام ١٨٠٤ مرت سفينة سانت باتريك بالقرب من نيكوبيا إحدى جزائر الهبريد الجديدة. وهناك باعه أحد سكانها الوطنيين من «اللاسكار» مقبض سيف فضى يعلوه نقش معين. وقال البائع: إنه عندما كان فى جزيرة فاينكورد منذ ست سنوات شاهد فيها رجلين أوربيين ينتميان إلى سفن غرقت منذ أعوام بعيدة عند الحواجز المرجانية للجزيرة.

وأدرك دايلون أن الرجل يقصد سفينتى الريان لابيروز اللتين أثار اختفاؤهما اهتمام العالم كافة، وقد رغب ديلون فى الوصول إلى فاينكورد التى قال له البائع: إنها تضم الكثير من بقايا حطام السفينتين ولكن التيارات والرياح العكسية حالت دون تحقيق هذه الرغبة. فلم يسعه إلا العودة إلى كالكتا حيث وفق إلى إثارة اهتمام الجمعية الآسيوية وشركة الهند الشرقية بهذا الموضوع. وسرعان ما وضعت تحت إمرته السفينة ريشرش. وقد أبحر بها فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير عام ١٨٢٧ يرافقه مندوب فرنسى.

وفى اليـوم السـابع من شـهـر يوليـه من نفس العـام ألقت السـفـينـة ريشـرش مـرسـاهـا أمـام جـزيرة فـاينكورد فى نفس مـينـاء فـانو الذى تطفـو أمـامـه الآن الغـواصـة نوتيلوس وهنـاك جـمع الكثـيـر من بقـايا حطام السـفـينتـين كـالأوانى الحديدية والمراسى والبكرات. والمدافع البحرية، وقنبلة زنة ١٨ رطلا وبقايا آلات فلكية وقطعة من شراع المقدمة، وجرسًا معدنيًا يحمل عبارة «صناعة بازان» وهى شعار مصنع للآلات المعدنية فى برست عام ١٧٨٥. وهكذا لم يبق مجال للشك فى الحقيقة.

ورغبـة فى أن يسـتكمل ديلون تحـرياته، بقى فى مـسـرح الكارثة حـتى شـهـر أكتوبر ثم غـادر فـاينكورد إلى نيـوزيلاند وفى السـابع من شـهـر أبريل عـام ١٨٢٨ ألقى مـراسـيـه فى كلكتـا ثم عـاد إلى فـرنسـا حيث اسـتقـبله الملك شـارل العـاشـر بحفاوة.

وكان دومـون دورفيل قـد أبحـر بسـفـينتـه اسـتـرولوب. ثم ألقـى مـراسـيـه أمـام مـدينة هوبـرت بعـد أن ذهـب ديلون عن فـاينكورد بشـهـرين. وهناك علم بـالنتـائج التى وصل إليهـا ديلون، كمـا علم أن المدعو جـيـمس هوبنـز الضـابط بالسـفـينة يونيون التـابعة لشركة كلكتا لاحظ أن الأهـالى فى جـزيرة هبط إليها دومـونت مرة وكـانت واقـعـة جنوب خط العـرض ١٨, ٨٠ درجـة وشـرقى خط الطـول ١٥٦,٣٠ درجة. كانوا يستخدمون قضبانًا من الحديد وأدوات أخرى حمراء وشعر بالحيرة ولم يدر إن كان يمكن الاعتماد على هذه التقارير المستقاة من صحف غير موثوق بها؟ وأخيرًا قرر أن يمضى فى أثر الربان ديلون.

وفى اليوم العاشر من شهر فبراير عام ١٨٢٨ ألقت الاسترولوب مراسيها أمام جزيرة نيكوبيا واستعانت بأحد الهاربين من الخدمة البحرية ليكون لربانها دليلا مترجمًا، ثم أبحرت إلى جزيرة فاينكورد حيث رست داخل الحـاجز المرجانى أمام ميناء فانو.

وطاف عـدد من ضبـاطهـا حـول الجـزيرة ثم عـادوا حـاملين بقـايا حطـام قليل الأهمـيـة. أمـا الأهـالى فـقـد ركنوا إلى المراوغـة والإنكار إذ رفـضـوا إرشـادهـم إلى

مكان الحادثة. وقد أدى هذا المسلك المريب إلى الاعتقاد بأن الأهلين أساءوا معاملة الناجين من الكارثة، ويبدو أنهم خشوا فى الواقع من أن يكون حضور دومونت ورجاله للانتقام مما حدث للربان لابيروز.

ومهما يكن فإن الهدايا والاطمئنان إلى عدم وجود ما يبرر الخوف كان لها أثرها فى حسم الموقف وهكذا صحبوا الضابط البحرى جاكينو إلى مسرح الكارثة..

وعلى عمق ست أو ثمان ياردات من سطح الماء وبين الحواجز المرجانية لميناء بكو وفانو استطاع جاكينو مشاهدة المراسى، والمدفع، والكتل الحديدية والرصاصية مستكنة فى الطبقات المرجانية وسرعان ما أرسل ربان الاسترولوب إلى المكان زورقًا من زوارق النجاة وآخر من قوارب صيد الحيتان، واستطاع بحارة الزورقين بعد جهد أن يرفعوا المرساة الكبيرة البالغ وزنها ثمانمائة رطل، والمدفع النحاسى الذى يبلغ مثل هذا الوزن، وبعض كتل الرصاص ومدفعين نحاسيين.

وقد علم دومونت ودرفيل من تحرياتهما لدى الأهلين أن الربان لابيروز بعد أن فقد سفينته على حواجز الجزيرة ابتنى سفينة صغيرة لقيت نفس المصير فى مكان لا يعرفه أحد. وعندئذ أمر ربان الاسترولوب بإقامة نصب تذكارى لذكرى لابيروز ورجاله فى ظلال إحدى الخمائل، وكان النصب عبارة عن هرم مربع الأضلاع فوق أساس من صخور المرجان الخالية من قطع الحديد، لكيلا يعمد الأهالى إلى هدم النصب للحصول على هذا المعدن.

ولما سمع الربان نيمو هذه البيانات قال لى:

إذن لا يعرف أحد أين تحطمت السفينة الثالثة التى شيدها الربان لابيروز ورجاله؟

نعم هذا ما لا يعرفه أحد.

فلم يجب الربان نيمو وإنما أشار لى أن أتبعه إلى الصالون وهبطت الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء ثم أزيحت المصاريع عن النوافذ البللورية، فاندفعت إليها حيث شاهدت تحت طبقات المرجان المكسو بأنواع مختلفة من النباتات

البحرية، وبين أسراب الأسماك، أشياء عجزت روافع المنقبين عن استخراجها. كانت مراسى ومشابك حديدية ومهاميز معدنية ومدافع ومؤخرة سفينة وكانت كلها من حطام السفينة الغارقة التى مالبثت أن كستها بالزهور الأحياء البحرية. وبينما كنت أقلب النظر فى هذه البقايا المؤلمة قال لى الريان نيمو بصوت رصين:

– لقد بدأ لابيروز رحلته بالسفينتين بوسول واسترولوب وقد ألقى مراسيه أولاً فى بوتانى، وزار جزائر فرندلى ونيو كاليدونيا، ثم توجه إلى سانتا كروز ومر بجزيرة جابوكا إحدى جزر هابى، وأخيرًا وصلت السفينتان إلى منطقة الحواجز المرجانية غير المعروفة فى جزيرة فاينكورد، وقد اصطدمت السفينة بوسول أولاً بالحواجز المرجانية فى الناحية الجنوبية، وبادرت الاسترولوب إلى نجدتها فلقيت نفس المصير وكانت السفينة الأولى قد تحطمت تمامًا ولكن الثانية صمدت عدة أيام. وقد أحسن الأهالى استقبال البحارة الناجين الذين أقاموا بالجزيرة وشيدوا سفينة أصغر من بقايا السفينتين الغارقتين. واختار بعض البحارة البقاء فى جزيرة فاينكورد بينما أبحر الباقون مع الريان لابيروز الذى يمم شطر جزائر سليمان، ولكنهم جميعًا لقوا حتفهم لدى الساحل الغربى للجزيرة الكبرى فى مجموعة الجزر وهى الواقعة بين رأسى ديسبشان وساتسفا كشان.

فقلت بدهشة:

– وكيف عرفت هذا؟

– إليك ما حصلت عليه فى مكان الحادث.

وأطلعنى على صندوق من الصفيح يعلوه الشعار الفرنسى، وآثار المياه المالحة، ولما فتحه رأيت مجموعة من الأوراق كانت صفراء ولكنها مقروءة.

وقد تضمنت تعليمات وزير البحرية الفرنسى للريان، لابيروز وعلى حواشيها ملاحظات بخط الملك لويس السادس عشر.

وقال الريان نيمو:

– إنها ميتة رائعة لملاح. وإن القبر المرجانى لمثوى هادئ. أدعو الله ألا يمنحنى وزملائى قبرًا غيره.

الفصل العشرون

مضايق توريز

غادرت الغواصة نوتيلوس جزيرة فاينكورد ليلاً بسرعة فائقة، وفى خلال ثلاثة أيام قطعت ٧٥٠ فرسخًا وهى المسافة الفاصلة بين مجموعة جزر لابيروز وجنوب شرقى جزيرة مابو. وفى ساعة مبكرة من صباح أول يناير عام ١٨٦٣، جاءنى كونسايل على سطح الغواصة وقال لى:

- هل يسمح لى سيدى أن أرجو له عامًا جديدًا سعيدًا؟

- عجبًا يا كونسايل. قد يظن الإنسان وهو يسمع كلامك أننى الآن فى حديقة النباتات بباريس. أشكر لك حسن تمنياتك، وإن كنت أحب أن أسألك ماذا تعنى بعبارة «العام الجديد السعيد» فى ظروفنا الحاضرة؟ هل سيكون هذا العام إيذانًا بانتهاء أسرنا، أم سيشهد استمرارنا فى هذه الرحلة العجيبة؟

فأجاب كونسايل قائلاً:

لا أدرى على وجه التحديد، ماذا أقول لسيدى، فليس من ريب فى أننا نرى العجائب، ولم نشعر بالملل يومًا خلال الشهرين الأخيرين وأن آخر أعجوبة نراها تكون دائمًا أبعث على الدهشة من سابقتها، وإذا استمر الحال على هذا المنوال العجيب، فلست أدرى كيف ينتهى بنا الأمر، وفى رأيى أننا لن نظفر بمثل هذه الغواصة مرة أخرى.

- بتاتًا يا كونسايل.

وفضلاً عن هذا فإن السيد نيمو ـ الذى تطابق تصرفاته اسمه اللاتينى لا يقلقنا فى شىء وكأنه غير موجود. ولهذا أرى أن العام السعيد، هو العام الذى يتيح لنا الفرصة لرؤية كل شىء.

رؤية كل شىء يا كونسايل. أن هذا يستغرق زمنًا طويلاً. ولكن ما رأى نيدلاند فى هذا الأمر.

فأجاب كونسايل:

إن تفكير نيدلاند يتعارض مع تفكيرى على طول الخط. إن له عقلاً إيجابيًا ومعدة قاهرة. إنه لا يرضى بالنظر دائمًا إلى السمك ولا باقتصار الطعام عليه. إن الحرمان من الخمر والخبز واللحم لا يرضى بأية حال صاحبنا السكسونى الذى اعتاد أكل لحم البقر، والإسراف فى الشراب كلما سنحت له الفرصة.

- إن هذا يا كونسايل ليس هو مصدر عذابى وإنى لأروض نفسى على قبول كل ما يقدم إلينا من طعام هنا.

فقال كونسايل:

- هذا ما أفعله أيضًا.. وبقدر ما أفكر أنا فى البقاء، يفكر لاند فى الهرب. ولهذا، فإذا لم يكن هذا العام الجديد عام خير لى، فسوف يكون عام خير له، والعكس صحيح. وهذا يعنى أن واحدًا منا سيكون راضيًا، وإنى فى النهاية أتمنى لسيدى كل ما يرضيه.

شكرًا يا كونسايل . وكل ما أرجوه أن تتجاوز عن موضوع هدية رأس السنة، وأن تكتفى بمصافحتى لك فى الوقت الحاضر، فهذا كل ما فى وسعى أن أقدمه.

- إن هذا كرم عظيم من سيدى لم يسبق أن تمتعت به.

وانصرف التابع الوفى عند هذا الحد.

وفى اليوم الرابع من شهر يناير لاحت لنا شواطئ جزيرة بابو، وفى هذه المناسبة أخبرنى الربان نيمو أنه قرر الوصول إلى المحيط الهندى عن طريق

مضايق توريز حيث تنتهى مواصلاته، وقد اغتبط نيد لاند حين رأى أن هذا الطريق سيقربه من البحار الأوروبية.

ولم تكن مضايق توريز أقل خطرًا بسبب الصخور المرجانية المتشعبة أو بسبب السكان المتوحشين الذين يترددون على الشواطئ. وهى تفصل نيو هولاند عن جزيرة بابو الكبيرة التى أطلق عليها أيضًا اسم غينيا الجديدة.

ودخلت الغواصة أخيرًا مضايق معروفة على وجه الكرة الأرضية، إنها المضايق التى لا يجسر أشجع الملاحين على اجتيازها إلا فى القليل النادر والتى اكتشفها لوبز بازدى توريز أثناء عودته من البحار الجنوبية، وفيها كادت سفن الربان دومونت ودرفيل تغرق عام ١٨٤٠. ولكن مهما يكن من أمر هذا كله فإن الغواصة نوتيليوس التى تسمو على مخاطر البحر كافة، توشك أن تتعرف على حواجزها المرجانية.

ويبلغ عرض مضايق توريز نحو أربعة وثلاثين فرسخًا، ولكن يعترض مياهها عدد لا يحصى من الجزر والصخور والحواجز المرجانية مما يجعل الملاحة فيها شبه مستحيلة. ولهذا كان الربان نيمو يلتزم كل حيطة وحذر أثناء عبور هذا المضيق. وأخذت الغواصة وهى فى مستوى سطح الماء تتحرك ببطء بينما كان رفاصها يضرب الأمواج كذيل وحش بحرى كبير.

وانتهزت مع زميلى هذه الفرصة واتخذنا أماكننا على سطح الغواصة المقفر فى كل وقت، وكانت مقصورة رجل الدفة قائمة أمامنا، وأكبر ظنى أن الربان نيمو كان يتولى بنفسه قيادة الغواصة فى تلك المنطقة الخطرة.

وكان البحر من حولنا عنيفًا مهتاجًا، وتيارات الأمواج المنطلقة من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى بسرعة ميلين ونصف تتحطم على الحواجز المرجانية التى كانت تبرز هنا وهناك.

وقال لى نيد لاند:

- بحرثائر.

فأجبته قائلاً:

- مروع حقًا، وهو لا يلائم غواصة مثل نوتيلوس.

فقال الكندى:

- لاشك أن هذا الربان اللعين واثق من خط سيره، لأنى أرى حواجز مرجانية متشعبة إذا لمستها الغواصة مجرد اللمس لتحطمت عن آخرها.

وبينما كنت أتساءل عما إذا كان الربان نيمو بتهوره الأبله سيشق طريقه بالغواصة فى هذا الممر الذى ترددت فيه سفينتا الربان دومونت دورفيل، إذا هو يغير اتجاهه ويقصد إلى جزيرة جلبوا، وكانت الساعة إذ ذاك الثالثة مساءً حيث ابتدأ انحسار المد منذ قليل وأخذت الغواصة تقترب من الجزيرة التى كنت أرى أشجار الأناناس تحت شواطئها.

وعلى مسافة ميلين تقريبًا من الشاطئ إذا بصدمة عنيفة تسقطنى، لقد مست الغواصة إحدى الشعب المرجانية وتوقفت حركتها وجنحت على جانبها الأيمن.

ولما نهضت واقفًا رأيت الربان نيمو وضابطه الثانى على السطح يفحصان موقف الغواصة ويتبادلان الحديث بلهجتهما المجهولة.

وكانت جزيرة جلبوا تقع على بعد ميلين، وكان شاطئها يدور من الشمال إلى الغرب كأنه ذراع ضخمة تشير إلى الجنوب الشرقى. وكانت ثمة رءوس صخرية مرجانية بارزة بعد انحسار المد عنها. وكانت الغواصة قد ارتطمت بالقاع فى موضع قليل المد. وهى حالة يؤسف لها فى تاريخ نوتيلوس. ولكنها مع ذلك لم تصب بسوء وبقى هيكلها سالمًا متماسكًا. لكن إذا كانت بمنجاة من الغرق أو التحطم فإنها لا تستطيع أن تتجنب خطر الالتصاق بهذه الشعب المرجانية إلى الأبد، وعند ذلك يقضى على الغواصة قضاء مبرمًا.

كنت أفكر فى هذا عندما أقبل الربان فى سكون وثبات ودون أن يعتريه شىء من الاضطراب أو التأثر.

فقلت له:

- أهو حادث؟

- لا. بل عارض يسير.

فقلت له:

- ولكنه عـارض قـد يضطرك لأن تكون من سكان هذه الأرض التى تحـاول الهرب منها.

فنظر إلى نيمو الربان نظرة غريبة، ثم هـز رأسه نفيًا وكأنما يقول لى إنه ما من شىء يمكن أن يضطره لوضع قدمه على اليابسة مرة أخرى، ثم قال:

- إن الغواصة لم تضع، إنها سوف تحملك دائمًا بين عجائب المحيطات. إن رحلتنا لم تبدأ سوى الآن، ولست أود أن أحرم من شرف صحبتك بهذه السرعة.

فأجبت قائلاً دون أن ألقى بالاً إلى عبارته التهكمية:

ولكن الغواصة يا كابتن نيمو تحتاج إلى مد عال قوى لكى تعود، والمد فى المحيط الهادى ضعيف فإذا لم تعمل على تخفيف حمولتها فلست أدرى كيف نتمكن من تعويمها.

- إن المد فى هذا المحيط ليس قويًا، حقًا يا بروفسور. ولكن يوجد فى مضايق توريز فارق بين المد العالى وبين المد المنخفض يبلغ مقداره خمسة أيام. ونحن فى اليوم الرابع من شهر يناير، وسيبلغ القمر تمامه بعد خمسة أيام وستكون دهشتى بالغة إذ لم يؤد اكتمال القمر إلى رفع مياه المد وإسدائى صنيعًا أود أن يكون الفضل فيه للقمر وحده.

قال الربان نيمو هذا وهبط مرة أخرى داخل الغواصة التى ظلت جامدة فى مكانها وكأن الحيوانات المرجانية قد أطبقت عليها ولا فكاك منها.

وقال نيد لاند الذى أقبل نحوى بعد انصراف الربان:

- حسنًا يا سيدى؟

- حسنًا يا صديقى نيد. ولابد أن ننتظر فى صبر ارتفاع المد فى اليوم التاسع من الشهر. فإنه يبدو أن القمر سيتعطف علينا ويساعد الغواصة على أن تطفو من جديد.

ألم يحاول هذا الربان أن يرفع المراسى. أو يدير المحركات أو يفعل شيئًا لتعويم الغواصة؟

فأجاب كونسايل ببساطة:

- ولماذا يفعل مادام المد يكفى.

فنظر نيد لاند إليه ثم هز كتفيه ثم قال بلسان البحار الذى يكمن فى نفسه:

- أعتقد يا سيدى أن هذه الكتلة الحديدية لن تصلح للملاحة مرة أخرى سواء على سطح الماء أو فى جوفه. إنها لم تعد تصلح للبيع كحديد مفكك. وقد آن الأوان للافتراق عن الربان نيمو.

فقلت:

- إننى لا أيأس مثلك يا نيد من هذه الغواصة العظيمة، وفى خلال أربعة أيام سنعرف ماذا ينبغى أن نقرر، وفضلاً عن هذا فإن فكرة الهرب قد تبدو وجيهة لو كنا على مرأى من شواطئ إنجلترا أو فرنسا ولكن الأمر مختلف فى منطقة بابوا هذه. وسيتسع أمامنا الوقت للالتجاء إلى هذا الحل إذا لم تنجح الغواصة فى استئناف جولتها، وهو تطور سأعده من الأمور الخطيرة.

فقال نيد لاند:

- ومع هذا قد يجوز لنا أن نستمتع باليابسة، فهناك جزيرة، وفى الجزيرة أشجار، وتحت الأشجار حيوانات، ولهذه الحيوانات لحم طيب المذاق. آه لو استطعت أن أتذوقه!

فقال كونسايل:

- إن الصديق نيد لاند على صواب فى هذا. وأنا أؤيده. ألا يستطيع سيدى البروفسور أن يستأذن صديقه الربان نيمو فى السماح لنا بالانتقال إلى البر، وإن لم يكن لشىء فلكيلا ننسى عادة السير على الأجزاء الصلبة من كوكبنا هذا؟

فقلت:

– بوسعى سؤاله ولكنه سيرفض.

فقال كونسايل:

– ليُجازف سيدى. عندئذ سنعرف لطف الربان.

ولشد ما كانت دهشتى حين أذن لنا الربان نيمو بما نريد. وقد أبدى مجاملة كبيرة فى هذا المقام ودون أن يضغط علينا لكى نتعهد بالعودة إلى الغواصة، ولكن الهرب عبْر أراضى غينيا الجديدة كان محفوفًا بالخطر الشديد وما كان ينبغى لى أن أشجع نيد لاند عليه. فإنه من الأفضل أن يكون الإنسان أسيرًا فى الغواصة على أن يقع بين أيدى سكان الجزيرة.

وفى صباح اليوم التالى وضع الزورق الكبير تحت تصرفنا ولم أحاول أن أعرف إن كان الربان نيمو سيرافقنا. بل كنت أعلم أنه لن يسمح لنا باصطحاب أحد بحارة الغواصة، وأن نيد لاند سيقع عليه عبء توجيه الزورق، وفضلا عن هذا فإن الأرض لم تكن بعيدة عنا بأكثر من ميلين، وإن التوجه إليها لا يعدو أن يكون نزهة بالنسبة إلى نيد لاند وهو يقود زورقًا خفيفًا كهذا بين الشعاب المرجانية التى تعتبر شديدة الخطر على السفن الكبيرة.

وفى اليوم التالى رفع الزورق من مكانه وأنزل إلى الماء من فوق سطح الغواصة، وقد تولى هذه العملية اثنان من رجال الغواصة، وكانت المجاديف بالزورق. ولم يكن علينا إلا أن نتخذ أماكننا فيه.

وفى الثامنة صباحًا، تسلمنا البنادق والبلط وهبطنا من جوانب الغواصة وكان البحر هادئًا والرياح الخفيفة تهب من اليابسة، أخذت أنا وكونسايل فى التجديف بقوة بينما أمسك نيد لاند بالدفة وراح يوجه الزورق بين مسارب الصخور.

ولم يستطع نيد لاند أن يخفى بهجته. كان كسجين أفلت من السجن، وليس فى نيته العودة إليه. وكان يكرر القول:

– اللحم. سنأكل اللحم. وأى لحم! اللحم الحقيقى، وإن لم يكن معه خبز. وليس معنى هذا أن السمك طعام غير طيب ولكن لك أن تأكل منه ما تشاء، مع

قطعة فخذ مشوية على نار الفحم، إن طعامًا كهذا سيكون تغييرًا محببًا فى طعامنا المعتاد.

وقال كونسايل:

- ياله من أكول!

إنه يجعل فمى يتحلب اشتهاء للحم المشوى.

فقلت : إننا لا نعرف بعد ما إذا كان ثمة حيوانات تصاد فى هذه الغابات أم أن الصيد فيها سيصطاد الصياد.

فقال نيد لاند الذى كانت أسنانه حادة كنصل بلطة:

- حسنًا يا مسيو أروناكس. أنا فى حالة آكل معها لحم نمر. فخذة من لحم النمر، إذا لم يكن ثمة حيوان غيره فى هذه الجزيرة.

فقال كونسايل:

- إن الصديق نيد رجل خطر.

فأجاب نيد لاند:

- أيًا كان نوع هذا الحيوان، وسواء كان من ذوات الأربع ولا ريش له، أو برجلين فقط أو ريش، فإنى سأحييه بأول رصاصة فى بندقيتى..

فأجبته قائلاً:

حسنا ولكنى أراك تتسرع.

فقال الكندى:

- لا تخف يا مسيو أروناكس. اضربا الماء بالمجاديف، ولا أطلب إلا مهلة ثلث ساعة لأقدم إليكما طبقًا من صنع يدى.

وفى الثامنة والنصف صباحًا كان الزورق ينساب فى رفق إلى الشاطئ الرملى بعد أن تخلصنا لحسن الحظ من شعاب المرجان المحيطة بجزيرة جلبوا.

الفصل الحادى والعشرون

بعض أيام فى البر

كان لملامسة البر أثر عميق فى نفسى. وقد ضرب نيدلاند الأرض بقدمه وكأنما يريد أن يستولى عليها، ومع هذا فلم نكن من ركاب الغواصة إلا لمدة شهرين كما قال الربان نيمو، أى أننا لم نقض فى أسر الربان سوى شهرين فقط.

وكان تكوين التربة يكاد يكون كله مرجانيًا، ولكن بعض المجارى الجافة للأنهار التى تناثرت منها بقايا الصخور الجرانيتية دلت على أن هذه الجزيرة سابقة فى تكوينها للعهد المرجانى. وكان الأفق كله محجوبًا بستار من الغابات الرائعة، وكانت الأشجار الضخمة - التى يبلغ ارتفاع بعضها ٢٠٠ قدم - والتى تتكاثف عليها النباتات المتسلقة وتتشعب بين أغصانها، تصلح لأن تكون أراجيح طبيعية للنوم، يهزها أرق النسيم. وكانت الغابات تتكون من أشجار السنط والصبّار، والساج والنخيل، اختلط بعضها ببعض فى غير نظام، ونمت فى ظلالها زهور الأركيد، والنباتات البقلية، والسرخس.

ولكن صاحبنا الكندى لم يحفل بهذه الأنواع البديعة من النباتات فى منطقة بابوا على أساس أن الصالح المفيد أهم فى نظره من اللطيف الجميل. حتى إذا لمح شجرة جوز هند أسقط بعض ثمارها وكسر قشرتها فشربنا عصيرها اللبنى، وأكلنا لبابها فى لذة أين منها طعام الغواصة المعهود؟!

ولم يتمالك نيد أن قال:

- مدهش.

فرد عليه كونسايل قائلاً:

- رائع.

- لا أظن أن ربانك نيمو هذا يعترض على عودتنا إلى غواصته بحمل من ثمار جوز الهند.

فقلت:

- لا أظن أنه يعترض. ولكنه لن يذوقها.

فقال كونسايل:

- فى هذه الحالة سيكون هو الخاسر.

فقال نيدلاند:

- ونحن - الفائزين - فستبقى الكمية كلها لنا.

فقلت لصيَّاد الحيتان الذى كان ينهب ثمار شجرة أخرى:

- كلمة واحدة يا لاند. إن جوز الهند طعام لذيذ. ولكن من الحكمة قبل أن نملأ الزورق به أن نرى هل تنتج الجزيرة مواد لا تقل فائدة عنه؟ أعتقد أن الخضر الطازجة ستلقى ترحيبًا طيبًا فى مطبخ الغواصة.

فقال كونسايل:

- إن سيدى على حق. وأنا أقترح أن نجعل فى الزورق ثلاثة أقسام: قسم للفواكه، وآخر للخضر، والثالث للحوم التى لم أر بعد أية عينة منها.

فرد الكندى بقوله:

- لا ينبغى أن نيأس من شىء يا كونسايل.

فقلت:

- لنتابع رحلتنا مع التزام الحذر. فرغم أن الجزيرة تبدو مأهولة، فقد يكون سكانها أسلس قيادًا من حيوانها.

فلما أرسل نيدلاند ضحكة عالية، قال له كونسايل:

- ماذا يُضحكك يا نيد؟

فأجاب الكندى قائلاً:

- لقد بدأت أدرك ما فى اللحوم البشرية من لذائذ.

فقال له كونسايل:

ـ ماذا تقول يا نيد إذا كنت من آكلة لحوم البشر فلن آمن على نفسى معك فى غرفة واحدة. هل أستيقظ ذات يوم لأجد أنك التهمت نصفى؟

- إننى أحبك كثيرًا يا صديقى كونسايل إلى الحد الذى لا يغرينى بأكلك إلا اضطرارًا.

فقال كونسايل:

- لا ثقة لى بهذا الكلام. لا بأس. هلموا نبحث عن صيد لإرضاء هذا الوحش الآدمى، وإلا فإن سيدى البروفسور قد يستيقظ فى صباح يوم جميل فلا يجد إلا بقايا خادمه.

وبمثل هذه الأحاديث أخذنا نتوغل فى مجاهل الجزيرة الخضراء، وانقضت ساعتان ونحن نرتاد أنحاءها.

وحالفنا الحظ فى بحثنا عن الطعام. فقد عثرنا على أفضل نباتات المنطقة الاستوائية لتزويدنا بغذاء مفيد لا أثر له فى الغواصة نوتيليوس، وأعنى به ثمار شجرة الخبز التى كانت موفورة فى الجزيرة، فمن بين أغصانها المتكاثفة كانت الثمار الكروية التى يبلغ قطرها نحو بوصتين ونصف، تتدلى بقشرتها الخشنة فى زخرفة سداسية الشكل. إنه نبات مفيد جادت به الطبيعة على المناطق المحرومة من القمح. وشجرة الخبز تنتج ثمارها طوال ثمانية أشهر فى العام دون حاجة إلى جهد أو فلاحة. وكان لاند يعرف ثمار هذه الشجرة تمام المعرفة، وقد أكلها من قبل، فكانت له دراية بإعداد الطعام منها ولا عجب أن آثار منظرها شهيته، فلم يستطع أن يتمالك نفسه وإذا هو يهتف قائلاً لى:

- سيدى. أكبر ظنى أنى سأموت إذا لم أذق ثمار شجرة الخبز هذه.

- كل يا صديقى نيد. كل منها ما شئت. إننا هنا لإجراء التجارب على أنواع المأكولات. فإلى العمل.

فقال الكندى:

- إن إعداد هذه الثمار للأكل يستغرق وقتًا طويلاً.

واستعان بعدسة مقعرة فى إيقاد نار من حطب جاف، وسرعان ما انبعث الضرام متصلاً.

وفى هذه الأثناء كنت وكونسايل نتخير أفضل الثمار. وكان بعضها لم ينضج بعد. فكانت قشرته السميكة مكسوة بلباب أبيض ليفى القوام نوعًا، ولكن أكثرها كان أصفر اللون هلاميًا معدًا للتنظيف، ولما لم يكن لهذه الثمار بذور؛ فإن نيدلاند تناول الكمية التى جمعها كونسايل وقطعها شرائح ووضعها على النار المشبوبة وهو يقول:

- سترى يا سيدى أن هذا الخبز طيب المذاق إلى حد كبير.

- ولاسيما إذا حرم الإنسان طويلاً منه يا كونسايل.

فأردف الكندى قائلاً:

- إنه أطيب مذاقًا من الخبز العادى. إنه كالفطير الرقيق. ألم يسبق يا سيدى أن تذوقته؟

- لا يا نيد.

- حسنًا. استعد إذًا لشىء لذيذ. وإذا لم يعجبك فلن أكون ملك صيادى الحيتان.

وسرعان ما أسود الجانب المعرض للنار ولكن الجزء الداخلى بقى كالعجينة البيضاء ذات اللباب الرقيق، وكان فى مذاقه أقرب إلى الخرشوف.

ولكننى أعترف أنه كان خبزًا ممتازًا وقد أكلت منه بلذة عظيمة.

ثم قلت:

- إن هذه الفطائر لسوء الحظ. لا تبقى طازجة، ويبدو أن لا فائدة من اختزانها فى الغواصة.

فهتف نيدلاند قائلاً:

- ولماذا يا سيدى؟ إنك تتحدث بلسان العالم الطبيعى، ولكنى سأتصرف كالخباز. اجمع كمية من هذه الثمار يا كونسايل فسنحملها معنا إلى الغواصة.

فقلت:

- وكيف تعدها؟

- بأن أصنع من لبابها عجائن محمرة تظل محفوظة أى وقت نشاء. فإذا شئت إعداد بعضها، سهل إنضاجها فى مطبخ الغواصة. وستجدها طيبة المذاق رغم ما قد يشوبها من طعم حمضى خفيف.

- إذاً فلن ينقصنا شىء بعد هذا الخبز يا نيد.

فقال الكندى:

- تنقصنا الفاكهة على الأقل.

- هلموا إذاً نبحث عن الخضر والفاكهة.

وبعد أن جمعنا كثيرًا من ثمار شجرة الخبز أخذنا نستكمل حاجتنا من طعام اليابسة ولم يذهب بحثنا سدى، فما أن حل وقت الظهيرة حتى جمعنا مئونة طيبة من ثمار الموز، والمانجو اللذيذة، والخوخ الكبير الحجم، وقد استغرقنا فى هذا وقتًا طويلاً لم نندم عليه.

وكان كونسايل لا يكف عن مراقبة نيدلاند الذى تقدمنا فى الغابة وأخذ بيد الخبير ينتقى أطيب الفواكه والخضر لاستكمال مئونته.

وقلت له:

- هل بعد هذا من مزيد يا نيد؟

فغمغم بكلمة مبهمة، فقلت له:

- عجبًا. أهناك ما تشكو منه؟

- إن كل هذه الخضر لا تغنى عن وجبة واحدة، إنها بمثابة الحلوى فقط. إنما ينقصنا الحساء واللحم المشوى.

فقلت:

- نعم.. لقد وعدنا نيد بشرائح اللحم، وهو ما أعتبره مشكلة عويصة.

فرد الكندى قائلاً:

- سيدى إن رحلتى للصيد لم تنته، بل هى لم تبدأ بعد، صبرًا سنتمم رحلتنا بلقاء طير أو حيوان وإذا لم يكن هناك ففى مكان آخر.

وأضاف كونسايل قائلاً:

- وإذا لم يكن اليوم فغدًا، إذ يجب ألا نبتعد أكثر من هذا، وإنى أقترح أن نعود الآن إلى الغواصة.

فصاح نيدلاند:

- ماذا؟ الآن؟

فقلت:

- نعم. يجب أن نعود قبل الليل.

فقال الكندى:

- كم الساعة الآن؟

فأجاب كونسايل:

- الثانية على الأقل.

وهتف نيدلاند وهو يتنهد آسفًا:

- ما أسرع مرور الوقت فوق اليابسة.

واجتزنا الغابة فى طريق العودة، وقد استكملنا زادنا بكميات من سباطات

البلح، وكان علينا أن نتسلق النخيل من أجلها، كما ظفرنا ببعض الحبوب البقلية الصغيرة التى يعدها سكان الملايو طعامًا طيبًا. هذا عدا بعض ثمار تشبه البطاطا. ووصلنا إلى القارب ونحن ننوء بأحمالنا، ومع ذلك كان نيدلاند يعد مئونته غير كافية، ولكن الحظ لم يلبث أن حالفه فقبل صعودنا إلى الغواصة رأى أشجارًا يتراوح ارتفاعها بين ٢٥ و٣٠ قدمًا من فصيلة النخيل وهى تعتبر بحق من أجود نباتات الملايو. إنها أشجار السانمو الذى ينتج النشا الهندى، وهى تنمو طبيعيًا دون جهد أو فلاحة كأشجار التوت البرى، وكان نيدلاند يعرف كيف يعالج هذا النوع من الأشجار فقد تناول بلطة وراح يضرب الجذع بقوة حتى أسقط شجرتين أو ثلاثة، وكان نضج ثمارها يعرف بوجود مسحوق أبيض منثور على أغصانها.

وأخذت أراقبه كعالم طبيعى أكثر منى كإنسان جائع. وقد رأيته ينزع اللحاء عن جذع الشجرة الذى يبلغ سمكه نحو بوصة والذى كان مكسوًا بشبكة من الألياف الطويلة التى تكوّن عقدًا ممتلئة بنوع من الدقيق الصمغى. وهذا الدقيق هو المادة الأساسية فى طعام أهل الملايو. وقد اكتفى نيدلاند فى الوقت الحاضر بتقطيع الجذوع إلى قطع صغيرة، كقطع الخشب المعدة للوقود، بقصد استخراج الدقيق فيما بعد. وذلك بتصفيته من نسيج خفيف لفصله عن الألياف الكاسية وتركه فى الشمس حتى يجف ويصبح قوالب متماسكة.

وغادرنا شواطئ الجزيرة أخيرًا فى نحو الخامسة مساءً محملين بكنوزنا فوصلنا الغواصة بعد ساعة. ولم نجد من يستقبلنا على سطحها. لقد بدا هيكلها الضخم مهجورًا. حتى إذا نقلنا المئونة إليها، قصدت إلى غرفتى حيث وجدت طعام العشاء معدًا فتناولته وأويت إلى فراشى.

وفى اليوم التالى لم يجد فى الغواصة جديدًا. إلا جَلَبة فى داخلها، وعلامة حياة. وكان الزورق باقيًا حيث تركناه بالأمس فقررنا العودة إلى الجزيرة وقد داعب الأمل نيدلاند فى أن يكون أسعد حظًا فى مجال الصيد عن المرة الأولى، وقد رغبت فى زيارة منطقة أخرى فى الغابة.

وبدأنا الرحلة عند شروق الشمس، ووصل بنا الزورق الذى حملته الأمواج المتجهة شطر الجزيرة إلى الشاطئ بعد دقائق. وبعد أن وصلنا إلى البر قررت أنا وكونسايل أن أترك الأمر لغريزة نيدلاند فتبعناه ونحن نخشى أن يسبقنا لطول ساقيه. وأخذ الكندى يتجه غربيًا، وبعد عبورنا بعض الجداول الصغيرة وصلنا إلى سهل مرتفع تحيط به الغابات الرائعة. وقد رأيت بعض الطيور آكلة السمك على ضفاف جدول ولكنها لم تدع لنا الفرصة أن نقترب منها. وقد دل مسلكها هذا على أنها تعرف ماذا يتوقع من أمثالنا، ومن هذا استخلصت أن الجزيرة إذا لم تكن مأهولة، فهى على الأقل مطروقة من بعض المخلوقات البشرية، وبعد أن عبرنا بقعة موفورة العشب، بلغنا حدود غابة صغيرة امتلأ جوها بأغاريد وصفق أجنحة طيور كثيرة.

فقال كونسايل:

- لا يوجد حتى الآن سوى طيور.

فأجاب صيَّاد الحيتان قائلاً:

- ولكن بعضها صالح للأكل.

فرد كونسايل قائلاً:

- لا يا صديقى نيد. إننى لا أرى فى هذه الطيور سوى الببغاوات العادية.

فقال نيدلاند برصانة:

- يا صديقى كونسايل. إن الببغاء صديق أولئك الذين لا يجدون ما يأكلون غيره.

وقلت أنا:

- وأضيف إلى هذا أن الببغاء إذا أحسن إعداده طاب أكله.

وكان ثمة عالم بأكمله من الببغاوات فى ظلال الغابة الكثيفة تطير من غصن إلى غصن فى انتظار الفرصة لتتعلم لغة الإنسان. أما فى الوقت الحالى فقد كانت تتصايح وقد اختلطت أنواعها المتباينة الألوان، منها ببغاء الككتوه الوقور

الذى يبدو كالمتأمل فى مشكلة فلسفية، وببغاء اللورة الأحمر الفاتح الذى كان لصفق أجنحته صوت مسموع، والبامبو الملون بظلال سماوية بديعة، وغير هذا وذاك من أنواع الببغاوات، ولكنها مع ذلك لا تؤكل.

ولكن هذه المجموعة كان ينقصها طائر غريب لم يكن فى طيرانه يتجاوز حدود جزائر آرو، ومجموعة جرز بابوا. بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى حالفنى الحظ وأتيح لى أن أراه وأعجب به.

وبعد أن تجاوزنا دغلاً متوسط الكثافة، خرجنا مرة أخرى إلى سهل تتناثر فيه الخمائل والشجيرات، وفيه رأيت طيورًا بديعة تحلق فى الجو فى اتجاه مضاد للريح بسبب ذيولها الطويلة التى ترغمها على هذا الاتجاه. وكان أسلوبها فى الطيران، ورشاقة انعطافاتها فى الجو، وتموج ألوانها مما يسترعى النظر ويبهج العين، ولم أجد صعوبة فى التعرف عليها، فهتفت قائلاً:

- طيور الجنة.

وقال كونسايل:

- من رتبة الخطاطيف قسم الكليستورنور.

وأضاف نيدلاند قائلاً:

- ومن أسرة القطا.

فقلت:

- لا أظن هذا يا نيد، وعلى كل حال فأنا أعتمد على براعتك فى صيد واحد من هذا النتاج الجميل ذى الطابع الاستوائى.

- سأحاول يا سيدى البروفسور. وإن كانت أكثر اعتيادًا للحراب منى للبنادق.

إن سكان الملايو الذين يعتمدون فى أكثر تجارتهم مع الصين لهم وسائل كثيرة لصيدها لا نستطيع نحن أن نستخدمها. فهم أحيانًا ينشرون الشباك على رءوس الأشجار التى تؤثر طيور الجنة استيطانها، وأحيانًا أخرى يصيدونها بالفخاخ

القوية التى تشل حركتها. بل إنهم فى مناسبات أخرى يسممون منابع المياه التى تردها تلك الطيور عادة. أما نحن فقد اضطررنا إلى إطلاق النار عليها وهى طائرة مما يجعل احتمال إصابتها ضعيفًا. وقد استنفدنا فى الواقع كثيرًا من ذخيرتنا دون جدوى.

وفى الحادية عشرة صباحًا كنا قد عبرنا أولى سلسلة الجبال التى يتكون منها وسط الجزيرة دون أن نصيد شيئًا. ولكن الجوع اضطرنا إلى متابعة السير. إن الصيادين قد اعتمدوا على حصيلة الصيد، ولكنهم أخطأوا الحساب. ولم يلبث كونسايل أن حالفه الحظ، فصاد وهو فى أشد الدهشة طائرين بطلقة واحدة مما كفل لنا طعام الإفطار. وكان الطائران حمامتى غاب بيضاوين سرعان ما نزعنا ريشهما وشويناهما فوق النار. وفى خلال ذلك انهمك نيد فى إعداد فطائر من شجرة الخبز، ثم أقبلنا على الحمامتين نلتهمهما حتى العظام، فقد كان لهما طعم سائغ نظرًا لأن جوزة الطيب التى تلتقطها تلك الطيور تجعل للحومها نكهة طيبة.

وقال كونسايل:

- إن هذا الحمام يشبه الطيور التى تأكل السمسم.

فقلت للكندى:

- والآن ماذا ينقصنا؟

فأجاب نيدلاند قائلاً:

- بعض الحيوان من ذوات الأربع. فإن هذا الحمام يُعتبر طعامًا ثانويًا لا يشبع، ولن أستريح حتى أظفر بحيوان موفور اللحم.

- ولن أستريح أنا أيضًا يا نيد حتى أظفر بطائر من عصافير الجنة.

وقال كونسايل:

- لنتابع رحلتنا للصيد، ولكن فى اتجاه البحر، فقد بلغنا أولى منحدرات الجبال، والأفضل أن نعود إلى منطقة الغابات.

وكانت نصيحة معقولة وقد عملنا بها. وبعد مسيرة ساعة بلغنا غابة من أشجار السانمو حيث رأينا بعض الأفاعى السامة تفر عند وقع أقدامنا، وكذلك هربت عصافير الجنة عند اقترابنا، فخامرنى اليأس من اصطياد أحدها ولكنى فوجئت برؤية كونسايل الذى كان يسير فى المقدمة وهو ينحنى ثم يرسل صيحة الانتصار ويهرع إلىَّ حاملاً عصفورًا رائع المنظر. فهتفت قائلاً:

- مرحى يا كونسايل.

- هذا تلطف من سيدى.

- لا يا بنى إنها ضربة بارعة لا لأنك ظفرت بطائر من هذه الطيور حيًا، وإنما لاقتناصه بيديك فقط.

- إذا فحص سيدى هذا الطائر بعناية لرأى أنى غير جدير بكل هذا الثناء.

- لماذا يا كونسايل؟

- لأن هذا الطائر نشوان كطائر السلوى.

- نشوان؟

- نعم بجوزة الطيب التى كان يلتهمها تحت شجرة من هذا النوع حيث وجدته. انظر يا صديقى نيد. انظر إلى النتيجة المؤلمة لتعاطى المخدرات.

فقال نيد:

- لا داعى للتعريض بى وأنا لم أذق الخمر منذ مدة.

وكنت فى خلال هذا. أفحص الطائر العجيب. فتبينت أن كونسايل لم يجانبه الصواب. ذلك أن عصفور الجنة خدره عصير جوزة الطيب المسكر. فغدا بلاحول ولا قوة، فهو لا يستطيع الطيران، ولا يكاد يقوى حتى على السير. ولكن هذا لم يقلقنى، وتريثت حتى يفيق من تأثير المخدر.

إن هذا الطائر من أسرة أنواع الطيور الثمانية البديعة التى تعيش فى مجموعة جزر بابوا وما يجاورها إنه بمثابة الزمردة الكبيرة، لندرته بين أنواع

الطيور. وهو يناهز طوله خمسة وعشرين سنتيمترًا. صغير الرأس نسبيًا، وعيناه القريبتان من منقاره تماثلان الرأس فى الصغر. ولكن ألوانه رائعة؛ فمنقاره أصفر وساقاه ومخالبه كستنائيتا اللون، وجناحاه فى لون البندق ويحف بهما شريط قرمزى، ورأسه أصفر فاقع وكذلك مؤخرة عنقه، أما الجزء الأمامى من العنق فهو أخضر كالزمرد. وصدره رمادى. وكان ثمة نتوءان من مادة قرنية مكسوة بالزغب يرتفعان عند الذيل الذى استطالت فيه ريشتان من أرق وألطف أنواع الريش فلا عجب أن أطلق عليه الأهالى اسم «طائر الشمس».

وشد ما تمنيت لو تهيأت لى العودة إلى باريس بهذا النوع النادر من الطيور لأضمه إلى جنة نباتاتى التى ليس بينها طائر حى.

وقال نيدلاند بصوت الصيَّاد الذى لا يحفل كثيرًا بهذا النوع:

- أهذا الطائر نادر جدًا إذًا؟

- نعم يا صديقى الباسل، ومن العسير أن تظفر به حيًا. بل إن هذه الطيور وهى ميتة - تعتبر موردًا تجاريًا مهمًا، ولهذا السبب يعمد الأهالى إلى صنع طيور مقلدة منه كما يصنع الماس واللؤلؤ المقلد.

فهتف كونسايل قائلاً:

- ماذا؟ أهناك تقليد فى طيور الجنة؟

- نعم يا كونسايل.

- وهل يعرف سيدى كيف يتوصل الأهالى إلى هذا؟

- نعم فإن هذه الطيور تفقد خلال الرياح الموسمية الشرقية ريشها الفاخر المحيط بالذيل الذى يسميه علماء الطبيعة «الريش المتبدل». ويجمع المزيفون هذا الريش المتساقط ويشدونه ببراعة إلى نوع هزيل من الببغاوات بعد نزع ريشها سلفًا، ثم يصبغون مكان الاتصال ويصقلون الطائر ويرسلونه إلى المتاحف والهواة فى أوربا.

فقال نيدلاند:

- بديع.. مادامت المتاحف لا تظفر بالطائر نفسه فهى تظفر على الأقل بريشه. وماداموا لا يطلبونه للأكل، فلست أجد ضررًا فيما يقوم به هؤلاء المزيفون.

لكن إذا كانت أمانى قد تحققت باقتناء (طائر الجنة)، فإن أمانى الكندى لم تتحقق بعد. على أنه لحسن الحظ استطاع فى الساعة الثانية بعد الظهر أن يصرع خنزيرًا يطلق عليه سكان المنطقة (بارى - أوتاج) وقد جاء هذا الحيوان فى الوقت المناسب لتزويدنا باللحم الذى طالما اشتهيناه؛ وقد استقبلناه بحفاوة - وكان نيدلاند جد فخور بطلقته النارية، فقد سقط الخنزير صريعًا إثر إصابته بالرصاصة المكهربة.

وسرعان ما انهمك الكندى فى سلخه وإعداده للطعام بعد أن حجز منه شرائح لوجبة العشاء. وبعد الطعام استأنفنا رحلة الصيد التى اضطلع فيها نيد وكونسايل بالنصيب الأكبر.

واستطاع الصديقان بتوغلهما بين الشجيرات أن يثيرا قطيعًا من حيوانات القنغر التى انطلقت هاربة متواثبة بقوة مخالبها المطاطة؛ ولكن سرعتها لم تمنع الرصاص المكهرب من إصابتها.

وصاح نيدلاند منفعلاً بلذة الصيد:

- آه يا سيدى البروفسور ما أبدع حيوانات الصيد هذه خصيصًا بعد حفظ لحومها للغواصة نوتيليوس، اثنان... ثلاثة... خمسة... وإنى حين أفكر فى كل هذا اللحم الذى سنأكله، وفى أن بحّارة الغواصة البلهاء لن يشاركونا مضغة منه...

وأعتقد أنه لو لم يكثر من الحديث فى غمرة طربه لاستطاع أن يصيد القطيع كله. ولكنه اكتفى بصيد اثنى عشر من هذه الحيوانات التى أخبرنا كونسايل أنها تكون أول مرتبة فى الحيوانات الثديية النباتية.

وكانت هذه الحيوانات صغيرة من نوع القنغر المعروف باسم «الأرنب» وهى تعيش عادة فى فجوات بجذوع الشجر وتنطلق بسرعة بالغة - ولكنها كانت رغم حجمها المتوسط تزودنا على الأقل بلحم ممتاز.

وامتلأت نفوسنا رضا من رحلة الصيد هذه، ولذلك اقترح نيدلاند وهو فى نشوته أن نعود فى اليوم التالى إلى هذه الجزيرة الساحرة التى أراد أن يستنفد كل ما فيها من حيوان يؤكل. ولكنه لم يحسب للظروف الطارئة حسابًا.

وعدنا إلى الشاطئ فى السادسة مساءً. وكان زورقنا ساكنًا فى موضعه والغواصة تبدو كصخرة مستطيلة بين الأمواج على مسافة ميلين من الجزيرة. وشرع نيدلاند دون مزيد من التأخير فى إعداد طعام العشاء. وكان خبيرًا فى الطهى، وسرعان ما انتشرت فى الجو رائحة الشواء الزكية المتصاعدة من ضلوع لحم الخنزير وهى تنضج على النار.

ولكن بدا أنى أصبحت مثل نيدلاند فى ابتهاجه باللحم المشوى. فهل يمكن أن يلتمس لى العذر كما التمسته للكندى لنفس السبب؟ لقد كان الطعام ممتازًا. ومما زاد فى بهجته زوج الحمام السمين المشوى وفطيرة من ثمار السانمو. وأخرى من شجرة الخبز. وكمية من المانجو والخوخ وبعض الشراب المخمر من عصير جوز الهند. ولهذا السبب أعتقد أن تفكير صاحبى لم يكن على ما ينبغى من سلامة وصفاء حين قال كونسايل:

- ماذا لو أننا لم نعد الليلة إلى الغواصة؟

فقال نيدلاند:

- وماذا لو أننا لم نعد إليها أبدًا؟

وفى تلك اللحظة سقط حجر عند أقدامنا، فوضع حدًا لاقتراح صيَّاد الحيتان.

الفصل الثانى والعشرون

صواعق الربان نيمو

اتجهت أنظارنا إلى الغابة دون أن ننهض وتوقفت يدى فى الهواء قبل أن تبلغ فمى، ولكن يد نيدلاند أدت مهمتها، بينما قال كونسايل:

إن الحجر لا يسقط من السماء إلا إذا كان قطعة من نيزك أو شهاب.

وعندما سقط حجر ثان مستدير على يد كونسايل وأطار منها قطعة لحم شهى مؤكدًا بذلك المعنى الذى أشار إليه لم نتمالك أن نهضنا ثلاثتنا فورًا ورفعنا بنادقنا إلى أكتافنا استعدادًا لصد أى هجوم.

وقال نيدلاند: هل يمكن أن يكون هذا من فعل القرود؟

فقال كونسايل:

- شىء من هذا القبيل. وإن سكان هذه المنطقة من الهمج.

فقلت وأنا أتجه إلى البحر:

- هلموا إلى الزورق.

والواقع أنه لم يكن أمامنا بد من الانسحاب فقد رأينا نحو عشرين من الأهالى المسلحين بالأتراس والمقاليع يظهرون عند نهاية الأحراش التى تحجب الأفق على مسافة مائة خطوة.

وكان زورقنا راسيًا على بعد ستين قدمًا من مكاننا.

وأخذ المتوحشون يقتربون منا، دون جرى، وهم يحركون أذرعتهم بشدة، وقد انهالت علينا الحجارة والسهام.

ولم يشأ نيد أن يتخلى عن الزاد رغم الخطر المحدق بنا، وهكذا راح يركض حاملاً الخنزير فى جانب وحيوانات القنغر فى جانب آخر.

وصلنا إلى الشاطئ فى دقيقتين، واستطعنا فى لحظات نضع مئونتنا وبنادقنا فى الزورق وأن ندفع به إلى البحر ونمسك بالمجدافين؛ ولكن ما كدنا نبتعد نحو عشرين قدمًا حتى رأينا مائة من المتوحشين المزمجرين الملوحين بأذرعتهم يهبطون إلى الماء حتى خصورهم. فجعلت أنظر مؤملاً أن يلفت ظهورهم أنظار بحارة الغواصة نوتيليوس.. ولكن لا. لقد ظلت الغواصة الضخمة ساكنة فى موضعها وكأنها مهجورة تمامًا، وبعد عشرين دقيقة كنا نتسلق جوانبها. وكانت المنافذ المؤدية إلى داخلها مفتوحة. فدلفنا إلى الداخل بعد أن شددنا الزورق فى موضعه.

وذهبت إلى الصالون حيث سمعت بعض نغمات الأرغن، ثم رأيت الربان منحنيًا على العزف وهو فى نشوة موسيقية.

فقلت له:

- كابتن نيمو.

ولما لم يسمعنى كررت النداء وأنا ألمس يده.

فانتفض واستدار نحوى قائلاً:

- آه. أهذا أنت يا بروفسور. حسنًا هل استمتعتم برحلة الصيد، هل وجدت من أنواع النبات والحيوان ما أرضى نزعتك العلمية؟

- نعم يا كابتن ولكنا لسوء الحظ جلبنا وراءنا شرذمة من (ذوى الساقين) الذين يعتبر الاقتراب منهم خطرًا.

ماذا تعنى بذوى الساقين؟

- متوحشون.

فقال الربان متهكمًا:

- متوحشون! وهل يدهشك يا بروفسور أن تجد متوحشين فى هذه البقعة من اليابسة التى وطأتها قدماك؟ وأى مكان فى الدنيا يخلو من المتوحشين؟ ثم هؤلاء الذين تسميهم متوحشين، هل هم أسوأ من غيرهم؟

- ولكن يا كابتن؟

- إننى من ناحيتى يا سيدى قد التقيت بأمثال هؤلاء فى كل مكان.

فقلت له:

- حسنًا. إذا كنت لا تحب أن تستقبل بعضهم فى الغواصة، فيحسن أن نتخذ بعض الاحتياطات.

- اطمئن يا بروفسور. فليس ثمة ما يدعو إلى القلق.

- ولكن أولئك الأهالى كثيرون.

- كم أحصيت منهم؟

- مائة على الأقل.

فقال الربان نيمو وقد وضع أصابعه على أوتار الأرغن مرة أخرى:

- يا مسيو أروناكس. لو أن جميع الأهالى فى بابوا اجتمعوا على الشاطئ فليس للغواصة أن تخشى شيئًا من هجماتهم.

وانطلقت أصابع الربان تجرى على أوتار الأرغن وقد لاحظت أنه يجريها على الأوتار السوداء فقط مما أضفى على ألحانه الطابع الإسكتلندى، وسرعان ما نسى وجودى واستغرق فى تأملات لم أحاول قطعها عليه.

وصعدت إلى سطح الغواصة مرة أخرى. فإذا الليل قد أرخى أستاره، وذلك لأن الشمس فى تلك المنطقة الاستوائية تغرب بسرعة دون أن يعقبها شفق.

ولم أعد أرى الجزيرة بوضوح. ولكن النيران الكثيرة الموقدة على الشاطئ أبانت لى أن الأهالى لا يفكرون فى الانصراف.

وبقيت هكذا وحدى بضع ساعات وأنا أفكر أحيانًا فى الأهالى، ولكن دون شعور بالقلق من ناحيتهم بعد أن سرت إلى نفسى ثقة الربان بقوته، وأحيانًا أخرى أنساهم لفرط إعجابى بجمال الليل فى ذلك الإقليم الاستوائى.

وطارت أفكارى إلى فرنسا مع النجوم التى لن تلبث بعد ساعات قليلة أن تبرز هناك. وكان القمر يسطع وضاحًا. وإذ ذاك خطر لى أن هذا التابع الأمين للأرض سيبزغ غدًا فى نفس المكان ليرفع الأمواج وينتزع الغواصة من مرقدها المرجانى. وأوشك الليل أن ينتصف. ولما رأيت السكون الشامل يخيم على الأمواج المظلمة. وعلى كل شىء تحت أشجار الشاطئ، لم ألبث أن عدت إلى غرفتى حيث استسلمت للنوم فى هدوء.

ومرت الليلة دون أحداث. ولا شك أن أهالى بابوا قد أفزعهم مشهد هذا «الوحش البحرى» الرابض فى الخليج. إذ كان فى مقدورهم أن يقتحموا الغواصة عن طريق المنافذ المفتوحة.

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن من شهر يناير صعدت إلى السطح والنهار تبدو طلائعه. ولم يطل الوقت حتى لاحت الجزيرة من ثنايا الضباب المنقشع.

ورأيت الأهالى ما برحوا حيث كانوا. بل رأيتهم أكثر عددًا مما كانوا فى اليوم السابق، خمسمائة أو ستمائة من الرجال الأشداء، وكان بعضهم قد انتهز فرصة الجزر، فتقدموا فوق الرءوس المرجانية على مسافة عشرين ياردة من الغواصة. وقد سهل على معرفة جنسهم. فهم من سكان منطقة بابوا الأصليين، ذوى الأجسام الفارهة، والأعراق الطيبة. جباههم عالية كبيرة ولكنها ليست عريضة، وأنوفهم مفرطحة وأسنانهم بيضاء، وكان شعرهم الصوفى المصبوغ باللون الأحمر، والمحلوق عن أجسامهم، يكشف عن بشرتهم السوداء اللامعة كبشرة النوبيين. وتدلت من شحمات آذانهم المفتوحة المستطيلة أقراط من العظام. وكان أغلب هؤلاء الهمج عرايا. وقد رأيت بينهم نساء كاسيات من الردف إلى الركبة بجدائل من العشب المشدودة إلى الخصر بحزام نباتى. وكان بعض رؤسائهم

يزينون أعناقهم بعقود وأطواق من الخرز الأبيض والأحمر. وكان أكثرهم مسلحين بالأقواس والسهام والدروع ويحملون على أكتافهم شباكًا بها الحجارة المستديرة التى يقذفونها من مقاليعهم ببراعة فائقة.

وكان أحد هؤلاء الرؤساء قريبًا من الغواصة وقد راح يتفحصها باهتمام ويبدو أنه من ذوى المراتب العالية، لأنه كان متشحًا بجلباب من ضفائر أوراق الموز المطرزة الحوافى، المصبوغة بألوان بهيجة. وكنت أستطيع بسهولة أن أصيب هذا الزعيم الواقف على مرمى بندقيتى. ولكنى آثرت أن أنتظر بوادر تنم عن عداء سافر، فإذا كان الأمر بين الأوربيين والهمج، فمن الخير أن يبدأ هؤلاء بالهجوم.

وظل الأهالى يحومون حول الغواصة طوال فترة الجزر ولكن فى غير ضجيج. وقد سمعتهم يرددون كلمة (آساى) وأدركت من إشارتهم أنهم يدعوننى إلى البر، ولكنى آثرت أن أرفض هذه الدعوة.

وهكذا لم نستطع مغادرة الغواصة بالزورق فى يومنا هذا، وهو ما أثار شديد استياء نيدلاند لحرمانه من استكمال مئونته. ولكن هذا الكندى البارع استغل وقته فى إعداد وحفظ اللحوم والمواد الغذائية الأخرى التى جلبها من جزيرة جلبوا، أما الأهالى فقد عادوا إلى الجزيرة فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحًا عقب اختفاء رءوس الشعب المرجانية تحت مياه المد المتزايدة؛ ولكنى رأيت جموعهم تتزايد بكثرة على الشاطئ، ويبدو أنهم جاءوا من المناطق المجاورة أو من بابوا نفسها، وأيًا كان الأمر فإنى لم أر زورقًا واحدًا لهم.

ولما لم يكن لدىَّ ما أفعله فقد فكرت فى الخوض تحت هذه المياه الراكدة الممتلئة بألوان من المحار والأصداف والنباتات البحرية المختلفة. يضاف إلى ذلك أن هذا اليوم كان آخر أيام الغواصة فى هذه البحار إذا تم تعويمها فى اليوم التالى، كما وعد الربان نيمو.

وهكذا استدعيت تابعى كونسايل الذى جاءنى بمصفاة صغيرة خفيفة كالتى يستعملها صيادو المحار وقد سألنى قائلا:

– ما رأيك فى هؤلاء المتوحشين؟ إنهم لا يبدون قساة غلاظ القلوب.

- إنهم على أية حال من آكلة اللحوم البشرية يابنى.

فقال كونسايل:

- من الممكن أن يكون آكل اللحم البشرى رجلا قويمًا فى آن واحد كإمكان أن يكون الإنسان أكولا وقويمًا فى نفس الوقت. إن إحدى الصفتين لا تنفى الأخرى.

- حسنًا يا كونسايل سأسلم بوجود آكلة لحوم بشر قويمى الخلق وأنهم يلتهمون ضحاياهم بشرف وأمانة. ولكن مادمت أود ألا يأكلنى أحد حتى بأمانة وشرف، فسوف ألتزم الحذر فيما ينبغى أن أفعل مادام الربان نيمو لا يتخذ أى احتياطات وقائية، والآن إلى العمل.

وظللنا ننتح الماء بنشاط مدى ساعتين دون أن نظفر بشىء نادر، وكانت المصفاة تخرج. بألوان مختلفة من نباتات وأعشاب البحر وبعض الأحياء المائية مع مجموعة من أجود أنواع سمك (المطرقة) ومحار اللؤلؤ ونحو عشر سلاحف صغيرة احتفظنا بها لمطبخ الغواصة.

ولكنى لم ألبث أن فوجئت فى اللحظة الأخيرة بإحدى العجائب وهى من أعاجيب الشذوذ فى الطبيعة مما يندر أن يصادفه الإنسان، فقد رفع كونسايل المصفاة زاخرة بالمحار العادى، ولما دسست يدى فيها وتناولت قوقعة منها سرعان ما بدت منى صيحة نفاذة قل أن يصدر مثلها من حلق آدمى.

فسألنى كونسايل فى دهشة بالغة:

- آه ماذا دهى سيدى؟ هل لدغه شىء؟

- لا يا بنى ولكنى مع هذا كنت مستعدًا فى سبيل هذا الكشف للتضحية بإصبعى.

- أى كشف؟

وقلت وأنا أريه الكشف الذى عددته نصرًا:

- هذه القوقعة.

فراح كونسايل يذكر لى اسمها ونوعها ورتبتها وفصيلتها والأسرة التى تنتمى إليها حتى قاطعته قائلاً:

- نعم يا كونسايل ولكن الاتجاه الحلزونى لهذه القوقعة هو من اليسار إلى اليمين وليس من اليمين إلى اليسار كما هو الحال مع جميع أنواع القواقع.

فصاح كونسايل:

- أهذا ممكن؟

- نعم يابنى إنها قوقعة ممسوخة.

فكرر كونسايل عبارتى بقلب يخفق انفعالاً:

- قوقعة ممسوخة!

- انظر إلى غلافها الحلزونى.

فقال كونسايل وهو يتناول القوقعة النادرة بيد مرتعشة:

- آه. أرجو أن يصدقنى سيدى إذا قلت إنى لم أشعر فى حياتى من قبل بمثل هذا الانفعال.

وكان له العذر فى انفعاله، فالمعروف تمامًا مما قرره علماء الطبيعة أن الاتجاه اليمينى هو قانون فى الطبيعة.. فالنجوم فى مجاريها الفلكية تتحرك من اليمين إلى اليسار. والإنسان بصفة غالبة يستخدم يده اليمنى أكثر مما يستخدم اليسرى، وعلى هذا الأساس صمم وصنع الأجهزة، والآلات، والسلالم والأقفال وزنبركات الساعات وغيرها لتستخدم من اليمين إلى اليسار. وقد التزمت الطبيعة هذا القانون نفسه فى تكوين الغلاف الحلزونى للقواقع، فهى جميعًا يمينية الاتجاه فيما عدا النادر الشاذ فإذا حدث ووقعت إحدى هذه القواقع فى يد أحد الهواة فهو يدفع ثمنًا لها مثل وزنها ذهبًا.

وبينما كنت مستغرقًا مع كونسايل فى تأمل هذا الكنز معللاً نفسى بضمه إلى المتحف كقنية عظيمة إذا بحجر ألقاه أحد الأهالى يسقط ويحطم القوقعة فى يد كونسايل.

وسرعان ما بدت منى صيحة يأس وأمسك كونسايل ببندقيتى وصوبها إلى واحد من الأهالى كان يطوح بمقلاعه على بعد عشر ياردات من مكانه فأردت منعه ولكنه أطلق البندقية وحطم سوار التمائم المحيط بذراع الرجل.

وصحت به:

- كونسايل. كونسايل.

- ألم ير سيدى أن هذا الوحش كان البادئ بالهجوم؟

فقلت له:

- إن الغواصة لا تساوى حياة رجل.

فهتف كونسايل:

- يا له من وغد. ليته حطم ذراعى بدلاً من هذه القوقعة النادرة.

وكان كونسايل مخلصًا فيما قال ولكنى لم أشاطره رأيه. ومهما يكن فإن الموقف كان قد تغير خلال الدقائق الأخيرة دون أن ندرى فقد أحاط بالغواصة عشرون قاربًا. وهذه القوارب المصنوعة من جذوع الشجر المجوفة طويلة، ضيقة تمتاز بالسرعة، وتحفظ توازنها مجموعة من غاب البامبو تشد إليها وتطفو معها على سطح الماء، وكان ركابها من الوطنيين أنصاف العراة، يجدفون ببراعة مما أثار قلقى وهم يقتربون، وكان جليًا أن أهل بابوا على صلة بالأوربيين، وإنهم يعرفون سفنهم، ولكن ما رأيهم فى هذا الجرم الحديدى الأسطوانى الشكل المستطيل الذى لا يعلوه شراع ولا مدخنة، لا شك أنه ليس بالرأى المطمئن، ولكنهم حرصوا أول الأمر على البقاء بعيدًا عنا مسافة طيبة، حتى إذا أرادوا أن هذا الجرم لا يتحرك استعادوا رباطة جأشهم شيئًا فشيئًا وحاولوا أن يألفوا مشهدها. فكان علينا إذًا أن نحول دون استقرار هذه الألفة فى نفوسهم. إن أسلحتنا التى لا تحدث ضوضاء، لا تترك سوى أثر يسير فى نفوس هؤلاء الأهالى الذين لا يهابون سوى الأسلحة المفرقعة. إن مثلهم لا يفزع من صاعقة لا يصحبها قصف الرعد وإن كان الخطر كامنًا فى البرق لا فى الصوت القاصف.

وفى تلك اللحظة ازدادت القوارب دنوًا من الغواصة وإذا مطر من السهام ينهمر على جوانبها مما جعل كونسايل يهتف قائلاً:

- ما هذا؟ إنه وابل من السهام. وقد تكون سهامًا مسممة.

فقلت وأنا أهبط داخل الغواصة:

- يجب إبلاغ الربان نيمو.

وهبطت إلى الصالون فلم أجد أحدًا، فتجاسرت وطرقت باب غرفة الربان، فرد علىَّ قائلاً:

- ادخل.

ولما دخلت وجدته منهمكًا فى عمليات حسابية كانت فيها العلامات الجبرية هى الغالبة.

فقلت له:

أخشى أن أكون أزعجتك.

- نعم يا مسيو أروناكس. ولكنى أعتقد أن لديك أسبابًا خطيرة تدفعك إلى مقابلتى.

- جد خطيرة. إننا محاصرون بقوارب الأهالى وفى دقائق معدودة سيهاجمنا بضع مئات من هؤلاء المتوحشين.

فقال الربان نيمو بهدوء:

- آه. إذًا فقد جاءوا فى زوارقهم؟

- نعم.

- حسنًا ما علينا إلا أن نغلق منافذ الغواصة.

- تمامًا. وهذا ما جئت لأجله.

فقال الربان نيمو:

- ليس ثمة ما هو أيسر من هذا.

وضغط على جرس كهربائى نقل أوامره إلى قسم البحَّارة ثم قال لى بعد بضع دقائق:

- لقد تم كل شىء، الغواصة فى مكانها، ومنافذها مغلقة. ولا أظنك تخشى أن أصحابنا هؤلاء يستطيعون اقتحام جدران غواصة عجزت قنابل سفينتكم عن مسها بشىء.

- هذا صحيح يا كابتن. ولكن ثمة خطرًا آخر.

- وما هو يا سيدى؟

- إنك ستضطر صباح الغد فى مثل هذا الوقت إلى فتح المنافذ لتجديد هواء الغواصة.

- مؤكد يا سيدى. فإن غواصتى تتنفس كما يتنفس الحوت الضخم.

- لو حدث فى تلك اللحظة أن الأهالى يحتلون سطحها فلست أدرى كيف تمنعهم من الدخول.

- فأنت إذًا تعتقد أنهم سيصعدون إلى سطحها؟

- أنا واثق من هذا.

- حسنًا. دعهم يفعلون فإنى لا أجد سببًا يدعونى لمنعهم؛ إن أهالى بابوا مساكين ولن أجعل زيارتى إلى جزيرة جلبوا سببًا فى هلاك أحدهم.

قلت هذا وهممت بالانسحاب، ولكن الربان نيمو استبقانى ودعانى للجلوس بجانبه، وسألنى باهتمام عن رحلتنا فى الجزيرة وعن الصيد، وبدا لى أنه لم يدرك معنى لهفة نيدلاند إلى اللحوم. ثم تناول الحديث موضوعات شتى أظهر الربان نيمو خلالها تلطفًا دون ميل إلى التبسط.

كان من بين الموضوعات التى طرقناها، موقف الغواصة نوتيليوس الجانحة فى نفس المضايق التى كاد الربان دومونت دورفيل أن يلقى حتفه فيها. وقد قال الربان فى هذا الصدد:

- كـان واحـداً من زبابنكم العظام. نعم إن دورفـيل هذا كـان أحـد عـبـاقـرة الملاحين. إنه (كابتن كوك) الفرنسى، وياله من عـالم سيئ الحظ. فبعد أن غامر بحياته على شـواطئ الجليد الجنوبية وعلى الشعب المرجـانية فى أوشيانا وبين متـوحشـى المحيط الهـادى من آكلة لحـوم البشـر، إذ هو يمـوت ميـتة بائسـة فى حـادث سكة حديدية. ولو أتيح لهذا الرجل الباسل أن يفكر فى لحظاته الأخيرة. فماذا تعتقد أن يكون قد دار بذهنه وقتذاك؟

وكان التـأثر يبدو على الربان نيمو وهو يقول هذا .. وإنى أسجل هذا الشعور بين مناقبه.

وشـرعنا نرسم على الخـريطة أعـمـال ذلك الملاح الفـرنسى الكبيـر. رحـلاته ومـغـامـراته البـحـرية ومـحـاولاته المتكررة للوصـول إلى القطب الجنوبى،هذه المحـاولات التى أدت إلى اكـتـشـافـه لأراضـى آديل ولويس فـيليب، ثم أبحـاثه وتخطيطاته للمجارى المائية فى منطقة جزائر أوشينيان الرئيسية.

وقال الربان نيمو :

إن مـا قـام به دورفيل على سطح الماء قمت أنا به فى داخل المحيط وبكيفـية أيسر وأتم ممـا قام به. فإن السـفينتين اسـترولوب وزيليه اللتين كـانت الأمـواج تتقاذفها باستمرار، لم تكونا فـى صـلاحية الغواصة نوتيليوس التى تتيسر فيها الدراسة الهادئة والإقامة الدائمة بين أطواء المياه.

فقلت له:

مهـما يكن يا كابتن فهناك عنصـر مشابهـة بين سفينتى دورفيل وبين غـواصتك

- وما هو يا سيدى؟

إن غواصتك قد جنحت مثلهما.

فقال الربان نيمو ببرود:

إن غواصـتى لم تجنح. لقـد صـممت لتسـتقـر فى قيعان البـحار. وأنا لن أحتاج للقيـام بالعمليات الشاقة والمناورات التى اضطر دورفيل إلى القيام بهـا لتعـويم

سفينته بعد جنوحها، إن استرولوب وزيليه أشرفتا على الغرق ولكن نوتيليوس لا تتعرض لمثل هذه المخاطر. إن المد سيرفعها غدًا، فى الموعد المحدد وسوف تستأنف نشاطها الملاحى فى البحار.

فقلت :

أنا لا أشك فى هذا يا كابتن.

فأردف الربان قائلاً وهو ينهض:

غدًا.. غدًا فى الثانية والدقيقة الأربعين بعد الظهر ستطفو الغواصة مرة أخرى، وسأبرح بها مضايق توريز دون خطر.

فاه الربان نيمو بهذه الكلمات فى اقتضاب شديد وهو ينحنى قليلاً. فكان معنى هذا أن أنصرف. وهكذا عبرت إلى غرفتى حيث وجدت كونسايل الذى رغبت فى أن يعرف نتيجة مقابلتى للربان. فقلت له:

عندما بدا لى يا بنى أن الغواصة مهددة من ناحية أهالى بابوا كان الربان يرد علىَّ متهكمًا فليس لدى إذًا ما أقوله لك سوى أن تضع ثقتك فيه، وأن تمضى للنوم آمنًا.

هل سيحتاج سيدى إلى شىء من خدماتى؟

لا يا صاحبى.. ماذا يفعل نيدلاند؟

إنه يطهو ألوانًا فاخرة من لحم القنغر.

وبعد انصراف كونسايل. أويت إلى فراشى، ولكن نومى كان مضطربًا فقد كنت أسمع وقع أقدام المتوحشين على سطح الغواصة، وكان لها دوى يصم الآذان وانصرمت الليلة هكذا دون أن يخرج بحَّارة الغواصة عن سكونهم المعتاد. لم يكونوا قلقين من وجود هؤلاء المتوحشين حولهم إلا كما يقلق حراس قلعة مكسوة بالدروع أمام جماعة من النمل تزحف على دروعهم.

واستيقظت فى السادسة صباحًا، وكانت المنافذ لم تفتح بعد، وهكذا لم يتم تجديد الهواء فى الداخل ولكن مستودع الهواء الاحتياطى الممتلئ لمثل هذه

الظروف الطارئة، أرسل فى جو الغواصة المفتقرة إلى الهواء النقى بضع ياردات مكعبة من الأوكسجين.

وبقيت مشغولاً فى غرفتى حتى الظهر دون أن أرى الربان ولو للحظة واحدة. ولم تبد دلالة ما على الاستعداد للرحيل داخل الغواصة.

وانتظرت فترة أخرى من الوقت، ثم قصدت إلى الصالون، وكانت الساعة قد بلغت النصف بعد الثانية أى أن المد سيبلغ ذروته بعد عشر دقائق، ولن تلبث الغواصة أن تتحرر من مكانها إذا لم يكن الربان نيمو قد وعد ما وعده مفاخرة ومباهاة. فإن لم يتم هذا فسوف تنصرم أشهر طوال قبل أن نغادر هذه الشعاب المرجانية المستقرة فيها.

وفى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين أقبل الربان إلى الصالون وقال لى:

إننا سنبدأ الرحيل.

فلما غمغمت بكلمة استحسان، أردف قائلاً:

لقد أمرت بفتح المنافذ.

وماذا عن أهالى بابوا؟

فقال الربان وهو يرفع كتفيه قليلاً:

أهالى بابوا ؟

ألن يقتحموا الغواصة؟

كيف يمكنهم هذا؟

عن طريق المنافذ التى أمرت بفتحها.

فقال الربان بهدوء :

لن يستطيعوا دخول الغواصة عن طريق المنافذ يا مسيو أروناكس، حتى ولو كانت مفتوحة.

فلما تطلعت إليه قال لى:

ألم تدرك ما أعنى؟

لا مطلقًا.

حسنًا تعال وسترى بعينيك.

وانتقلت معه إلى السلم المركزى، وهناك رأيت كونسايل ونيدلاند ينظران فى حيرة بالغة إلى بحَّارة الغواصة الذين كانوا يفتحون المنافذ، بينما كانت صيحات الغضب والخوف تتردد فى الخارج.

فعندما رفعت أغطية المنافذ لاح منها نحو سبعين من السنح المخيفة، ولكن ما كاد طليعتهم يمد يده إليها للوصول إلى السلم حتى سقط على ظهره بقوة خفية جعلته يفر وهو يعوى ويلوح بذراعيه فى فزع ورعب.

وتبعه عشرة من زملائه. وإذا هم يلقون نفس المصير. وقد ابتهج كونسايل بما رأى. أما نيدلاند فقد دفعه الحماس المعروف عنه إلى ارتقاء السلم ولكنه ما كاد يمسك السياج العلوى بين يديه حتى سقط بدوره على ظهره وهو يهتف قائلاً:

يا للشيطان لقد صعقت.

وكان فى هذه الكلمة تفسير كل شىء، فقد أدركت أن السياج شحن بالتيار الكهربائى حتى أصبح كمجموعة أسلاك كهربائية عارية تحدث صدمة عنيفة فى جسم من يلمسها. وكان من الممكن أن تكون هذه الصدمة قاتلة لو أن الربان نيمو سلط على السياج كل ما فى الغواصة من قوة كهربائية. ويمكن القول بحق أنه جعل بينه وبين المهاجمين حاجزًا كهربائيًا لا يجرؤ أحد على اجتيازه سالماً.

وفى خلال ذلك لجأ أهالى بابوا إلى الفرار، وقد أطار الفزع صوابهم، أما نحن فقد أخذنا ونحن نغالب الضحك فى مواساة نيدلاند المنكود وفى تدليكه، وهو يسب ويلعن كمن به مس.

وكانت الغواصة عندئذ قد ارتفعت وطفت مع آخر موجات المد، فغادرت مرقدها المرجانى فى الدقيقة الأربعين التى حددها الربان. وأخذ رفاصها يضرب الموج فى اتئاد وجلال، ثم ازدادت سرعتها تدريجيًا، وأنشأت تشق عباب المحيط بعد أن اجتازت بسلام دروب مضايق توريز الخطرة.

الفصل الثالث والعشرون

سجن .. وتخدير.. ونوم..

وفى اليوم التالى استأنفت الغواصة رحلتها تحت سطح الماء بسرعة كبيرة لم تكن تقل فى تقديرى عن خمسة وثلاثين ميلاً فى الساعة. أما سرعة دوران رفاصها فقد بلغت حدًا لم أستطع معه أن أقدر اتجاهه أو عدد دوراته.

وحين بدا لى أن هذه القوى الكهربائية التى زودت بها الغواصة نوتيليوس لاتمدها بالحركة والحرارة والضوء فحسب، بل تصونها كذلك من كل عدوان خارجى، وتجعلها كمحراب مقدس لا يمسه غير مرغوب فيه إلا وصعق، فاق إعجابى كل حد وتسامى الإعجاب من الغواصة ذاتها إلى المهندس العبقرى الذى صنعها.

وفى اليوم الثالث عشر من شهر يناير، بلغنا بحر تنمور، ورأيت الجزيرة المسماة بهذا الاسم عبر خط الطول ١٢٢ درجة. وكانت هذه الجزيرة التى تبلغ مساحتها ١٦٢٥٥ فرسخًا مربعًا «أى ٤٨٧٦٥ ميلاً مربعًا» خاضعة لحكم الراجات «أمراء الهند» وكانوا ينعتون أنفسهم «بأبناء التماسيح» ومقصودهم من هذا أنهم ينحدرون من أرفع أصول يمكن أن يتطاول إليها إنسان. وكانت «أسلافهم التماسيح» تملأ أنهار الجزيرة وتحظى بكل احترام وتقديس. كانت تتمتع بالحماية والتدليل والعبادة، كما كان يقدم لها الطعام والنفايات الصغيرات قربانًا وتقديسًا، والويل للأجنبى الذى يضع يده على هذه الزواحف المقدسة.

ولكن الغواصة لم يكن لها شأن بهذه المخلوقات الدميمة، فإن جزيرة تيمور لم تبد لنا إلا برهة فى وقت الظهيرة عندما كان الضابط الأول يحدد اتجاهنا. وكذلك لم أشهد إلا لمحة من جزيرة كيتى التى كانت واحدة من جزر المجموعة التى تشتهر نساؤها بالجمال فى الأسواق الملاوية.

ومن هذا الموضع تحولت الغواصة إلى الجنوب الغربى من خطوط الطول لقد أديرت إلى المحيط الهندى. ترى إلى أين تمضى بنا نزوات الربان نيمو؟ هل يمضى بنا إلى الشواطئ الأسيوية، أو يقترب من سواحل أوربا! وإن كلا الاحتمالين بعيد مع رجل صمم على الهرب من القارات المأهولة. هل تراه إذًا يتجه إلى الجنوب؟ هل يعبر رأس الرجاء الصالح ثم رأس هورن ثم يشق طريقه إلى منطقة القطب الجنوبى؟ ثم هل يعود بعد ذلك إلى المحيط الهادى حيث يتيسر للغواصة ملاحة سهلة هادئة. إن المستقبل وحده كفيل بالجواب.

وبعد أن اجتازت الغواصة الشعب المرجانية لجزائر كاريتر، وسير نجاباتام وهبرينا، وسكوت، وهى أقصى كفاح اليابسة ضد الخضم المائى، أصبحنا فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير وراء حدود اليابسة . وقد خففت الغواصة الكثير من سرعتها، وغدت متقلبة فى حركاتها، فهى أحيانًا تمضى فى وسط الماء وأحيانًا أخرى تنطلق على سطحه.

وكان الربان نيمو خلال هذه الفترة من الرحلة يجرى تجارب طريفة على مختلف درجات الحرارة فى مختلف درجات العمق البحرى. وكانت هذه التجارب فى الظروف العادية تجرى بأجهزة شديدة التعقيد، وكانت نتائجها فى الغالب غير مكفولة سواء ما تم منها بأجهزة القياس الترمومترية التى كان زجاجها يتحطم تحت ضغط الماء فى حالات كثيرة، أو بأجهزة ترتكز على أساس اختلاف مقاومة المعادن للتيار الكهربائى، وفى هذه الحالة يصعب ضبط النتائج بدرجة كافية. ولكن الربان نيمو كان على النقيض من ذلك، كان يهبط بالغواصة إلى مختلف الأعماق ليظفر بنفسه بدرجات الحرارة المتفاوتة، وذلك بأن يضع مقياس الحرارة فى الماء على مختلف درجات العمق. فيظفر بالحرارة بطريقة مباشرة

وبكل دقة. وكان الهبوط يتم عن طريق ملء المستودعات بالماء أو بهبوط الغواصة رأسًا بألواحها الانسيابية، مما هيأ لها أن تبلغ المحاق فى مسافات تراوحت بين ثلاثة آلاف متر. وقد تبين من النتائج النهائية لهذه التجارب أن للبحر درجة حرارة ثابتة قدرها أربع درجات ونصف على عمق ألف متر فى جميع خطوط العرض.

وكنت أتتبع هذه التجارب بأحر الاهتمام، وكان الربان نيمو يدرسها بأشد الشغف. وطالما تساءلت عن الهدف من هذه الأبحاث، وهل يقوم بها لصالح إخوانه فى البشرية؟ إن هذا غير محتمل، فيومًا ما ستطوى أبحاثه معه فى مكان مجهول من البحار، وذلك ما لم يعهد إلىّ بهذه النتائج، ولكن معنى هذا أن رحلتى الغريبة ستكون لها نهاية، وهو ما ألمح بوادره حتى الآن.

وفى اليوم السادس عشر من شهر يناير بدت الغواصة وكأنها راقدة على عمق ياردات قليلة تحت سطح الأمواج. فقد توقف جهازها الكهربائى، وتركها الرفاص الدائب الحركة تتأرجح تحت رحمة التيار، وقد خطر لى أن بحَّارتها مشغولون فى الداخل بإجراء الإصلاحات اللازمة التى تحتاجها المحركات بعد كل رحلة طويلة عنيفة.

أما أنا وصاحباى فقد تهيأ لنا أن نبصر مشهدًا عجيبًا. فقد رفعت الألواح عن الفتحات البللورية فى الصالون، ولم يكن الكشاف الكهربائى الخارجى وضاء، وكانت الظلال الغامضة تخيم فى قلب الماء والسماء المكفهرة الملبدة بالسحب لا ترسل إلى أطواء المحيط السطحية سوى ضوء يسير.

وبينما كنت أنظر إلى البحر فى مثل هذا الجو الذى كانت فيه أكبر الأسماك تبدو كظلال غير مكتملة المعالم إذا بالضوء الكهربائى يغمر الغواصة كلها. وقد خطر لى أول الأمر أن الكشاف الكهربائى قد أضىء وأخذ يرسل إشعاعه الباهر فى الخضم المائى. ولكنى كنت مخطئًا، وقد تجلى خطئى أثر ملاحظة سريعة.

كانت الغواصة طافية فى طبقة مائية فوسفورية تبدو فى مثل هذه العتمة باهرة الضوء. وكان هذا الضوء الفوسفورى يتولد عن ملايين الدويبات الحيوانية المشعة التى يتضاعف إشعاعها بانعكاسه على هيكل الغواصة المعدنى. ولم ألبث أن رأيت وميضًا متألقًا بين هذه الطبقات المائية المشعة. كوميض الرصاص المذاب فى الأفران، أو كالكتل المعدنية المتوهجة من فرط صهرها. وكان ذلك يحدث بطريقة تبدو فيها بعض العناصر الضوئية وكأنها ظلال فى صميم هذا الوضع الذى ينبغى أن يتقدم فى كافة الظلال. أجل. لم يكن هذا مجرد ضوء عادى مما نعهده بل كان فيه قوة غير مألوفة وكان فيه حركة، حتى أحسسنا كأنه ضوء ينبض بالحياة.

والواقع أن هذا الضوء ناشئ من تكتيل الدويبات المائية بالملايين، وهى دويبات فقاعية شفافة الشكل، جلاتينية القوام ذات قرون استشعار دقيقة، وقد أمكن إحصاء ٢٥ ألف دويبة منها فى كمية من الماء لا تزيد عن ثلاثين سنتيمترًا مكعبًا، وأن ضوءها ليتضاعف بإشعاع أصناف أخرى عديدة من هذه الدويبات المائية الفوسفورية.

وظلت الغواصة طافية بضع ساعات بين هذه الطبقات المائية المضيئة، وقد اشتد إعجابنا بمنظر الأحياء البحرية الكبيرة وهى ترتع فى أجوائها كعرائس الماء الأسطورية. ورأيت بين وميض هذه النيران غير المحرقة حيوانات الدرفيل الرشيقة السريعة، وهى لا تكل من حركتها البهلوانية. كما رأيت الأسماك الاستيوتور التى يبلغ طولها ثلاث ياردات، والتى تحسن التنبؤ بالأعاصير، وهى ذات زعانف شبيهة بالسيوف، كانت تضرب بها زجاج نوافذ الصالون، ثم تتابعت من بعدها أنواع من السمك الأصغر حجمًا بدت وهى متباعدة كالذيل فى أثر هذا الوسط الضوئى.

كان هذا المشهد الباهر رائع الجمال وقد خيل إلى أن ثمة ظروفًا جوية تضاعف من قوة هذه الظاهرة. ولعل عاصفة كانت تجتاح سطح البحر دون أن تحس الغواصة بفورتها وهى على عمق بضع ياردات حيث كانت تطفو آمنة بين المياه الهادئة.

وهكذا تابعنا طريقنا مبهورين دائمًا بألوان جديدة من كل عجيب طريف، وكان كونسايل يلاحظ ويصنف أنواع ما يرى من أصداف ومحار وقواقع وأسماك، وتعاقبت الأيام سراعًا حتى لم أعد أحصيها. وكان نيدلاند كعادته يحاول أن يغير من أصناف الطعام فى الغواصة، ولكنا كنا كالقواقع، قد اعتدنا الحياة داخل الصدف، وقد تبين لى أنه من السهل على الإنسان أن يعيش تمامًا كأنه قوقع. ذلك أن حياتنا داخل الغواصة لم تلبث أن بدت لنا طبيعية ميسورة، فلم نعد نفكر فى الحياة المختلفة القائمة على سطح اليابسة، ظل ذلك شأننا حتى وقع حادث ذكرنا بغرابة موقفنا.

كانت الغواصة فى اليوم الثامن عشر من شهر يناير فى خط الطول ١٠٥ درجة وخط العرض ١٥ درجة جنوبيًا، وكان الجو ينذر بالعاصفة والبحر مهتاجًا، والرياح تهب عاصفة من ناحية الشرق. وكان مؤشر البارومیتر الذى ظل يهبط خلال الأيام السابقة، ينذر بقرب ثوران عناصر الطبيعة.

وكنت قد صعدت إلى الغواصة وقت أن كان الضابط الأول يحدد الاتجاهات العامة. وتوقعت أن أسمع كالمعتاد تلك العبارة التى يرددها يوميًا. ولكنه فاه هذا اليوم بعبارة أخرى لا تقل غموضًا. وعلى الأثر أقبل الربان نيمو وأخذ يكتسح الأفق بمنظاره المقرب.

وظل الربان دقائق ساكنًا دون أن يرفع نظره عن النقطة التى ركز فيها اهتمامه. وما لبث أن أنزل المنظار عن عينيه، وتبادل بضع كلمات مع الضابط الأول الذى بدا أنه صار فريسة لانفعال كان يجاهد عبثًا لكتمانه.

أما الربان نيمو فكان أكثر سيطرة على نفسه، ولذلك ظل على هدوئه. وفوق هذا كان يبدو أنه يعترض على شىء، وكان الضابط يجيب بعبارات روتينية، أو كان هذا على الأقل ما فهمته من اختلاف لهجتهما وإشاراتهما.

وكان الربان نيمو فى خلال هذا يذرع السطح جيئة وذهابًا دون أن يلتفت إلىَّ، ولعله لم يكن يرانى، وكانت خطواته تنم عن الثبات، وإن كان ينقصها طابع النظام المعهود. وكان يتوقف أحيانًا ويعقد ذراعيه على صدره وينظر إلى البحر. ترى ما

الذى كان يلتمسه فى هذا الفضاء المائى العريض؟ أما الغواصة فكانت عندئذ على مسافة بضع مئات الأميال من اليابسة.

وتناول الضابط الأول منظاره المقرب مرة أخرى، وأخذ يستشف الأفق بإصرار وهو يروح ويغدو، ويضرب السطح بقدمه، وكان فى انفعاله على النقيض من رئيسه الهادئ.

وكان لابد لهذا الغموض أن ينجلى لأن سرعة الغواصة لم تلبث أن ازدادت بأمر من الربان نيمو، وأخذ الرفاص يضرب الأمواج بعنف فى حركته الدائرية المتزايدة.

وفى تلك اللحظة، لفت الضابط نظر الربان مرة ثانية فوقف عن السير، ووجه منظاره المقرب إلى الموضع المشار إليه، وظل يراقبه فترة طويلة، ولما اشتد بى الفضول، هبطت إلى الصالون واستحضرت منظارًا قويًا كنت أستخدمه عادة، ثم أسندته على مقصورة الكشاف الكهربائى القائمة على مقدمة السطح، وتأهبت للنظر إلى الأفق، ولكنى ما كدت أضع عينى عليه حتى انتزع المنظار من يدى.

فاستدرت، ورأيت الربان نيمو واقفًا أمامى، ولكنى كدت أنكره لما بدا عليه من تغيير رهيب. كانت عيناه تقدحان شررًا تحت حاجبيه المقطبين، وأسنانه تلمع بين شفتيه المنفرجتين، وكان جسمه المتصلب، ويداه المقبوضتان، ورأسه الثابت بقوة بين كتفيه، تنم كلها عن الحقد الشديد الذى تمتلئ به نفسه، وينم عليه مظهره، ولم يتحرك، وإنما سقط منظارى من يده، وتدحرج عند قدميه.

ترى، هل أثرت دون قصد غضبه!؟ هل خطر لهذه الشخصية الغامضة أنى وقفت على بعض الأسرار التى لا يجوز أن يعرفها الغرباء عن الغواصة!

وما لبث الربان نيمو أن استرد أخيرًا رباطة جأشه، واستعاد وجهه المربد هدوءه المعتاد، وتحدث إلى ضابطه بلغة غير مفهومة، ثم استدار نحوى مرة أخرى قائلاً بصوت ينم على الاستعلاء.

- يا مسيو أروناكس. إننى أطالبك بتنفيذ إحدى التعهدات التى تربطنى بك.

ـ وما هو يا كابتن؟

ـ أن تسجن نفسك مع صاحبيك حتى يحين الوقت الذى أراه مناسبًا لإطلاق سراحكم مرة أخرى.

فقلت وأنا أنظر إليه بثبات:

ـ أنت هنا صاحب الأمر. ولكن أيمكن أن ألقى عليك سؤالاً واحدًا؟

ـ لا ياسيدى ولا سؤال واحد!

فهبطت إلى الغرفة المخصصة لنيدلاند وكونسايل، وأخبرتهما بقرار الربان، وإنى أترك للقارئ أن يتصور وقع هذا الكلام على نيدلاند. ومع ذلك لم يكن لدى أى وقت للشرح والتفسير. فقد كان أربعة من البحارة فى انتظارنا بالباب، وقد صحبونا إلى الزنزانة الحديدية التى أمضينا فيها ليلتنا الأولى بالغواصة.

وحاول نيدلاند أن يحتج على هذا المسلك، فكان الجواب أن أغلق عليه الباب.

وقال لى كونسايل:

ـ هل يبين لى سيدى ما معنى هذا؟

فذكرت لهما ماحدث، فكانا مثلى فى دهشة، ولم يصل علمهما إلى أكثر مما وصل إليه علمى. وأمضيت وقتًا فى التأمل ووجه الربان نيمو الغريب لايغيب عن خيالى، وقد عجزت عن الاهتداء إلى رأى منطقى، واستسلمت لطائفة من الفروض العميقة سيطرت على تفكيرى حتى أفقت على صوت نيدلاند وهو يقول:

ـ عجبًا. لقد أعدوا لنا هنا طعام الإفطار:

وكانت المائدة معدة حقًا، ويبدو أن الربان أصدر أمره بهذا الشأن عندما أمر بزيادة سرعة الغواصة. وقال كونسايل:

ـ هل يأذن لى سيدى أن أشير بشىء؟

ـ نعم يابنى.

- إنى أنصح سيدى بأن يتناول طعام الإفطار. فإن هذا من الحكمة. لأننا لانعرف ماقد يحدث.

- أنت على حق ياكونسايل.

وقال نيدلاند:

- إنهم لسوء الحظ لم يقدموا إلينا سوى الطعام العادى عندهم.

فقال له كونسايل:

- مارأيك ياصديقى نيد إذا أنت لم تفطر البتة؟

فوضعت هذه الملاحظة حدًا لتذمر نيدلاند.

وجلسنا إلى المائدة وتناولنا الطعام صامتين. وقد أكلت لمامًا. وأكل كونسايل مكرهًا بعقل وحكمة. أما نيدلاند فلم يقصر فى طعامه. وبعد أن فرغنا جلس كل منا فى ركن يلتمس الراحة والهدوء.

وفى تلك اللحظة انطفأ المصباح الكهربائى الذى كان يضىء الزنزانة، وتركنا فى ظلام دامس، وسرعان ما استغرق نيدلاند فى النوم، وشد ما كانت دهشتى إذ وجدت كونسايل قد استغرق مثله فى نوم عميق. وفيما كنت أسائل نفسى عن سر هذا النوم القاهر إذ شعرت بحذر ثقيل يشيع فى ذهنى وإذا عيناى تغمضان برغمى، وانتابنى هذيان أليم. وبدا بوضوح أن ثمة مادة مخدرة مزجت بطعامنا وأن السجن وحده لم يكن كافيًا لإخفاء مقاصد الربان نيمو عنا فلم يكن بد من أن يعززه بالنوم الثقيل أيضًا.

وسمعت المنافذ تغلق، وتوقف تأرجح الغواصة على الأمواج. فهل غادرت سطح المحيط ؟ هل غاصت مرة أخرى إلى الأعماق الساكنة؟

وحاولت مغالبة النوم ولكن دون جدوى، وسرعان ماضعفت حركة أنفاسى، وأحسست ببرودة كبرودة الموت تشل أعضائى، وبأجفانى تتسدل وكأنها محملة بشىء ثقيل فلم أستطع فتحهما. وأخيرًا طغى علىّ نوم ملىء بالهذيان، ثم تلاشت الرؤيا.

الفصل الرابع والعشرون

مملكة المرجان

واستيقظت فى اليوم التالى وأنا أشعر بصفاء عجيب فى ذهنى، وشد ما كانت دهشتى إذ ألفيتنى فى غرفتى. ولم يكن ثمة شك أن صاحبى قد نقلا أيضًا إلى غرفتهما دون أن يشعرا مثلى بما حدث. وكذلك لم يعرفا مثلى ماحدث فى الليلة السابقة. وهكذا اعتمدت على المستقبل وحده فى كشف هذا السر.

وفكرت عندئذ فى مغادرة الغرفة. أترانى مطلق السراح كما كنت، أم مازلت سجينًا؟ لقد ألفيتنى أنعم بالحرية كاملة. فقد فتحت الباب، ومضيت إلى وسط الغواصة، وارتقيت درجات السلم المركزى، ووجدت المنافذ التى أغلقت فى الليلة السابقة مفتوحة، فخرجت إلى السطح.

ووجدت نيدلاند وكونسايل فى انتظارى هناك. وقد قررا لى حين سألتهما أنهما لايعرفان مما حدث شيئًا. فقد استغرقا فى نوم بلا أحلام، وكم كانت دهشتهما حين استيقظا فوجدا نفسيهما فى مقصورتهما.

أما الغواصة نفسها فقد بدت لنا ساكنة غامضة كمألوف أمرها. كانت تطفو إلى سطح الأمواج بسرعة معتدلة. ولم يبد على سطحها تغير ملحوظ.

وجعل نيدلاند يرقب الأفق بنظراته النفاذة، فلم يجد على مدى البصر شيئًا كشراع أو يابسة. وكان ثمة نسيم جاف يهب من الغرب، والغواصة تتمايل فوق الأمواج العالية التى أثارتها الرياح.

وكانت الغواصة بعد أن تتم تهويتها، تبقى تحت سطح الماء فى عمق خمس عشرة ياردة لكى تطفو بسرعة عند الضرورة. وقد تكررت هذه العملية بضع مرات خلال اليوم التاسع عشر من شهر يناير خلافًا للمعتاد، وصعد الضابط الثانى إلى السطح وردد العبارة الغامضة لمن فى داخل الغواصة.

ولم يظهر الريان نيمو بل لم أر أحدًا من رجال الغواصة سوى الخادم الجامد الملامح الذى كان يقوم على خدمتى أثناء الطعام بصمته ودقته المألوفين.

وفى نحو الثامنة بعد الظهر، كنت فى الصالون عاكفًا على تصنيف مذكراتى، عندما فتح الباب وأقبل الريان فانحنيت أمامه فرد على تحيتى بسكون دون أن يلفظ بكلمة. فعدت إلى استئناف عملى وأنا أود أن يفسر لى بعض الأحداث الغامضة التى وقعت فى الليلة السابقة. ولكنه لم يفعل شيئًا من هذا.

ولما نظرت إليه وجدت أمارات التعب مرتسمة على وجهه، وكانت أجفانه الحمراء تدل على أنه لم ينعم بالنوم. وكانت سماته تنم عن أشد الحزن، وأخذ يسير فى الغرفة، ثم يجلس ثم ينهض، ثم يتناول كتابًا ما، ولا يلبث أن يدعه ثم ينظر فى أجهزته ومقاييسه دون أن يدون ملاحظاته كالمعتاد، وبدا عاجزًا عن البقاء لحظة واحدة فى سكينة وهدوء.

وأخيرًا أقبل علىَّ قائلاً:

- هل أنت طبيب يامسيو أروناكس؟

فقلت:

- نعم إننى طبيب وجرَّاح، وقد تدربت على مهنتى سنوات عديدة قبل الانضمام إلى المتحف.

- هذا أمر طيب.

وبدا لى واضحًا أن إجابتى أرضت الريان نيمو، ولكنى وأنا لا أعرف ماذا يريد - انتظرت المزيد من الأسئلة وفى نيتى أن أجيب عليها طبقًا للظروف.

وقال الريان:

ـ هل تتكرم يامسيو أروناكس بفحص رجل مريض؟

ـ هل يوجد مريض بالغواصة؟

ـ نعم.

ـ وأنا على استعداد للذهاب معك إليه.

ـ هيا بنا.

وينبغي أن أعترف أني قد شعرت بقلبي يخفق في عنف، ولست أدري لماذا رأيت ثمة وشيجة بين مرض أحد بحَّارة الغواصة، وبين أحداث الليلة الماضية، وقد شغلني هذا السر على الأقل بقدر ماشغلني أمر الرجل المريض.

وصحبني الربان نيمو إلى مؤخرة الغواصة نوتيليوس، وأدخلني مقصورة تقع في جناح البحَّارة.

وهناك رأيت رجلاً في نحو الأربعين من عمره راقدًا في فراش، وقد نم وجهه الأنجلوساكسوني الأصيل عن القوة والنشاط.

وانحنيت فوقه، فرأيت أنه لم يكن مريضًا فحسب. بل كان جريحًا أيضًا. وكان رأسه الملفوف بالضمادات مستقرًا على وسادتين. ولما رفعت الضمادات ظل يحدق بعينيه الكبيرتين دون أن تند آهة واحدة.

وكان الجرح مروعًا. فعظام الرأس المحطمة بآلة تكشف عن المخ. وقد بدا لي أن المادة المخية أصيبت بتهتك شديد، كما تشكل الدم المتجمد في الجرح على هيئة رواسب الخمر. وكان ثمة ارتجاج في المخ أيضا، ونزيف من بعض شرايينه، أما تنفس الرجل المريض فكان بطيئًا، كما كانت حركات عضلاته المتشنجة تشيع الاضطراب في وجهه، وكان يبدو عليه الأعراض الكاملة للالتهاب بالمخ، مما سبب شللاً في الحركة وفي الإحساس.

وبقياس النبض وجدته متقطعًا، وكانت الأطراف تميل إلى البرودة تدريجيًا وهكذا كان الموت يقترب منه حثيثًا دون أن يكون ثمة احتمال لإمكان التغلب عليه، ولكني لم أتوان عن تنظيف الجرح وإعادة تضميده، ثم استدرت إلى الربان نيمو قائلاً.

ـ كيف وقعت هذه الإصابة؟

فأجاب الريان نيمو مراوغًا؟

ـ وماذا يهم؟ لقد أسقط اهتزاز الغواصة العنيف رافعة على رأسه ولكن مارأيك فى حالته؟

فترددت برهة قبل أن أجيب، فقال الريان:

ـ يمكنك أن تتحدث بصراحة، فإن هذا الرجل لايعرف الفرنسية وأرسلت نظرة أخيرة على وجه الرجل الجريح ثم قلت:

ـ سيموت خلال ساعتين.

ـ ألا من سبيل إلى إنقاذه؟

ـ لا..

فأطبق الريان نيمو قبضته، ورأيت عينيه تمتلئان بالدموع وكنت أحسبهما لاتعرفان البكاء.

وبقيت فترة من الوقت أرقب الرجل المحتضر والحياة تنحسر عنه تدريجيًا. وقد بدا أشد شحوبًا تحت الضوء الكهربائى الذى كان يغمر فراش الموت. وجعلت أنظر إلى جبينه الذى ينم عن الذكاء والذى ارتسمت عليه تجاعيد مبكرة خطها سوء الحظ، وربما البؤس. وكنت أحاول أن أعرف بعض أسرار حياته من الكلمات الأخيرة التى تفلت من شفتيه، ولكن الريان قال لى:

ـ يمكنك أن تنصرف الآن يامسيو أروناكس.

فتركت الريان فى غرفة المحتضر، وعدت إلى غرفتى وقد اشتد تأثرى بما رأيت، وسلخت سحابة النهار تنتابنى مخاوف شنيعة. ونمت فى تلك الليلة نومًا مضطربًا. وخيل إلىَّ أثناء أحلامى المتقطعة أنى أسمع تنهدات بعيدة وأصواتًا كترانيم الجنائز. فهل كانت صلاة تردد على روح الميت بتلك اللغة التى لا أعرفها؟

وفى صباح اليوم التالى صعدت إلى سطح الغواصة حيث وجدت الريان قد سبقنى إليه. وما أكاد أن يلمحنى حتى أقبل إلىّ قائلاً:

- هل تحب يابروفسور أن تقوم برحلة إلى الأعماق اليوم؟

فقلت:

- مع صاحبىّ؟

- إذا أرادا

- إنى رهن أمرك ياكابتن.

- إذًا أرجو أن ترتدوا ملابس الغوص.

ولم يرد أى ذكر للرجل المحتضر أو الميت. فقصدت إلى نيدلاند وكونسايل ونقلت لهما اقتراح الريان، فوافق كونسايل فورًا، وبدا الكندى هذه المرة على استعداد للذهاب معنا.

وكانت الساعة الثامنة صباحًا.. وبعد نصف ساعة. كنا قد ارتدينا ملابس الغوص وتزودنا بأجهزة التنفس والإضاءة، وفتح لنا الباب المزدوج وصحبنا الريان نيمو الذى كان يتبعه اثنا عشر من بحّارته. وانتقلنا إلى الأرض الصلبة التى استقرت عليها الغواصة على عمق عشر ياردات.

وانتهى بنا انحدار خفيف إلى امتداد من الأرض المتموجة على عمق ثلاثين ياردة، وكانت هذه الأرض تختلف تمامًا عن كل أرض رأيتها فى الرحلة الأولى تحت سطح المحيط الهادى؛ فلم يكن هناك رمال ناعمة، ولا مراع بحرية، ولاغابات تحت سطح البحر. وقد تعرفت فورًا على طبيعة هذه الأرض التى يقول الريان نيمو إنها مملكة المرجان.

إن المرجان هو تراكم جسيمات حيوانية تتجمع على شعب من خلايا بحرية حية ذات طبيعة صخرية هشة، ولهذه الشعب قوى إنتاجية فريدة تسبب تكوينها عن طريق الانقسام والتكاثر، وتتمتع فى الوقت نفسه بخاصة التكون الذاتى التى يتيح لها المشاركة فى الحياة العامة. وهى من هذه الناحية لون من الاشتراكية الطبيعية. وأنا أعرف النتائج النهائية الناشئة عن هذا التحجر الغريب الذى

يتحد فى الوقت نفسه مع الأملاح المعدنية مكونًا شعبًا متحجرة على هيئة أشجار ونباتات، كما لاحظ بحق علماء الطبيعة. وهكذا لم يكن هناك ماهو أمتع من زيارتى لإحدى الغابات المتحجرة التى غرستها الطبيعة فى أعماق البحر.

وأدرنا جهاز رومكورف للإضاءة، وسرنا فى حذاء ضفة مرجانية فى مستهل تكوينها، ولكنها بمرور الزمن ستتصل يومًا بهذا الجانب المرجانى من المحيط الهندى. وكان الطريق محفوفًا بأدغال متشابكة مكونة من شجيرات تكسوها زهور نجمية بيضاء. وكانت هذه النباتات تنمو فى بعض الأماكن الصخرية من أعلى إلى أسفل بعكس نباتات اليابسة.

وكان الضوء يكشف لنا عن آلاف الانعكاسات الفاتنة وهى تتماوج بين الأغصان الزاهية الألوان؛ وكان يبدو لى أن النباتات الغشائية الأنبوبية ترتعش تحت الأمواج المتأرجحة. فساورتنى رغبة فى جمع أوراقها الفضية المزينة بأطراف دقيقة بعضها قد تفتح وبعضها فى طور التفتح، وكانت الأسماك الخفيفة السريعة تلمسها برفق وهى تمر بجانبها كأنها أسراب من الطير. ولكن ماكادت يدى تقترب من هذه الأزهار الحية، هذه النباتات الحساسة ذات الحيوية، حتى انتفضت المستعمرة النباتية كلها على أهبة الحذر، وإذا الوريقات البيضاء تدخل فى أغلفتها الحمراء، والزهور تختفى عن نظرى، والشجيرات كلها تتحرك إلى كتل من العقد الصخرية.

ولكن الأدغال لم تلبث أن أخذت فى التناقص أثناء مسيرنا، وكثرت النباتات البحرية، ثم تفتحت أمام أقدامنا الطرق إلى أحراش حقيقية متحجرة وعقود على أشكال هندسية بديعة، ودخل الربان نيمو إلى مايشبه البهو المظلم. وكانت أضواء مصابيحنا تحدث انعكاسات سحرية وهى تنسكب كسهام من نار على العقود والتكوينات الطبيعية المدلاة كالأشجار، وقد رأيت بين أدغال المرجان أنواعًا أخرى من الشعب لاتقل غرابة وإثارة للعجب، فهى مكونة من نباتات البلسا وزهور الأقحوان المتحجرة على هيئة شعب رائعة المنظر، كما رأيت حواجز مرجانية بعضها أخضر وبعضها أحمر، وكأنما رصع تكوينها الجيرى بأعشاب البحر. وقد قرر علماء الطبيعة بعد مداولات شتى تسجيلها فى جدول المملكة

النباتية، ولكن أحد المفكرين قال عن هذه المملكة المرجانية «إنها قد تكون اليقظة الحقيقية التى تنبثق منها الحياة بعد نموها الحجرى ودون أن تنسلخ نهائيًا عن نقطة البدء الجافية».

وبعد مسير ساعتين وصلنا أخيرًا إلى عمق ٣٠٠ ياردة، أى إلى أقصى الحدود التى يمكن عندها أن تتكون الشعب المرجانية. وفى هذا العمق لم يكن ثمة شجيرات متفرقة، أو أحراش من شجر صغير قصير بل غابات ضخمة من نباتات بحرية عظيمة، وأشجار متحجرة هائلة متصلة بعقود وأكاليل من النباتات المتسلقة والأعشاب البحرية وهى مزدانة بألوان وظلال. ومررنا بسهولة تحت أغصانها العالية الضائعة فى أعماق المياه فوقها، بينما كانت الزهور النجمية والسرخس والزنابق الدرنية وغيرها من أزهار البحار تنسج تحت أقدامنا بساطًا رائعًا من الزهور مرصعًا بالبراعم المتألقة.

كان مشهدًا يجل عن الوصف. آه. كيف لم يكن فى مقدورنا أن نتبادل التعبير عن مشاعرنا؟ لماذا كنا مسجونين تحت هذه الأقنعة من المعدن والزجاج؟ لماذا حرم علينا الحديث؟ لماذا لانعيش على الأقل كما تعيش الأسماك التى تسكن عالم الماء؟ أو كالأحياء البرمائية التى تستطيع إذا شاءت أن تعيش فى الماء وفى اليابسة.

وفى هذه الأثناء توقف نيمو، فاقتديت به مع صاحبى، ولما استدرت رأيت رجاله قد التفوا حوله، ولما دققت النظر لاحظت أن أربعة منهم يحملون شيئًا مستطيلاً على أكتافهم.

وكنا عندئذ فى وسط رحبة واسعة مكشوفة تحيط بها نباتات عالية متحجرة من غابات الأعماق. وكانت مصابيحنا تضىء المكان بما يشبه ضوء الشفق الذى يطيل الظلال على الأرض. أما عند حدود الرحبة الواسعة فقد كان الظلام كثيفًا تشقه الومضات الخفيفة التى يعكسها الضوء على النتوءات المرجانية.

وكان نيدلاند وكونسايل بالقرب منى، فوقفنا ننظر وقد بدا لى أنى سأشهد شيئًا غريبًا؛ وبينما كنت أنظر إلى الأرض لاحظت ارتفاعها فى مواضع معينة وأن

بها نتوءات تعلوها رواسب جيرية، كما كانت ممهدة بعناية وانتظام مما يدل على أنها من صنع الإنسان.

وفى منتصف الرحبة الواسعة، وفوق قاعدة من الصخور رأيت صليبًا من المرجان الأحمر، مبسوط الذراعين، يحسب الرائى أنه مصنوع من الدماء المتحجرة.

وتقدم أحد الرجال إثر إشارة من الربان نيمو وأخذ يحفر حفرة على مسافة بضعة أقدام من الصليب بمعول كان يحمله فى حزامه.

عندئذٍ فهمت الموقف كله، فهذه الرحبة مدافن. وهذه الحفرة قبر وذلك الشىء المستطيل هو جثمان الرجل الذى مات أثناء الليل. وقد جاء الربان نيمو ورجاله إلى هذا المكان لمواراة زميلهم الثرى تحت أعماق من المحيط لم يصل إليها بشر غيرنا.

ولم يسبق أن أحسست بمثل هذا الانفعال الذهنى، ولم يحدث أن تواردت على فكرى مثل هذه الخواطر المثيرة حتى كدت لا أبصر ماتقع عليه عيناى.

وفى خلال هذا استمرت عملية حفر القبر ببطء. وكانت الأسماك تفر هنا وهناك كلما قطعت عليها السبل. وكنت أسمع رنين المعول الحديدى فوق الأرض الجيرية، وأرى بعض الشرر يتطاير كلما اصطدم بقطعة من المعادن الملقاة فى أعماق المحيط. وازداد اتساع الحفرة، حتى أن بلغت من العمق مايكفى لمواراة الجثة.

وأخيرًا اقترب حاملو الجثمان الذى كان ملفوفًا فى نسيج أبيض من ألياف نباتية مائية ووضعوه فى القبر البحرى، وركع الربان نيمو وهو عاقد ذراعيه على صدره مع أصدقاء الرجل ومحبيه تأهبًا للصلاة فانحنيت مع صاحبى فى خشوع.

ثم أهيلت على القبر المواد التى أخرجت منه، فتكوَّن مرتفع بسيط من الأرض، قبر جديد فى الرحبة.

وبعد الفراغ من هذه العملية نهض الربان مع رجاله ثم التفوا حول القبر وركعوا مرة أخرى وقد بسطوا أذرعهم يودعون الراحل الوداع الأخير.

وعلى إثر هذا سار الموكب الجنائزى عائدًا إلى الغواصة، مجتازًا مرة أخرى ممرات الغابة ومناطق الأدغال على جانب الشعب المرجانية، مصعدًا فى منحدر الأكمة المتحجرة.

ولاحت أخيرًا أضواء الغواصة عن بعد فاسترشدنا بها فى المرحلة الأخيرة من الطريق.

وكانت عودتنا إليها فى الساعة الواحدة من الظهر.

وما أن فرغت من استبدال ملابس الغوص، حتى صعدت إلى السطح وأنا لاأكاد أغالب انفعالاتى العنيفة المتضاربة فيممت شطر مقصورة الكشاف الكهربائى حيث جلست بجانبها هناك إلى أن انضم إلى الربان نيمو فنهضت قائلاً:

ـ إذًا فقد مات هذا الرجل ليلاً كما تنبأت؟

فأجاب الربان قائلاً:

ـ نعم يامسيو أروناكس.

ـ وهو الآن يرقد فى سلام بجوار زملائه فى المدافن المرجانية.

ـ نعم.. منسيًا من الجميع إلا منا: إننا نحفر القبر، وتتولى الجسيمات المرجانية إغلاقه وختمه إلى الأبد.

وأخفى الربان نيمو وجهه بحركة مفاجئة، وعبثًا حاول أن يكتم شهقة بدرت منه برغمه، ثم أردف قائلاً:

ـ هذه مدافننا الآمنة.. على عمق مئات الأقدام تحت سطح الأمواج.

ـ إن موتاك ياكابتن يرقدون فى أمان على الأقل بعيدًا عن أنياب نمور البحر.

فقال الربان نيمو برصانة:

ـ نعم ياسيدى بعيدًا عن هؤلاء، وعن نمور البشر.

الفصل الخامس والعشرون

المحيط الهندى

على هذه الصورة إذًا كان الريان نيمو ينفق حياته كلها فى خفايا المحيط بل إنه أعد قبره فى أعماق لا سبيل إلى النفوذ إليها وحيث لا يستطيع وحش بحرى أن يقلق الرقدة الأخيرة لسكان الغواصة نوتيليوس - أولئك الذين ارتبطوا معًا فى الحياة وفى الموت، والذين لا يستطيع حتى الإنسان إزعاجهم، كما قال الريان نيمو، ففى أعماقه دائمًا يكمن التحدى العنيف الوحشى لكل مظاهر المجتمع البشرى.

إننى لم أكن مقتنعًا بالنظرية التى انتهى إليها كونسايل. لقد أصر صاحبنا على اعتبار الريان واحدًا من العلماء الذين لم يظفروا بالتقدير فى حياتهم ومن ثم آثر أن يواجه إعراض البشرية عنه بالتراجع والازدراء. نعم. مابرح يرى أنه عبقرى لا يفهمه أحد، فلما ضاق ذرعًا بنفاق العالم، لجأ إلى هذا الوسط السحيق حتى يستطيع إطلاق العنان لغرائزه العلمية، ولكن هذه النظرية فى رأيى - لم تكن تفسر غير جانب واحد من حقيقة الريان نيمو.

والواقع أن الغموض الذى اكتنف ليلتنا السابقة، عندما أدخلنا فى السجن وخدرت حواسنا والحذر البالغ الذى دفع الريان لاختطاف المنظار المقرب من يدى بعنف وأنا أحاول النظر إلى الأفق البعيد، والجرح القاتل الذى أصيب به الرجل والذى عزى إلى صدمة عنيفة فى الغواصة - كل هذا انحاز بى إلى اتجاه فى التقسيم جديد.

كلا.. إن الريان نيمو لا يعمد إلى الهرب من الجنس البشرى.. إن غواصته الهائلة هذه ليست مجرد وسيلة لإرضاء غرائزه نحو الحرية ولكنها أيضًا أداة للانتقام الرهيب.

ولم يكن فى مقدورى عندئذٍ أن أتبين الحقيقة بجلاء، وما كنت أراه لم يكن سوى ومضات فى الظلام. ولهذا لم يكن أمامى إلا الكتابة فى هذه الحدود، والتحدث وفقًا لمجرى الحوادث.

وفى الواقع لم يكن ثمة ما يربطنا بالريان نيمو. إنه يعرف أن الهرب من غواصته مستحيل ونحن لم نكن حتى أسرى حرب، بل سجناء تحت اسم ضيوف بحكم مظاهر المجاملة. ولكن نيدلاند مع هذا لم يفقد الأمل فى استرداد حريته. وكان من المؤكد أنه سينتهز أول فرصة سانحة للاستفادة منها، ولم يكن ثمة شك فى أنى سأحذو حذوه، ولكنى لن أفارق الغواصة دون إحساس بالأسف لأنى سأحمل معى من أسرارها ما سمح كرم الريان باطلاعى عليه. ومهما يكن من شىء هل يستحق هذا الرجل الإعجاب أو الكراهية أم هو ضحية أم جلاد، وأقولها فى صراحة إنى أحب قبل أن أكون رأيى عنه نهائيًا أن أتم رحلة الغواصة حول العالم بعد أن رأيت مدى ما فى أولها من روعة وجمال. أحب لو استطعت أن أرى السلسلة الكاملة للعجائب والغرائب المتكاثرة تحت بحار هذه الكرة الأرضية. أحب لو أنى رأيت ما لم يره إنسان من قبل، ولو دفعت حياتى ثمنًا لرغبتى العارمة فى المعرفة والعلم وماذا اكتشفت حتى الآن؟ لا شىء... ولاشىء تقريبًا، لأننا لم نقطع من المحيط الهادى أكثر من ستة آلاف فرسخ.

وأيًا كان الأمر، فأنا أعرف أن الغواصة تقترب من الأرض المأهولة، وأنه إذا سنحت لنا فرصة للنجاة، فإنه من القسوة أن أضحى بزملائى فى سبيل شغفى بالمجهول، يجب أن أسير معهم بل ربما وجب أن أقودهم. ولكن. هل ستتاح لنا مثل هذه الغواصة يومًا ما؟ إن من حرم من حريته عنوة يهفو إليها. أما العالم الدارس فإنه يفر منها.

وفى ذلك اليوم، الواحد والعشرين من شهر يناير وفى ساعة الظهيرة صعد الضابط الأول ليحدد ارتفاع الشمس، فصعدت إلى السطح أيضًا، وأشعلت سيجارى. وجعلت أراقب الضابط وهو يقوم بعمله وكان من الجلى أنه لا يعرف الفرنسية لأسباب عديدة. ولكنى جعلت أردد أفكارى بصوت مسموع كان من الممكن أن يثير بعض انتباهه برغمه لو أنه فهم ما أقول. ولكنه ظل جامد الوجه أبكم.

وبينما كان الضابط يقوم بعمله، أقبل أحد بحَّارة الغواصة، وهو نفس الرجل القوى الذى صحبنا فى رحلتنا الأولى إلى جزيرة كريسبو. وأخذ ينظف زجاج الكشاف الكهربائى، وعندئذٍ فحصت تركيبات هذا الجهاز الذى كانت قوته تتضاعف مائة مرة بعدساته الدائرية كعدسات كشاف المنار والتى كانت تحتفظ بالضوء فى المستوى المناسب. وكانت أسلاك المصباح الكهربائى مجمعة لإطلاق كل قوتها الضوئية، وكان الضوء فى الواقع يتولد فى أنبوبة مفرغة للمحافظة على تركيزه وانتظامه فى آن واحد. وتوفر هذه الأنبوبة أيضًا من استهلاك الأطراف الجرانيتية التى تقوى الإشعاع الضوئى، وهى عملية اقتصادية بارعة لجأ إليها الربان نيمو الذى قد لا يستطيع تجديدها بسهولة.

ولما تأهبت الغواصة لاستئناف رحلتها تحت سطح الماء، نزلت إلى الصالون حيث رأيت نوافذه البلورية مغلقة. ولكن عرفت أن الغواصة أخذت تتجه غربًا.

وأنشأت الغواصة تمخر عباب المحيط الهندى، وهو سهل مائى شاسع يبلغ امتداده نحو ألف ومائتى مليون فدان. وكانت مياهه من الصفاء بحيث يشعر الناظر إلى الأعماق بالدوار. وكانت الغواصة تمضى عادة على عمق يتراوح بين مائتى وأربعمائة ياردة. وعلى هذه الصورة تابعنا رحلتنا أيامًا عديدة. ولو كان شخص غيرى، أنا الذى أهتم بالبحر، لبدت له الساعات طويلة مملة. ولكن مسيرى كل يوم على السطح، للتزود بقوة جديدة من هواء البحر المنعش ومشهد هذه المياه الموفورة الثراء التى كنت أراها من نوافذ الصالون البلورية وعكوفى على القراءة وتدوين مذكراتى – كل أولئك كان يشغل وقتى، ولا يدع لى لحظة أشعر فيها بالفراغ والملل.

وكان جميع من فى الغواصة يتمتعون بصحة جيدة. وكان الطعام ملائمًا لنا تمامًا. وكان بوسعى ألا أحفل كثيرًا بمسألة تنوع الطعام التى اتخذ منها نيدلاند سببًا للشكوى والاحتجاج، كما أنه لم يكن فى مثل هذا الجو ذى الحرارة الثابتة خوف من الإصابة بالبرد. يضاف إلى هذا أن الغواصة كان بها كمية كافية من «عرق اللؤلؤ» المعروف فى إقليم بروفانس باسم «شمرة البحر» وهو دواء ناجح للسعال.

وفى كثير من الأيام كنا نشاهد أسرابًا كبيرة من طيور القرفصاء، ومراعى البحار، وطيور النورس والطيور العوامة. وقد أمكن اصطياد بعضها ببراعة وإعدادها للطعام بطريقة خاصة، والواقع أنها كانت صيدًا طيبًا. ولاحظت بين الطيور الكبيرة، التى تبعد كثيرًا عن اليابسة وتستريح أحيانًا على سطح الماء أنواعًا بديعة من طيور القادوس التى كانت لها صرخات مزعجة كنهيق الحمير. أما أسرة طيور «التوتبلاميت» فكانت ماثلة فى خطاطيف البحر البارعة فى التقاط ما يظهر على سطح الماء من أسماك. وفى مجموعات كبيرة من طيور «الفراشات» ذات الخطوط الحمراء، التى تقارب الحمام حجمًا والتى يخفف ريشها الأبيض المظلل باللون الأحمر من قتام أجنحتها السوداء.

وجاءتنا شباك الغواصة بأنواع مختلفة من السلاحف البحرية ذات الظهور المحدبة والأصداف الغالية إلى حد كبير. هذه الزواحف المائية التى تغوص بسهولة تستطيع أن تبقى تحت سطح الماء فترات طويلة. بعد إغلاق صماماتها اللحمية القائمة فى نهاية القصبة الهوائية. وقد اصطدنا بعضها وهى لا تزال نائمة، مستكنة فى درعها العظمى الذى يحميها من وحوش البحر. أما لحمها فلم يكن طيب المذاق، ولكن بيضها كان يزودنا بأطباق من الطعام الشهى.

وفى اليوم الواحد والعشرين إلى اليوم الثالث والعشرين، استمرت الغواصة تسير بسرعة ٢٥٠ فرسخًا فى اليوم أى ٢٢ ميلاً فى الساعة. وكانت أنواع كثيرة مختلفة من الأسماك التى جذبتها الأنوار الكهربائية تحاول مرافقتنا، ولكن أغلبها تخلف بعد أن سبقته الغواصة، وإن استطاع بعضها أن يحتفظ بسرعته فى نطاق مياه الغواصة فترة من الوقت...

وفى صباح اليوم الرابع والعشرين رأينا من بعيد جزيرة كيلنج، وهى مرجانية التربة، وتمتاز بأشجار الكاكاو البديعة، وسارت الغواصة على امتداد شواطئ هذه الجزيرة المهجورة مسافة يسيرة. وقد جاءتنا الشباك بأنواع مختلفة من الأصداف والمحار وبعض العينات النادرة التى أضيفت إلى كنوز الربان نيمو.

ولم تلبث جزيرة كيلنج أن اختفت وراء الأفق، بينما اتجهت الغواصة إلى الشمال الغربى، شطر شبه الجزيرة الهندية.

وفى ذلك اليوم قال لى نيدلاند:

- هذه بلاد متحضرة. أفضل كثيرًا من مجموعة جزر بابوا التى رأينا فيها آكلة لحوم البشر أكثر مما رأينا من اللحوم الصالحة للأكل. أما فى هذه الأراضى الهندية يا سيدى البروفسور، فسوف نجد طرقًا وسككًا حديدية. وفرنسيين وإنجليز ومدنًا هندية. إن الإنسان لا يسير فيها أكثر من خمسة أميال دون أن يلتقى بواحد من مواطنيه. لا بأس! أليست هذه اللحظة المناسبة لوداع الربان نيمو على الطريقة الفرنسية؟

فقلت فى صوت كله الحزم والتصميم:

- لا - لا يا نيدلاند دعنا نرى كل ما فى جعبة الربان. إن الغواصة تزداد قربًا من القارات المأهولة إنها فى طريق العودة إلى القارة الأوربية، فدعها تقصد بنا إليها. ومتى أصبحنا فى مياهها الإقليمية، فسترى كيف نتصرف وفقًا لما تقضى به الحكمة، وفضلاً عن هذا فلا أظن أن الربان نيمو سيسمح لنا بالصيد على شاطئ مالابار أو كورماندل كما فعل فى غابات غنيا الجديدة.

- حسنًا يا سيدى. ألا يمكن أن نحاول الهرب بغير إذنه؟

فلم أرد على الكندى، زهدًا فى المجادلة. فقد كنت أود فى أعماق نفسى أن استنفد الفرص التى هيأتها الأقدار التى دفعت بى إلى الغواصة.

وبعد جزيرة كيلنج، تناقصت سرعة الغواصة وأخذت تسلك طرقًا مختلفة، وكثيرًا ما كانت تهبط إلى أعماق بعيدة. ورغم استخدامنا لألواح الغوص

المنحدرة، فقد قطعنا ميلين دون أن نبلغ إلى أغوار المحيط الهندى العميقة. بل إن حبال الأعماق لم تستطع الوصول إلى قاعه رغم أن طولها كان يبلغ سبعة آلاف ياردة. أما درجة الحرارة فى أعمق بقعة وصلنا إليها فكانت حوالى أربع درجات فوق الصفر. وقد لاحظت أن برودة الطبقات العليا من البحر أكثر منها فى الطبقات السفلى.

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير، أمضت الغواصة اليوم كله فوق سطح الماء الذى كان خاليًا تمامًا من السُفن، وكانت تضرب الأمواج برفاصها القوى، فتزيدها ارتفاعًا واهتياجًا. وكانت الغواصة تبدو فى مثل هذه الظروف كوحش بحرى هائل. وقضيت ثلاثة أرباع اليوم فوق سطحها. وكنت أنظر إلى المحيط فلا أرى شيئًا فى الأفق. فلما كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، شاهدت سفينة تجارية متجهة نحو الغرب. ولم أر منها فى الواقع غير صواريها برهة وجيزة قبل أن تغيب عن ناظرى. ولكن من فيها لم يروا الغواصة إذ كانت تطفو بانخفاض شديد على سطح المحيط.

وفى الساعة الخامسة مساء أى قبل اختفاء هذا الشفق القصير الذى يربط النهار بالليل فى المناطق الاستوائية، فوجئت أنا وكونسايل بمشهد غريب فهناك حيوان بحرى جميل كان القدماء يتفاءلون بلقائه. وقد درس أرسطو وأقينوس وأوبيان عاداته وطباعه واستنفدوا فى دراسته كل التعبيرات العلمية فى اليونان وإيطاليا. وكانوا يسمونه نوتيلوس أو بومبيلوس، ولكن العلم الحديث لم يعترف بهذه التسمية، وأطلق على هذا النوع من الحيوانات الرخوة اللافقارية اسم «أرجونوت».

وكان ثمة قطيع من هذه الحيوانات البحرية يسبح إذ ذاك على سطح المحيط، وكان فى مقدورنا أن نحصى بضع مئات منه، وكان من نوع الأرجونوت القريب من المحيط الهندى. كانت هذه الحيوانات الرشيقة تسبح إلى الوراء على سطح الماء بوساطة أنبوبة تدفع منها الماء الذى سبق أن امتصته. وبين أذرعتها الثمانية، ستة طويلة رفيعة تطفو على سطح الماء بينما يرتفع الذراعان الآخران فى الهواء كأنهما أشرعة خفيفة، وكنت أستطيع بسهولة أن أرى أصدافها الحلزونية

الجوفاء التى قارنها العالم كافيير بزورق رشيق. وذلك أن هذه الأصداف كانت تحمل الحيوانات التى صنعتها دون أن تلتصق بها.

وقلت لكونسايل:

- إن هذه الحيوانات البحرية حرة فى ترك أصدافها. ولكنها لم تحاول يومًا أن تستفيد من هذه الحرية.

فرد قائلاً:

- إنها فى هذه الحالة تشبه الربان نيمو. وكان خيرًا لو سمى غواصته أرجونوت.

وظلت الغواصة تطفو بين هذا القطيع من اللافقاريات نحو ساعة.

ولا أدرى كيف استبد بها الخوف فجأة وكأنما صدر إليها إشارة واحدة، فإذا كل شراع منها يهبط، وكل ذراع تطوى، وإذا أجسامها تتكور، وإذا مركز الجاذبية فيها يتغير مع انقلاب الأصداف إلى أسفل، وإذا القطيع كله يختفى تحت سطح الماء، تم كل هذا فى سرعة خاطفة، وما أظن أى أسطول بحرى يمكن أن يقوم بمناورة كهذه بمثل هذا النظام الرائع.

وفى هذه اللحظة، أسدل الليل أستاره فجأة، وانسابت نسائمه هادئة، فهى لاتكاد تحرك الأمواج حول الغواصة الساكنة.

وفى اليوم التالى، اجتزنا خط الاستواء وهكذا دخلنا نصف الكرة الأرضية الشمالى.

وفى هذا اليوم رافقتنا قطعان ضخمة من نمور البحر. وهى وحوش بحرية رهيبة تكثر فى هذه البحار وتزيد من أخطارها.

وكانت هذه النمور البحرية من نوع «كستراشيوفيليبى» وهى رمادية الظهر، بيضاء البطن، مسلحة بأحد عشر صنفًا من الأسنان، وكانت أعناقها منقطة ببقع سوداء كبيرة تحيط بها دوائر بيضاء فتبدو كمقلة العين. وكانت هذه الوحوش الضارية تندفع بأجسامها على نوافذ الصالون البلورية فى قوة عارمة لم نتمالك

معها من الارتعاد. ولم يستطع نيدلاند إذ ذاك أن يسيطر على نفسه. كان يتلهف على الصعود إلى سطح الغواصة واصطياد هذه الوحوش بالحراب، ولا سيما ذلك النوع منها الذى تبدو أسنانه كالفسيفساء أو النوع الوحشى الكبير الذى يبلغ طوله نحو سبت ياردات والذى كان يثير غضبه، ولكن الغواصة لم تلبث أن زادت من سرعتها، وما هى غير فترة وجيزة حتى خلفت وراءها أسرع هذه الوحوش سباحة.

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر يناير وفى مدخل خليج البنغال الفسيح كنا نلتقى بين حين وآخر بمشهد مروع: أجساد موتى طافية على سطح الماء. كانت أجساد المتوفين فى القرى الهندية حملها نهر الجونج إلى عرض البحر قبل أن تتمكن الجوارح من التهامها، وكانت تقوم مقام اللحادين ولكن نمور البحر لم تكن تتردد فى مساعدتها على أداء هذه المهمة البشعة.

وفى الساعة السابعة مساء، كانت الغواصة تسير وهى نصف طافية فى مياه بيضاء كاللبن. فقد كان المحيط يبدو على امتداد البصر كأنما تحول إلى لبن. فهل كان هذا تأثير ضوء القمر، كلا فقد كان القمر بعد يومين مازال محجوبًا خلف الأفق بسبب أشعة الشمس الغاربة التى كانت تبدو سوداء بالقياس إلى بياض الماء.

ولم يستطع كونسايل أن يصدق عينيه فسألنى عن تعليل هذه الظاهرة الطبيعية الفريدة. ولحسن الحظ كان فى مقدورى أن أجيب. فقلت:

- هذه المساحات الشاسعة من الأمواج البيضاء التى كثيرًا ما تشاهد على ساحل (أمبونا) وفى هذه المناطق، تسمى بحر اللبن.

فقال كونسايل:

- ولكن.. ما سبب هذه الظاهرة فلا أظن أن الماء استحال إلى لبن حقًا؟

- لا. لا. بالتأكيد.. إن هذا البياض الذى يدهشك كثيرًا يرجع إلى وجود تجمعات من ديدان «الأنفاسوريا» وهى ديدان صغيرة إشعاعية لا لون لها، هلامية

القوام لا يزيد سمكها عن الشعرة ولا طولها عن ٠٠٧ر من البوصة! هذه الديدان يتصل بعضها ببعض على امتداد عدة فراسخ...

فهتف كونسايل قائلاً:

- عدة فراسخ؟

- نعم يابنى ولا تحاول أن تحصى عددها.. فلن تستطيع ذلك لأن بعض الملاحين إذا لم تخنى الذاكرة ساروا بسفنهم فى هذا الخضم اللبنى أكثر من أربعين ميلاً.

ولا أدرى إذا كان كونسايل قد اهتم بنصيحتى، ولكنى رأيته مستغرقًا فى التفكير، ولعله كان يحسب كم تحتوى أربعون ميلاً على ما مقداره ٠٠٧ر من البوصة. أما أنا فقد استأنفت ملاحظة هذه الظاهرة.

وقد ظلت الغواصة ساعات عديدة تشق غمار هذا البحر اللبنى. ولاحظت أنها تنساب بغير صوت على هذه المياه الصابونية، وكأنما هى طافية فوق دوامات الزبد التى تتولد من التيارات البحرية والتيارات العكسية فى بعض الخلجان.

وحوالى منتصف الليل استردت المياه لونها العادى فجأة. ولكن السماء كانت تبدو خلفنا حتى حوافى الأفق وهى تعكس بياض الماء مدة طويلة كأنها مشربة بذلك الضوء الخفيف المنساب من الشفق الشمالى.

الفصل السادس والعشرون

اقتراح جديد للربان نيمو

عندما عادت الغواصة إلى سطح الماء شمالى خط العرض ٤ , ٩٠ درجة فى ظهيرة اليوم الثامن والعشرين من شهر فبراير، كان فى مقدورنا أن نشاهد اليابسة على مسافة ثمانية أميال غربيًا. وكان أول ما رأيته سلسلة من الجبال على ارتفاع ألفى قدم بدت غريبة التكوين، وقد علمت بعد تحديد موقفنا أننا بالقرب من جزيرة سيلان أى اللؤلؤة المعلقة فى أذن شبه الجزيرة الهندية.

وعدت إلى المكتبة طلبًا لكتاب عن هذه الجزيرة التى تعتبر من أخصب بقاع العالم. وفى تلك اللحظة أقبل الربان نيمو والضابط الأول وقد ألقى أولهما نظرة على الخارطة ثم استدار نحوى قائلاً:

- إن جزيرة سيلان ذات شهرة كبيرة فى صيد اللؤلؤ. فهل تحب أن ترى عمليات الصيد يا مسيو أروناكس؟

- هذا ما أتوق إليه يا كابتن.

- حسنًا. هذا أمر سهل. وإذا كنا سنرى مصائد اللؤلؤ فلن نرى الصيادين لأن موسم الصيد السنوى لم يبدأ بعد. ولكن هذا لا يهم. سآمر بالاتجاه إلى خليج مانار حيث نصل إليه أثناء الليل.

وفاه الربان بكلمات قليلة إلى الضابط الأول الذى انصرف على الأثر وسرعان ما عادت الغواصة إلى جوف الماء ودل مؤشر الغوص أننا أمسينا على عمق ثلاثين قدمًا.

وقال الريان نيمو:

- إن مصائد اللؤلؤ يا بروفسور موجودة فى خليج البنغال وفى المحيط الهندى وفى بحار الصين واليابان وفى خلجان بناما وكاليفورنيا، ولكن ليس بين هذه المصائد كلها ما يماثل سيلان فى إنتاجها. سنصل إليها قبل الموسم بقليل، لأن الغواصين لا يجتمعون فى خليج مانار إلا فى شهر مارس، وهناك ينهمكون فى عمليات الصيد الممتدة مدة ثلاثين يومًا؛ وعندهم أسطول من زوارق الصيد تبلغ ثلاثمائة زورق لكل منها عشرة مجدفين وعشرة غواصين. وينقسم هؤلاء إلى مجموعتين تتناوبان الغوص فى البحر إلى عمق ثلاث عشرة ياردة تقريبًا بواسطة أحجار ثقيلة يمسكون بها بين أقدامهم وبحبال غليظة تشدهم إلى الزورق.

فقلت:

- إذًا فوسائل الصيد البدائية لا تزال سائدة هنا.

- نعم. وذلك رغم أن هذه المصائد تمتلكها إنجلترا التى تعتبر من أوائل الدول صناعة.

- ولكن يبدو لى على كل حال أن ملابس الغوص التى تستعملها هنا. أعظم نفعًا فى مثل هذه العمليات.

- نعم. لأن الغواصين المساكين لا يستطيعون البقاء طويلاً تحت سطح الماء وقد ذكر الرحالة الإنجليزى ببرستيال أنه رأى فى رحلته إلى سيلان أحد سكانها من قبيلة كافرى استطاع البقاء تحت سطح الماء مدة خمس دقائق. ولكنى لا أكاد أصدق هذا. فأنا أعرف أن هناك غواصين يستطيعون البقاء تحت سطح الماء مدة ٥٧ ثانية، وقد يستطيع بعضهم البقاء ٨٧ ثانية، ولكن هذه كلها حالات نادرة كما أن هؤلاء الغواصين المساكين تنزف الدماء من آذانهم وأنوفهم عند عودتهم إلى الزوارق، واعتقادى أن الفترة العادية لبقاء الغواص تحت الماء هى نصف دقيقة يسرع أثناءها فى ملء كيسه الصغير بمحار اللؤلؤ. ولا يحيا هؤلاء الغواصون حتى سن متأخرة، كما أنهم يصابون بضعف البصر. وتتقرح عيونهم. وتتفتح جلودهم بالقرح الصديدية وكثيرًا ما يصابون فى الأعماق بالصرع.

فقلت:

- آه. إنها مهنة البؤس إذًا. ولا فائدة منها إلا إرضاء نزعات الزهو والكبرياء فى بعض النفوس. ولكن أخبرنى يا كابتن ما كمية المحار التى يظفر بها الزورق الواحد فى اليوم؟

- من أربعين إلى خمسين ألف محارة. وقد قيل إن الحكومة الإنجليزية استطاعت بواسطة غواصيها فى عام ١٨١٤، عندما كانت تقوم بعمليات صيد اللؤلؤ لحسابها أن تحصل على ست وسبعين مليون محارة.

- ولكن لابد أن هؤلاء الغواصين يكافئون بسخاء.

- قلما يحدث هذا يا بروفسور، إن أجر الغواص فى بناما دولار واحد فى الأسبوع. والغواص عادة يظفر بمنحة إضافية مقدارها قرش عن كل محارة توجد بداخلها حبة لؤلؤة. وأكثر المحار الذى يصيدونه يخلو من اللؤلؤ.

- قرش واحد للغواص المسكين الذى يجلب الثراء لسيده؟ هذا شنيع!

- هكذا سترى يا بروفسور مع صاحبيك شاطئ المحار فى مثار. وإذا تصادف ووجدنا هناك بعض الغواصين المبكرين فسوف تراهم أثناء العمل.

- موافق يا كابتن.

- ولكن ألا تخاف نمور البحر يا مسيو أروناكس؟

- أعترف يا كابتن أنى لم آلف بعد هذا النوع من الوحوش البحرية.

- لقد اعتدنا رؤيتها، وستعتاد أنت أيضًا عليها بمرور الزمن؛ وأيًا كان الأمر فسنكون مسلحين وربما قمنا أثناء الطريق بصيد هذه النمور البحرية والآن... إلى اللقاء مبكرًا صباح الغد.

وانصرف الربان نيمو بعد أن فاه بكلماته تلك فى غير مبالاة.

والآن... إذا أنت دعيت للاشتراك فى صيد الدببة بجبال سويسرا، فإنك تقول حسنًا سنذهب لصيد الدببة غدًا، وإذا دعيت لصيد الأسد فى جبال

الأطلس أو النمور فى غابات الهند قلت: «.. يبدو أننا سنذهب لصيد الأسود والنمور» ولكن إذا دعيت لصيد نمور البحر فى مواطنها فإنك على الأرجح ستطلب مهلة للتفكير قبل قبول الدعوة.

أنا عن نفسى. فقد مسحت بيدى على جبينى الذى تفصد بقطرات من العرق البارد وقلت لنفسى:

- ينبغى أن أفكر على مهل. إن صيد القناوس «كلاب الماء» فى غابات الأعماق كما فعلنا فى غابة كريسبو المائية شىء.. ولكن السير فى قاع البحر وأنت واثق من ملاقاة نموره شىء آخر. أنا أعرف أنه فى بعض المناطق ولا سيما فى جزائر انداماان لا يتردد الزنوج فى مهاجمة هذه النمور بالخنجر والأنشوطة. ولكننى أعرف أيضًا أن الكثيرين ممن التقوا بهذا الوحش لم يرجعوا أحياء. وفضلاً عن هذا فأنا لست زنجيًا باسلاً. وحتى لو كنته فلن يستغرب منى بعض التردد.

وبدأت أحلم بنمور البحر متخيلاً الأشداق الهائلة المسلحة بصفوف متراكبة من الأسنان القادرة على قصم الرجل نصفين، ولقد شعرت لمجرد الخيال بألم فى ظهرى. وعندئذ لم أستطع أن أهضم لهجة الربان الهادئة وهو يوجه إلىَّ تلك الدعوة وكأنما يدعونى لمطاردة ثعلب مسالم.

وعدت أقول لنفسى:

- حسنًا. إن كونسايل لن يقبل هذه الدعوة قط وهذه حجة أتذرع بها للتخلص من مصاحبة الربان فى هذه الرحلة.

أما عن نيدلاند فينبغى أن أعترف بأنى لم أكن واثقًا من حرصه وحذره. فإن للمخاطر مهما عظمت إغراء شديدًا لطبيعته المحاربة.

واستأنفت مطالعة الكتاب الموضوع عن سيلان ولكنى كنت أقلب صفحاته بطريقة آلية فقد كنت أرى أشداقًا هائلة مفتوحة بين سطوره. وعندئذ أقبل كونسايل ونيدلاند فى هدوء بل فى مرح كأنهما لا يعرفان ماذا ينتظرهما.

وقال نيدلاند:

- مرحى يا بروفسور.. لقد عرض علينا الريان - قاتله الله - اقتراحًا لطيفًا.

فقلت:

- آه.. إذًا فقد عرفت..

فقاطعنى كونسايل قائلاً:

- نعم لقد دعانا الريان غدًا مع سيدى البروفسور لزيارة مصائد اللؤلؤ فى سيلان. وكان رقيقًا فى دعوته كأى سيد مهذب.

- ألم يذكر لكما شيئًا آخر؟

فقال نيدلاند:

- لا يا سيدى. ولكنه ذكر أنه تحدث معك عن هذه الرحلة.

- نعم. حدثنى، إذًا لم يذكر لكما شيئًا عن...

- لم يذكر شيئًا يا سيدى العالم الطبيعى. أنت ذاهب معنا.. أليس كذلك؟...

- أنا. آه.. طبعًا.. أعتقد أن هذه الدعوة مناسبة لك يا نيد.

- نعم ستكون رحلة غريبة جدًا.

فقلت بلهجة معنوية.

- وربما شديدة الخطر أيضًا.

فقال نيدلاند:

- شديدة الخطر. أتكون رحلة بسيطة إلى شاطئ المحار شديدة الخطر.

وكان واضحًا أن الريان نيمو لم يستصوب أن يثير لدى صاحبى فكرة نمور البحر. فنظرت إليهما فى قلق وكأنى أرى بعض أطرافيهما مفقودة فعلاً. فهل يجب أن أحذرهما. نعم بالتأكيد... ولكنى لم أدر كيف أفاتحهما فى هذا الأمر؟! وقال كونسايل لى:

- هل يتكرم سيدى ويذكر لنا بعض التفاصيل عن مصائد اللؤلؤ.

- أحدثكما عن طريقة الصيد. أم عن الأحداث التى...

فقال نيدلاند:

- عن طريقة الصيد. إذ يحسن قبل أن ننتقل إلى اليابسة أن نعرف شيئًا عن الموضوع عامة.

- حسن جدًا. اجلسا سأحدثكما عما قرأت الآن.

وبعد أن جلسا على الأريكة الوثيرة.

قال نيدلاند:

- سيدى. ما اللؤلؤة.

-إن اللؤلؤة يا صديقى نيد هى فى نظر الشاعر قطرة من دموع المحيط. وفى نظر الشرقيين قطرة متحجرة من الندى. وفى نظر السيدات حلية بيضاوية الشكل لها بريق الزجاج مصنوعة من مادة «عرق اللؤلؤ» وهى تزين أصابعهن وأعناقهن وآذانهن وهى فى نظر الكيميائى مزيج من فوسفات وكربون الجير مع قليل من الهلام. وأخيرًا هى فى نظر العالم الطبيعى مجرد عصارة عضوية فاسدة تنتج عرق اللؤلؤ فى أصداف معينة.

وبعد أن ذكر كونسايل كعادته الفرع والرتبة التى تنتمى إليها الأحياء البحرية المكونة للؤلؤ استطردت أقول:

- كل هذه الأحياء البحرية الدقيقة التى تفرز تلك العصارة ، أو تلك المادة البيضاء أو الزرقاء أو المائلة للزرقة أو البنفسجية التى تبطن جدران المحار قادرة على إنتاج حبات اللؤلؤ.

- حتى «الماصل أيضًا».

- نعم. حتى (الماصل) الموجود فى بعض أنهار أسكتلندا أو ويلز، وأيرلندا، وساكسونيا، وبوهيميا وفرنسا.

فقال الكندى:

– حسنًا. سأهتم بهذا الأمر في المستقبل.

فاسترسلت في بياناتي قائلاً:

– ولكن النوع الخاص من الحيوانات البحرية اللافقارية التي ترسب اللؤلؤ هي محار اللؤلؤ المعروف باسم ميلياجرينا مارجوتيفيرا أي البنادين الثمين. وما حبة اللؤلؤ إلا مجرد عرق لؤلؤي ترسب في شكل بيضاوي، وتلتصق اللؤلؤة بداخل الصدفة وهي لينة القوام ولكنها تختلط دائمًا في داخلها بمادة صلبة «ببويضة عقيمة» أو بحبة من الرمل لتكون بمثابة النواة التي تترسب حولها عامًا بعد عام في طبقات رقيقة كروية.

فقال كونسايل:

– هل يمكن أن يوجد عدد من اللؤلؤ في محارة واحدة؟

– نعم. وقد قيل إنه وجد في إحدى المحارات مائة وخمسون نمرًا بحريًا. وإن كنت لا أصدق هذا.

فصاح نيدلاند:

– نمرًا بحريًا!..

فهتفت قائلاً بسرعة:

– هل قلت نمرًا بحريًا؟ أعني مائة وخمسين حبة لؤلؤ. أما النمور البحرية فكلام فارغ.

وقال كونسايل.

– نعم. ولكن هل يذكر لنا سيدي الآن كيف يستخرجون اللؤلؤ؟

– إنهم يفعلون هذا بوسائل مختلفة.. وفي أحيان كثيرة ينتزع الغواصون اللؤلؤ الملتصق بالمحار بواسطة الملاقط. ولكن الطريقة المتبعة عادة هي فرش المحار فوق حصير من العشب النامي على الشاطئ، وبهذه الطريقة تموت المحارات في الهواء الطلق. وبعد عشرة أيام تكون قدتحللت بما فيه الكفاية فتوضع في

مستودعات من مياه البحر. ثم تفتح وتغسل. وعندئذٍ يبدأ دور الفرازين المزدوج. فهم أولاً يفصلون مراقد اللؤلؤ المعروفة فى الأسواق التجارية باسم الفضة الصافية «الصدف الأبيض والصدف الأسود» ثم يأخذون قلب المحارة ويغلونها ويغربلونها لاستخلاص أصغر حبات اللؤلؤ.

فقال كونسايل:

– وهل تختلف أسعار اللؤلؤ باختلاف أحجامه..؟

– ليس باختلاف أحجامه فقط. بل كذلك باختلاف أشكاله وألوانه وتلألؤه. أعنى ذلك التباين اللونى الذى يجعله خالبًا للنظر. وأن أجمل أنواع اللؤلؤ هو المعروف باسم «اللآلئ العذراء» فهى الوحيدة المكونة من نسيج اللافقاريات. وهى بيضاء. وأحيانًا غير شفافة. ولكنها فى أحيان أخرى تكون لها شفافية جواهر عين القط «أحجار متعددة الألوان» وشكلها عادة كروى أو بيضاوى، فإذا كانت كروية صيغت منها الأساور. وإذا كانت بيضاوية فهى أقراط وعقود. وهى بسبب ارتفاع ثمنها تباع بالحبة الواحدة. أما اللآلئ التى تلتصق بجدران الأصداف. فهى أكثر الأنواع شذوذًا أو عدم انتظام فى الشكل. وتباع بالوزن. ومن بين أردأ الأصناف النوع المعروف باسم بذور اللؤلؤ وتباع بالمكيال وتستخدم فى وشى أستار الكنائس.

وقال نيدلاند:

– ولكن عملية فرز اللؤلؤ بالنسبة لحجمه عملية لا شك طويلة شاقة.

لا. إنها تتم بواسطة سبعة غرابيل ذات عيون متفاوتة العدد.. فاللآلئ التى تبقى فى الغرابيل التى تكون عيونها من عشرين إلى مائة عين هى لآلئ الدرجة الأولى، واللآلئ التى لا تسقط من غرابيل عيونها من مائة إلى ثمانمائة عين لآلئ الدرجة الثانية. واللآلئ التى تستخدم لفرزها غرابيل عيونها من ثمانمائة إلى ألف عين هى بذور اللآلئ.

– فقال كونسايل.

– هذه طريقة بارعة. وقد فهمت الآن أن فرز وتقسيم اللؤلؤ يتم بطريقة آلية.

والآن هل يستطيع سيدى أن يخبرنا عن مقدار إنتاج شاطئ اللؤلؤ.

- إذا كان علينا أن نصدق ما جاء فى هذا الكتاب الذى كنت أقرؤه الآن. فإن إنتاج مصائد اللؤلؤ فى سيلان يبلغ ثلاثة ملايين (نمر بحرى).

فقال كونسايل مصححًا.

- يقصد سيدى فرنك فرنسى.

- نعم. نعم. ثلاثة ملايين فرنك. ولكنى أعتقد أن إنتاج هذه المصائد قد هبط عما كان من قبل. وكذلك الحال فى المصائد الأمريكية التى كان إنتاجها فى عهد تشارلس الخامس يساوى أربعة ملايين فرنك فى العام. ولكن هبط الآن إلى الثلثين. ويمكننا إجمالاً تقدير إنتاج مصائد اللؤلؤ فى العالم بنحو تسعة ملايين فرنك سنويًا.

ولكن. ألم نسمع عن بعض اللآلئ المشهورة التى قيل إنها بيعت بأثمان ضخمة.

- نعم يا بنى. يقال إن قيصر أهدى سيرفيليا لؤلؤة تساوى أربعة آلاف وثمانمائة جنيه

وقال نيدلاند:

- لقد سمعت أن سيدة فى العصور القديمة كانت تشرب اللؤلؤ مع الخمرة.

فتساءل كونسايل:

- أهى كليوباترا؟

فقال نيدلاند:

- لاشك أنه شىء كريه.

فقال كونسايل:

- لكنه كان كأسًا يساوى ستين ألف جنيه.

فقال نيدلاند وهو يحرك ذراعيه بطريقة تعوزها الثقة فى النفس.

- إنى آسف لأنى لم أتزوج تلك السيدة.

فهتف كونسايل:

- نيدلاند.. زوج كليوباترا..

فأجاب نيدلاند بلهجة جادة:

- لقد كنت يومًا على وشك الزواج يا كونسايل. ولم أكن أنا السبب فى فشل مشروع الزواج بل إنى اشتريت عقدًا من اللؤلؤ لفتاتى كيت تندر، ولكنها رغم ذلك تزوجت شخصًا آخر. لا بأس أن ذلك العقد لم يكلفنى على كل حال أكثر من دولار ونصف. مع هذا أرجو أن تصدقنى يا بروفسور إذ قلت إن حبات هذا العقد ما كانت لتنفذ من غربال ذى عشرين عينًا.

فقلت ضاحكًا:

- هذه حبات من اللؤلؤ الصناعى يا نيد. إنها مجرد حبات زجاجية مطلية من الداخل بمادة زيتية شرقية.

فقال الكندى:

- لا شك أن هذه المادة غالية الثمن.

- بل زهيدة. إنها المادة الفضية المستخرجة من قشور السمك البياض بعد نزعها فى الماء وحفظها فى محلول النشادر. إنها زهيدة القيمة جدًا.

فقال نيدلاند متفلسفًا:

- لعل هذا إذًا سبب زواج كيت تندر بشخص غيرى.

فقلت:

- إذا عدنا إلى الحديث عن اللآلئ الثمينة. فلا أعتقد أن هناك ملكًا لديه لؤلؤة كالتى يملكها الريان نيمو.

فأشار كونسايل إلى جوهرة فاخرة فى خزانتها الزجاجية وقال:

- أتعنى هذه...؟

- بالتأكيد. لست مغاليًا إذا قلت إنها تساوى مليونى...

فأسرع كونسايل يقول:

- فرنك.

فقلت:

- نعم. مليونى فرنك.. وأعتقد أنها لم تكلف الريان أكثر من عملية التقاطها.

فهتف نيدلاند قائلاً:

- آه.. من يدرى أننا لن نلتقى غدًا بأخت لها أثناء رحلتنا.

فلما أبدى كونسايل شكه قال نيدلاند:

- ولم لا..

- لأنه ما قيمة الملايين لنا ونحن فى الغواصة.

فقال نيدلاند:

- فى الغواصة؟ لا بل فى مكان آخر.

فقال كونسايل هازًا رأسه:

- فى مكان آخر.

فقلت:

- إن نيدلاند مصيب فى الواقع فإذا أتيح لنا أن نأخذ معنا إلى أوربا أو أمريكا لؤلؤة تساوى الملايين فإنها على الأقل. تضفى طابع الصدق على مغامراتنا هذه وتسبغ عليها قيمة أخرى.

فقال نيدلاند:

- وهذا هو رأيى أيضًا.

ففال كونسايل الذى يميل دائمًا إلى الجانب الثقافى.

- وهل ينطوى الغوص وطلب اللآلئ على الخطر؟

فقلت:

- لا. لاسيما إذا اتخذت احتياطات معينة.

فقال نيدلاند:

- ما الخطر المحتمل؟ إنه لا يعدو أن يكون ابتلاع حفنة من الماء المالح.

فقلت وأنا أقلد الربان نيمو في صوته المستهتر:

- أنت على حق يا نيدلاند... وبهذه المناسبة.. هل تخاف نمور البحر يا نيد؟

فقال الكندى:

- أنا. أنا الذى أحترف صيد الحيتان؛ إن مهنتى هى السخرية منها.

- ولكن.. لن يكون الصيد هذه المرة بالحراب أو أخذها إلى سطح السفينة لتقطيع ذيولها بالشواطير وفتح بطونها وانتزاع قلوبها ثم إلقاء بقاياها إلى البحر.

- هل تعنى إذًا...

- نعم. تمامًا.

- فى الماء؟

- نعم فى الماء.

- ياللسماء.. إنك تعرف يا سيدى أن لهذه الوحوش تصرفات غريبة وأحابيل خادعة.. ولابد لها أن تنقلب على بطنها لكى تقضمك.

والواقع أن الكندى فاه بكلمة القضم هذه بلهجة جعلت الدماء تجمد فى عروقى. ثم قلت:

- حسنًا.. وأنت يا كونسايل ما رأيك فى نمور البحر؟

- أنا سأكلم سيدى بصراحة.

فقلت لنفسى: «إذًا هناك أمل فى عدم اشتراكى فى هذه الرحلة».

وأردف كونسايل قائلاً:

- إذا كان سيدى ينوى مهاجمة هذا الوحش فأنا لا أرى سببًا يمنع خادمه من مواجهتها معه.

الفصل السابع والعشرون

لؤلؤة تساوى عشرة ملايين

ولما أسدل الليل أستاره. أويت إلى فراشى واستغرقت فى نوم غير مريح. فقد لعبت نمور البحر فى أحلامى دورًا رئيسيًا ولا سيما أن عبارتى «نمور البحر» و «صلاة الجناز» كان اشتقاقها فى اللغة الفرنسية من أصل واحد.

وفى اليوم التالى أيقظنى الخادم الذى خصصه لى الربان نيمو فى الساعة الرابعة صباحًا. فنهضت مسرعًا. وارتديت ملابسى.. وذهبت إلى الصالون حيث وجدت الربان نيمو فى انتظارى وقد قال لى:

- هل أنت على استعداد يا مسيو أروناكس؟

- نعم.

- تفضل إذًا واتبعنى.

- وصاحباى يا كابتن.

- إنهما فى انتظارنا.

- هل سنرتدى ملابس الغوص.؟

- ليس الآن.. إننى لم آمر بعد باقتراب الغواصة من الشاطئ، ومازالت هناك مسافة بيننا وبين شاطئ منار. ولكنى أمرت بأن يكون قارب الغواصة على استعداد. وسيمضى بنا إلى المكان المحدد لهبوطنا، وبذلك نوفر مسافة طويلة وستكون ملابس الغوص معدة على سطحه لكى نرتديها بمجرد البدء فى رحلتنا تحت سطح الماء.

وصحبنى الربان نيمو إلى السلم المركزى المؤدى إلى سطح الغواصة. وهناك رأيت نيدلاند وكونسايل مبتهجين للرحلة المنتظرة التى يعدون لها العدة. وكان خمسة من بحارة الغواصة ينتظروننا فى القارب الذى كان مشدودًا إلى جانب الغواصة. وقد أمسكوا بالمجاديف.

وكان الليل لم يزل مظلمًا. والسحب الملبدة تغطى وجه السماء فلا يكاد يبدو نجم واحد. ونظرت شطر اليابسة. فلم أبصر غير خط مبهم يضم ثلاثة أرباع الأفق من الجنوب الغربى إلى الشمال الغربى. وكانت الغواصة قد اجتازت أثناء الليل الشاطئ الغربى لجزيرة سيلان، وأصبحت الآن غربى الخليج المكون من الأرض ومن جزيرة مانار.

وهنـــاك.. تحت الميـــاه القاتمة. يمتد شاطئ المحار.. وهو حقل من اللؤلؤ لا ينضب له معين يزيد طوله على عشرين ميلاً.

واتخذنا «الربان نيمو وكونسايل ونيدلاند وأنا» أماكننا فى القارب الذى لم يلبث أن تحرك بنا واتجهنا جنوبًا. وكان البحارة يجدفون فى غير تعجل. فقد لاحظت أن ضرباتهم القوية كانت تتوالى كل عشر ثوان طبقًا للمتبع فى البحرية وخيّم الصمت علينا. ترى فيم كان الربان نيمو يفكر؟ لعله كان يفكر فى اليابسة التى كنا نقترب منها والتى وجدها جد قريبة. بعكس نيدلاند الذى كان يراها أبعد ما تكون.

وفى الساعة السادسة وضح فجأة نور الصباح بتلك السرعة التى تتميز بها المناطق الاستوائية. وهى المناطق التى لا تعرف فجرًا ولا شفقًا. ورأيت اليابسة بوضوح وقد تناثرت فيها أشجار هنا وهناك. حتى إذا دنا القارب من جزيرة مانار نهض الربان وراح يراقب سطح البحر.

وبإشارة منه ألقيت المرساة. ولم تهبط سوى مسافة يسيرة لأن القاع لم يكن ببعيد عن السطح بأكثر من ياردة. وكنا فى أكثر المواضع ارتفاعًا فى شاطئ المحار، وقال الربان نيمو:

- ها نحن الآن هنا أخيرًا يا مسيو أروناكس وفى خلال شهر ستكثر الزوارق فى هذا المكان. وهذه المياه التى يقتحم الغواصون مجاهلها ببسالة. وموضع هذا

الخليج ملائم كل الملاءمة لأغراض الصيد فهو محجوب عن الرياح الهوج والبحر قلما يثور فيه. مما يجعله أصلح ما يكون لعمليات الصيد والآن سنرتدى ملابس الغوص ثم نبدأ مهمتنا.

وشرعت فى ارتداء ملابس الغوص الثقيلة بمعاونة البحَّارة. وكذلك فعل الريان نيمو وصاحباى. ولكن كان مقررًا ألا يصحبنا أحد من بحَّارة الغواصة.

وسرعان ما غدونا سجناء حتى الرقاب داخل الملابس المطاطية. ثم شدت أجهزة التنفس على ظهورنا، ولم تكن بحاجة إلى أجهزة رومكروف للإضاءة. وقد سألت الريان نيمو عنها قبل أن أدخل رأسى فى الخوذة النحاسية فقال:

- لن نكون بحاجة إليها. لأننا لن نغوص إلى أعماق بعيدة. وسوف تزودنا أشعة الشمس بما يكفينا من الضوء. ثم إنه ليس من الحكمة أن نستخدم المصابيح الكهربائية داخل هذه المياه لأن ضوءها الساطع قد يجتذب بعض سكان هذه المناطق الخطرين.

وفيما كان الريان نيمو ينطق بهذه الكلمات. التفت أنا إلى كونسايل ونيدلاند، فإذا هما قد أدخلا رأسيهما فى الخوذتين النحاسية. فلم يعد أحدهما يستطع أن يسمع أو يجيب.

وكان ثمة سؤال أخير فى جعبتى للريان نيمو فقلت:

- أين أسلحتنا؟ أين بنادقنا؟

- بنادقنا؟ لماذا؟ ألا يهاجم هواة الصيد فى الجبال الدببة بالخناجر؟ أليس السلاح الصلب أضمن من الرصاص. هذا نصل قوى ضعه فى حزامك. وسنبدأ الآن.

ونظرت إلى صاحبى فوجدتهما مسلحين مثلنا بل رأيت نيدلاند يشحذ حربة كبيرة كان قد وضعها فى القارب قبل أن يبتعد عن الغواصة.

وحذوت حذو الريان. فتركت البحَّارة يضعون على رأسى الخوذة المعدنية الثقيلة، وسرعان ما بدا مستودع الهواء فى العمل. وعلى أثر ذلك هبطنا إلى عمق خمسة أقدام من الماء على أرض رملية صلبة. وأشار لنا الريان نيمو بيده فتبعناه سائرين على أرض منحدرة حتى اختفينا تحت الأمواج.

وعندئذ زالت عنى الخواطر التى سبق أن أثارت القلق فى نفسى. وأحسست بهدوء عجيب، وضاعفت سهولة حركتى من ثقتى فى نفسى، واستأثرت بلبى غرابة المناظر حولى.

وكانت الشمس حينئذٍ ترسل ضوءًا كافيًا تحت سطح الماء ومن ثم كانت أقل الأشياء تبدو بوضوح؛ وبعد مسيرة عشر دقائق أصبحنا على عمق ستةعشر قدمًا تحت سطح الماء. وفوق أرض مستوية تقريبًا.

وفى نحو الساعة السابعة وصلنا أخيرًا إلى شاطئ «النادين» حيث يتوالد محار اللؤلؤ بالملايين. فإن هذه اللافقاريات الثمينة تلتصق بالصخور حيث تشدها إليها بقوة أنسجة بنية اللون تمنعها من الحركة. ومحارة هذا النوع تعتبر أدنى فى ميزان الطبيعة من محارات «الماصل» التى لم تحرمها الطبيعة من حرية الحركة.

أما (البنادين) المعروف باسم ميلياجرنيا. أو عرق اللؤلؤ. أو المحارة ذات الغلافين المتساويين فهى صدفة مستديرة سميكة ذات سطح خشن. وبعض هذه المحارات تكون مورقة ومميزة بشرائط خضراء تتألق فى أعلاها. وهذا النوع من المحار الصغير. أما النوع الآخر الأسود ذو السطح الخشن. فإنه يبلغ من العمر عشر سنوات أو أكثر ويبلغ طول الواحدة منه نحو خمس بوصات.

وأشار الربان نيمو إلى هذا الموطن الغنى بمحار اللؤلؤ فأدركت أنه منجم لا ينضب له معين حقًا. ذلك لأن قوى الطبيعة الخلاقة أعظم من غرائز الإنسان الهدامة. وقد أسرع نيدلاند وهو من أوفى الناس لغرائزه - إلى ملء الشبكة التى كان يحملها إلى جانبه بأجود أنواع المحار.

ولم يكن فى مقدورنا أن نتوقف. إذ كان علينا أن نتابع الربان الذى بدا أنه يختار ممرات معروفة لديه. وبدأت الأرض ترتفع قليلاً، وكنت أحيانًا أرفع يدى فتخرج من سطح الماء. ثم عادت الأرض إلى الانحدار فى غير انتظام، وكنا أحيانًا ندور حول مجموعة من الصخور العالية على هيئة الأهرامات، وفى بعض المناطق المظلمة كنا نرى السلاحف البحرية الكبيرة تتراجع على قوائمها الخلفية

كأنها آلات حربية وتحدق إلينا بنظرات ثابتة. أما تحت أقدامنا فكانت تزحف الديدان البحرية وغيرها من عجائب الأحياء المائية.

وفى تلك اللحظة تفتح أمامنا ما يشبه الكهف الواسع. وكان محفورًا بين أكوام من الصخور على صورة بديعة ومكسوًا بأعشاب البحر، وقد بدا لى هذا الكهف الواسع مظلمًا فى أول الأمر. وكانت أشعة الشمس تتلاشى فيه تدريجيًا حتى أصبح ضوؤها الواضح غائمًا.

ودخل الربان نيمو أولاً ثم تبعناه، ولم ألبث أن اعتادت عيناى الرؤيا فى هذا الظلام النسبى، فرأيت أن أسقف هذا الكهف الضخم شديدة التعرج والالتواء. قامت على أعمدة طبيعية ترتكز على قواعد من الجرانيت كأعمدة فن المعمار التوسكانى. ترى لماذا يقودنا الربان الغامض إلى أعماق هذا السرداب المائى. لاشك أنى سأعرف السبب وشيكًا.

وبعد أن هبطنا فى منحدر شديد. وصلنا إلى قاع بئر مستديرة. وهناك توقف الربان نيمو وأشار إلى شىء لم نلحظه من قبل.

كانت محارة ذات حجم هائل. وصدفة مغلقة ضخمة ثلاثية الشكل. أو حوض تعميد مقفل يحتوى على بحيرة من الماء المقدس. أو وعاء يزيد عرضه على ياردتين، وهو بذلك أكبر من الصدفة الموجودة فى صالون الغواصة.

واقتربت من هذه المحارة التى لا مثيل لها. كانت ملتصقة بأنسجتها إلى صخرة جرانيتية. هنا كانت تنمو فى عزلة داخل مياه هذا القبو الهادئ، وقدرت وزن هذه المحارة الضخمة بنحو ٦٠٠ رطل، وهى فى هذه الحالة تحتوى على ما لا يقل عن ثلاثين رطلاً من اللحم. ولا تستطيع معدة وحش بحرى هائل أن تهضم جزءًا منها.

وكان واضحًا أن الربان نيمو يعلم بوجود هذه المحارة الضخمة، وأن هذه لم تكن زيارته الأولى لها، وخطر لى أنه لم يصحبنا إلى هذا المكان إلا ليطلعنا على إحدى عجائب الطبيعة. ولكنى كنت مخطئًا فقد تبينت أن الربان نيمو لم يكن يهتم بالكهف المائى قدر اهتمامه بالمحارة الكبيرة.

كان غلافا المحارة نصف مفتوحين، فذهب الريان نيمو إليها ودس بينهما خنجره ليمنعهما من الانطباق ثم رفع بيده كساءها الغشائى المحيط بها والذى يكون دثارًا كاملاً للمحارة.

ورأيت بين طبقاتها الداخلية لؤلؤة تبلغ فى حجمها جوزة الهند، وكانت بشكلها البيضاوى وتمام صفائها، وروعة لآلئها درة لا تُقدر بثمن. ودفعنى الفضول إلى مد يدى لكى أتناولها وأزنها وأتحسسها، ولكن الريان منعنى بإشارة من يده. ثم جذب الخنجر بحركة سريعة جعلت الغلافين ينطبقان.

وأدركت عندئذٍ هدف الريان نيمو. فإنه يترك هذه المحارة اللؤلؤية فى كسائها الطبيعى لكى تنمو فى هدوء. ففى كل عام يزيد الإفراز ويضيف طبقة جديدة عليها. ولا يعرف غير الريان نيمو سر هذا الكهف المائى وثمرته الطبيعية النادرة التى تنضج بهدوء. وهو وحده الذى يرعاها - إن صح هذا التعبير - لكى ينقلها يومًا إلى متحفه الفاخر. بل لعله يحذو حذو الهنود والصينيين، فيحدد حجم هذه المحارة بوضع قطع من الزجاج أو المعدن لكى تغلف بطبقات المادة اللؤلوئية تدريجيًا. وعلى أى حال فإنى إذا قارنت هذه اللؤلؤة بما أعرفه من طرازها وبما شاهدته متألقًا فى مجموعة الريان نيمو، كان ثمنها لا يقل عن عشرة ملايين فرنك. فالواقع أنها إحدى عجائب الطبيعة الرائعة وليست مجرد جوهرة فاخرة للزينة. لأنى لا أعرف أذنًا نسائية يمكن أن تحتمل هذه اللؤلؤة.

وبعد أن فرغنا من زيارة هذه الأعجوبة الثمينة. غادر الريان نيمو الكهف البحرى، وعدنا إلى شاطئ اللؤلؤ مرة أخرى حيث كانت المياه صافية لم تتعكر بعد بأعمال الغواصين والصيادين.

وسرنا فرادى.. نتوقف أو نسير حسبما يحلو لكل منا. وقد نسيت من ناحيتى كل المخاطر التى كان خيالى يجسمها بلاهة منى. وذلك عندما بدأ قاع البحر يقترب من السطح. ثم لم ألبث أن ارتفع رأسى فوق مستوى الماء. وانضم كونسايل إلىَّ. ثم وضع قناعه الزجاجى أمام قناعى وحيانى بعينيه. ولكن تلك الهضبة المرتفعة لم تزد عن بضع ياردات طولاً. إذ سرعان ما عدنا إلى جوف الماء أو إلى موطننا المائى وفى ظنى أنى محق فى هذه التسمية.

وبعد عشر دقائق، توقف الريان نيمو فجأة. وخطر لى أنه يتوقف للراحة قبل البدء فى طريق العودة. ولكنى أخطأت التقدير، كما أن وقوفنا هذه المرة لم يكن له علاقة بوحش بحرى بل بإنسان حى.. بهندى أسود.. غواص.. بائس.. جاء ولا شك لجنى بعض المحصول قبل الموسم. ولمحت قاع زورقه راسيًا على مسافة بضعة أقدام فوق رأسه.. ورأيته يغوص ثم يطفو مرة بعد مرة، وكان ثمة حجر منحوت على شكل (قمع السكر) بين قدميه مشدود إلى الزورق بحبل. وكان الحجر يعينه على الغوص بسهولة، وكانت هذه كل أدواته للغوص. ورأيته حين وصل إلى القاع على عمق ست ياردات يركع على ركبتيه ويملأ الكيس بالمحار اللؤلؤى كيفما يكون. ثم يطفو ويفرغ الكيس فى الورق ويعيد وضع الحجر بين قدميه، ثم يكرر هذه العملية التى لا تكاد تستغرق نصف دقيقة.

ولم يبصرنا الغواص لأن ظل الصخرة حجبنا عنه، وفوق هذا كيف يتسنى لهندى مسكين أن يتصور وجود رجال أمثاله تحت سطح الماء يراقبون حركاته، ولا يغفلون عن شىء من عمله.

وصعد الرجل ثم غاص مرات عديدة ولم يكن يحصل فى كل غطسة على أكثر من عشر محارات إذ كان مضطرًا إلى انتزاعها من الشاطئ الذى شدت إليه بأنسجتها القوية. ترى كم واحدة من هذه المحارات التى يقامر من أجلها بحياته تحتوى على اللؤلؤ.

وجعلت أراقبه بانتباه شديد. فرأيته يقوم بالعمل فى انتظام آلى. ولم يبد ثمة خطر يتهدده مدى نصف ساعة حتى استهوانى هذا المشهد الممتع لصيد اللؤلؤ. ولكنى لم ألبث أن فوجئت أثناء ركوع الصياد لجمع المحار برؤيته وهو يأتى بحركة تنم عن الفزع، وما لبث أن نهض ووثب للوصول إلى سطح الماء.

وأدركت سر خوفه حين رأيت ظلاً ضخمًا يبدو فوق الغواص التعس. كان ظل نمر بحرى هائل «قرش» يقترب متحفزًا بعينين كالنار. وبفكين مفتوحين. ووقفت لا أريم وقد انعقد لسانى من فرط الرعب.

كان الوحش الرهيب يندفع بضربة من زعنفته نحو الهندى الذى ارتمى على جانبه متحاشياً أسنان النمر، ولكن لم يستطع النجاة من ذيله الذى طرحه بضربة فوق صدره على الأرض.

لم يستغرق هذا المشهد سوى ثوان معدودات استدار النمر بعدها إلى تكرار الهجوم. ثم انقلب على ظهره استعدادًا لقصم الغواص شطرين وإذ ذاك شعرت بالربان نيمو وكان قريبًا منى ينهض فجأة والخنجر بيده ويتقدم رأسًا إلى الوحش للالتحام معه وجهًا لوجه.

وفى اللحظة التى أوشك النمر فيها أن يقصم الغواص المسكين لمح ذلك الغريم الجديد فاسترد وضعه الطبيعى، واتجه نحوه سريعًا.

وما زلت حتى اليوم أذكر صورة الربان نيمو فى تلك اللحظة الحاسمة.. كان واقفًا فى شموخ وبرود ينتظر النمر المهاجم. فلما اندفع إليه راغ الربان بخفة رائعة متفاديًا الصدمة. ثم طعن بطن الوحش بخنجره، ولم تكن هذه هى النهاية لأن معركة مروعة دارت على الأثر. لقد اضطرم النمر غضبًا إن صح هذا التعبير، وتدفقت الدماء كالينابيع من جراحه فصبغت البحر باللون الأحمر. ولم أستطع فى ذلك السائل المعتم أن أرى شيئًا حتى صفا لونه قليلاً. وعندئذٍ أبصرت الربان الباسل ممسكًا بإحدى زعانف النمر البحرى وهو يصرعه بقوة ويمزق جسمه بطعنات من خنجره. دون أن يستطيع الوصول إلى قلبه حيث تكون الطعنات قاتلة. وكان الوحش فى صراعه قد أثار دوامات من الماء حتى لقد خشيت أن تلقى بى على الأرض.

وأردت أن أخف لنجاة الربان. ولكنى وجدت نفسى مسمرًا فى مكانى لفرط الفزع.

وأخذت أراقب المشهد بنظرات زائغة. ولم ألبث أن رأيت وجه المعركة يتغير عندما وقع الربان على الأرض بسبب عنف حركات الوحش الضخم الثائر. ثم إذا الأشداق الرهيبة تتفتح وخيل إلىّ أن الربان قد انتهى لولا سرعة بديهة نيدلاند الذى اندفع إلى الوحش والحربة فى يده. فطعنه بسنها الفتاك، وسرعان ما

اصطبغت الأمواج بالدماء، واصطخبت تحت ضربات الوحش الذى كان يلطمها فى هياج يجل عن الوصف، ولم يخطئ نيدلاند إصابة الهدف فكانت ضربته هى القاضية، ذلك أن الإصابة جاءت هذه المرة فى القلب وجعلت حركات الوحش أقرب إلى تقلصات الموت. ومع ذلك فقد ألقت حركة منها بكونسايل على الأرض.

هكذا أنقذ نيدلاند الربان الذى نهض سالما وأسرع إلى الغواص الهندى فقطع بسرعة بالغة الحبال التى تربطه بالحجر وحمله بين ذراعيه، واندفع إلى سطح الماء ونحن الثلاثة فى إثره بعد أن نجونا بمعجزة، ثم وصلنا إلى زورق الغواص.

وركز الربان نيمو عنايته أولاً لإعادة الغواص البائس إلى الحياة. ولم أستطع أن أعرف هل سينجح فى محاولته، ولكنى كنت أرجو هذا، لأن الرجل لم يمكث تحت سطح الماء فترة طويلة. ولكن كان يحتمل أن تكون الضربة التى أصابته من ذيل الوحش قد قضت عليه. ومن حسن الحظ أنى رأيت الغريق يسترد وعيه بفضل تدليك الربان وكونسايل له بقوة. ففتح عينيه. وشد ما كان عجبه بل فزعه وهو يرى هذه الرءوس النحاسية الأربعة منحنية فوقه. ولا شك أن إحساسه هذا قد تضاعف عندما تناول الربان نيمو من جيبه كيسًا من اللآلئ ووضعه فى يد الرجل. وقُبِلَتْ هذه الهدية الرائعة المقدمة من ملك البحر لرجل فقير من سكان سيلان بيد مرتعدة. وكانت نظراته الخائفة تدل على أنه لا يعرف إلى أى نوع من الكائنات البشرية السامية هو مدين بحياته وثرائه.

وعدنا بإشارة من الربان إلى شاطئ اللؤلؤ. ومنه سرنا فى نفس الطريق عائدين إلى قاربنا فوصلنا إليه فى نصف ساعة.

وما أن صعدنا إليه حتى ساعدنا بحَّارة الغواصة الخمسة على خلع ملابس الغوص. وكانت أول كلمات الربان نيمو موجهة إلى نيدلاند. إذ قال له:

- شكرًا يا لاند..

- هذه هى طريقتى فى الاعتراف بالجميل وكنت مدينًا لك يا كابتن.

فارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الربان. ولم يزد عن قوله:

- إلى الغواصة.

وطار الزورق على سطح الماء. وبعد دقائق صادفنا جثة نمر البحر طافية فوق الماء.

وعـرفت من اللون الأسـود الذى يبـدو فى أطراف زعـانفـه أنه من نـوع نمور البحـر الوحشـية المعروفة فى البحـار الهندية باسـم «ميـلانويـتر» ويبلغ طول هذا النوع أكثر من خمسة وعشرين قدمًا، ويحتل فمه الضخم نحو ثلث جسمه. وكان هذا النمـر بالـغًـا. يدل على ذلك صفوف أسنانه الستة النـابتة فى شدقه الأعلى على هيئة مثلث متساوى الأضلاع.

وفيمـا أنا أتأمل هـذه الكتلة الجامدة إذا بنحو عشـرة من زمـلائه تظهـر فجـأة حول الزورق ولكنها لم تحفل بنا. وإنما انقضت على جثة زميلها وأخذت تتسابق فى نهشها.

وعدنا إلى الغواصة فى الساعة الثامنة والنصف صباحًا.

وهناك جعلت أفكر فى أحداث رحلتنا هذه إلى شاطئ مانار، وكان طبيعيًا أن ينتـهى تفكيرى إلى مـلاحظتين. الأولى بسـالة الريان نيـمـو الفـائقـة والثـانيـة مخاطرته بحياته لإنقاذ حياة رجل آخر.. رجل يمثل الجنس البشرى الذى يهرب الريان منه فى أعماق البحار. ومهما يكن دفاعه عن نفسه فإنه لم يستطع أن يقتل قلبه تمامًا.

ولما عبرت له عن رأيى هذا أجابنى فى صوت لم يخل من تأثر يسير:

- إن هذا الهندى يا بروفسور أحد سكان بلاد مضطهدة، وقد كنت وسأظل حتى آخر لحظة من حياتى واحدًا من هؤلاء المضطهدين.

الفصل الثامن والعشرون

البحـــر الأحمـــر

اختفت جزيرة سيلان وراء الأفق خلال هذا اليوم. وظلت الغواصة نوتيليوس تنساب بسرعة عشرين ميلاً فى الساعة بين شبكة القنوات التى تفصل بين جزائر مالديث وجزائر لأكسادفيد.

وعندما صعدت الغواصة إلى سطح المحيط فى اليوم التالى، وكان يوافق الثلاثين من شهر يناير، لم يكن ثمة أثر لليابسة على مدى البصر، وكانت وجهتها شطر الشمال الغربى إلى بحر عمان الواقع بين بلاد العرب وشبه الجزيرة الهندية، وفيه ينساب تيار الخليج الفارسى.

وكان واضحًا أن هذا البحر بلا مخرج من الناحية الأخرى، فإلى أين يمضى بنا الربان نيمو. لم أستطع أن أعرف. وغلب الفضول على نيدلاند فسألنى فى ذلك اليوم عن وجهتنا فقلت له:

- إننا نمضى إلى حيث يشاء الربان يا نيد.

- لن نذهب بعيدًا. فليس للخليج الفارسى مخرج من الناحية الأخرى إذا دخلنا فلن نلبث أن نعود منه..

- حسنًا. لابد من هذا يا نيدلاند. وإذا أراد الربان بعد زيارتنا للخليج الفارسى، أن نطرق البحر الأحمر، فهناك مضايق باب المندب نجتازها إليه.

فقال نيدلاند:

ـ لست بحاجة إلى القول يا سيدى إن البحر الأحمر مغلق كالخليج لأن قناة السويس لم يتم حفرها بعد وحتى لو تم ذلك فإن غواصة عجيبة كهذه لا تستطيع أن تغامر فى هذه الممرات المائية الممتلئة بالسدود؛ وإذًا فإن البحر الأحمر ليس حتى اليوم هو الطريق إلى أوربا.

ـ لم أقل إننا نقصد أوربا.

ـ إذًا ما رأيك؟

ـ رأيى أن الغواصة بعد زيارتها لشواطئ مصر وبلاد العرب ستعود مرة أخرى إلى المحيط الهندى إما عن طريق قناة موزمبيق أو عن طريق جزائر كومورومكى حيث تصل إلى رأس الرجاء الصالح.

فقال نيدلاند فى إصرار عجيب:

ـ وماذا بعد رأس الرجاء الصالح؟

ـ حسنًا. سنمضى بعدئذٍ إلى المحيط الأطلنطى الذى لم نتعرف عليه بعد عجبًا لك يا نيد. هل سئمت هذه الرحلة تحت سطح الماء؟. هل ضقت بكثرة ما رأيت من عجائب الأعماق؟ أنا شخصيًا سيكون أسفى لا حد له إذا انتهت هذه الرحلة التى لم يستمتع بمثلها إلا القليل.

ـ ولكن .. هل تعرف يا مسيو أروناكس أننا سنتم قريبًا ثلاثة أشهر ونحن سجناء فى هذه الغواصة!.

ـ لا يا نيد. لا أعرف. ولا أريد أن أعرف. أنا لا أحصى الأيام أو الساعات.

ـ ولكن . كيف ستنتهى هذه الرحلة؟

ـ ستأتى النهاية فى وقتها المناسب. وفوق هذا فليس فى مقدورنا أن نفعل شيئًا، وإذن فلا جدوى من هذا الجدل، ولو أنك جئتنى وقلت لى: «هناك فرصة للهرب» لتشاورت معك فى الأمر. ولكن هذا لم يحدث وإن شئت الحقيقة، فلست أعتقد أن الربان نيمو سيغامر يوما بدخول البحار الأوربية.

وتبين من هذا الحوار القصير أننى أصبحت شديد التعلق بالغواصة مثل صاحبها الربان نيمو.

أما نيدلاند فقد اختتم المحادثة بهذه الكلمات التى فاه بها كأنما يحدث نفسه:

- كل هذا حسن جدًا. ولكنى أرى أنه حيث تبدأ المتاعب تنتهى المباهج.

وظلت الغواصة أربعة أيام. حتى الثالث من شهر فبراير وهى تسير فى خليج عمان، فى أعماق مختلفة وبسرعة متفاوتة. وكان يبدو أنها تمضى على غير هدى وكأنما هى تتردد فى اختيار الطريق الذى تسلكه ولكنها لم تتجاوز أبدًا مدار السرطان.

وعند مغادرتنا لبحر عمان. رأينا فى لمحة سريعة مدينة مسقط. وهى أهم المدن فى إمارة عمان، وقد أعجبت بوضعها القريب بين الجبال الصخرية السوداء أو المحيطة بها والتى تزيد من مضاعفة بياض منازلها وقلاعها. ولمحت القباب المستديرة لمساجدها والمآذن الرشيقة والهضاب الخضراء النضرة، ولكنها كانت لمحة عابرة غاصت بعدها نوتيليوس تحت مياه شواطئها الهادئة.

ودارت الغواصة على مسافة ستة أميال حول الشواطئ العربية حيث رأينا سلطنة حضرموت بسلسلة جبالها المتعرجة وأبنيتها الأثرية. وفى اليوم الخامس من فبراير دخلنا أخيرًا خليج عدن وهو كنفق مستقيم فى عنق زجاجة باب المندب تتدفق منه مياه المحيط الهندى إلى البحر الأحمر.

وفى اليوم السادس من شهر فبراير كانت الغواصة تسير على مرمى البصر من مدينة عدن التى تربض على مرتفع مثل جبل طارق. وكان الإنجليز قد أعادوا تحصينها بعد استيلائهم عليها عام ١٨٣٩. وقد استطعت أن ألمح المآذن العظيمة المثمنة الزوايا فى هذه المدينة التى كانت من قبل أوفر المدن التجارية ثراء على هذا الشاطئ طبقًا لما أورده الإدريسى المؤرخ.

وكان قد دار بذهنى أن الربان نيمو حين يصل إلى هذه النقطة سيقفل عائدًا ولكنى أخطأت الظن فإنه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل. مما أثار دهشتى.

وفى اليوم التالى السابع من شهر فبراير دخلنا مضيق باب المندب ومعناه «بوابة الدموع» باللغة العربية. ويبلغ اتساع المضيق عشرين ميلاً. وطوله ثلاثين ميلا فقط أى أن الغواصة تستطيع بأقصى سرعتها أن تقطعه فى ساعة واحدة. ولكنى لم أتمكن من رؤية اليابسة ولا جزيرة بريم أيضًا التى استغلتها الحكومة الإنجليزية فى تحصين موقع عدن. فقد كانت السفن الإنجليزية والفرنسية التى تبحر بين السويس وكلكتا وبومباى وملبورن وبوربون وموريس، تشق طريقها بكثرة فى هذه المضايق، وهكذا لم تجسر الغواصة على الظهور فوق سطح الماء بل آثرت جانب الحكمة وبقيت على عمق مناسب وأخيرًا كنا نمخر عباب البحر الأحمر ظهرًا.

إنه البحر الأحمر أو البحيرة المشهورة فى الأقاصيص الدينية، الذى قلما تهطل عليه الأمطار أو يرويه نهر كبير بل يتعرض لعوامل التبخر المائى بلا انقطاع. بحيث يفقد فى كل عام طبقة مائية قدرها نحو ياردة ونصف ياردة إنه خليج فريد فى نوعه لو أغلقت منافذه لأصبح بحيرة لا يلبث ماؤها أن يجف على مر السنين، وهو من هذه الناحية أقل من الخلجان القريبة منه التى يتوازن نسبة تبخيرها مع نسبة المياه التى تصب فيها مثل بحر قزوين.

ويبلغ طول البحر الأحمر ستمائة كيلو متر فقط وعرضه ٢٤٠ كيلومترًا. وقد كان فى عهد البطالسة وأباطرة الرومان من أعظم شرايين التجارة فى العالم وسيعيد إليه حفر قناة السويس مجده القديم، وإن لم أحاول معرفة السبب الذى حدا بالربان نيمو لاجتياز هذا البحر. ولكنى كنت فى قرارة نفسى راضيًا عن دخول الغواصة فيه. وكانت تنساب بسرعة معتدلة، أحيانا فوق السطح، وأحيانًا فى الأعماق لاجتناب السفن، وهكذا أتيح لى رؤية هذا البحر باطنًا وظاهرًا.

وفى فجر اليوم الثانى من شهر فبراير، لاحت مدينة «مُخا» وهى الآن خرائب أثرية تتهاوى جدرانها حتى بتأثير دوى المدافع، ولكن أشجار النخيل كانت تبدو هنا وهناك بين خرائبها، وكانت من قبل مدينة مهمة، بها ستة أسواق عامة، و٢٦ مسجدًا، و١٤ قلعة كانت جدرانها تكوّن حزامًا بديعًا طوله ثلاثة كيلو مترات.

واقتربت الغواصة عندئذ من الشاطئ الإفريقى الذى يزداد فى عمق البحر، وأتيح لنا فى هذه المياه التى تبدو فى صفاء البلّور، أن نتأمل من النوافذ الزجاجية الغابات المرجانية اللألاءة والصخور الضخمة المكسوة بفراء فاخر من الطحالب وأعشاب البحر.

يا لتلك المشاهد التى تجل عن الوصف، وياللتنوع المعالم والجزائر البركانية والحواجز المرجانية فى هذه الشواطئ الإفريقية. ولكن أبهى أنواع المتحجرات المائية كانت تبدو على الشواطئ الشرقية. وأعنى بها شواطئ تهاما حيث تزدهر الأعشاب البحرية، وتبدو كالشرفات الواسعة تحت سطح الماء، وكالضفاف الجميلة الفاتنة التى ترتفع فوق السطح بنحو عشرين ياردة. وهى وإن كانت بديعة إلا أنها ليست فى بهاء الألوان التى تحفظ المياه رونقها ونضارتها تحت السطح.

إنها لساعات رائعة تلك التى أمضيتها أمام النوافذ البلّورية فى الصالون، وإنها لأنواع جديدة عجيبة من الحيوانات والنباتات المائية تلك التى بهرت أنظارى فى ضوء مصباحنا الكهربائى المتألق. وقد رأيت بينها ألوانًا من الفطريات والطحالب والقواقع التى تشبه المزامير، وكأنما هى فى انتظار أنفاس الآلهة لتترنم. ولا فقاريات غريبة عن هذا البحر تستقر فى تجاويف محاريه، تتحول قواعدها مع الزمن إلى أشكال حلزونية، وأخيرًا آلاف الأنواع من الشعبيات المائية التى لم أر مثلها من قبل وأعنى بها: الإسفنج العادى.

إن مرتبة الإسفنجيات، وهى المجموعة الأولى من الشعبيات تتكون على وجه التحديد من هذا النتاج العجيب الذى لا جدال فى منافعه، وأعنى به الإسفنج، ليس من فصيلة النبات كما لا يزال يعتقد بعض العلماء، وإنما هو حيوان من أدنى المراتب.. أقل مرتبة من الدويبات التى تتكون منها الشعب المرجانية، وليس هناك شك فى حيوانيته، ويمكننا أن نعترف برأى القدماء الذين كانوا ينظرون إليه على أن مرتبته بين النبات والحيوان، ويجدر بى على كل حال - أن أقول إن علماء الطبيعة لم يتفقوا بعد على طبيعة تكوين الإسفنج فهو فى نظر البعض من الشعبيات، وفى نظر البعض الآخر كالعالم (ميلين أواردز) حيوان مفرد فريد فى طبيعته.

وتحتوى مرتبة الإسفنجيات على ثلاثمائة نوع. موزعة على مختلف البحار وبعض الأنهار التى تسمى فيها باسم «سليات»، ولكن المياه التى تفصلها عن غيرها هى مياه البحر الأبيض المتوسط وأرخبيل اليونان وسواحل سوريا ومياه البحر الأحمر. وتنتج هذه المناطق الإسفنج الناعم الرقيق الذى يساوى الرطل منه أحيانا خمسة جنيهات، والإسفنج الأشقر السورى والإسفنج الصلب الخشن.. ولم لم يكن فى مقدورى أن أدرس هذه الإسفنجيات فى سواحل البحر الأبيض التى يفصلنا عنها برزخ السويس، فقد قنعت بملاحظاتها فى البحر الأحمر.

ومن ثم فقد استدعيت كونسايل حين كانت الغواصة التى تسير فى بطء تجاه الساحل الشرقى ذى الصخور الجميلة على عمق يناهز عشر ياردات.

هنا رأيت الإسفنج ناميًا فى مختلف الأشكال.. فهو حينًا فى شكل الحشرات أو الزهور وحينًا فى أشكال كروية أو أصبعية. ومن ثم تنطبق عليها هذه الأسماء، السلة، الكأس، المغزل، قرن الوعل، مخلب السبع، ذيل الطاووس، قفاز نبتون، وهذه الأسماء يطلقها الغواصون الأكثر شاعرية من العلماء. وكانت تنساب فى غير انقطاع من بين أنسجتها الليفية المكسوة بمادة نصف هلامية، خيوط مائية هى التى تحمل الغذاء والحياة إلى كل خلية، ثم تطرد إلى الخارج بفعل الحركات الانقباضية فى الإسفنج.

وتختفى المادة الداخلية بعد موت الدويبات المكونة للإسفنج، وذلك بعد أن تتعفن وتتحول إلى أملاح النوشادر. ولا يتبقى بعد هذا إلا الأنسجة الليفية الهلامية المركبة من الإسفنج العادى الذى يصبح مائلاً للاحمرار والذى يستخدم فى مختلف الأغراض طبقًا لدرجة مرونته، وطراوته أو مقاومته للتعفن.

هذه الشعبيات الدقيقة تلتصق بالصخور أو بمحار اللافقاريات بل وفى سيقان النباتات المائية، وهى تنمو بأقل كمية من الغذاء، وبعضها يتشعب وينتشر وبعضها ينمو فى وضع أفقى وبعضها الآخر يتدلى كالزوائد المرجانية، وقد أخبرت كونسايل أن هذه الإسفنجات تؤخذ بطريقتين: إما بالخطاطيف أو بالأيدى وأفضلهما الطريقة الثانية التى تستلزم باستخدام الغواصين لأنها تتيح للغواص حرية اختيار أنضج وأنقى أنواع الإسفنج.

أما الشعبيات والدويبات الأخرى التى تتكاثر حول الإسفنج فتكون على الأرجح من لافقاريات تمتاز بالمرونة ومن زواحف مائية كان بعضها يزودنا بصحاف من الطعام الشهى.

أما عن الأسماك فهى كثيرة، وبعضها ممتاز جدًا. وكانت الأسماك التى جاءتنا بها شباك الغواصة يتكون أكثرها من نوع السفن ذى اللون الطوبى والشكل البيضوى والجسم المرقط بالنقط الزرقاء، والتى تعرف بأسنانها الشائكة المزدوجة، ومن أسماك الكارناك ذات الأظهر النصفية والباستناك ذات الذيول المرقطة والبوكات التى يبلغ طولها ياردتان، والأيوون الخالية تمامًا من الأسنان وهى ذات قوام غضروفى مثل سمك كلب البحر، وسمك الهجين الصدفى الذى ينتهى سنامه بانحناءة طولها قدم ونصف قدم، وثعابين الماء على أنواع مختلفة، منها الفضى الذيل، والأزرق الظهر، والبنى الصدر بأطراف رمادية. وأسماك الفراتول وهى من أنواع لاستروماتيا المقلمة بخطوط ذهبية ضيقة، والمزينة بألوان العلم الفرنسى الثلاث الأبيض والأحمر والأسود. وأسماك الكرانكس الفاخرة المحلاة كل منها بسبعة شرائط زرقاء قاتمة مستعرضة وزعانف ذهبية وزرقاء وقشور فى لون الفضة أو الذهب، والبريونى ذى الرأس الأصفر وآلاف غيرها من أنواع السمك المعروفة فى البحار التى سبق أن خضناها.

وفى اليوم التاسع من شهر فبراير كانت الغواصة تبحر فى المنطقة الواسعة من البحر الأحمر الواقعة بين سواكن الساحل الغربى وجيونفوده على الساحل الشرقى وهى منطقة يبلغ اتساعها مائة وتسعين ميلاً.

وفى ظهر ذلك اليوم وبعد تحديد موقع الغواصة، صعد الريان إلى السطح حيث تصادف وجودى، وقد آليت على نفسى ألا أدعه يهبط دون أن أحاول معرفة أهدافه المقبلة على الأقل، وما أن أبصرنى حتى تقدم نحوى. وقدم لى سيجارة وهو يقول:

ـ حسنًا يا بروفسور. هل أعجبك البحر الأحمر؟ هل دققت النظر إلى ما يحتويه من عجائب أسماكه وقواقعه، ومراقد الإسفنج فيه، وغاباته المرجانية وهل رأيت مدنه الساحلية؟

ـ نعم يا كابتن .. وقد ساعدتنى الغواصة كثيرًا فى دراستى . آه... إنها سفينة علمية.

ـ أجل.. سفينة علمية.. عاقلة. باسلة.. لا تهاب عواصف البحر الأحمر المخيفة، ولا تياراته العنيفة ولا حواجزه المرجانية.

ـ الواقع أن هذا البحر من أسوأ البحار فى تقلباته ، كانت له على مدار التاريخ إذا لم أكن مخطئًا شهرة بغيضة.

ـ بغيضة يا مسيو أروناكس؟ إن المؤرخين الإغريق لم يختصوه بالثناء حقا. وقد قال عنه سترابو إنه بحر عنيف خصوصًا الرياح الموسمية والأمطار الغزيرة، ويذكر لنا الإدريسى المؤرخ العربى الذى أطلق عليه اسم بحر القلزم، أن السفن كانت تهلك زرافات على شواطئه الرملية، وأن أحدًا لم يكن يجرؤ على الإبحار فيه ليلاً. ويقول أيضًا إنه بحر معرض للعواصف الرهيبة ومفعم بالجزر الخطرة، وإن هذا كله يجعله بلا خير فى أعماقه أو على سطحه. وتلك هى أيضًا آراء المؤرخين إريانوس وأجاتاركيدس وأرتميدراس.

فقلت:

ـ ولكن هؤلاء المؤرخين لم يشاهدوا هذا البحر من غواصة كهذه.

فقال الريان وهو يبتسم:

ـ نعم .. وفى هذا الشأن يتساوى المؤرخون المصريون مع القدماء. فقد مرت قرون عديدة قبل أن تكتشف الطاقة الآلية فى البخار. فمن يدرى أن مائة عام أخرى قد تمضى قبل أن يعرف العالم غواصة أخرى كهذه. إن تقدم العلم بطىء يا مسيو أروناكس.

ـ نعم. هذه هى حقيقة، فإن غواصتنا تسبق عصرها بقرن، وربما بعدة قرون. وإنه لمن أسوأ الأمور أن يموت سرها مع مخترعها.

فلم يجب الريان نيمو. ولكنه قال بعد فترة:

ـ أكنت تتحدث عن آراء قدامى المؤرخين بصدد مخاطر الملاحة فى البحر الأحمر؟

ـ نعم ولكن يا مسيو أروناكس. إن الخطر الذى لا يهدد الآن سفينة عصرية كاملة الإعداد قوية البناء متحكمة فى الاتجاه بفضل طواعية البخار، كان يهدد السفن القديمة بألوان من المخاطر المهلكة، ويجدر بنا أن نتخيل الملاحين القدامى وهم يغامرون بسفائنهم المصنوعة من ألواح خشبية مشدود بعضها إلى بعض بألياف النخيل، ومثبتة بالصمغ أو الراتنج، ومشحمة بدهن كلاب البحر. إنهم لم يكونوا مزودين حتى بالآلات الضرورية لتحديد أماكنهم، كما كانوا يسيرون مع التيارات التى لم يكونوا يعرفون عنها سوى القليل. وفى مثل ظروف كهذه لا بد أن تكثر حوادث غرق السفن. أما فى وقتنا الحالى فإن السفن البخارية التى تبحر فيما بين السويس والبحار الجنوبية لا تخشى شيئًا من مخاطر هذا البحر رغم الرياح الموسمية العكسية، وربابنها وركابها لا يستعدون للسفر عليها بتقديم القرابين، كما كان الحال فى الماضى ولم يعودوا بعد رجوعهم يتزينون بالأكاليل والأساور الذهبية وهم يقدمون صلاة الشكر فى معابد الآلهة القريبة.

ـ أعترف أن الآلة البخارية قتلت فى قلوب الملاحين عاطفة عرفان الجميل، ولكن يمكنك يا كابتن ـ وقد درست هذا البحر كما يبدو لى ـ أن تخبرنى بمنشأ هذه التسمية؟

ـ هناك عدة تفسيرات يا مسيو أروناكس. فهل تحب أن تعرف رأى أحد مؤرخى القرن الرابع عشر فى هذا الصدد؟

ـ نعم.

ـ رغم ذلك المؤرخ الخيالى أن هذا الاسم أطلق على البحر الأحمر بعد هرب بنى إسرائيل وغرق فرعون بين أمواجه.

ثم ردد الربان أربع شطرات شعرية تدعيمًا لأقواله.

فقلت :

ـ هذا تفسير شاعرى يا كابتن. ولن أقنع بهذا، ولابد أن أطلب رأيك الشخصى.

ـ رأيى يا مسيو أروناكس أن البحر الأحمر ترجمة للكلمة العبرية.

«أدردم» وأن القدماء أطلقوا عليه هذا الاسم بسبب لون مائه الغريب.

ـ ولكنى لا أرى الآن غير أمواج هادئة بلا ظلال لونية خاصة!

- بلا ريب، ولكن حين تتجه نحو الأعماق ستلاحظ ظاهرة غريبة وأذكر مرة أنى رأيت خليج الطور قانيًا كالدماء.

- وهل ترجع السبب فى هذا اللون إلى وجود جسيمات الألجيا الميكروسكوبية؟

- نعم.. إنها مادة حمراء هلامية تنتج من جسيمات نباتية وثيقة معروفة باسم (تريكوديسمز) وأربعون ألفًا منها لا تشغل أكثر من ٣٩٢٧ر٠ جزءًا من البوصة المربعة وربما نلتقى ببعضها عند وصولنا إلى الطور.

- إذًا فليست هذه أول مرة تجتاز فيها البحر الأحمر فى الغواصة نوتيليوس؟

- كلا يا سيدى !

- ما دمت قد تحدثت الآن عن عبور الإسرائيليين للبحر وغرق فرعون وجيشه، فهل يمكن أن أعرف إن كنت وجدت آثارًا لهذا الحدث التاريخى تحت الماء؟

- لا يا بروفسور. وذلك لسبب وجيه.

- أى سبب؟

- لأن الموضع الذى اجتازه النبى موسى بقومه ممتلئ الآن بالرمال بحيث لا يرتفع الماء إلى مستوى مواطئ أقدام الجمال، ومعنى هذا أن الغواصة لا تجد فيه كفايتها من الماء هناك.

- وأين هذا الموضع؟

- إنه يقع بعد السويس بقليل.. فى ذلك الذراع الذى كان يكون هذا الخور العميق عندما كان البحر الأحمر متصلاً بالبحر الميت. وأيًا كان الأمر فقد تم عبور بنى إسرائيل فعلاً وهلاك جيش فرعون فى نفس المكان، وأعتقد أنه لو تمت عمليات الحفر والتنقيب فى ذلك الموضع لأمكن العثور على آلات وأسلحة من أصل مصرى قديم.

فقلت:

- هذا محتمل. والمأمول لفائدة علماء الآثار أن تتم هذه الحفريات عاجلاً أو آجلا عندما تقام المدن الجديدة على برزخ السويس بعد حفر قناته.. وهى قناة لن تكون ذات نفع للغواصة.

فراح الريان نيمو يقول:

- نعم. ولكنها ستكون عظيمة النفع للعالم كله. وكان الناس فى العهود القديمة قد فطنوا إلى الفوائد التى تعود على تجارتهم من وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض، ولكن لم يحلموا بإمكان حفر قناة مستقيمة بينهما، وإنما اتخذوا نهر النيل واسطة لربطهما معًا، ويحتمل جدًا أن تكون القناة التى ربطت النيل بالبحر الأحمر قد بدأت عند مدينة سيزستريس. والمؤكد أن الملك نيفوس تولى فى عام ٦١٥ قبل الميلاد إنشاء قناة تغذيها مياه النيل عبر الوادى المصرى المواجه لبلاد العرب. وكان اجتياز القناة يتم فى أربعة أيام، وكان عرضها يكفى لمرور سفينتين كبيرتين جنبًا إلى جنب، وقد استمر إنشاء القناة فى عهد الملك داريوس وربما أتمها بطليموس الثانى، وقد رآها المؤرخ سترابو وهى تؤدى مهمتها فى خدمة الملاحة البحرية، ولكن ضعف انحدارها من نقطة البدء بالقرب من مدينة بوباست إلى البحر الأحمر جعلها صالحة للملاحة بضعة شهور فى العام فقط. وظلت هذه القناة بضعة قرون مستغلة لخدمة التجارة، ثم أهملت وامتلأت بالرمال، ثم أعيد إنشاؤها بأمر الخليفة عمر، ثم تم ردمها عام ٧٦١ و ٧٦٢ بأمر الخليفة المنصور الذى أراد منع وصول المدد إلى محمد بن عبدالله الذى أعلن الثورة عليه. وقد عثر على آثار هذه القناة فى صحراء السويس أثناء الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت الذى كاد يغرق ومن معه عندما فاجأه المد قبل وصوله بساعات قليلة إلى مدينة حضرموت. أى نفس المكان الذى عسكر فيه النبى موسى قبل ٣٣٠٠ عام.

- حسنًا يا كابتن. إن ما لم يجرؤ عليه القدماء من ربط البحرين واختصار المسافة آلاف الأميال بين قاوش وجزر الهند الشرقية - قد اضطلع به المحدثون ولن يمضى زمن طويل حتى تصبح القارة الإفريقية جزيرة هائلة.

ثم استطرد الريان نيمو قائلاً:

- من سوء الحظ أنى لن أستطيع أن أمضى بك خلال القناة.. ولكنك سترى أرصفة ميناء بورسعيد عندما نصل إلى البحر الأبيض المتوسط.

فهتفت قائلاً:

- البحر الأبيض المتوسط؟

- نعم يا بروفسور. أيدهشك هذا؟

- إن ما يدهشنى هو أن تكون هناك بعد غدٍ.

- أحقًا؟.

- نعم يا كابتن. وإن كان علىَّ أن أعتاد البعد عن كل دهشة ما دمت فى هذه الغواصة.

- لكن فيم دهشتك الآن؟

- للسرعة الرهيبة التى ينبغى أن تبحر بها الغواصة إذا أرادت الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط بعد غدٍ، بعد أن تدور حول أفريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

- ومن قال يا بروفسور إن الغواصة ستدور حول إفريقيا أو إنها ستتخذ طريق رأس الرجاء الصالح؟

- إلا إذا كنت ستسير على الأرض وتجتاز برزخ السويس..

- أو تمرق من تحته يا سيد أروناكس.

- من تحته؟!

فقال الريان بهدوء:

- بالتأكيد لقد مضت أحقاب طويلة منذ أن أتمت الطبيعة مهمتها تحت هذا اللسان الأرضى الذى يحاول الإنسان أن يحفره فوق السطح...

- ماذا؟! أوجد ممر مائى تحت البرزخ؟!

- نعم.. ممر مائى تحت الأرض أطلقت عليه اسم «نفق إبراهيم» إنه يبدأ من السويس وينتهى عند خليج المنزلة.

- ولكن البرزخ ليس إلا رمالاً متحركة.

- إلى عمق معين فقط.. ولكن هناك طبقة صخرية على عمق خمسين ياردة.

فقلت وقد تزايدت دهشتى :

- وهل اكتشفت هذا النفق المائى بطريق المصادفة؟

- بالمصادفة والتفكير المنطقى يا بروفسور.. بل لعل التفكير أغلب من المصادفة.

- إنى أسمعك يا كابتن ولكن أذنى تأبيان ما تسمعان.

- آه يا سيدى. هذه طبيعة الإنسان الذى يأبى أن يصدق إلا ما ترى عيناه. إن هذا النفق ليس موجودًا فحسب بل إنى مررت فيه بضع مرات، ولولا هذا لما جرؤت اليوم على دخول البحر الأحمر.

- وهل أتجاوز الحدود إن سألتك كيف اكتشفت هذه النفق؟

- سيدى. ليس هناك سر بين أناس لن يفترق أحدهم عن الآخر مدى الحياة..

ولم أحفل بدلالة هذا المعنى، وانتظرت إجابة الريان الذى جعل يقول:

- إن التفكير المنطقى للعالم الطبيعى هو ما هدانى إلى اكتشاف هذا النفق الذى لا يعرف سواى شيئًا عنه. فقد لاحظت فى البحر الأحمر وفى البحر الأبيض المتوسط وجود أسماك معينة من نوع واحد، كالثعابين والنياتول والجبريل والأكسوسيتى أو (الطيار) ولما تأكدت من هذه الحقيقة سألت نفسى هل يوجد اتصال بين البحرين؟ فإن وجد، فإن التيارات التحتية لابد أن تتدفق من البحر الأحمر إلى البحر الأبيض لاختلافات المستوى بينهما، ولهذا جمعت عددًا كبيرًا من الأسماك بالقرب من السويس، ووضعت فى ذيولها حلقات نحاسية وأعدتها إلى البحر، وبعد أشهر قليلة وكنت بالقرب من سواحل سوريا وقعت فى يدى أسماك من ذوات الحلقات النحاسية الآنفة الذكر. وهكذا تأكدت تمامًا من وجود وصلة بين البحرين. ولما بحثت عنها بالغواصة اكتشفتها وغامرت بالمرور فيها. ولن يمضى وقت طويل يا بروفسور حتى تمر أنت أيضًا فى هذا النفق العربى..

الفصل التاسع والعشرون

النفق العربى

فى ذلك اليوم أعدت على مسامع كونسايل ونيدلاند ما يهمهما من هذا الحديث. ولما ذكرت لهما أننا سنكون بعد يومين فى مياه البحر الأبيض صفق كونسايل طويلاً، ولكن نيدلاند هز كتفيه، وهتف قائلا:

- نفق مائى يصل بين البحرين؟ من سمع بمثل هذا من قبل؟

فأجابه كونسايل قائلا:

- يا صديقى نيد. هل سبق فى حياتك أن سمعت عن شىء كالغواصة نوتيليوس؟ لا. ومع ذلك فإنها موجودة ولهذا لا تهز كتفيك ببساطة ولا تسخر من الأشياء لأنك لم تسمع بها من قبل.

فهز نيدلاند رأسه وقال:

- سوف نرى على كل حال. أريد أن أومن بوجود نفق هذا الربان، وأسأل الله أن يؤدى بنا إلى البحر الأبيض المتوسط.

وفى غروب هذا اليوم انسابت الغواصة على سطح البحر شمالى خط العرض ٣٠,٢١٠ درجة، حتى اقتربت من شواطئ بلاد العرب حيث لاحت لنا مدينة جدة، وهى إحدى المدن التجارية المهمة لمصر وسوريا وتركيا والهند، واستطعت أن أتبين مبانيها بوضوح، والسفن الراسية بمينائها، وسفناً أخرى اضطرت للرسو على بعد يسير من الميناء، وكانت الشمس الغاربة عند الأفق ترسل أشعتها على منازل

المدينة فتكشف بياضها.. وفى خارجها شاهدت أكواخًا من الخشب والغاب التى يقيم فيها أعراب البادية.

وسرعان ما اختفت جدة فى ظلال المساء، وبدأت الغواصة فى الهبوط إلى الماء المتلألئ بلون فوسفورى خفيف.

وفى اليوم التالى، العاشر من شهر فبراير، رأينا عدة سفن مبحرة فى اتجاه الريح، واستمرت الغواصة فى سيرها تحت الماء حتى الظهيرة، ثم صعدت إلى السطح بعد تحديد الاتجاهات، وبعد الاطمئنان إلى خلو البحر من السفن مضيت مع كونسايل ونيدلاند إلى السطح حيث جلسنا، ولاحت لنا السواحل الشرقية يكسوها ضباب رطب.

وبينما كنا نتبادل الحديث فى مختلف الشئون ونحن مطلون من جانب الغواصة، إذ أشار نيدلاند إلى نقطة فى البحر وقال:

- هل ترى شيئًا هناك يا بروفسور؟

- لا يا نيد. ولكن عينى ليستا عينيك كما تعرف.

- انظر جيدًا. ألا ترى عند الخط المائى خلف الغواصة، على مستوى الكشاف الكهربائى، كتلة تتحرك؟

فقلت بعد أن دققت النظر:

- نعم. أرى جسمًا طويلاً: أسود على سطح الماء.

فقال كونسايل:

- أهى غواصة أخرى؟!

فأجاب نيدلاند:

- لا. وإذا لم يكن هذا نوعًا من الحيوانات البحرية، كنت مسرفًا فى الخطأ:

فسأله كونسايل:

- أتكثر الحيتان فى البحر الأحمر؟

فأجبته قائلاً:

- نعم يا بنى. إن هذا البحر لا يخلو من الحيتان.

فقال نيدلاند الذى لم يرفع بصره عن ذلك الجسم:

- إنه ليس حوتًا. فأنا والحيتان أصدقاء من قديم، ومن ثم لا يمكن أن أخطئ فى تمييزها.

فقال كونسايل:

- انتظر .إن الغواصة ذاهبة إليه. وسنعرف حقيقة الأمر بعد وقت غير بعيد.

وسرعان ما صار الجسم الطويل الأسود على مسافة تقل عن ميل منا. وقد بدا لنا كأنه صخرة كبيرة قائمة فى عرض البحر. ترى ما كُنه هذا الجسم؟ ذلك ما لم أستطع أن أتأكد منه.

وصاح نيدلاند قائلاً:

- آه.. إنه يتحرك، ويغطس، أى حيوان يمكن أن يكون؟ إنه حتى بلا ذيل شعبتين كالحيتان وزعانفه تبدو كالجذوع..

وقبل أن أعلق على حديثه، استطرد يقول:

- آه.. إنه على ظهره الآن.. إنه يرفع ثدييه فى الهواء..

فصاح كونسايل قائلاً:

- إنها حورية... حورية بحر حقيقية!.

وأثار اسم «الحورية» اهتمامى فقد كنت أعرف أن هذا الحيوان ينتمى إلى مرتبة الحيوانات البحرية التى تزعم الأساطير القديمة أنه نصف امرأة ونصف سمكة. وأخيرًا قلت لكونسايل:

لا.. إنها ليست حورية. وإنما هى حيوان عجيب لم يبق منه فى العالم إلا أنواع قليلة فى البحر الأحمر، إنها بقرة الماء.

فأخذ كونسايل فى سرد مرتبتها ونوعها وفصيلتها والمجموعة التى تنتمى إليها بحيث لم يترك قولاً لقائل.

وفى هذه الأثناء كان نيدلاند يدمن النظر بعينين تلمعان اشتهاء إلى هذه البقرة المائية وبدا لى أن يده تتأهب لضربها بالحربة. ومن يحسبه يراه فى انتظار اللحظة المناسبة لإلقاء نفسه فى الماء ومهاجمة هذا الحيوان فى عقر داره. وأخيرًا قال بصوت يتهدج تأثرًا:

- آه. إننى يا سيدى لم أقتل حيوانًا كهذا!

والحق أن هذه العبارة كانت تصور الصياد أبلغ تصوير.

وفى تلك اللحظة ظهر الربان على سطح الغواصة، ولمح بقرة الماء وأدرك إحساس نيدلاند، فقال له:

- إذا أمسكت حربة يا مستر لاند ألا تتحرق يدك إلى الصيد؟

- هو ذاك.

- ألا تأسف إذا عدت إلى مهنتك القديمة مرة أخرى وأضفت هذا الحيوان إلى قائمة صيدك؟

- لا. لن آسف.

- إذًا. يمكنك أن تحاول.

فقال نيدلاند بعينين تضطرمان:

- شكرًا يا سيدى.

فاستطرد الربان قائلاً:

- ولكن أنصحك. ألا تخطئ إصابة هذا الحيوان.

فقلت رغم أن نيدلاند هز كتفيه احتقارًا:

- هل ثمة خطر فى مهاجمة بقرة الماء؟

فأجاب الربان قائلاً:

- نعم. أحيانًا. فإن هذا الحيوان يكر على مهاجميه ويحطم زورقهم ولكن ليس ثمة ما يخشاه نيدلاند من هذه الناحية. فإن بصره حديد. ويده ثابتة، وإذا كنت

أوصيه ألا يخطئ الهدف فذلك لأن بقرة البحر صيد طيب وأنا أعرف أن نيدلاند يحب اللحم الطيب.

فقال نيدلاند:

- آه. إذًا فإن هذا الحيوان يسمح لنفسه برفاهية تكوين لحم طيب المذاق؟

نعم يا مستر لاند. إن لجسمه لحمًا طيبًا يحبه سكان الساحل الملاسى ويخصصونه لموائد الأمراء، وبلغ من الإقبال على صيد هذا الحيوان أنه أصبح وشيك الانقراض.

فقال كونسايل فى اهتمام:

- إذا كان هذا الحيوان يا سيدى الريان آخر واحد من نوعه ألا يجدر بنا أن نبقى عليه لفائدة العلم؟

فقال نيدلاند:

- ربما ولكن لفائدة بطوننا يحسن أن نصيده.

فقال الريان نيمو:

- لك ما تريد يا مستر نيدلاند..

وعندئذ أقبل إلى سطح الغواصة سبعة من البحَّارة فى صمت وسكون كعادتهم وقد حمل أحدهم حربة صيد مشدودة إلى حبل من النوع المستخدم فى صيد الحيتان. ورفع القارب الملحق بالغواصة من فجوته، وأنزل إلى الماء.... واتخذ ستة من الرجال أماكنهم فيه، وجلس عامل الدفة فى موضعه وجلست مع كونسايل فى المؤخرة. وقد قلت للريان:

- ألا ترافقنا يا كابتن؟

- لا يا سيدى.. ولكنى أرجو لكم كل توفيق.

وانطلق الزورق سريعًا بقوة المجاديف نحو بقرة الماء التى كانت تسبح على مسافة ميلين من الغواصة. حتى إذا أصبحنا على بعد بضع عشرة ياردة منها. خففنا سرعة الزورق، وراحت المجاديف تشق الماء الهادئ فى رفق. وانتقل

نيدلاند فى المقدمة وبيده الحربة، والمعروف أن حربة صيد الحيتان تكون مشدودة بحبل طويل ينبسط مع الحيوان الجريح وقد شد طرفه الآخر إلى برميل صغير يطفو على سطح الماء لتحديد مكان البقرة من الأعماق.

ولم ألبث أن نهضت أرقب غريم نيدلاند فإذا هو بقرة مائية بيضاوية الجسم، ذات ذيل طويل تنتهى زعانفها الجانبية بما يشبه المخالب، ويتسلح فكها الأعلى بصفين من الأسنان الحادة التى تكون خطى دفاع على الجانبين.

وكانت البقرة المائية التى يهم نيدلاند بصيدها من الحجم الكبير، لا يقل طولها من ثمان ياردات، ولم تكن تتحرك وكأنها نائمة على سطح الماء فى حالة تجعل صيدها سهلاً.

واقترب الزورق فى حذر حتى غدا على مسافة ثلاثين ياردة منها، وتوقفت حركة المجاذيف وأمسك نيدلاند حربته بيد الصياد البارع وقد شمخ بقامته مائلاً إلى الخلف متحفزًا.

وفجأة سمعنا صوتًا كالفحيح، وإذا بقرة الماء تختفى فى اللحظة التى قذف فيها نيدلاند بالحربة فخُيل إلىَّ أنها لم تضرب غير الماء، بينما صاح نيد لاند مهتاجًا:

- يا للشيطان لقد أخطأت الهدف.

فقلت :

- لا. إنها جرحت. وهذه دماؤها على الماء. ولكن الحربة لم تعلق بجسمها.

فصاح نيدلاند:

- حربتى! حربتى!

واستأنف البحَّارة التجديف بقوة، ووجه عامل الدفة الزورق شطر البرميل العائم، حتى إذا استرد نيدلاند حربته، عدنا إلى مطاردة البقرة.

وكانت تصعد إلى سطح الماء بين حين وآخر للتنفس. وبدا لنا أن الجرح لم يؤثر على قوتها إذ أنها كانت تبتعد بسرعة كبيرة. وجد الزورق خلفها بفضل

سواعد الملاحين القوية. واقترينا منها مرارًا، وكلما هم نيدلاند بقذف الحربة، كانت تروغ منه غائصة تحت سطح الماء بحيث يستحيل الوصول إليها.

ولك أن تتصور مدى غضب نيدلاند، وعنف العبارات التى انهال بها على البقرة.

واستمرت هذه المطاردة ساعة حتى بدأت أعتقد أننا لن نستطيع صيد البقرة. وفجأة بدا أن نزعة الانتقام تملكت هذا الحيوان لسوء حظه، فقد استدار نحو الزورق لمهاجمته بدوره.

ولم يغفل نيدلاند عن هذه المناورة إذ قال:

- انتبهوا.

فاه عامل الدفة ببضع كلمات بتلك اللغة المجهولة كان المراد منها ولا شك أن يأخذ رجاله حذرهم.

وتوقفت بقرة الماء على مسافة عشرين قدمًا من الزورق لملء رئتيها بالهواء عن طريق منخاريها القائمين فى أعلى حيزومها. ولم تلبث أن وثبت مندفعة نحونا.

ولم يستطع الزورق اجتناب الصدمة فكاد ينقلب، وغمره الماء كثيرًا حتى اضطررنا إلى نزحه. ولكنه ما لبث أن اعتدل بفضل براعة عامل الدفة. أما نيدلاند قد تشبث بمؤخرة الزورق وظل يطعن البقرة طعنات متوالية. وكانت قد غرست أسنانها فى حافة الزورق ورفعته إلى أعلى كما يرفع الأسد ظبيًا صغيرًا بين أنيابه حتى سقطنا بعضنا فوق بعض، ولا أدرى على أية صورة كانت تنتهى مغامرتنا. لو لم يستطع نيدلاند الذى استبد به الغضب أن يطعنها فى صميم القلب. ولم ألبث أن سمعت صرير أسنانها على حافة الزورق الحديدية، وإذا هى تغوص فى الماء آخذة الحربة معها، ولكن البرميل لم يلبث أن طفا ثانية على السطح، وبعد لحظات أخرى طفا جسم البقرة مقلوبًا على الظهر فاقترب الزورق منها وشدت إليه بحبل ثم عدنا إلى الغواصة.

واضطر الربان إلى استخدام رافعة قوية لرفع البقرة المائية إلى سطح الغواصة، إذ كان وزنها عشرة آلاف رطل. وتولوا تقطيعها أما نيدلاند الذى أراد

أن تتم العملية تحت إشرافه. وفى نفس اليوم قدم الخادم إلىَّ فى وجبة العشاء شرائح أعدها طاهى الغواصة ببراعة، فكانت تفوق فى طيب مذاقها لحم العجول، إن لم يكن لحم البقر.

وفى اليوم التالى، الحادى عشر من فبراير، أضيف إلى مخزن الغواصة مزيد من لحوم الصيد الشهية فقد حط عليها سرب من طيور خطاف البحر، وهى من نوع الطيور النيلية المعروفة فى مصر بمناقيرها السوداء ورءوسها الرمادية المرقطة، وعيونها المستديرة المحاطة بنقط بيضاء، وأجنحتها السوداء، وذيولها الرمادية، وبطونها وصدورها البيضاء، وسيقانها الحمراء. كما أمكننا صيد عشرات من البط النيلى، وهو طير برى شهى المذاق يتميز بعنق وظهر لونهما أبيض مرقط بنقط سوداء.

وكانت الغواصة تتقدم إذ ذاك بسرعة معتدلة، وقد لاحظت أن ملوحة مياه البحر الأحمر تقل تدريجيًا كلما اقتربنا من السويس.

وفى نحو الساعة الخامسة مساءً، لمحنا رأس محمد وهو الرأس الجغرافى الذى تنتهى عنده حدود بلاد العرب، ويقع بين خليج السويس وخليج العقبة. ثم دخلت الغواصة إلى مضيق جوبال المؤدى إلى خليج السويس. ورأيت بوضوح جبلا مرتفعًا بين الخليجين، وهو جبل حورب فى سيناء الذى كلم الله موسى عنده والذى يتخيله العقل وهو متوج دائمًا بأضواء البرق.

وفى الساعة السادسة مساءً اجتازت الغواصة وهى حينًا طافية وحينًا غائصة، جبل الطورالواقع على خليج تبدو مياهه حمراء اللون كما قال الربان نيمو. وأسدل الليل أستاره فى جو يخيم عليه الصمت العميق الذى لم يكن يقطعه سوى صياح طائر البليكان وغيره من طيور الليل، أو هدير الأمواج وهى تتكسر على الصخور،أو أنفاس سفينة بعيدة وهى تضرب الماء فى الخليج برفاصاتها الصاخبة.

وظلت الغواصة من الساعة الثامنة إلى التاسعة، وهى تحت السطح على عمق بضع ياردات وكنا عندئذ طبقًا لتقديراتى بالقرب من السويس. وكنت أرى من نوافذ الصالون البلورية الصخور تضيئها أنوارنا الكهربائية، وكان يبدو لى أن الخليج يزداد ضيقًا بالتدريج.

وفى الساعة التاسعة والربع، صعدت الغواصة إلى السطح، فخرجت إلى ظهرها وأنا مشوق للمرور داخل النفق المائى الذى حدثنا الريان عنه. وبقيت على السطح لا أكاد أستقر على حال وأنا أملأ صدرى بهواء الليل النقى.

وفجأة رأيت فى الظلام ضوءًا شاحبًا يشوبه الضباب على بعد ميل تقريبًا. وسمعت بجانبى صوتًا يقول:

- منارة.

فاستدرت ورأيت الريان نيمو بالقرب منى يتابع كلامه قائلاً:

- منارة السويس. ولن يطول بنا الوقت حتى نصل إلى مدخل النفق.

- إن دخول هذا النفق لن يكون سهلاً.

- نعم ولذلك اعتدت توجيه عجلة قيادة الغواصة بنفسى. والآن لعلك تهبط إلى الداخل يا مسيو أروناكس فسنغوص الآن، ولم نصعد إلى سطح الماء حتى نجتاز النفق العربى.

وتبعت الريان نيمو إلى داخل الغواصة، وأغلقت منافذها العليا بإحكام، وامتلأت مستودعاتها بالماء فهبطت إلى عمق ثلاثين قدمًا وبينما كنت أهم بدخول غرفتى استوقفنى الريان قائلاً:

- أتحب يا بروفسورأن تصحبنى إلى مقصورة القيادة الزجاجية؟

فقلت :

- نعم. ولكنى لم أجرؤ أن أطلب منك هذا.

- هيا بنا إذًا. سوف ترى كل ما يمكن رؤيته فى رحلة بحرية تحت الأرض وتحت الماء فى وقت واحد.

وصحبنى الريان نيمو إلى السلم الرئيسى ففتح بابًا فى منتصفه وسار معى فى النصف الأعلى من الغواصة حتى وصلنا إلى مقصورة القيادة البللورية، وهو كما يذكر القرَّاء فى أحد طرفى الغواصة.

وكانت مساحة المقصورة ستة أقدام مربعة، تشبه أبراج القيادة الصغيرة فى السفن البخارية التى تسير فى خليج هدسون أو نهر المسيسبى، وتتوسطها عجلة رأسية متصلة بالدفة التى تجرى بطول الغواصة وكانت ثمة أربع نوافذ من البلور مثبتة فى جوانب المقصورة تهيئ لقائد الدفة الرؤية فى كل اتجاه.

وكانت المقصورة نفسها مظلمة، ولكن سرعان ما ألفت النظر فى ظلامها، فرأيت المرشد البحرى، وكان رجلاً ضخم الجسم متكئًا بيديه على قضبان عجلة القيادة. أما البحر فكان يبدو فى الخارج متلألئًا بالضوء المنساب من الكشاف القائم فى المقصورة الخلفية.

وقال الريان:

- ينبغى الآن أن نتحسس طريقنا فى الممر.

وكان ثمة أسلاك تتصل بين مقصورة القيادة وغرفة المحركات، ولهذا كان فى مقدور الريان أن يسيطر على حركة الغواصة واتجاهها فى وقت واحد.

ولم يلبث أن ضغط على مقبض معدنى فقلت سرعة الغواصة فى الحال.

وفى صمت أخذت أرقب الجدار المرتفع الذى كنا نتحرك بمحاذاته إذ ذاك ولم يكن سوى امتداد الرمل على الشاطئ.

وقد تقدمنا هكذا نحو ساعة ونحن لا نبعد عنه أكثر من بضع ياردات، ولم يكن الريان نيمو يرفع عينيه عن البوصلة البحرية المعلقة بحلقتين فى وسط المقصورة. وبإشارة منه كان قائد الدفة يوجه الغواصة الوجهة المطلوبة بكل دقة تامة.

وجلست أنظرمن إحدى النوافذ البللورية، فرأيت تكوينات رائعة من شعب المرجان والقشريات التى كانت تنشر مخالبها الضخمة من شقوقها الغائرة فى الصخور.

وفى الساعة العاشرة والربع مساءً، أمسك الريان نيمو بعجلة القيادة ولاح لنا كهف واسع مظلم عميق، دخلته الغواصة دون تردد. وسمعنا هديرًا غير مألوف

لدى الجانبين. ولم يكن سوى هدير مياه البحر الأحمر التى كانت تندفع باطراد داخل النفق المائل فى اتجاه البحر الأبيض المتوسط. وهكذا اندفعت الغواصة مع السيل الجارف بسرعة السهم رغم أن محركاتها ذهبت تضرب الأمواج عكسيًا، كمحاولة لمقاومة الاندفاع.

ولم أكن أرى شيئًا على جدران النفق الضيق سوى الخطوط المضيئة وتجاعيد الصخور التى كانت تبدو كالوهج الخاطف فى ضوء كشاف الغواصة المندفعة كالسهم. وكان قلبى يخفق بعنف شديد جعلنى أضغط بيدى فوقه تخفيفًا لخفقانه.

وترك الربان نيمو عجلة القيادة فى الساعة العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة ثم استدار إلىَّ قائلاً:

- البحر الأبيض المتوسط!

وهكذا اجتازت الغواصة برزخ السويس فى أقل من عشرين دقيقة، مندفعة مع التيار الجارف.

الفصل الثلاثون

أرخبيل اليونان

فى مستهل اليوم التالى، الثانى عشر من شهر فبراير، صعدت الغواصة إلى سطح البحر فأسرعت إلى سطحها حيث رأيت على مسافة ثلاثة أميال نحو الجنوب حدود بحيرة المنزلة. حقًا لقد حملنا التيار العنيف من بحر إلى بحر، ولكن النفق الذى هبطنا منه بسهولة، كان الصعود فيه من المستحيلات.

وحوالى الساعة السابعة انضم إلىَّ كونسايل ونيد لاند، وكان هذان الصاحبان المتلازمان قد ناما هانئين دون أن يلقيا بالاً إلى ما حققته الغواصة، وقد قال نيدلاند بصوت لا يخلو من تهكم يسير:

- حسنًا يا سيدى العالم الطبيعى. ماذا عن البحر الأبيض المتوسط.

- إننا الآن فوق سطحه يا صديقى نيدلاند.

فهتف كونسايل قائلاً:

- ماذا؟ فى الليلة الماضية؟

- نعم. فى الليلة الماضية.. وفى دقائق معدودة، اجتزنا البرزخ الذى لم يتم حفره.

فقال نيدلاند:

- إننى لا أصدق هذا..

فاستطردت قائلاً:

- أنت مخطئ يا نيدلاند. إن هذا الشاطئ المنخفض شبه الدائرى الذى تراه فى الجنوب هو الشاطئ المصرى.

فقال الكندى بعناد:

- إننى مع ذلك أرفض أن أصدق.

فقال كونسايل:

- ولكن لا بد أن يكون هذا هو الحقيقة، وإلا لما أخبرنا به سيدى.

فقلت:

- وفوق هذا يانيد فإن الربان نيمو اضطلع بتحقيق هذا العمل، وكنت بجانبه فى مقصورة القيادة وهو يقود الغواصة بنفسه فى ذلك النفق المائى الضيق.

فقال كونسايل:

- هل تسمع يا نيد؟

وأضفت قائلاً:

- وأنت يا نيد يا من تتمتع بقوة النظر، بوسعك أن ترى أرصفة ميناء بورسعيد ممتدة فى البحر.

فحدق نيدلاند فى ذلك الاتجاه ثم قال:

- نعم أنت على حق يا بروفسور، وربانك رجل بارع. إننا حقًا فى البحر الأبيض المتوسط. لا بأس. عظيم جدًا. هلموا الآن نتبادل الحديث فى شئوننا الخاصة بحيث لا يسمعنا أحد.

وأدركت جيدًا مقصد نيدلاند. ومهما يكن فقد استصوبت أن نتبادل الحديث كما يريد، فيممنا شطر مقصورة الكشاف الكهربائى وجلسنا عن كثب منها، وهناك كنا أقل تعرضًا لاستراق السمع.

وبدأت الحديث بقولى:

- والآن يا نيد، نحن على استعداد لسماعك ماذا تريد أن تقول؟

فأجاب الكندي قائلاً:

- إن ما أريد أن أقوله بسيط جدًا. فنحن الآن في أوربا، وقبل أن تجرنا أهواء الريان نيمو إلى أعماق البحار القطبية أو يعود بنا إلى الأقيانوس أريد أن أهجر الغواصة.

ولابد من الاعتراف بأن الخوض مع نيدلاند في هذا الموضوع كان دائمًا مثار حرجي. فأنا لا أريد أن أنال من حرية صاحبي بأية حال، ومع ذلك فلم أكن أحب مفارقة الريان نيمو. فبفضل غواصته وأجهزته كنت كل يوم أستكمل أبحاثي تحت سطح الماء. وكنت أعيد تدوين كتابي عن البحار في نفس مواطنها. فهل يمكن أن تتاح لي مثل هذه الغواصة مرة أخرى لدراسة عجائب المحيطات؟ كلا بالتأكيد. ولهذا لم أستطع أن أروض نفسي على التفكير في مفارقة الغواصة استكمال حلقة أبحاثي. وإذًا فقد قلت:

- حدثني بصراحة يا صديقي نيد. هل تشعر بالملل هنا؟ أتأسف لأن الأقدار ألقت بك بين يدي الريان نيمو؟

فلزم لاند الصمت بضع دقائق. ثم عقد ذراعيه على صدره وقال:

- أقول صراحة إنني لست نادمًا على هذه الرحلة تحت سطح البحار. بل إنني سعيد لقيامي بها، ولكنني أريد بعد أن قمت بها، أنه لابد من نهاية لها.

- ستكون لها نهاية يا نيد.

- متى وأين؟

- إنني لا أعرف أين، ولا أستطيع أن أقول متى، ولكن يمكنني القول إنها ستنتهي عندما تكف هذه البحار عن تزويدنا بالمزيد من العلم، إن كل ما له بداية في هذا العالم، لابد له من نهاية.

فقال كونسايل:

- إنني أتفق في الرأي مع سيدي. ويحتمل جدًا أن نجوب بحار الكرة الأرضية قبل أن يطلق الريان سراحنا.

فصاح نيدلاند:

ـ يطلق سراحنا؟ لعلك تعنى أنه يطلق يديه للعدوان علينا؟

فاستطرت أقول:

ـ لا داعى للتهويل يا نيدلاند. فليس هناك ما تخشاه من الربان، ولكنى لا أوافق كونسايل أيضًا. إننا الآن نعرف سر هذه الغواصة ولا أمل عندى فى أن يرتضى صاحبها بإطلاق سراحنا حتى لا نذيع هذا السر فى أنحاء العالم.

فقال نيد لاند:

ـ إذن ما هو أملك؟

ـ هو أن تسنح فى الستة شهور القادمة ظروف يمكن بل يتعين أن نستفيد منها، كما نستفيد الآن.

فقال الكندى:

ـ ها! وأين ستكون بالله خلال ستة أشهر يا سيدى العالم؟

ـ ربما هنا وربما فى الصين. فأنت تعرف أن الغواصة سفينة سريعة. إنها تعبر المحيطات كالطيور فى الجو أو كالقطار السريع فوق اليابسة. وهى لا تخشى البحار المأهولة بالسفن. وما يدرينا إنها لن تزور سواحل فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا حيث نحاول انتهاز الفرصة، كما نريد أن نفعل الآن؟

فأجاب نيدلاند:

ـ إن حديثك يا مسيو أروناكس لا منطق فيه. فأنت تتحدث عن المستقبل فتقول إننا سنكون هنا أو سنكون هناك، ولكنى أتحدث عن الحاضر فأقول: «نحن هنا الآن، وينبغى أن نستغل هذه الظروف».

وشعرت أن نيدلاند قد ضيق الخناق علىَّ بمنطقه حتى غلبت على أمرى ولم أدر ماذا أقول. أما هو فقد استطرد قائلاً:

ـ لنفرض جدلاً يا سيدى أن الربان نيمو منحك الحرية اليوم فهل. تقبلها؟

ـ لا أدرى.

ـ وإذا أضاف إلى هذا أن ما يعرضه اليوم لن يكرره فيما بعد. فهل تقبل؟

لم أجب.

فقال نيد لاند:

ـ وما رأيك أنت يا صديقى كونسايل؟

ـ ليس لدى ما أقوله وأنا غير مهتم بهذا الموضوع إطلاقًا. أنت يا نيد غير متزوج. وأنا أيضًا لا زوجة لى ولا أقارب ولا أبناء ينتظرون عودتى. أنا فى خدمة سيدى أفكر بتفكيره وأقول ما يقوله. وإذًا فلا تعتمد علىَّ فى الحصول على أغلبية. إن الموضوع متعلق باثنين فقط. أنت فى جانب وسيدى فى الجانب الآخر. وما على إلا أن أسمع وأن أطيع القرار النهائى الذى ستتفقان عليه.

ولم يسعنى إلا الابتسام بعد أن رأيت كونسايل يلغى شخصيته إلى هذا الحد. ولا شك أن نيدلاند ابتهج حين ألفاه لم يقف ضده، ومن ثم قال:

ـ مادام كونسايل لا وجود له فليتحدث أحدنا مع الآخر، وأنا قد تحدثت وأنت قد سمعتنى.. فما جوابك؟

كان جليًا إنه لابد من أن أجاهر برأيى. ثم إننى أنفر بطبيعتى من المراوغة. وهكذا قلت:

ـ هذا هو جوابى يا صديقى نيد: أنت مصيب، وأنا مخطئ يجدر بنا ألا نعتمد على حسن نية الربان نيمو. إن أبسط أسباب الفطنة تمنعه من إطلاق سراحنا. ومن ناحية أخرى فإن العقل يحتم علينا انتهاز أول فرصة سانحة لمفارقة الغواصة.

ـ حسن جدًا يا مسيو أروناكس.. هذا كلام سديد.

ـ ولكن لى ملاحظة واحدة فقط، هى أنه يجب أن نأخذ الأمور مأخذ الجد. لابد أن تنجح أول محاولة لنا. لأننا إذا فشلنا. فلن تتاح لنا فرصة أخرى لإعادة الكرة كما أن الربان نيمو لن يصفح عنا.

ـ هذا أمر لاشك فيه. ولكن ملاحظتك تنطبق على كل محاولة للهرب سواء كانت بعد عامين أو بعد يومين ولهذا يبقى الوضع كما هو: إذا سنحت فرصة الهرب فيجب أن تتشبث بها.

ـ اتفقنا! والآن.. هل تخبرنى يا صديقى نيد ما معنى الفرصة السانحة فى نظرك؟

ـ كأن تكون الغواصة بالقرب من أحد الشواطئ الأوربية فى ليلة حالكة الظلام.

ـ عندئذ هل تحاول الهرب سباحة؟

ـ نعم إذا كنا قرب الشاطئ بدرجة كافية، وكانت الغواصة على سطح الماء. وإما إذا كنا بعيدين والغواصة فى الأعماق..

ـ وماذا يكون العمل فى هذه الحالة؟

ـ فى هذه الحالة أحاول الاستيلاء عليها، فأنا أعرف كيف يسيرونها، وبإمكاننا أن نفتح المنافذ ونصعد إلى مقصورة القيادة قبل أن يحس بنا قائد الدفة.

ـ حسنًا يانيد.. انتظر سنوح الفرص ولا تنس أن الفشل فيه القضاء علينا.

ـ لن أنسى هذا يا سيدى.

ـ والآن يا نيد هل تحب أن تعرف رأيى فى مشروعك؟

ـ أجل يا مسيو أروناكس.

ـ حسنًا. وأعتقد ـ ولا أقول أرجو ـ إن مثل هذه الفرصة المواتية لن تسنح لك.

ـ لماذا؟

ـ لأن الربان نيمو مدرك أننا لم نفقد الأمل فى استرداد حريتنا، ولهذا سيضاعف رقابته علينا فى البحار الأوربية؟

فقال نيدلاند وهو يهز رأسه فى إصرار:

ـ سوف نرى.

ـ والآن ينبغى أن تترك الأمور عند هذا الحد يا نيدلاند. لن نتبادل عنه كلمة واحدة بعد اليوم. وعندما يتم استعدادك أخبرنا، فنتبعك، وسأترك لك إعداد كل شىء.

وهكذا انتهت هذه المحادثة التى شاء القدر أن تكون لها فيما بعد عواقب وخيمة. وينبغى أن أقول الآن إن الحقائق أثبتت بعد نظرى فيما يبدو، وهو ما أثار أشد اليأس عند نيدلاند: ترى أكان الريان يرتاب بنا ونحن فى هذه البحار المطروقة، أم أراد فقط إبعادنا عن أنظار السفن الكثيرة التابعة لمختلف الدول وهى تشق عباب البحر الأبيض المتوسط؟ لا أدرى ولكنه حرص عمومًا على البقاء بالغواصة تحت السطح وبعيدًا عن الشاطئ. وإذا صعدت إلى السطح لم يكن يبين منها سوى مقصورة القيادة ثم لا تلبث أن تعود إلى الأعماق، لأن عمق البحر بين أرخبيل اليونان وشواطئ آسيا الصغرى كان يزيد على ألفى ياردة.

وقد عرفت نقطة جزيرة كارباتوس ـ وهى إحدى جزر سيوريد ـ عن طريق شطرة من شعر فيرجيل، كان الريان نيمو يتمثل بها وهو يضع إصبعه على مكانها من الخارطة.

«هنا.. فى كاربانيو كان الإله نبتون يخمر الأعناب.

وكيوليوس بروفيوس..

وكانت الجزيرة فى الواقع المقر القديم لبروفيوس ـ الراعى العجوز لقطعان نبتون ـ فأصبحت الآن جزيرة سكاربتو. وهى كائنة بين جزيرتى رودس وكريت.

وفى اليوم التالى، الرابع عشر من شهر فبراير، قررت تمضية بضع ساعات فى دراسة أسماك هذا الأرخبيل، ولكن النوافذ البلّورية ظلت مغلقة لسبب ما. وقد قدرت من اتجاه الغواصة أنها فى طريقها إلى جزيرة كريت. وكانت هذه الجزيرة عندما ركبت السفينة إبراهام لنكولن لمطاردة الغواصة قد ثارت على الحكم التركى الغشوم، ومنذ ذلك الحين لم أدر ماذا تم فى هذا الأمر، ولم يستطع الريان نيمو أن يخبرنى بشىء وهو الذى قطع كل علاقة له بالعالم

الخارجى. ولهذا السبب لم أعرض هذا الحادث عندما جلست معه على انفراد تلك الليلة فى صالون الغواصة. وفوق هذا فقد بدا لى صامتًا مشغول الفكر، ثم لم يلبث أن أمر بفتح النوافذ البلورية على غير عادته، وأخذ يتنقل من نافذة إلى أخرى وهو يرقب عباب الماء لغرض لم أتبينه. أما أنا فقد عكفت على دراسة الأسماك التى كانت تمر أمام عينى.

ومن بين الأنواع الكثيرة التى رأيتها النوع المعروف باسم سمك التوبيون «جوبى آفيز» الذى تحدث عنه الفيلسوف اليونانى أرسطو وهو يشاهد كثيرًا فى المياه المالحة بالغرب من دلتا النيل، وبالقرب منها رأيت أسماك الابراميس نصف الفوسفورية. وكان قدماء المصريين يضعون هذا النوع فى عداد الحيوانات المقدسة. إذ كانوا يعتبرون وصوله إلى مياه النيل يشير بفيضان خصيب، ومن ثم كانوا يقيمون الاحتفالات الدينية لمقدمه. ورأيت الأسماك السلحفاوية التى يبلغ طول كل منها تسع بوصات. وهى أسماك عظيمة ذات قشور شفافة يمتزج لونها المحتقن بالنقط الحمراء. ويعيش هذا النوع على النباتات البحرية مما يضفى على لحومها نكهة طيبة.

وكان هواة الطعام فى روما القديمة يتلهفون على هذا النوع حيث كانوا يطهون أمعاءه بالأغشية الرقيقة لأسماك المرينة مع أمخاخ الطاووس وألسنة طيور الدراج ويصنعون من هذا كله طبقًا شهيًا يتحلب له اللعاب.

واسترعى انتباهى كذلك بين سكان هذا البحر، كما أثار فى ذهنى ذكريات تاريخية ـ ذلك النوع من السمك المعروف باسم «الرامور» الذى يجوب البحار متعلقًا ببطون نمور البحر. ويروى فى الأساطير القديمة أن فى مقدور هذا السمك الصغير إذا تعلق بقيعان السفن أن يوقف حركتها وأن واحدة منها بإعاقتها سفينة مارك أنطونيو ساعدت غريمه القائد أغسطس على الفوز فى موقعه أكتيوم البحرية.

ألا ما أوهى الخيوط التى تتعلق بها مصائر الأمم، طبقًا لهذه الأساطير، وقد لاحظت كذلك سمك الأنيثا الذى ينتمى إلى فصيلة اللونجان، وهو سمك كان

الإغريق القدامى يقدسونه، ويعزون إليه القدرة على طرد الوحوش البحرية من المناطق التى يقيم بها. واسم هذا السمك يعنى الزهرة وينطبق عليها بسبب تعدد ألوانه. فهو يشتمل على جميع درجات اللون الأحمر ابتداء من الوردى الخفيف إلى الياقوتى القاتم. هذا عدا الأصباغ الخفيفة التى تغشى زعانفها الوردية. ولم يكن فى مقدورى أن أرفع نظرى عن عجائب هذا البحر، عندما فوجئت بمشهد لم أكن أتوقعه. فقد رأيت فى الماء رجلا يغوص متمنطقًا بحزام علق به كيسًا، وكان يسبح بقوة وهو يصعد بين فينة وأخرى إلى السطح للتنفس، ثم لا يلبث أن يغوص من جديد. عند ذلك استدرت إلى الريان وقلت له بصوت مضطرب:

ـ هنا رجل، رجل ناج من سفينة غارقة.. يجب إنقاذه بأى ثمن.

فلم يجب الريان، بل جاء إلى النافذة واستند إليها. أما الرجل فقد اقترب من الغواصة وأدنى وجهه من زجاج النافذة وراح ينظر إلينا.

وشد ما كانت دهشتى حين رأيت الريان يشير إليه بيده، ثم أسرع الغواص بالارتفاع إلى سطح الماء ولم يظهر مرة أخرى.

وقال الريان:

ـ لا تنزعج. إنه نيقولا من أهالى رأس ماتابان التى تعرف بالباسك. وهو مشهور فى كل هذه النواحى.. غواص جرىء.. والماء موطنه. لأنه يعيش فى البحر أكثر مما يعيش على البر، لتنقلا من جزيرة إلى أخرى، بل إنه يبتعد حتى جزيرة كريت.

ـ هل تعرفه يا كابتن؟

ـ لا يا ميسو أروناكس؟

ـ قال هذا ومضى إلى قطعة أثاث قريبة من النافذة اليسرى للصالون، رأيت بجانبها خزانة حديدية يعلوها مقبض نحاسى نقش عليه شعار الغواصة.

وتقدم الريان دون أن يعيرنى أقل التفاتًا إلى قطعة الأثاث ففتحها وإذا هى تحتوى على عدد كبير من السبائك.

وكانت سبائك من الذهب. ترى من أين جاء هذا المعدن الثمين الذى يساوى ثروة ضخمة؟ وأين عثر الريان على هذا الذهب وماذا ينوى أن يفعل به؟

ولم ألفظ بكلمة.. وجعلت أنظر إليه وهو يحمل السبائك واحدة بعد الأخرى ويرتبها فى الخزانة حتى امتلأت بها. وقد قدرت ما فيها من الذهب عندئذ بنحو ألفى رطل، أى ما يساوى مائتى ألف جنيه.

وأحكم الريان إغلاق الخزانة، ثم كتب على غطائها عنوانًا بأحرف بدا لى أنها من اللغة اليونانية الحديثة.

ولما فرغ من هذا ضغط على زر متصل بمقاصير البحَّارة، وسرعان ما أقبل أربعة منهم راحوا يدفعون الخزانة إلى خارج الصالون فى شىء من الجهد، ثم سمعتهم يرفعونها فوق السلم الرئيسى (بالبكرات).

وأخيرًا استدار الريان نحوى قائلاً:

ـ هل قلت شىء يا بروفسور؟

ـ لا يا كابتن.

ـ حسنًا. إذا سمحت لى فإنى أرجو لك ليلة طيبة.

وغادر الصالون على الأثر...

وعدت إلى غرفتى وأنا بطبيعة الحال أشد ما أكون فضولاً. وعبثًا حاولت النوم فقد كنت أحاول أن أعرف العلاقة التى يمكن أن تكون بين الغواص وخزانة الذهب. ولم ألبث أن شعرت من تأرجح الغواصة واهتزازها أنها صعدت إلى السطح.

ولما سمعت وقع أقدام على ظهرها أدركت أنهم يرفعون الزورق من فوهته وينزلونه إلى البحر. وقد سمعته يصطدم بجوانب الغواصة، ثم تلاشى الصوت.

وبعد ساعتين تكررت الحركة، وتكرر الصوت نفسه. وكان واضحًا أن الزورق يعاد إلى فجوته. ولم تلبث الغواصة أن عادت للهبوط تحت سطح الماء.

وهكذا أدركت أن الذهب نقل إلى العنوان المبين على الخزانة. ترى إلى أى مكان فى القارة كان إرساله؟ ومن هو عميل الريان نيمو؟

وفى اليوم التالى ذكرت لكونسايل ونيدلاند ما حدث فى الليلة السابقة مما أثار أشد الفضول فى نفسى ولم يكن صاحباى أقل دهشة منى. وقد سألنى نيدلاند: قائلا:

- ولكن أين عثر على كل هذا الذهب؟

ولم يكن ثمة جواب معقول على هذا السؤال، وبعد الإفطار ذهبت إلى الصالون وشرعت فى العمل ولبثت فى كتابة مذكراتى حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، وعندئذ شعرت باشتداد الحر دون سبب واضح، فتضوت عنى ردائى المصنوع من ألياف نباتية. ولم أستطع أن أرى سر هذه الحرارة لأننا لم نكن فى المنطقة الاستوائية فضلا عن أن الحرارة لا ترتفع داخل الغواصة وهى تحت سطح الماء. ونظرت إلى مقياس الأعماق فرأيت أننا على عمق ستين قدمًا وهو عمق لا يتأثر بحرارة الجو فوق سطح الماء.

واستأنفت الكتابة ولكن الحرارة أصبحت لا تطاق فقلت لنفسى:

- ترى هل شبت النار فى الغواصة؟

وبينما كنت أهم بمغادرة الصالون أقبل الريان ونظر فى مقياس الحرارة والضغط ثم قال:

- اثنتان وأربعون درجة مئوية.

- إننى أشعر بها يا كابتن. ولن نستطيع احتمال الحرارة إن زادت عن هذا الحد.

- إن الحرارة لن تزيد إلا إذا أردنا.

- إذًا ففى مقدورك أن تخففها.

- كلا. ولكننى أستطيع الابتعاد عن البؤرة التى تولدها.

- إذًا فهى حرارة آتية من الخارج؟

- نعم. فإننا نسير فى ماء يغلى.

- أهذا ممكن؟

- انظر..

ورفعت الألواح عن النوافذ البلّورية، فشاهدت مياه البحر البيضاء حول الغواصة وكان ثمة دخان كبريتى ينعقد بين الأمواج التى كانت تغلى كماء فى وعاء نحاسى على موقد. ولما وضعت يدى على زجاج النافذة وجدت الحرارة شديدة بحيث اضطررت إلى سحبها بسرعة. وأخيرًا قلت:

- أين نحن؟

- بالقرب من جزيرة سانتورين، وعلى التحديد فى الممر المائى الذى يفصل جزيرة نياركامينى عن جزيرة بالياركامينى. وقد أردت أن أريك مشهدًا غريبًا من مشاهد الاضطرابات البركانية تحت الماء.

- كنت أظن أن عملية تكوين هذه الجزر الجديدة قد انتهت.

- لا يمكن أن ينتهى شىء فى المناطق البركانية. فإن الأرض تظل متفاعلة بسبب النيران المتأججة فى جوفها. وفى العام التاسع عشر بعد الميلاد تكونت جزيرة جديدة، على ما أورده بلينى وكاسيودور، وهى جزيرة فاى الجزيرة الإلهية، وقد قامت فى نفس المكان الذى ظهرت فيه مجموعة من الجزر الصغيرة. ولكنها غاصت تحت سطح الماء، ثم عادت للظهور عام ٦٩، ثم غاصت مرة أخرى. ومنذ تلك الحقبة إلى عصرنا هذا لم يجد شيئًا، فلما كان اليوم الثالث من شهر فبراير عام ١٨٦٦ برزت من بين الأبخرة الكبريتية جزيرة جديدة بالقرب من جزيرة نيار كامينى، سميت جزيرة جورج والتحمت بها فى اليوم السادس من نفس الشهر. وبعد سبعة أيام، أى فى اليوم الثالث عشر من فبراير ظهرت أفروسا تاركة بينها وبين نياركارمينى ممرًا مائيًا عرضه عشر ياردات. وقد كنت فى هذه المنطقة عندما حدثت هذه الظاهرة الطبيعية مما هيأ لى أن أشهد مراحلها العديدة.

ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ثلاثين قدمًا، وتتكون من الحمم السوداء الممتزجة ببقايا الفلزات. ثم ظهرت أخيرًا فى اليوم العاشر من شهر مارس جزيرة صغيرة تسمى ريكابا بالقرب من نياركامينى أيضًا. ومنذ ذلك الحين التحمت هذه الجزر الثلاث وصارت جزيرة واحدة.

- إذًا فى أى ممر مائى نحن؟

فقال الربان وهو يشير بأصبعه على خارطة الأرخبيل اليونانى:

- نحن هنا الآن حيث وضعت الجزر الجديدة كما ترى على الخارطة.

- ولكن هذا الممر قد ينسد يومًا؟

- هذا جد محتمل يا مسيو أروناكس. فمنذ عام ١٨٦٦ برزت ثمان جزر صغيرة أمام ميناء سانت نيقولا بجزيرة بالياركامينى. ومن هذا يتضح أن جزيرتى نياركامينى، وبلياركامينى ستلتحمان فى وقت قريب، وإذا كانت التقعيات - أى الدويبات المائية - هى التى تكون القارات المرجانية فى المحيط الهادى، فإن الاضطرابات البركانية هى التى تكونها هنا. انظر يا سيدى إلى ما يحدث تحت هذه الأمواج.

وعدت إلى النافذة البلّورية فألفيت الغواصة لا تتحرك. واشتدت الحرارة حتى أصبحت لاتطاق واستحال لون الماء الأبيض إلى الأحمر، كان يرجع هذا التلون إلى وجود أملاح الحديد. ورغم إغلاق الصالون بإحكام فقد اشتممت فيه رائحة كبريتية لا تحتمل، كما رأيت ألسنة من اللهب الأحمر الذى كسف شاعت ضوء الغواصة الكهربائى.

وقلت للربان وأنا غارق فى العرق مختنق الأنفاس أكاد أغلى.

- لا يمكن أن نبقى أكثر من هذا فى هذه المياه التى تغلى.

فقال الربان بهدوئه المعتاد:

- نعم ليس من الحكمة أن نبقى.

وصدر الأمر وتحركت الغواصة. ولم تلبث أن خرجت من هذا الفرن الذى لا يمكن أن تتحداه دون أن تتعرض للصخور. وبعد ساعة كنا نستنشق الهواء النقى على ظهرها.

وبدا لى إذ ذاك أنه لو اختار نيدلاند هذه المنطقة لتنفيذ خطة الهرب، لما خرجنا من المحاولة أحياء.

وفى اليوم التالى السادس عشر من شهر فبراير، غادرنا الحوض المائى الذى يقع بين الإسكندرية وجزيرة رودس، والذى يزيد عمقه على تسعة آلاف قدم، وما لبثت الغواصة وهى تمضى على مرمى البصر من جزيرة سيريجو أن خلفت وراءها أرخبيل اليونان بعد دورانها حول رأس ماتابان.

الفصل الحادى والثلاثون

اجتياز البحر الأبيض فى ثمان وأربعين ساعة

إن البحر الأبيض ذا الزرقة الصافية فى نظر الفرنسيين، وبحر الإغريق، و«بحرنا» فى زعم الرومانيين، بحر واسع الأرجاء، تحف به أشجار البرتقال، ونبات الصبار وأعواد الند وأشجار الحور البحرية التى يفوح فيها عبير (الآس)، كما تحيط به سلاسل الجبال التى يترقرق حولها الهواء النقى الشفاف بينما يتأجج باطنها بالنيران.. هذا البحر ميدان مثالى للمعارك التى لا تزال دائرة الرحى بين نيتون وبلو للسيطرة على العالم، فيما تقول الأساطير.

وعلى مياهه وفوق شطآنه ما زالت البشرية تتجدد - كما يقول ميكليت - فى منطقة تعد من أبدع مناطق العالم جوًا. ولكنى رغم كل هذا الجمال، لم أستطع إلا أن ألقى نظرة سريعة على حوضه الذى يغطى مساحة مقدارها ميلونان من الكيلومترات المربعة. وحتى علم الربان نيمو الواسع قد حرمته، إذ أن هذا الشخص الغامض لم يظهر لنا أثناء اجتيازنا هذا البحر مسرعين. وقد قدرت المسافة التى ستقطعها الغواصة تحت سطح الماء بستمائة فرسخ «أى ١٨٠٠ ميل» وقد قطعتها فى ثمان وأربعين ساعة إذ بدأنا الرحيل من المياه اليونانية فى صباح اليوم السادس عشر من شهر فبراير واجتزنا مضيق طارق مع شروق الشمس فى اليوم الثامن عشر.

وقد تبين لى بوضوح أن الربان نيمو كان شديد النفور من هذا البحر وما يحيط به من بلاد ويبدو أن أمواجه ونسائمه أثارت الكثير من ذكرياته إن لم يكن

الكثير من أشجانه فهو هنا لم يكن يستمتع بحرية الحركة والقيادة التى تهيأت له فى المحيط الواسع وكانت غواصته أسيرة بين الشواطئ الأوربية والإفريقية

وكانت سرعتنا عندئذ خمسة وعشرين ميلاً فى الساعة، ولست بحاجة إلى القول إن نيدلاند اضطر مكرها لنبذ فكرة الهرب. فلم يكن فى مقدوره استخدام قارب كان يندفع مع الغواصة بسرعة ثلاث عشرة ياردة فى الثانية.

وكان الهرب من الغواصة عندئذ كالقفز من قطار ينطلق بنفس السرعة، وهى محاولة أبعد ما تكون عن الحكمة. يضاف إلى هذا أن الغواصة كانت تصعد إلى السطح للتهوية فى الليل فقط، وكان كل الاعتماد فى قيادتها على البوصلة ومسجل السرعة.

ولهذا لم أر من البحر الأبيض إلا ما يراه راكب القطار السريع من المشاهد الخاطفة أمام عينيه، أو بمعنى آخر، الأفق البعيد، لا المشاهد القريبة التى كانت تتعاقب فى سرعة البرق. ومهما يكن فقد استطعت أنا وكونسايل أن نلاحظ فى هذا البحر بعض أنواع السمك التى كانت قوة زعانفها تتيح لها الصمود لحظات أمام اندفاع الغواصة، وكنا نرقب هذه الأسماك خلف نوافذ الصالون البلّورية، كما أن مذكراتنا عنها تهيئ لى تدوين بضعة أسطر عن علم الأسماك فى هذا البحر.

لقد رأيت بعض هذه الأسماك المختلفة، ولمحت بعضها الآخر، ولا أستطيع الحديث عن غيرها من الأنواع التى لم تتح لى سرعة الغواصة رؤيتها إطلاقًا. وقد أتيح لى تصنيف هذه الأنواع السميكة طبقًا لهذه الظروف التى لم تسمح لى إلا بالملاحظة العابرة.

كانت تنساب فى اللجج المائية المضاءة بالنور الكهربائى، بعض أسماك المورينة أو الجلكاء، وطول كل منها نحو يادرة، وهى من الأنواع الشائعة فى كل الأجواء تقريبًا، وبعض أسماك الإكسيرنيش، وهو نوع يبلغ عرضه خمسة أقدام، أبيض البطن تعلو ظهره نقط رمادية وهو يسبح فى مجموعات كبيرة يحملها التيار. ومرت بنا أنواع أخرى من هذا السمك بسرعة بالغة بحيث تعذر أن أتبين إن

كانت تستحق اسم «النسور» كما يسميها اليونانيون أو الفيران أو الضفادع أو الخفافيش كما يسميها الصيادون المعاصرون.

وكت أرى قليلا من نمور البحر «الميلاندر» التى يبلغ طول أحدها اثنى عشر قدما، والتى يفزع منها الغواصون على الأخص، كانت تتسابق مع أسراب الاكسيرينيش أما سمك ثعالب البحر الذى يبلغ طوله ثمانية أقدام ويتمتع بحاسة شم قوية، فكان يظهر كظلال كبيرة زرقاء. وكانت أسماك الدوريد المذهبة الرأس التى طول إحداها تسع وثلاثين بوصة تقريبًا، تبدو فى أهابها الأزرق أو الفضى الموشى بخطوط لطيفة تتألق أمام ألوان زعانفها القاتمة. وثمة أسماك قيل إن ألهة الجمال فينوس كانت مولعة بها إلى حد التقديس، وهى ذات عيون ذهبية المحاجر، كما أنها نوع ثمين يعيش فى المياه العذبة والمالحة وفى الأنهار والبحيرات والمحيطات، وفى كل أنواع الأجواء محتملة كافة التقلبات الجوية، وهى سلالة تنحدر من أصل يمتد إلى العصور الجغرافية الأولى للكرة الأرضية، وهكذا استطاعت أن تحتفظ بكل جمالها الطبيعى الأصيل. وكان سمك الحفش الفاخر الذى يبلغ طوله من عشر إلى إثنتى عشرة ياردة، والذى يمتاز بالسرعة الفائقة، يضرب زجاج النوافذ البللورية بذيوله القوية، ويكشف عن ظهور مائلة للزرقة ذات نقط بنية. ويشبه هذا السمك نمور البحر ولكن لا يدانيه فى القوة. وهو موجود فى جميع البحار، وفى الربيع ينتقل إلى الأنهار الكبيرة حيث يكافح تيارات الفولجا والدانوب والبو والرون واللوار والأودر، ويقتات بأسماك الرنجة. والسالمون والبكالاة. ورغم أنه من الفصيلة الغضروفية فلحمة طيب المذاق وهو يؤكل طازجًا، ومجففًا، ومملحًا، وكانت تزهو به مائدة الإمبراطور لوسيلوس. ولكن الأسماك التى استطعت ملاحظاتها بتفصيل واف من بين مختلف أسماك البحر الأبيض كانت نوعًا من السمك ينتمى إلى الفصيلة الثالثة والستين فى ترتيب الأسماك العظمية. وذلك هو سمك التونة القاتم باللون، والأزرق الظهر المموه البطن باللون الفضى. الذى تشع زعانفه الصدرية وميضًا كالذهب. والمشهور عن هذه الأسماك أنها تتبع السفن التماسًا لظلالها فى الأجواء الاستوآئية. وقد رافقت الغواصة فى مسيرها كما سبق أن رافقت سفن لابيروز.

لقد جاهدت ساعات طوالا أن تتابع الغواصة فى سيرها والواقع أنى لم أشبع من الإعجاب بهذه الأسماك التى خلق جسمها خاصة لسرعة السباحة، فرءوسها صغيرة وأجسامها مرنة مستديرة يبلغ طول بعضها ثلاث ياردات وتمتاز زعانفها الظهرية بقوة كبيرة وذيولها مفروقة. وكانت تسبح فى تشكيلات مثلثة كبعض أسراب الطيور التى تتساوى معها فى السرعة مما جعل القدماء يقولون إنها على علم بالهندسة والتخطيط. ومع ذلك فإنها لا تنجو من شباك سكان الأقاليم المجاورة الذين يولعون بها مثل أهالى إيطاليا. كما تموت الآلاف من هذه الأسماك الثمينة وهى عمياء مترنحة فى شباك الصيادين بمارسيليا.

وإنى أسجل هنا ما وعته الذاكرة من أسماك البحر الأبيض التى لمحتها أنا وكونسايل بنظرات عابرة مها سمك (البياض العريان) الذى يمر كأنه الأبخرة، وثعابين القنجر أو الأتكليس البحرى. والأفاعى المائية التى يتراوح طولها بين ثلاث أو أربع ياردات. وهى مزخرفة بالألوان الخضراء والزرقاء والصفراء وأسماك البكالاه التى يبلغ طولها ثلاثة أقدام وتصنع من أكبادها أطباق شهية. وسمك الكوبيول - تيانيا الذى يبدو فى البحر كالأعشاب المائية الجميلة. وسمك التريجل الذى يسميه الشعراء سمك القيثار ويسميه البحارة السمك (الصفار) وأفواهه محلاة بمثلثين من أسنان كالنصال على هيئة معزف هوميروس. وثمة فضيلة أخرى من هذا النوع اسمها سمك التريجل العصفورى لأنها تسبح بسرعة الطيور وسمك الألوز المزين بنقط سوداء ورمادية وبنية وزرقاء وصفراء وخضراء وهو يستجيب عادة إلى رنين الأجراس وسمك التريوت الفاخر المعروف باسم دجاج البحر. وهو نوع قالبى الشكل له زعانف صفراء مرقطة باللون البنى، ثم أسراب من البورى الأحمر المعروف باسم عصافير جنة المحيط، وكان الرومان يشترونه بأثمان باهظة لكى يشاهدوه على المائدة وهو يتحول من لون الحياة الأحمر القانى إلى لون الموت الأبيض الشاحب.

وإذ كنت لم أستطع مشاهدة أسماك أخرى كالبورى والبالستر وفرس البحر (الهبوكان) والجوان وسمك البرق، والبلينى، والبورى الأحمر، والراس، والحساس، والبورى البياح أو الذهبى. والأنشوجة والباغورى، والبوجى، وأبو

النقار أو أى أنواع رئيسية من التى تمثل رتبة الأسماك ذات الرءوس المفرطحة كسمك الداب (يشبه سمك موسى) والفلز، والسطحيات، وأنواع من سمك موسى، وكلها من مرتبة الأسماك المستوطنة للبحر المتوسط والبحر الأدرياتى فإنما يرجع هذا إلى سرعة الغواصة وهى تجتاز البحر من أقصاه إلى أقصاه.

أما عن الثدييات البحرية فأظننى رأيت في مدخل البحر الأدرياتى اثنين أو ثلاثة من القشطاولوت «القياطس» (حوت العنبر) المزود بزعانف صدرية، وبعض درافيل البحر ذات الرءوس والظهور المقلمة بخطوط رفيعة واضحة وعشرات من الصيلات (سباع البحر) ببطون بيضاء وشعور سوداء، وهى تعرف باسم (الرهبان) لأنها فى الواقع تشبه الرهبان الدومينكان رغم أن طول الواحدة منها ثلاث ياردات.

أما كونسايل فقد تصور أنه شاهد سلحفاة بحرية طولها ستة أقدام مزينة بخطوط من العظام البارزة طولية الاتجاه. وقد أسفت بعدم رؤيتى هذه السلحفاة، إذ يبدو أنها من نوع نادر ولكنى شخصيًا لم أشهد سوى عدد يسير من سلاحف الكاكدان ذات الذيول العظمية الطويلة.

أما عن الزوفيت أو الحيوانات الشبيهة بالنيات. فقد أعجبت ببعضها وهى من الشعيبيات التى رأيتها عالقة بالألواح الجانبية للغواصة. وكانت خويطات رقيقة طويلة مطردة التشعب، وتنتهى بألطف ألوان مما لا يأتى بمثله الفانون. ولم يكن فى مقدورى لسوء الحظ الحصول على بعض من هذه الأنواع البديعة وكان حتما ألا أشهد أنواعًا أخرى من الزوفيت فى البحر الأبيض المتوسط لو لم تخفف الغواصة من سرعتها فى ليلة السابع عشر من شهر فبراير بسبب المناسبة الآتية:

كنا عندئذ نمر بين جزيرة صقلية وشاطئ تونس أى فى الممر المائى الضيق بين رأسى بون ومضايق ميسينا، وفى هذه المنطقة يرتفع قاع البحر ارتفاعًا يكاد يكن رأسيًا بحيث يتكون فى هذا الممر شبه حاجز تعلوه المياه بارتفاع ست عشرة ياردة فقط، أما عن الجانبين فكان العمق يبلغ نحو مائة وثمانين ياردة، ومن ثم كان على قائد الغواصة أن يمضى بها فى حذر لئلا تصطدم بالحاجز.

ولما أطلعت كونسايل على موضع الحاجز على خارطة البحر الأبيض المتوسط قال:

ـ إنه شبه برزخ حقيقى يصل بين إفريقيا وأوربا.

ـ نعم يا بنى لقد أثبتت أبحاث العالم الجغرافى سميث أن القارتين كانتا فيما مضى عند رأس بوكود ورأس نورينا.

فقال كونسايل:

ـ هذا ما أعتقده أيضًا.

ـ ويمكننى أن أضيف إلى هذا أن هناك حاجزًا مماثلا فى مضيق جبل طارق كان فيما مضى يغلق البحر الأبيض المتوسط كله.

ـ ماذا لو أن بركانًا ثار ذات يوم ورفع هذه الحواجز إلى ما فوق الماء؟

ـ هذا احتمال بعيد يا كونسايل.

ـ ولكن إذا وقعت مثل هذه الظاهرة فإنها ستكون من سوء حظ من يحاول حفر قناة السويس.

ـ نعم.. هذا محتمل.. ولكنى أكرر القول يا كونسايل إن هذا لن يحدث، فإن الثورات البركانية آخذة فى التناقص، والبراكين التى كانت متكاثرة فى عصور التاريخ الأولى تخمد الآن تدريجيا لأن الحرارة فى باطن الأرض تخف على مر العصور، ودرجتها تهبط إلى حد كبير عصرًا بعد عصر وفى هذا أشد الضرر لكرتنا الأرضية التى تتوقف حياتها على هذه الحرارة الجوفية.

ـ ولكن الشمس...؟

ـ إن حرارة الشمس وحدها لا تكفى يا كونسايل.. هل يمكن الشمس أن تحيا بالحرارة جثة هامدة؟

ـ لا أعتقد...

ـ حسنًا يا كونسايل. سوف تصبح الأرض ذات يوم كالجثة الهامدة الباردة، وإذ ذاك لن تكون صالحة للحياة ولن تكون مأهولة كالقمر الذى فقد حرارته الجوفية منذ أمد بعيد.

ـ فى كم من القرون يحدث هذا؟

ـ فى بضعة آلاف من السنين.

ـ إذن سـيكون لدينا الوقت الكافى لإتمام رحلتنا إذا لم يتدخل نيد لاند فى الأمر.

وبعد أن اطمأن كونسايل على هذه الصورة عاد إلى دراسة القاع البحرى المرتفع الذى كانت الغواصة تمر بجانبه فى سرعة معتدلة.

وهناك على أرض القاع الرميلة الصخرية كانت تعيش النباتات الحية من الإسفنجيات والنفعيات والهلاميات المزخرفة بأصباغ مائلة للحمرة تبعث منها أحيانًا أضواء فسفورية والبيروز المعروف باسم خيار البحر والأحياء القنابية التى تسبح فى أطياف من ضوء الشمس ويبلغ طولها نحو ياردة، وتتساب منها أصباغ قرمزية تضفى حمرة على الماء والأحياء المتشجرة ذات الجمال الرائع، والأسماك القزحية ذات الزعانف الكبيرة، وأنواع مختلفة من قنافذ الماء الصالحة للأكل، وشقائق البحر ذات الأنياب الرمادية والأقراص البنية المختفية بين مجاستها الزيتونية اللون.

وقد أكثر كونسايل من اهتمامه باللافقاريات والمفصليات (ذوات المفاصل» ورغم امتلاء جعبته بالأسماء العلمية الجافة، فإنى لن أهضم حقه بإغفال ملاحظاته الخاصة.

ففى شعبة اللافقاريات نراه يسرد عددًا كبيرًا من أنواعها: الشطانى، والأسقلوب، وحوافر الجحش التى يتراكم بعضها على بعض والدوناس المثلث، والهياليا الثلاثية ذات الزعانف الصفراء والأصداف الشفافة والشعيبيات البللورية المحفوفة باللون الأحمر، والبويضات المرقطة باللون الأخضر، والإبليزيا المعروفة باسم أرانب البحر، والدولابليا، والاسيروز اللحمية، والأمبرليا الخاصة بالبحر الأبيض، وزوائد البحر الذى ينتج محارها أحسن أنواع عروق اللؤلؤ. ومحار الأنوم الذى يقال إن أهالى جنوب فرنسا يفضلونه على كل أنواع المحار.

ومحار الكلوفر الشهى لدى أهالى مرسيليا، والبرايرى المزدوج، الأبيض السمين، الذى يكثر بعض أنواعه فى شواطئ أمريكا الجنوبية، والذى يكثير بيعه فى نيويورك، وأمشاط السمك الصمامى ذات الألوان المتدرجة والمرجانيات المطمورة فى أجحارها التى استعذب مذاقها الحريف وغير هذا كثير. أما المفصليات، فقد قسمها كونسايل فى مذكراته إلى ستة أقسام ينتمى ثلاثة منها إلى البحريات وهى القشريات، والليفيات، والحلقيات.

وتنقسم القشريات إلى تسع مراتب، وتحتوى المرتبة الأولى منها على القنصيات أى الحيوانات التى تتصل رءوسها عادة بصدورها مباشرة، والتى بتكون جهازها الشدق من عدة أعضاء، كما أن لها أربعة أو خمسة أو ستة أزواج من مخالب الحركة.

وقبل أن يدون كونسايل فى مفكرته بقية الأقسام والرتب كانت الغواصة قد اجتازت المياه الليبية وابتعدت عن الحاجز القاعى، واستأنفت سرعتها فى مياه بعيدة العمق، ومنذ ذلك الحين لم نشهد شيئًا من اللافقاريات أو المفصليات أو الشعيبيات، بل قليل من الأسماك الكبيرة التى كانت تمر كالظلال.

وفى ليلة السابع عشر من الشهر دخلنا الحوض الثانى من البحر الذى يبلغ أعمق مكان فى قاعة ثلاثة آلاف ياردة. وقد راحت الغواصة تنساب بقوة محركاتها فى هذه الأغوار العميقة.

وهناك رأيت بدلا من العجائب الطبيعية - مشاهد بالغة التأثير. كنا فى الواقع نعبر ذلك الجزء من البحر الأبيض الذى كثرت فيه الكوارث والأحداث. فكم من سفن غرقت بين شواطئ الجزائر وبين الشواطئ الأوربية لهذه المنطقة. إن البحر الأبيض لا يعدو أن يكون بحيرة بالقياس إلى المحيط الهادئ الفسيح. ولكنه بحيرة متقلبة الأهواء، متغيرة المزاج فهى اليوم رقيقة حانية على السفن الشراعية الصغيرة المتنقلة بين السواحل المحلية التى تبدو كأنها سابحة فى جو هادئ من الماء والسماء، وهى غدًا عاصفة ثائرة الرياح تحطم أقوى السفن بضربات أمواجها الساحلية الضيقة.

ما أكثر حطام السفن التى رأيتها فى القاع أثناء مرور الغواصة السريع ! كان بعضها قد غلفته الشعب المرجانية بطبقة من الصدأ، ناهيك بالمراسى الحديدية والمدافع والقذائف، وقضبان الحديد والرفاصات وقطع الآلات، والقزانات المحطمة وبعض أجسام عائمة فى وسط الماء من سفن غارقة، وبعضها أفقى وبعضها مقلوب.

ومن هذه الكوارث ما كان وليد اصطدام سفينة بأخرى ومنها ما كان نتيجة اصطدام السفن ببعض الصخور الجرانيتية، وقد رأيت سفنًا غاصت إلى القاع رأسيًا وصواريها لا تزال مرفوعة، فبدت وكأنها راسية فى مكان رحب لا تنتظر إلا ساعة الرحيل. وحين مرت الغواصة بالقرب منها مرسلة ضوؤها الكهربائى عليها، بدت هذه السفن ذات الأشرعة وكأنها تهم بتحيتنا. ولكن كلا.. لم يكن ثمة إلا سكون الموت مخيما فوق ساحة الكوارث.

ولاحظت أن نسبة حطام السفن كانت تزداد فى قاع البحر الأبيض كلما اقتربت الغواصة من مضيق جبل طارق، حيث كانت الشواطئ الأوربية والإفريقية تزداد اقترابًا فتزداد نسبة الاصطدامات. وهكذا رأيت عددًا كبيرًا من هياكل السفن وحطام البواخر، بعضها منقلب على جانبه وبعضها منتصب كحيوانات ضخمة، وقد رأيت واحدة منها مفتوحة الجوانب مائلة المدخنة فصلت عجلة قيادتها من المقدمة وإن بقيت معلقة بسلسلة حديدية، أما المقدمة المتآكلة من الصدأ فكان لها مشهد رهيب. ترى كم من النفوس البشرية لقيت حتفها فى هذه الكوارث. وكم من الضحايا ابتعلتها هذه الأمواج.

هل عاش واحد من البحارة ليرى ما حدث فى هذه الكوارث الرهيبة، أم أبقت الأمواج على أسرارها المشئومة؟! ولست أدرى ما الذى أوحى إلى أن هذه السفينة لابد أن تكون السفينة «أطلس» التى اختفت منذ عشرين عامًا ولم يسمع عنها شىء منذ ذلك الحين. آه يا له من تاريخ مستطير ترويه أعماق البحر الأبيض!.. هنا المدفن الكبير الذى كم ضاعت فيه ثروات وكم التقى من عديد الضحايا مع الموت!

وفى خلال ذلك كانت الغواصة تنطلق بين هذه الأطلال مسرعة لاتأبه لشىء، حتى إذا كان اليوم الثامن عشر من فبراير أشرفت على مدخل جبل طارق فى نحو الساعة الثالثة صباحًا.

وفى هذا المضيق كان يجرى تياران بحريان. التيار العلوى المعروف منذ أمد بعيد يحمل مياه المحيط إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، والتيار السفلى المضاد، الذى ثبت وجوده بالتفكير والمنطق السليم. ذلك أن كمية مياه البحر الأبيض التى تضطرد زيادتها من مياه المحيط والأنهار التى تصب فيه لابد أن ترفع مستواه كل عام، ولما كانت عوامل التبخر لا تكفى لإرجاعه إلى مستواه المنخفض فيتحتم إذن وجود تيار سفلى يدفع الماء الزائد إلى المحيط عبر مضيق جبل طارق.

وقد أثبتنا نحن هذه الحقيقة إذ استفادت الغواصة من وجود التيار المضاد، واندفعت بسرعة خلال الممر الضيق، وأتيح لى أن ألمح بنظرة عابرة أطلال معبد هرقل الغارق مع الجزيرة التى شيد فوقها معبدا بلينى وأفينوس - وما هى إلا لحظات حتى كنا نطفو على سطح المحيط الأطلنطى.

الفصل الثانى والثلاثون

خليج فيجو

المحيط الأطلطنى. هذا المنبسط المائى الشاسع الذى يغطى مساحة تقدر بملايين الأميال، فإن طوله تسعة ملايين ميل وعرضه محدود لا يزيد عن ألفين وسبعمائة ميل. إنه محيط كبير الأهمية رغم أن القدماء لم يكونوا يعرفون عنه شيئًا إلا سكان قرطاجة. أولئك الملاحون القدامى الذين كانوا يتتبعون فى رحلاتهم التجارية الشواطئ الغربية لأوربا أو إفريقيا. إنه محيط تحتضن شواطئه المتوازية الملتوية حوضًا هائلاً تصب فيه أكبر أنهار العالم. سانت لورنس، والميسيسبى، والأمازون، ولابلاتا، وأدينوكو، والنيجر، والسنغال، والألب، واللوار، والراين، وهى أنهار تجلب المياه من أرقى الأمم حضارة كما تجلبها من أشدها تخلفًا. إنه سهل رائع تشقه السفن من كل الأمم بلا انقطاع، تظللها أعلام كافة الدول، وينتهى فى موضعين مخيفين يجزع منهما كل ملاّحٍ، رأس هورن، ورأس تمبست.

وكانت الغواصة تضرب الماء بمقدمتها المدببة بعد أن قطعت نحو عشرة آلاف فرسخ فى ثلاثة أشهر ونصف شهر، وهى مسافة أكبر من مدار الكرة الأرضية، ترى إلى أين نحن الآن ذاهبون؟ وماذا يخبئ لنا المستقبل؟

لقد صعدت الغواصة إلى السطح عقب خروجها من مضيق جبل طارق، وهكذا عدنا إلى نزهتنا اليومية فوق ظهرها.

لقد بادرت بالصعود إلى سطحها مع كونسايل ونيدلاند حيث رأينا رأس فنسنت يبدو عائمًا على مسافة اثنى عشر ميلا، وهو يكون الطرف الجنوبى

الغربى لشبه الجزيرة الإسبانية، وكانت الرياح تهب فى عنف يقرب من العاصفة، والبحر مهتاجًا مما جعل الغواصة تتأرجح بقوة، حتى كاد يستحيل البقاء على سطحها الذى كانت الأمواج تكتسحه بين حين وآخر، فلم يسعنا إلا العودة إلى داخلها بعد أن ظفرنا بقدر من الهواء النقى.

وعدت إلى غرفتى، ومضى وكونسايل إلى قمرته، ولكن نيدلاند تبعنى وهو يبدو مشغول البال إذ كان اجتيازنا السريع فى البحر الأبيض قد حال دون تنفيذ مشروعه للهرب، ولم يحاول كتمان استيائه لهذا السبب.

ولما أغلقت باب غرفتى جلس ينظر إلى فى صمت. فقلت له:

- يا صديقى نيدلاند إننى أعرف ما يدور بنفسك، ولكن ليس هناك ماتلام عليه. فقد كان من الجنون أن يحاول الإنسان الهرب من الغواصة وهى تنطلق بمثل هذه السرعة.

فلم يجب نيد لاند بشىء، ولكن نمت شفتاه المطبقتان وجبينه المقطب عن مبلغ سيطرة هذه الفكرة على نفسه. وعدت أقول له:

- حسنا ليس ثمة موجب لليأس بعد، إننا نسير الآن تجاه شاطئ البرتغال وإن فرنسا وانجلترا على مسافة بعيدة حيث يمكننا أن نلتمس الملاذ. ولو أن الغواصة مضت بعد خروجها من جبل طارق إلى تلك المناطق البعيدة عن اليابسة لشاطرتك الإحساس بالقلق. ولكننا نعرف الآن أن الربان نيمو لا يتجنب المناطق المتحضرة، وإذًا ففى مقدورنا بعد أيام قليلة أن ننفذ مشروعنا فى شىء من الأمان.

وحدق نيدلاند إلىَّ برهة، وأخيرًا انفرجت شفتاه قائلاً:

- سيكون التنفيذ الليلة.

انتفضت فى مكانى، وأعترف أنى لم أكن مستعدًا لهذا النبأ وقد أردت أن أجيب ولكن الألفاظ أبت أن تخرج من شفتى. فعاد يقول:

- لقد اتفقنا على انتظار الفرصة السانحة. وها هى الفرصة قد سنحت. فستكون الليلة على بعد أميال قليلة من الشاطئ الإسبانى. وسيكون الظلام كثيفًا. وإنى معتمد عليك يا مسيو أروناكس بعد أن وعدتنى.

ولما بقيت صامتًا، نهض واقترب منى قائلاً:

ـ فى الساعة التاسعة من هذه الليلة. لقد أخبرت كونسايل بالأمر. وفى مثل هذا الوقت سيكون الريان نيمو فى غرفته، وربما فى سريره. ولن يستطيع المهندسون أو البحَّارة أن يشاهدونا. وسأذهب مع كونسايل إلى السلم الرئيسى، وستبقى أنت يا مسيو أروناكس فى غرفة المكتبة، وهى غير بعيدة، حيث تنتظر إشارتنا. وزورق الغواصة مزود بالمجاديف والصارى والشراع، بل إنى استطعت تهريب بعض الزاد إليه، وقد حصلت على «مفتاح إنجليزى» لنزع الروابط الحديدية التى تشده إلى الغواصة. وهكذا تم إعداد كل شىء لهذه الليلة.

ـ ولكن البحر مضطرب.

ـ أنا مسلم بهذا، ولكن لابد من المخاطرة، إن الحرية جديرة بأن يضحى الإنسان من أجلها. وفوق هذا فإن القارب متين، والإبحار بضعة أميال مع ريح مواتية ليس بالأمر العسير، فمن يدرينا أننا لن نكون غدًا على مسافة ثلاثمائة ميل من الشاطئ إذا بقينا هنا. أما إذا ساعدتنا الظروف، فسنبلغ اليابسة أحياء أو أمواتًا فيما بين العاشرة والحادية عشرة صباح الغد، فليكن موعدنا الليلة على بركة الله.

ثم انسحب نيدلاند على الأثر وتركنى مشدوهًا. فقد كنت أتصور أنى أستطيع عندما أتحين الفرصة، أن أناقش خطة الهرب. ولكن صاحبى العنيد لم يسمح لى بهذه الفرصة وعلى أى حال ماذا كان يمكن أن أقول له. إن نيدلاند على حق. فهى فرصة سانحة، وقد استغلها. فهل كنت أستطيع أن أسترد كلمتى وأزعم ـ لمصلحتى الخاصة ـ إنى أعمل لمستقبل صاحبى؟ وقد لا يبعد أن يمضى الريان نيمو بنا غدًا إلى جهات نائية عن اليابسة.

وفى تلك اللحظة سمعت صوت فحيح قوى أدركت منه أن مستودعات الماء تمتلئ، وما لبثت الغواصة أن هبطت إلى جوف المحيط الأطلنطى.

وبقيت فى غرفتى، وتمنيت أن أتجنب الريان حتى أخفى عن نظراته الانفعالات التى تضطرم فى نفسى وإنه ليوم حزين هذا الذى أمضيته بين الرغبة

فى استرداد حريتى وبين الأسف على مغادرتى لهذه الغواصة الرائعة والتخلى عن أبحاثى البحرية قبل استكمالها. كيف أترك محيطى الأطلنطى هذا كما أحب أن أسميه، قبل أن أدرس أعماقه أو أعرف منه تلك الأسرار التى عرفتها فى بحار الهند والمحيط الهادى. لقد ضاعت قصة المغامرة من يدى وأنا مازلت فى أول مجلداتها. لقد انقطع حبل أحلامى فى أبهى موضعًا منه. إنها ساعات تاعسة أمضيتها هكذا وأنا أرى نفسى حينًا فى أمان بالزورق مع صاحبى وحينًا آخر أتمنى لو أن ظروفًا مفاجئة طرأت وحالت دون تنفيذ خطة نيدلاند.

وذهبت إلى الصالون مرتين لأنظر إلى البوصلة وأرى هل تقترب الغواصة من الشاطئ أو تبتعد عنه، فتبينت أنها لا تزال تسير فى المياه البرتغالية متجهة شمالاً بحذاء شواطئ المحيط.

ولم يسعنى إذًا إلا أن أحزم رأيى وأتأهب للهرب. ولم تكن حقيبتى ثقيلة إذ لم يكن بها سوى مذكراتى. ورحت أتساءل عما سيشعر به الربان نيمو بعد فرارنا وعن القلق الذى سيسببه له هذا الفرار أو الضرر الذى قد يصيبه، وما قد يفعله إذا اكتشفت الخطة قبل أن يكتب لها النجاح. والواقع أنى لم أجد أى مأخذ على الربان بل على العكس لم يسبغ أحد من الكرم مثلما أسبغ علينا. ولكن لا يمكن أن أتهم بالجحود إذا أنا تركته لأننا لم نرتبط معًا بقسم، وكان يعتمد على قوة الظروف وحدها فى استبقائنا معه إلى الأبد، لاعلى وعد أكيد منا. بل إن ما صارحنا به من نية الإبقاء علينا أسرى إلى الأبد فى غواصته يبرر قيامنا بهذه المحاولة.

ولم أكن رأيت الربان منذ زيارتنا لجزيرة سانتورين. فهل يقدر لى لقاؤه قبل الرحيل. لقد تمنيت هذا وخفته فى آن واحد، وأرهفت سمعى عسى أن أسمعه يتمشى فى الغرفة المجاورة فلم يصل إلى أذنى صوت، وأدركت أنه لا يمكن أن يكون بالغرفة أحد.

ثم جعلت أتساءل عما إذا كان هذا الرجل العجيب موجودًا فى الغواصة على الإطلاق!

كانت أحواله قد تغيرت قليلاً منذ ذهب زورق الغواصة فى تلك المهمة الغامضة. كما أدركت رغم كل أقواله إنه لابد على نوع من الاتصال باليابسة. أم تراه لا يغادر الغواصة قط. لقد انصرمت أسابيع كاملة دون أن أراه. فماذا كان يفعل طوال هذه المدة. ألا يحتمل وأنا أحسبه مريضًا بداء النفور من الناس أن يكون منهمكًا فى تحقيق أهداف سرية لم أستطع بعد أن أعرف طبيعتها؟

كانت هذه الخواطر وكثير غيرها تهاجمنى فى وقت واحد. وإن مجال التخيل يكون بلا حدود فى مثل هذه الظروف الشاذة. وهكذا ساورنى قلق لا يحتمل. وبدا يوم الانتظار هذا بلا نهاية حتى خيل إلىَّ من فرط القلق أن الساعة تدور ببطء.

وقدم إلى طعام الغذاء فى غرفتى كالمعتاد فأكلت قليلاً بسبب انشغال ذهنى، ونهضت عن المائدة فى الساعة السابعة وكان ثمة مائة وعشرون دقيقة لا تزال تفصلنى عن موعد انضمامى إلى نيدلاند. وازداد انفعالى واشتدت ضربات قلبى ولم أستطع أن ألزم السكون، فأخذت أتمشى لعلى بالحركة أهدئ من اضطراب ذهنى. وكانت فكرة فشل محاولتنا الجريئة أقل ما يؤلمنى. ولكن التفكير فى افتضاح مشروعنا قبل مغادرتنا الغواصة ثم وقوفنا أمام الربان نيمو وهو ساخط أو محزون لفراقى فى أسوأ الظنون كان يضاعف من خفقان قلبى.

وأردت أن أرى الصالون للمرة الأخيرة. فذهبت عن طريق وسط الغواصة. ودخلت المتحف الذى طالما أمضيت فيه ساعات جميلة. ونظرت إلى تلك الكنوز وكأنى رجل يوشك أن ينفى نفيًا أبديًا أو يذهب إلى غير رجعة. هذه العجائب الطبيعية، وهذه الروائع الفنية التى قضيت بينها كثيرًا من أيام حياتى، كنت على وشك مفارقتها إلى الأبد. وتاقت نفسى إلى النظر من النوافذ البللورية إلى مياه الأطلنطى. ولكن النوافذ كانت مغلقة بإحكام. وكانت الألواح الحديدية تفصلنى عن المحيط الذى لم أعرف عنه الكثير بعد.

ووصلت وأنا أسير فى الصالون إلى الباب المؤدى إلى الدهليز الموصل إلى غرفة الربان. وشد ما كانت دهشتى حين رأيته مواربًا فتراجعت برغمى، إذ لو

كان الريان فى غرفته لرآنى. ولما لم أسمع صوتًا زدت اقترابًا، فوجدت الغرفة خالية، ففتحت الباب ودخلت فوجدتها كالعهد بها أشبه بصومعة ناسك.

واسترعى نظرى إذ ذاك صور لم أرها من قبل فى الغرفة معلقة على الجدران: صور رجال من عظماء التاريخ الذين كرسوا حياتهم فى سبيل المثل الإنسانية العليا كوشيسكو البطل الذى خر صريعًا وهو يهتف «انتهيت يابولنيا» وبوتزارى بطل اليونان الحديثة، وأوكينل المدافع عن إيرلندا، وواشنطن منشئ الاتحاد الأمريكى، ومانينى البطل الإيطالى، ولنكولن الذى راح ضحية سفاك من ملاك العبيد، وأخيرًا جون براون ضحية تحرير الجنس الأسود، وهو معلق فى المشنقة كما صوره قلم فيكتور هوجو.

ترى أى وشائج تربط هؤلاء الأبطال بالريان نيمو؟ هل تؤدى اجتماع هذه الصور إلى إماطة اللثام أخيرًا عن سره الغامض؟ أهو بطل فى وطن مضطهد أو قائد حركة لتحرير العبيد؟ أهو إحدى الشخصيات الكبيرة ذات الأثر البالغ فى الحركات السياسية والاجتماعية المعاصرة؟ أهو أحد أبطال الحرب الأهلية الأمريكية الرهيبة. هذه الحرب التى يؤسف لها وإن كانت مجيدة رائعة.

وفجأة أعلنت الساعة الثانية مساءً. وكانت دقتها الأولى قد أعادتنى إلى عالم الحقيقة فإذا أنا أرتعد كأن ثمة عيناً خفية تستطيع أن تنفذ إلى أعماق تفكيرى. واندفعت إلى خارج الغرفة.

ولما نظرت إلى البوصلة وجدت أن الغواصة لاتزال متجهة نحو الشمال، ودل المقياس على أنها تسير بسرعة معتدلة. أما مقياس العمق فقد بدا منه أننا على عمق ستين قدمًا. وهكذا كانت الظروف مواتية لمشروع نيدلاند.

وعدت إلى غرفتى وارتديت حذائى البحرى السميك، وقبعتى المصنوعة من فراء الفقمة (سبع البحر) وصديريتى المنسوجة من ألياف البحر والمطرزة بفراء الفقمة أيضًا. وهكذا كنت مستعدًا. وجعلت أنتظر. وكان رنين الرفاص وحده يقطع السكون العميق السائد فى الغواصة. وأرهفت السمع مشفقًا أن أسمع صيحة تنبئ لتوها أن نيدلاند قبض عليه وهو يحاول الهرب وهكذا استبد بى رعب ذريع وعبثًا حاولت أن أسترد رباطة جأشى.

وقبيل التاسعة بدقائق وضعت أذنى على باب غرفة الريان فلما لم أسمع صوتًا غادرت غرفتى وعدت إلى الصالون الذى كان خالياً قليل الضوء....

وفتحت الباب المؤدى إلى المكتبة، فإذا نفس الضوء القليل ونفس الوحشة. فدخلت وقفت بالقرب من الباب المؤدى إلى رحبة السلم الرئيسى أنتظر إشارة نيدلاند.

وفى هذه اللحظة سمعت صوت الرفاص يخفت تدريجياً ثم يتلاشى تماماً. فما سبب هذا التغيير فى عملية قيادة الغواصة. لم أستطع أن أقرر إن كان هذا التوقف فى صالح نيدلاند أم لا.

ولم يكن يقطع السكون المخيم إلا ضربات قلبى.

وفجأة شعرت بهزة خفيفة فأدركت أن الغواصة استقرت فى قاع المحيط واشتد قلقى إذا لم أتلق إشارة نيد لاند وتمنيت لو ذهبت إليه ورجوته أن يرجئ محاولته. فقد أحسست أن تغيرًا حدث فى عملية القيادة العادية.

وفى تلك اللحظة فتح باب الصالون وأقبل الريان ولما لمحنى قال بغير مقدمات وفى صوت عذب:

ـ آه يابروفسور. كنت أبحث عنك.. هل تعرف تاريخ إسبانيا؟

إن كل من يحفظ تاريخ بلاده لايستطيع وهو فى حالة من القلق والاضطراب أن يذكر منه كلمة واحدة.

خطر لى ذلك بينما استطرد الريان قائلاً:

ـ حسنًا. لقد سمعت سؤالى: هل تعرف تاريخ إسبانيا؟

ـ معرفة يسيرة.

ـ هكذا شأن العلماء.. لايعرفون شيئًا خارج حدود اختصاصهم. حسنًا! اجلس. سأذكر لك حقيقة عجيبة عن ذلك التاريخ.

وتمدد الريان على أريكة وثيرة، فجلست بجانبه آليًا وظهرى إلى الضوء بينما قال:

ـ أعرنى كل اهتمامك يابروفسور، فإن هذا التاريخ سيعينك بصورة ما لأنه سيجلو مسألة لاريب أنك لم تستطع فهمها من قبل.

فقلت وأنا لاأدرى ماذا يهدف الريان من وراء هذا الحديث، وما إذا كانت له صلة بمشروع هربنا:

- إنى منصت ياكابتن.

فاستطرد الريان قائلاً:

- سأعود بك يابروفسور إلى عام ١٧٠٢ إذا لم يكن لديك مانع لقد تصور ملككم لويس الرابع عشر كما تعلم أن إشارة من الحاكم القوى تكفى لإزالة جبال البرانس من بين فرنسا وإسبانيا، وهكذا فرض على الإسبانيين حفيده دوق إنجو ولكن هذا الأمير الذى اتخذ اسم فيليب الخامس واختلفت الآراء فى حكمه، واجه معارضة قوية خارج البلاد، فقد حدث فى العام السابق، أن وقعت الأسرة المالكة فى هولندا والنمسا وإنجلترا معاهدة تحالف فى مدينة لاهاى، كان الغرض منها نزع تاج إسبانيا عن فيليب الخامس ووضعه على رأس أرشيدوق أسبغوا عليه قلب تشارلس الثالث.

وكان على إسبانيا أن تقاوم هذا التحالف، ولكنها كانت تعانى نقصًا فى المحاربين برًا وبحرًا، وإن لم يعوزها المال بشرط أن تستطيع سفنها المحملة بالذهب والفضة من أمريكا دخول الموانى الإسبانية..

والواقع أن إسبانيا فى نهاية عام ١٧٠٢ كانت تنتظر قافلة بحرية محملة بالذهب تحرسها ثلاث وعشرون سفينة من الأسطول الفرنسى بقيادة الأميرال شاتو - رينو لحمايتها ضد أساطيل الدولة المتحالفة التى كانت تجوب المحيط الأطلنطى وقتذاك.

وكان المقرر رسو هذه القافلة البحرية فى ميناء قادش. ولكن عندما علم الأميرال أن الأسطول الإنجليزى يتحرك عن كثب قرر الاتجاه إلى ميناء فرنسى، فقابل ربابنة السفن الإسبانية هذا القرار بالاعتراض - ورأوا أنه إذا لم يتيسر الوصول إلى ميناء قادش، فمن الممكن الاتجاه إلى الخليج فيجو الواقع فى القسم الجنوبى الغربى للساحل الإسبانى لخلوه من الحصار الإنجليزى.

وكان الأميرال شاتو ـ رينو ضعيف الإرادة فقبل هذا الاقتراح وهكذا دخلت القافلة إلى خلية «فيجو».

ولكن هذا الخليج لسوء الحظ كان طريقًا مفتوحًا يتعذر الدفاع عنه فكان على رجال القافلة أن يسرعوا بتفريغ حمولة السفن قبل وصول أسطول الدول المتحالفة، وفعلاً كان أمامهم متسع من الوقت لإتمام هذه المهمة، لولا أن برزت فجأة مشكلة مؤلمة سببها المنافسات.

وكف الريان فجأة عن كلامه وسألنى:

ـ هل أنت تتبع تسلسل هذا الحديث؟

فقلت وأنا لاأدرى لماذا يلقى علىَّ درس التاريخ هذا:

ـ تمامًا.

ـ إذن سأستمر. وإليك ماحدث بعد ذلك. فقد كان لتجار مدينة قادش امتياز شراء جميع البضائع الآتية من جزائر الهند الشرقية، وكان تفريغ حمولة الذهب فى ميناء فيجو انتهاكًا لامتيازاتهم. ومن ثم تقدموا باحتجاجاتهم إلى مدريد، وظفروا من الملك الضعيف فيليب الخامس بأمر ينص على بقاء حمولة الذهب فى القافلة دون تفريغ فى ميناء خليج نيمو حتى تبتعد أساطيل الأعداء عن المنطقة..

ولكن حدث فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٧٠٢ بينما كان هذا القرار قيد المداولة أن وصلت الأساطيل إلى خليج فيجو، فتصدى لها الأميرال شاتو ـ رينو، وهاجمها ببسالة رغم ضعف قواته. فلما رأى كنوز القافلة، توشك أن تقع فى أيدى الأعداء، أحرق السفائن وأغرقها إلى القاع بما فيها من ثروات ضخمة.

وأمسك الريان نيمو مرة أخرى عن الحديث. واعترف أنى لم أستطع حتى هذه اللحظة معرفة الهدف من حديثه فقلت:

ـ حسنًا.

ـ حسنًا يامسيو أروناكس. نحن الآن فى خليج فيجو. ولك أن تقرر إن كنت تحب أن تنفذ إلى أسراره.

ونهض الريان وطلب منى أن أتبعه، واستطعت فى خلال ذلك أن أسترد رباطة جأشى فأطعته وانتقلت معه إلى الصالون الذى كان مظلماً. ولكنى استطعت أن أتبين مياه البحر تبرق خلف النوافذ البللورية. فحدقت النظر.

بدت لى المياه فى محيط نصف ميل حول الغواصة، كأنما يغمرها ضوء كهربائى، وهكذا كنت أرى القاع الرملى بوضوح وقد تبينت بعض بحارة الغواصة فى ملابس الغوص يفرغون صناديق نصف معطوبة وبراميل مفككة بين الحطام الأسود المتخلف من السفن الغارقة. فكانت تنهال منها قضبان الذهب والفضة وكميات كبيرة من النقود والمجوهرات حتى غطت رمال القاع، وكان البحارة يحملون هذه الغنائم إلى الغواصة حيث يفرغونها ثم يعودون إلى حمل غيرها وهكذا.

وأدركت كل شىء. كانت هذه ساحة معركة ٢٢ أكتوبر عام ١٧٠٢ البحرية. فى هذه البقعة غرقت السفن الإسبانية المحملة بالذهب. وإليها كان الريان نيمو يجىء كلما شاء ليحصل على الملايين التى يحفظها فى الغواصة فمن أجله، ومن أجله فقط، سلمت أمريكا معدنها الثمين، إنه الوارث الأول الوحيد الذى لاينازعه أحد، لهذه الكنوز المنتزعة من قبائل الأنكاس وشعب فرديناند كورتيز المنهزم.

وسألنى الريان باسمًا:

ـ هل كنت تعرف يابروفسور أن البحر يحتوى على هذه الكنوز؟

ـ أعرف أن الفضة الغارقة فى البحار تقدر بمليونى طن.

ـ بلا ريب لكن تكاليف استخراج الفضة من الأعماق تربى على الثمن المقدر لها. أما هنا بالعكس، ماعلى إلا أن ألتقط مافقده غيرى، لا فى خليج فيجو فحسب بل فى آلاف المناطق التى كانت مسرحًا لغرق السفن، والتى حددتها بالعلامات فى خرائطى البحرية. فهل تعرف الآن لماذا أنا من كبار أصحاب الملايين؟

ـ نعم ياكابتن. ولكن اسمح لى أن أقول لك إن عملك فى خليج فيجو قد سبقت إليه شركة منافسة.

- أية شركة هذه بالله؟!

- شركة نالت من الحكومة الإسبانية حق البحث عن سفن الذهب الغارقة، وقد أغرت الأرباح الطائلة حملة الأسهم بعد أن قدروا الكنوز الغارقة بخمسمائة مليون فرنك ذهبًا.

- خمسمائة مليون فرنك ذهبًا؟ كانت الكنوز تساوى هذه القيمة من قبل، ولكنها الآن لم تعد كذلك.

- نعم. هو ذاك وإن تحذير حملة الأسهم يُعتبر من الأعمال الخيرية. ولكن من يدرى أنهم يتلقون التحذير بقبول حسن. إن أصحاب الآمال عادة لا يأسفون على ضياع المال أكثر من أسفهم على تحطيم آمالهم الجنونية على كل حال فإنى أرثى لهم أقل مما أرثى لآلاف البؤساء الذين كان يمكن أن تفيدهم هذه الكنوز لو وزعت عليهم بالعدل وبدلاً من ضياعها منهم إلى الأبد.

وماكدت أعبر عن رأيى هذا حتى أحسست أنى آلمت مشاعر الربان نيمو الذى قال بشىء من الانفعال:

- ضياعها منهم! هل تعتقد إذًا أن هذه الثروة ضائعة لأنى أنا الذى يستحوذ عليها؟ هل تعتقد أنى أتعب فى جمع هذه الثروة لأحتفظ بها لنفسى؟ من قال إننى لا أحسن استغلالها؟ هل تعتقد أنى أتجاهل آلام غيرى من البشر؟ آلام الأجناس المضطهدة فى هذا العالم. أو المخلوقات البائسة المحتاجة إلى المواساة والضحايا المحتاجين إلى من ينتصر لهم. ألا تدرك....

وأمسك الربان وكأنما ندم على أن قال كل هذا. ولكنى أدركت الحقيقة! أدركت أنه أيًا كنت البواعث التى أرغمته على التماس حريته فى أعماق البحار، فهو لايزال من البشر.. لايزال قلبه يخفق لآلام البشرية وأن مجال بره العظيم يشمل الشعوب المضطهدة كما يشمل البؤساء من الناس.

وعلى ضوء هذا فهمت لمن أرسل الربان نيمو تلك الملايين أثناء سير الغواصة فى مياه جزيرة كريت الثائرة...

الفصل الثالث والثلاثون

القارة المفقودة

فى صباح اليوم التالى التاسع عشر من شهر فبراير، رأيت نيدلاند يدخل غرفتى، وكنت أتوقع هذه الزيارة، وكانت تلوح عليه دلائل خيبة الأمل. وقال لى:

- حسناً ياسيدى.

- حسناً يانيد. كان الحظ ضدنا أمس.

- نعم فقد شاء الريان أن يجلس معك فى نفس الوقت الذى حددناه للهرب من الغواصة.

- أجل يانيد.. كان لديه عمل مع مدير مصرفه.

- مدير مصرفه؟

- نعم! أو على الأصح مع مصرفه المالى، وأعنى به المحيط الذى يأمنه على كنوزه أكثر مما يأمن عليها فى خزائن الحكومة.

ثم ذكرت لنيدلاند ماحدث فى الليلة الماضية وقد راودنى ألم دفين فى أن أجعله يكره الافتراق عن الريان، ولكن نتيجة حديثى كانت تعبيراً عنيفاً عن ندم لاند وأسفه لأنه لم يستطع السير بمفرده فى ساحة معركة فيجو.....

وأخيراً قال:

- ولكن كل شىء لم ينته بعد. إنها مجرد حربة قذفت بها ولم تصب الهدف. ولكننا سننجح فى المرة التالية هذه الليلة بالذات، وإذا لزم... فقلت:

ـ فى أى اتجاه تسير الغواصة الآن؟

فأجاب نيد:

ـ لاأعرف.

ـ حسناً سنعرف مكاننا فى الظهيرة.

وعاد نيدلاند إلى كونسايل، وماكدت أرتدى ملابسى حتى انتقلت إلى الصالون. وهناك رأيت مؤشر البوصلة فى غير صالحنا، فقد دل على أن الغواصة تتجه نحو الجنوب بجنوب غربى، أى أننا كنا نولى ظهورنا إلى أوربا.

وانتظرت بصبر نافذ نتيجة رصد الموضع. وفى الساعة الحادية عشر والنصف أطلقت المياه من خزانات الغواصة فأخذت تطفو إلى سطح المحيط. وعندئذ هرعت إلى ظهرها لقيت نيدلاند وقد سبقنى إلى هناك.

ولم يكن ثمة أرض على مرمى البصر.. لاشىء غير المحيط الشاسع فقط ولمحت عند الأفق سفناً شراعية قليلة كانت لاشك تبحث عن الريح المواتية لتستطيع اجتياز رأس الرجاء الصالح. أما الجو فكان ملبداً بالسحب وينذر بهبوب عاصفة عاتية.

وحاول نيدلاند فى ثورة غضبه، أن ينفذ بنظراته فى الأفق المغلف بالضباب وهو يعلل النفس بوجود الأرض التى يهفو إليها وراء الغيوم.

وظهرت الشمس عند الظهر، وانتهز الضابط الأول هذه الفرصة لتحديد موضع الغواصة ثم ازداد البحر هياجا، فهبطنا إلى داخل الغواصة وأغلقت منافذها.

ولما نظرت فى الخريطة بعد ساعة، رأيت أن الغواصة تسير بين خط طول ١٧ ـ ١٦ درجة وخط عرض ٢٢ ـ ٣٣ درجة، على مسافة ٤٥٠ ميلاً من أقرب شاطئ، وهكذا لم يكن ثمة فائدة من التفكير فى الهرب الآن. وإنى أترك للقارئ أن يتصور غضب نيدلاند عندما أخبرته بالموقف.

أما أنا فلم يكتنفنى حزن شديد. لقد تخففت من العبء الذى كان يثقل على نفسى وصار بوسعى أن أعود إلى أداء عملى المعتاد بهدوء.

وحوالى الساعة الحادية عشر من تلك الليلة فوجئت بزيارة الربان نيمو لى.

وقد سألنى متلطفًا عما إذا كنت متعباً بعد أن سهرت طويلاً فى الليلة الماضية؟، فلما أجبته بالنفى قال:

- إذن أقترح عليك القيام برحلة عجيبة يامسيو أروناكس:

- ماهى هذه الرحلة ياكابتن.

- لقد شاهدت قيعان البحار حتى الآن فى أضواء النهار أفلا تريد أن تراها مرة فى ظلام الليل.

- كم أود هذا.

- أعلم أنها ستكون رحلة شاقة. فإن عليك أن تمضى بعيداً، وأن تصعد جبلا كما أن الطرق ليست ممهدة كما ينبغى.

- إن ماتقوله يضاعف من فضولى وأنا على استعداد لمتابعتك.

- إذن هلم يابروفسور. وسنذهب لارتداء ملابس الغوص.

وفى مخزن الملابس لم أر صاحبى، وكان مقررًا ألا يصاحبنى أى بحار فى هذه الرحلة. بل إن الربان لم يسألنى أن أصطحب كونسايل أو نيدلاند.

وارتدينا أجهزة الغوص فى دقائق ثم وضعت على ظهورنا مستودعات الهواء ولكن المصابيح الكهربائية لم تكن معدة فلما سألت الربان فى هذا قال:

- إنها لن تكون ذات فائدة لنا.

وخيل إلىّ أنى لم أسمعه كما ينبغى، ولكنى لم أستطع أن أكرر ملاحظتى؛ لأن رأس الربان اختفى داخل الخوذة المعدنية وبعد أن فرغت من ارتداء ملابسى وضعت فى يدى عصا حديدية مشعبة الطرف وماهى إلا دقائق قليلة، بعد إتمام الإجراءات المعتادة، حتى كنا نطأ قاع المحيط على عمق ثلاثمائة ياردة.

وكان الليل يوشك أن ينتصف، ومياه البحر فى ظلام دامس، ولكن الربان نيمو أشار إلى نقطة مائلة للحمرة على بعد أشبه بضوء يتألق على مسافة ميلين من

الغواصة. فأية نار هذه وبأى وقود تضرم؟ ثم كيف ولماذا تتأجج فى وسط هذه اللجج المائية؟ ذلك ما لم أعرفه. ومهما يكن فقد أضاءت لنا الطريق، فى غير وضوح حقاً ولكن سرعان ماألفت هذه المتعة، وأدركت عندئذ عدم جدوى مصابيح رومكورف.

وسرت مع الربان نيمو جنبًا إلى جنب نحو الضوء مباشرة، وكانت الأرض المستوية ترتفع تدريجيًا ومضينا بخطوات واسعة مستعينين بالعصاوين، ولكننا كنا رغم هذا نتقدم ببطء؛ لأن أقدامنا كثيرًا ماغاصت فى نوع من الطين المغطى بأعشاب البحر والحجارة المستوية.

وسمعت ونحن نتقدم صوتاً أشبه بالنقر مؤقتاً، وكان الصوت يزداد أحيانًا كشىء ينهمر. وسرعان ماأدركت السبب. إنها الأمطار تهطل بغزارة على سطح الماء. وداخلنى إحساس غريزى بأنى سأتعرض للبلل بالماء داخل الماء. ولم أتمالك من الضحك لهذه الفكرة. ولكن الحقيقة هى أن الإنسان لايشعر بالبلل داخل ملابس الغوص بل يحس كأنه فى جو أشد كثافة من جو الأرض... هذا هو كل شىء.

وبعد مسيرة نصف ساعة، أمست الأرض صخرية وعرة. وكانت الدويبات والقشريات الميكرسكوبية والنباتات الرشيقة تضىء لنا الطريق إلى حد ما بأشعتها الفسفورية. ولمحت كومة من الصخور مكسوة بملايين الدويبات المحارية وأعشاب البحار المتكاثفة. وكثيراً ماانزلقت قدماى على هذا البساط اللزج من النباتات البحرية، ولولا عصاى الحديدية لسقطت أكثر من مرة ولما التفت ورائى لاحظت أن ضوء الغواصة مازال يبرق على البعد.

وكانت أكوام الحجارة التى تحدثت عنها متراكمة فى قاع المحيط فى شىء من الانتظام لم أستطع تفسيره. كما لاحظت وجود أخاديد طويلة تغيب نهايتها فى جوف الظلام البعيد، واستحال على تقدير أبعادها. وكان ثمة ظواهر عجيبة تبدو لى دون أن أعرف سرها. وكان يخيل لى أن حذائى الغليظ يسحق طبقة من العظام كانت تتقصف تحت وطء قدمى. ترى ما طبيعة هذا السهل الشاسع الذى

كنت أسير فيه؟ وددت لو استطعت سؤال الربان نيمو، ولكن لغة الإشارة التى كان يتحدث بها مع زملائه فى رحلاته تحت الماء كانت غامضة على مداركى.

وفى خلال هذا كان الضوء الأحمر الذى يقودنا يزداد سطوعاً وتوهجاً. والحق أن وجود هذه النار فى أعماق البحر قد أثار أشد الفضول فى نفسى. تُرى أهى ظاهرة كهربائية؟ أترانى أتقدم إلى ظاهرة طبيعية لاتزال غامضة فى أذهان علماء الأرض؟ ثم خطر لى أن يد الإنسان قد يكون لها أثر فى هذا التوهج. فهل ثمة إنسان أشعل هذه النيران؟ هل كنت فى طريقى وأنا أسير فى هذه الأعماق البحرية إلى ملاقاة زملاء وأصدقاء للربان نيمو، يعيشون عيشته العجيبة هذه، ولهذا فهو ماض لزيارتهم؟ كانت هذه الأفكار الشاذة البلهاء تدور بذهنى، وتذكر دهشتى المستمرة إزاء سلسلة الغرائب التى تمر أمام عينى، ولهذا لن يدهشنى كثيراً أن أبصر فى قاع هذا المحيط إحدى المدن البحرية التى كان الربان نيمو يحلم بها.

وازداد طريقنا ضياء، ورأيت الضوء الأبيض ينبعث من قمة جبل يبلغ ارتفاعه نحو ثمانمائة قدم. ولكن ماحسبته ضوءًا لم يكن غير انعكاس لألاء الماء. أما النار، مصدر الضوء الغريب، فقد كانت فى الجانب الآخر من الجبل.

وكان الربان نيمو يتقدم بثبات فى وسط الممرات الصخرية التى تشق قاع المحيط، وكأنه يعرف الطريق المظلم جداً بعد أن سلكه من قبل مراراً، فلن يضل فيه، وقد رحت أتبعه فى ثقة تامة. وكان يبدو وهو يسير أمامى كإحدى الجنيات البحرية، وكان يبعث شديد إعجابى بقامته الطويلة وكأنه ظل أسود على صفحة أفق مضىء.

وكانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حين بلغنا أولى سفوح الجبل، ولكن الطريق إليه كان يمتد فى ممرات وعرة بين أدغال كثيفة.

نعم.. أدغال من أشجار جافة، بلا أوراق ولاعصارة، تمعدنت بفعل مياه البحر، وتراكمت فوقها هنا وهناك أشجار الصنوبر الضخمة. كان المشهد يبدو كسلسلة من الأشجار المتفحمة ظلت قائمةً على جذورها بعد زوال التربة من

حولها. وبقيت أغصانها كرسوم سوداء مقصوصة بعناية، صاعدة فى شموخ إلى السقف المائى، وللقارئ أن يتصور غابة من الأشجار على سفح جبال هرقل مثلاً. فإذا هى تغوص مع الجبال إلى قاع المحيط وكانت الممرات مزدحمة بالشوكيات ونباتات البحر التى اكتظت بالقشريات وجعلت أرتقى الصخور، وأخطو فوق الجذوع الملقاة، وأشق المتسلقات البحرية التى تمتد من شجرة إلى أخرى كأنها الأسماك الطائرة من غصن إلى غصن، دون أن يعترينى أدنى تعب، إذ كنت أتبع مرشداً لايعرف للتعب معنى.

وياله من مشهد وقعت عليه عيناى كيف أستطيع تصويره بالقلم. كيف أصف مشاهد الصخور والغابات فى هذا العالم المائى، حيث تبدو أجزاؤها السفلى قائمةً موحشة، وأطرافها العليا محفوفة بأطياف حمراء تزيد لألاء الماء دائماً فى حمرتها... وكنا نتسلق صخور لاتلبث أن تتهاوى متفننة فى أثرنا كأنها الانهيار الجبلى. وكان عن اليمين وعن اليسار كهوف عميقة مظلمة يتوه فيها البصر. ثم شاهدت ساحات واسعة من صنع البشر. حتى لقد سألت نفسى: ألا يجوز أن يبرز لنا فجأة بعض سكان هذه الأعماق المائية؟

ولكن الربان نيمو تابع صعوده، ولم أشأ أن أتخلف عنه. وكانت عصاى ذات عون كبير لى، فإن أية خطوة فى غير موضعها تنطوى على خطر كبير فى هذه الممرات الضيقة المحفورة فى جوانب المرتفع. ولكنى مضيت بخطوات ثابتة دون أن أحس مشقة، وكنت أحياناً أثب فوق هاويات عميقة لو أنها كانت فى سفوح الجبال الأرضية لتراجعت عنها ذعراً، وكنت أحيانًا أخرى أغامر بالسير فوق جذوع الأشجار الملقاة بين هاوية وأخرى دون أن أنظر إلى ماتحت قدمى، بل كنت أشخص معجبًا إلى المشاهد الرائعة فى هذه المنطقة. وكنت أرى صخوراً موقوفة كالنصب واستقرت على حوافى الهاويات وكأنها تتحدى كل قوانين التوازن. وبين هذه الصخور كانت تبرز أشجار كأنها نافورات مائية تندفع تحت ضغط شديد، وكلاهما يدعم الآخر وأعقب هذا أبراج طبيعية وكأنها كتل ضخمة قدت طولياً كواجهة قلعة، ومائلة بزاوية ماكانت تسمح بها الجاذبية الأرضية لو كانت هذه الأبراج الصخرية على سطح الأرض.

بل إنى قد شعرت بما هناك من فارق كان مرجعه إلى شدة كثافة الماء وأنا أتسلق هذه المرتفعات الوعرة فى خفة الغزال رغم ملابسى الثقيلة وخوذتى النحاسية ونعالى المعدنية.

إنى أشعر بأن حديثى عن هذه الرحلة تحت سطح الماء غير معقول ولامحتمل، فأنا أدرج أحداثاً تبدو مستحيلة الوقوع. ورغم ذلك فهى حقيقة لانزاع فيها.. إنى لاأحلم.. بل أبصر وأحس.

وبعد ساعتين من مغادرتنا للغواصة، اجتزنا منطقة الأشجار، وعلى ارتفاع مائة قدم فوق رءوسنا لاحت قمة الجبل التى كان بروزها يلقى ظله على السفح الآخر المتألق إشعاعًا. وكان ثمة شجيرات متجردة تناثرت هنا وهناك فى متعرجات عجيبة. وكانت الأسماك تبرز من تحت أقدامنا أسراباً كطيور نافرة بين أعشاب فارعة. وكانت هذه الكتلة الصخرية تتفتح عن أقبية أو كهوف بقيعان تصدر عنها أصوات مدوية رهيبة. وكان الدم يجمد فى عروقى كلما أبصرت حيواناً بحرياً من الزواحف يعترض طريقى أو بعض المخلبيات وهى تختفى فى الكهوف. وبدت فى الظلام آلاف من النقط المضيئة هى عيون القشريات الضخمة، وسرطانات البحر الهائلة التى كانت وهى تحرك مخالبها فى صليل معدنى أشبه بحراس مدرعين، هذا إلى الكابوريا الضخمة التى بدت بزعانفها وأذرعها كوكر للأفاعى.

ترى.. ماهذا العالم العجيب الذى لم أتعرف عليه بعد؟ وإلى أى نوع تنتمى هذه الأحياء البحرية التى تحيطها الصخور بدروع إضافية؟ وأين ظفرت الطبيعة بسر وجودها، وكم مضى عليها من القرون وهى ثاوية فى أعماق المحيط؟

ولكننى لم أستطع التوقف. أما الربان نيمو فلم يحفل بهذه الحيوانات الرهيبة لاعتياده عليها. ثم وصلنا إلى الهضبة الأولى حيث كانت مفاجآت أخرى فى انتظارنا، فقد رأيت أطلالاً وخرائب تدل بوضوح على أثر ليد الإنسان، فقد كانت أكوامًا ضخمة من الأحجار على هيئة قلاع ومعابد مكسوة من الجسيمات المرجانية المزهرة، وقد علاها بدلاً من اللبلاب رداء من الطحالب والأعشاب البحرية.

ولكن أية منطقة هذه من العالم ابتلعتها الأمواج بفعل الزلازل والطوفانات؟ من ذا وضع هذه الصخور والأحجار كأنها نصب تذكارية عن أزمان ماقبل التاريخ؟ وأين أنا؟ وإلى أين جاءت بى أهواء الريان نيمو؟

واشتقت إلى سؤاله. وإذا لم يكن هذا ممكناً، فقد أوقفته وأمسكت بذراعه، ولكنه هز رأسه مشيراً إلى فوق كأنما يقول لى:

ـ لنصعد إلى أعلا فأعلا.

فاستجمعت قواى وتبعته، وبعد لحظات قليلة وصلت إلى القمة التى كانت تعلو بنحو ثلاثين قدماً كل ماحولها من أكوام الصخور.

ونظرت إلى الجانب الذى ارتقيناه، ولم يكن ارتفاع الجبل فوق الهضبة يجاوز ثمانمائة قدم أما من الجانب الآخر، فكان يبلغ ضعف هذا الارتفاع عن قاع المحيط.

وامتد بصرى إلى مساحة يضيئها وهج شديد، فأدركت عندئذ أن هذا الجبل بركان ثائر إذ رأيت على مسافة خمسين قدماً أسفل القمة، وبين وابل من الصخور والشوائب فوهته الواسعة وهى تقذف سيلاً من اللابا المنصهرة التى كانت تنهمر كشلالات من النيران فى قلب اللجج المائية. وهكذا كان البركان فى موضعه هذا كشعلة هائلة تضىء السهل الخفيض إلى نهاية الأفق.

لقد ذكرت أن فوهة البركان الغاطس تقذف باللابا المنصهرة. وليس بالنار، ذلك أن أوكسجين الهواء، الضرورى لإشعال اللهب، كان غير موجود فى الماء. ولكن سيول اللابا المنصهرة كانت تتغلب فى زحفها على العناصر المائية وتحولها بالاحتكاك إلى بخار، وكانت التيارات السريعة تحمل الخليط الغازى بعيداً، بينما تنزلق سيول اللابا إلى سفح الجبل كأنها ثورات بركان فيزوف بإيطاليا.

وهناك.. أمام عينى... رأيت أطلال مدينة مخربة، مدمرة، منقلبة رأسًا على عقب، منهارة الأسقف متداعية المعابد، مفككة العقود، رقدت على الأرض أعمدتها البادى عليها طراز الهندسة التوساكانية، وعلى مسافة أخرى رأيت بقايا قناة مائية كبيرة، وأساس معبده لاوكروبولس، وبقايا ملعب كالبارثينون وآثار

أرصفة ميناء بحرى كان يؤوى سفنًا بخارية وقطعًا بحرية حربية، وفيما وراء هذا رأيت خطوطاً طويلة من الجدران المخربة، وشوارع واسعة مهجورة. وصفوة القول رأيت مدينة بومبى أخرى مدفونة تحت الماء رفعها لعينى من مرقدها الربان نيمو..

أين أنا.. أين أنا؟.. هذا ماوددت أن أعرفه بأى ثمن، وشعرت أنه لابد لى من الكلام فحاولت رفع الخوذة المحيطة برأسى ووجهى. ولكن الربان نيمو أسرع إلى وأوقفنى بإشارة. ثم تناول قطعة حجر طباشيرى ومضى إلى صخرة البازلت الأسود وخط هذه الكلمة الوحيدة:

«أطلانتيس»......

ماأسرع شعاع المعرفة الذى ومض فى ذهنى عندئذ. الأطلانتيس. جنة فيوبومبى القديمة. أطلانتيس أفلاطون. القارة التى أنكر وجودها أوريميم، وجامبليكو، ودانفيل، ومالتبرون، وهامبولد، أولئك الذين وضعوا قصة اختفائها بين قصص الأساطير والخرافات، القارة التى آمن بوجودها بوسيدنيوس وبطليموس، وأميانوس، ومارسيلنوس، وترتليان، وانجل، وشيرر، وتونفورت، وبانون، ودافيزال، هذه القارة ماثلة أمام عينى الآن، تحمل الأدلة الناطقة على كارثتها، هذه هى المنطقة الغارقة التى كانت تقع فيما وراء أوربا وآسيا والصحراء الليبية، وفيما وراء أعمدة هرقل، حيث عاش البطل أتلانتييدس الذى شنت عليه حروب الإغريق الأولى.

إن المؤرخ الذى دون الأحداث العظيمة فى تلك الأزمنة البطولية كان أفلاطون نفسه، وإن حواره بلسان فيموتيوس وكريتياس إنما سطرت بإيحاء من صولون الشاعر المشرع.

فقد حدث ذات يوم أن كان صولون يتحدث إلى جماعة من حكماء مدينة سايس وهى مدينة كان عمرها عندئذ ثمانمائة عام كما يشهد بذلك التقويم السنوى المحفور على جدران معابدها المقدسة. وقد سرد أحد هؤلاء الحكماء تاريخ مدينة أخرى أقدم ألف سنة من الأولى. هذه المدينة الإغريقية التى كانت

منذ تسعمائة قرن، قد تعرضت للغزو والدمار على أيدى الأطلانتيسيين. وذكر الرجل أن أولئك الأطلانتيسيين كانوا يعيشون فى قارة ضخمة أكبر من إفريقيا وآسيا معاً، وتقع فيما بين خطى العرض الثانى عشر والرابع عشر شمال خط الاستواء. وكان سلطانها يمتد حتى حدود البلاد المصرية وقد أراد سكانها أن يبسطوا نفوذهم على بلاد الإغريق، ولكنهم اضطروا إلى التراجع أمام المقاومة الهيلينية العنيفة، وانصرمت القرون، وحدث انشقاق فى الكرة الأرضية مصحوباً بالزلازل والطوفانات، واختفت هذه القارة فى يوم وليلة، حتى لم يبق من مرتفعاتها غير جزائر ماديراس، وآزور، وكناريا ورأس فيرد.

تلك هى الذكريات التى ابتعثها الريان نيمو فى ذهنى بكلمته المكتوبة، وعلى هذه الصورة ساقتنى تصاريف القدر العجيبة إلى السير فوق جبل من جبال هذه القارة. لقد لمست بيدى أطلال هذه القارة التى ثبت وجودها ومعاصرتها للأحقاب الجيولوجية. هأنا أسير حيث سار معاصرو الإنسان الأول فى هذه الدنيا. وهأنا أسحق بنعل حذائى الثقيل عظام حيوانات العهود الأسطورية التى كانت هذه الأشجار المتحجرة الآن تضفى عليها ظلالها.

الا ليت الوقت كان متسعاً أمامى. كم تمنيت لو أنى هبطت هذه السفوح المنحدرة فى الجانب الآخر من هذا الجبل. ثم تجولت فى أرجاء هذه القارة الضخمة التى كانت تربط ولاشك بين إفريقيا وأمريكا. وزرت مدنها التى قامت قبل التاريخ. ربما كانت تمتد أمام نظرى الآن، ميادين كينوس الحربية ومعابد أيسبيوس حيث كان سكانها العمالقة يعيشون قروناً كاملة، وهم الذين استطاعوا بقوتهم الخارقة تشييد هذه المبانى والقلاع التى صمدت لتأثير المياه طوال تلك الأحقاب. وليس بمستبعد أن ترفع بعض الظواهر البركانية الثائرة ذات يوم هذه المناطق إلى سطح البحر! وكنت فى خلال ذلك أسمع دويا ينبئ عن معركة العناصر الطبيعية الهائلة.

كما شاهدت الشوائب البركانية تطفو على سطح الماء مما يدل على أن كل هذه الأرض الغارقة الممتدة حتى خط الاستواء لاتزال مسرحاً للقوى الطبيعية الثائرة

تحت الأرض. ومن يدرى فربما جاء يوم تبرز فيه قمم هذه الجبال الغارقة إلى ما فوق سطح الماء بفعل الثورات البركانية وتراكم مواد اللابا بعضها فوق بعض.

وبينما كنت غارقاً فى أحلامى تلك محاولاً أن أنقش كل دقائق هذا المشهد الرائع فى ذهنى. وقف الربان نيمو متكئاً بذراعه على طلل مكسو بطحالب البحر، فى سكون تام كأنه تمثال للتأمل الصامت. ترى هل كان يحلم بالعصور السحيقة ويسألها عن مصائر البشرية وأسرارها عن هذه البقاع أكان يلجأ هذا الرجل العجيب إلى موطن الذكريات التاريخية ليعيش فى جو هذا العالم القديم. وهو الرجل الذى لايربطه شيء بعصرنا هذا. إننى ماكنت أتردد فى التضحية بكل شيء لكى أعرف مايدور بذهنه من أفكار، ولكى أشاركه إياها وأفهم كنهها.

ولبثنا فى هذه البقعة ساعة كاملة، نتأمل ذلك السهل الشاسع فى ضوء اللابا التى كانت تتكاتف أحياناً إلى حد عجيب. وكان الفوران الداخلى يهز جوانب الجبل فى اختلاجات سريعة، أما الأصوات العميقة التى تنتقل بوضوح فى هذا الوسط المائى فكان لها أصداء مضاعفة رائعة.

وفى تلك اللحظة لاح القمر برهة خلال اللجج وأرسل أشعته الشاحبة على القارة الغارقة. ولم تكن إلا ومضة سريعة، ولكن كان لها تأثير بالغ فقد انتصب الربان وألقى نظرة أخيرة على السهل العظيم ثم أشار إلى بيده لكى أتبعه.

وهبطنا الجبل مسرعين وبعد أن اجتزنا الغابة المتعدنة مرة أخرى لاح لنا كشاف الغواصة يتألق كنجم. وسار الربان إلى الغواصة قدماً، فوصلنا إليها وتباشير الفجر تلون سطح المحيط.

الفصل الرابع والثلاثون

منجم الفحم فى أعماق البحر

فى اليوم التالى، العشرين من شهر فبراير، استيقظت فى ساعة متأخرة. ذلك أن إجهاد الليلة السابقة قد أطال نومى حتى الحادية عشرة صباحًا. وارتديت ملابسى على الفور إذ كنت متلهفًا لمعرفة اتجاه الغواصة. وأنبأتنى الآلات أننا نمر جنوبيًا بسرعة عشرين ميلاً فى الساعة وعلى عمق مائة ياردة.

وأقبل كونسايل، فأخبرته بتفاصيل رحلة الأمس ، وقد تيسر له من خلال نوافذ الصالون البللورية المفتوحة أن يرى لمحات من القارة الغارقة.

والواقع أن الغواصة كانت تسير على ارتفاع عشر ياردات فقط من سفح قارة الأطلانتيس. كانت تطير كأنها بالون تدفعه الريح فوق سطح الأرض، ولكن الأصح أن نقول إننا كنا فى الصالون أشبه بركاب فى مقصورة قطار سريع. وكنا نرى أمامنا صخورًا عجيبة الشكل، وغابات تحولت من مملكة النبات إلى مملكة المعادن وكانت هياكلها الثابتة تبدو تحت الأمواج.

هذا إلى أكوام من الصخور مدفونة تحت أبسطة من الطحالب وشقائق النعمان فى أشكال تتخيلها أذرعًا راسية من النباتات المائية، وكتل من اللابا الملتوية فى أشكال عجيبة تشهد بما فى باطن الأرض من فوران وثورة.

وبينما كانت هذه المشاهد تتألق فى ضوء كشاف الغواصة الكهربائى، جعلت أحدث كونسايل عن تاريخ قارة الأطلانتيس التى ألهمت بايلى بصفحات عديدة رائعة من الخيال الرائق. ثم حدثته عن حروب سكانها الأبطال.

وناقشت معه موضوع هذه القارة بلهجة إنسان لم يبق لديه شك فى وجودها. ولكن كونسايل لم يحفل كثيرًا بهذا الدرس التاريخى، وسرعان ما أدركت السبب.

كانت أفواج عديدة من الأسماك قد أثارت انتباهه، وعندما تتراءى الأسماك لعينى كونسايل فإنه يستغرق استغراقًا كاملاً فى عملية تصنيفها ناسيًا العالم المحيط به. فلم يسعنى فى هذه الحالة إلا أن أحذو حذوه وأشاركه دراسته علم الأحياء المائية.

ولكن أسماك الأطلانطى لم تكن تختلف كثيرًا عن تلك التى رأيناها فى مناطق أخرى. كانت من نوع الراى أو الشفنين. ضخمة الحجم. طول كل منها خمس ياردات، وذات قوة عضلية هائلة تتيح لها القفز إلى ما فوق سطح البحر، ونمور بحر من مختلف الأنواع، بينها النوع الأغبر الذى يبلغ طوله خمسة عشر قدمًا، والذى يمتاز بأنياب مثلثة حادة، ولقشرته شفافية تجعله لايكاد يبين فى داخل الماء. وسمك الساجريا البنى والهيومانتين المنشورى الشكل المكسو بجلد درقى، وسمك الحنش الذى يشبه سمك القنجر فى البحر الأبيض، والسمك الأتون، وطو ل الواحدة نحو قدم ونصف قدم، لونها أصفر قاتم؛ وزعانفها رمادية وهى بلا أسنان ولا لسان. ولكنها ناعمة ولينة كالثعابين.

ولاحظ كونسايل بين الأسماك العظمية سمك الماكرياس المسود اللون، وطول كل سمكة ثلاث ياردات، مسلح فكها الأعلى بنصل نافذ. وسمك الزباء الزاهى اللون، المعروف فى عهد أرسطو باسم «تنين البحر» والذى يصعب الإمساك به لصغر حجم زعانفه الصدرية. وسمك الدوريد الجميل و«الليونارکزوستون» أى سمك الزمرد الفضى المزود بأقراص سماوية الظلال إذا سطعت عليها أشعة الشمس، بدت كنقاط الفضة . وأخيرًا سمك الكوسج أو سمك السيف - وطول السمكة ثمان ياردات، وهو يسبح فى أفواج كبيرة، بزعانف صفراء منجلية الشكل ونصال طولها ستة أقدام، وهى حيوانات مائية جريئة أميل إلى أكل النبات منها إلى أكل اللحوم.

ولكنى لم أغفل وأنا أتفحص الأنواع المختلفة من الحيوانات والأحياء المائية عن مراقبة سهول قارة الأطلانتيس فى الوقت نفسه، وكانت طبيعة الأرض

المتعرجة صعودًا أو هبوطًا ترغم الغواصة على تخفيف سرعتها وهى تنساب ببراعة الحيتان فى الممرات الضيقة بين التلال. فإذا لم يكن ثمة منفذ فى الممر ارتفعت الغواصة كالبالون، حتى إذا اجتازت العقبة استأنفت سرعتها على بعد ياردات من القاع. وكانت براعة قيادتها تذكرنى بحركات بالون هوائى فى إحدى رحلاته، مع فارق مهم، هو أن الغواصة تخضع فى سيرها لتوجيه قائدها.

وفى نحو الرابعة بعد الظهر أخذت الطبقة الأرضية المكونة عمومًا من الطين السميك ومن الأغصان المتعدنة تتغير تدريجيًا، فأمست أكثر صخرية، وبدت كأنها مغطاة بكتل من أحجار البازلت وقطع من اللابا والزجاج البركانى الكبريتى، ولذلك خطر لى أن سلسلة من الجبال سوف تعقب هذه السهول الطويلة. وقد تحقق هذا فقد رأيت أثناء سير الغواصة الأفق الجنوبى مسدودًا بجدار صخرى لامنفذ فيه، ويبدو أن قمته كانت ترتفع فوق سطح البحر وقد يكون هذا الجدار الصخرى جبلاً يحدد قارة أو تتكون من قمته جزيرة على الأقل. فإذا كانت الأخيرة فهى إما أن تكون جزيرة كنارى أو إحدى جزر رأس فيرد. ونظرًا لأن مكاننا لم يحدد بعد، وربما كان ذلك عمدًا فإنى لم أستطع أن أعرف أين نحن، وعلى أى حال بدا لى هذا الجدار الصخرى حدًا تنتهى عنده قارة الأطلانتيس التى لم نشهد منها غير القليل.

ولم تتوقف رؤيتى للأشياء بحلول الليل. وكان كونسايل قد أوى إلى غرفته، وراحت الغواصة التى أبطأت فى سيرها قليلاً تنساب فوق أكوام الصخور، تكاد تلمسها أحيانًا كأنما توشك أن تستقر فوقها، وأحيانًا أخرى ترتفع إلى سطح الماء.

ولم يطل بى الوقت حتى لمحت بعض الأجرام السماوية المنيرة تبدو من خلال المياه الشفافة أو على التحديد رأيت خمسة أو ستة من هذه النجوم البرجية الدائرة فى فلك كوكب الجوزاء.

وكان بودى أن أطيل المكث أمام هذه النافذة البللورية لأمتع بصرى بجمال الماء والسماء لولا أنها أغلقت، وكانت الغواصة عندئذٍ جد قريبة من الجدار

الصخرى، فلم أعرف ماذا يكون بعد هذا ، ومن ثم لم ألبث أن عدت إلى غرفتى، وبدا لى أن الغواصة لاتتحرك. فقصدت إلى الفراش وفى نيتى أن أستيقظ بعد ساعات قليلة من النوم.

ولكن الساعة كانت الثامنة من صباح الغد عندما ذهبت إلى الصالون ونظرت إلى جهاز العمق فعلمت أن الغواصة تطفو على سطح الماء، وترامى إلى سمعى وقع أقدام على سطحها، ومع ذلك لم تكن الغواصة تهتز كما يحدث وهى بين الأمواج العليا.

وقد ذهبت إلى المنفذ المؤدى إلى السطح فكان مفتوحًا ولكن بدلاً من ضوء النهار الذى كنت أنشده صافحنى ظلام كثيف. ترى أين نحن؟ هل أخطأت التقدير، أم مازلنا فى الليل؟ لا... لم يكن ثمة نجم يتألق ، ولا يكون الليل بمثل هذه الظلمة.

وفيما كنت حائرًا إذ سمعت صوتًا يقول لى:

- أهذا أنت يابروفسور؟

- آه.. كابتن نيمو... أين نحن الآن؟

- تحت الأرض يا بروفسور.

فهتفت قائلاً:

- تحت الأرض، والغواصة لاتزال طافية؟

- نعم. لاتزال طافية.

- ولكننى لا أفهم.

- انتظر قليلاً. فسوف يضاء كشافنا الكهربائى، وإذا أردت أن تعرف حقيقة الأمر فسيكون لك ما تريد.

وصعدت إلى السطح وجعلت أنتظر. وكان الظلام حالكًا بحيث لم أستطع رؤية الربان نيمو. ولكن حين نظرت إلى أعلى خيل إلىَّ أنى أرى ضوءًا باهتًا،

أشبه بالشفق يبدو من فتحة مستديرة، وفى تلك اللحظة أضىء الكشاف فجأة فإذا بريقه يؤدى إلى اختفاء ذلك الضوء الباهت.

وأغمضت عينى برهة مبهورًا بالضوء الكهربائى ولما فتحتهما شاهدت الغواصة راسية إلى شاطئ كرصيف ميناء، وكان البحر الذى استقرت فوقه مجرد بحيرة محاطة بجدران دائرية، قطرها ميلان ومحيطها ستة أميال. وكان مستوى مائها - كما دل مقياس العمق - كمستوى الماء الخارجى إذ كان ولا شك ثمة اتصال بين مائها وماء المحيط الخارجى. وكانت الجدران الصخرية العالية المنحدرة عند القاعدة، دائرية كالقبو مكونة ما يشبه الكهف المقلوب، ويبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ قدم، وفى نهايتها فتحة مستديرة كانت مصدر الضوء الباهت الذى لمحته وكان ولا شك ضوء النهار.

وقبل أن أفحص الجوانب الداخلية لهذا الكهف الهائل، وقبل أن أتساءل ما إذا كان من صنع الإنسان أم الطبيعة، قلت للربان نيمو:

- أين نحن؟

- فى قلب بركان خامد.. بركان اقتحمت مياه البحر داخله بعد إحدى الهزات الأرضية العنيفة. وبينما كنت نائمًا يابروفسور، نفذت الغواصة إلى هذه البحيرة بواسطة قناة طبيعية مفتوحة على عمق عشر ياردات تحت سطح المحيط وهذا مرفأ آمن صالح، خفى مصون من كل الرياح... نعم لا يمكن أن تدلنى فى كل شواطئ عالمك الأرضى وجزره على مرفأ يضارع هذا فى الاحتماء من أعنف الزوابع.

- أنت فى أمان هنا يا كابتن حقًا. فمن ذا يجرؤ على الوصول إليك فى قلب بركان كهذا؟ ولكن... ألم تلاحظ وجود فتحة فى القمة؟

- نعم. إن القمة هى فوهة البركان التى كانت يومًا تقذف بالحمم واللابا والدخان ولكنها الآن منفذ للهواء اللازم للتنفس.

- ولكن أى جبل بركانى هذا؟

ـ إنه إحدى الجزيرات الكثيرة المتناثرة فى هذا البحر.. إنه مجرد صخر ضخمة لدى السفن ولكنه لنا بمثابة مأوى ضخم، لقد اكتشفته مصادفة، وطالما أسدت إلى المصادفات أجل الخدمات.

ـ ولكن ألا يمكن أن يهبط أحد بواسطة الفتحة المكونة لفوهة البركان؟

ـ لا.. هذا مستحيل استحالة صعودى أنا عن طريقها. ذلك لأن الصعود ممكن إلى مدى أربعمائة قدم من قاعدة الجبل.. أما بعد ذلك فمن المستحيل تسلق الجدران.

ـ آه.. فهمت يا كابتن أن الطبيعة عون لك دائمًا فى كل مكان. أنت آمن فى هذه الجزيرة ولا يستطيع أحد سواك أن يزور مياهها. ولكن ماذا تبغى من هذا الملاذ؟ إن الغواصة فى غير حاجة إلى مرفأ.

ـ صدقت يا بروفسور ولكنها فى حاجة إلى كهرباء... إلى العناصر المولدة للكهرباء، وإلى الصوديوم الذى يغذى هذه العناصر وإلى الفحم الذى يصنع الصوديوم وإلى مناجم الفحم لاستخراجه منها. وتصادف أن البحر هنا يغطى غابات كاملة دفنت فى الأحقاب الجيولوجية، وأصبحت الآن متعدنة وتحولت إلى مناجم فحم لا ينضب معينها.

ـ إذًا فإن رجالك هنا يؤدون أعمال المعدنيين؟

ـ تمامًا. إن هذه المناجم ممتدة تحت الماء كمناجم الفحم فى نيوكاسل. وهنا يعمل رجالى وهم بملابس الغوص معهم المجارف والمعاول على استخراج الفحم الذى لا يمكن الحصول عليه من مناجم الأرض. وعند حرق هذا الفحم لاستخراج الصوديوم فإن الدخان المتصاعد من فوهة البركان يكسبه مظهر البركان الحى...

ـ هل سنرى رجالك أثناء العمل؟

ـ لن يكون ذلك فى هذه المرة على الأقل، لأنى متعجل لمواصلة رحلتنا حول العالم المائى. ولهذا سأكتفى بأخذ كمية من الصوديوم المختزن الذى أمتلكه هنا.

ويكفى يوم واحد لشحنها إلى الغواصة ثم نستأنف رحلتنا. فإن كنت تحب تفقد هذا الكهف والقيام بجولة فى البحيرة فانتهز فرصة هذا اليوم يا مسيو أروناكس.

فشكرت الربان نيمو وذهبت للبحث عن صاحبى اللذين لم يغادرا مقصورتهما بعد. وقد طلبت إليهما أن يتبعانى دون إبلاغهما أين هما.

وصعدا معى إلى سطح الغواصة. ولم يستغرب كونسايل الذى لا يدهشه شىء، أن يستيقظ ليجد نفسه تحت جبل بعد أن نام وهو تحت البحر. أما نيد لاند فكان تفكيره منحصرًا فى التماس مخرج آخر لهذا الكهف.

وبعد طعام الإفطار، فى نحو العاشرة صباحًا، هبطنا إلى شاطئ البحيرة حيث قال كونسايل:

- ها نحن أولاء مرة أخرى على الأرض.

فقال نيدلاند:

- إننى لا أسمى هذا المكان أرضًا وفضلاً عن هذا فلسنا فوق الأرض بل تحتها...

وكان ثمة شاطئ رملى يمتد بين قاعدة الجبل المنحدرة وبين حافة مياه البحيرة يبلغ اتساعه فى أعرض موضع منه خمسمائة قدم، وكان من السهل القيام برحلة حول البحيرة على هذا الشاطئ، ولكن قاعدة الجبل المنحدرة كانت من تربة غير ممهدة تستقر فوقها كتل بركانية وقطع ضخمة من حجارة الخفاف فى أشكال عجيبة، كستها النيران الجوفية بالميناء المصقولة مما جعلها تتألق فى ضوء الكشاف الكهربائى. وكان الغبار البركانى يثور على الشاطئ تحت أقدامنا كسحب من الشرر.

وكانت الأرض ترتفع تدريجيًا بعد حافة الماء، وسرعان ما وصلنا إلى منحدرات طويلة معروقة مدرجة مما أتاح لنا أن نرتقيها على مراحل. ولكن كان علينا أن نسير فى حذر بين هذه الكتل المتخلخلة التى خلت من أسمنت يشد بعضها إلى بعض. وكانت أقدامنا تنزلق على الصخور البركانية الملساء المكونة من

الزجاج والحجارة المعدنية والكوارتز.

والحق أن الطبيعة البركانية فى ذلك الكهف الواسع كانت واضحة فى كل ناحية منه وقد عبرت عن رأيى هذا لصاحبى قائلاً:

ـ هل يمكن أن نتصور كيف كان هذا الكهف الضخم يبدو وهو ممتلئ باللابا الفائرة المتصاعدة إلى فتحة الجبل وهى تسيل على جوانبه كما يسيل المعدن المصهور على جوانب الأتون؟.

فقال كونسايل:

ـ إننى أستطيع أن أتصور تمامًا. ولكن هل يستطيع سيدى أن يخبرنا لماذا توقف هذا البركان الكبير عن الفوران، وكيف تحول أتون الحمم إلى مياه بحيرة هادئة.

ـ من المحتمل يا كونسايل أن الهزات الأرضية تسببت فى حدوث تصدع تحت سطح المحيط الذى نفذت منه الغواصة ونتيجة لذلك تدفقت مياه الأطلنطى إلى جوف هذا الجبل. لا تنس أن هناك معركة بين عنصرى الماء واليابسة، وهى معركة كانت لصالح الماء. ولكن أحقابًا عديدة انصرمت منذ ذلك الحين، وما لبث البركان الثائر أن استحال إلى هذا الكهف الهادئ.

فقال نيدلاند:

ـ حسنا جدًا.. لقد قبلت هذا التفسير، ولكن مما يؤسف له ـ إذا نظرنا إلى جانب المصلحة ـ إن هذا الشق لم يحدث فى جبل فوق مستوى ماء البحر.

فقال كونسايل:

ـ ولكن.. لو لم يكن هذا الممر تحت سطح البحر، لما استطاعت الغواصة أن تنفذ منه.

فقلت:

ـ ويمكننى أن أضيف إلى هذا أن الماء ما كان ليندفع من الشق تحت البركان وكان البركان يظل ثائرًا حتى الآن. وإذًا فلا جدوى من المناقشة.

وتابعنا الصعود والجوانب تزداد انحدارًا وضيقًا. وكانت بعض الكتل البركانية تعترض سبيلنا أحيانًا فنضطر إلى عبورها، وكان علينا أن نتجنب الاصطدام بالكتل المعلقة. وكنا نزحف على أيدينا وركبنا ثم استطعنا أخيرًا بفضل براعة كونسايل وقوة نيدلاند أن تجتاز كل العقبات.

وعلى ارتفاع عشرة أقدام تغيرت طبيعة الأرض، فبدلاً من الصخور المصقولة والأحجار البركانية وجدنا صخور البازلت الأسود ممتدة فى طبقة زاخرة بالحصى، بعضها على شكل المنشورات المتساوية الأضلاع، موضوعة فى هيئة أعمدة ترتكز عليها جوانب الكهف الضخم، وتكون فى مجموعها لونًا رائعًا من هندسة الطبيعة. ومن هذه الصخور البازلتية امتدت جداول متعرجة مكونة من اللابا الباردة المقلمة بخطوط قارية، وكانت تتسع أحيانًا فتبدو كأبسطة كبريتية حية. وكان ثمة ضوء قوى ينساب من الفوهة العليا ويرسل وميضًا غائمًا فوق المنخفضات البركانية المدفونة إلى الأبد فى قلب هذا الجبل الهامد.

ومهما يكن فإن صعودنا لم يلبث أن توقف على ارتفاع مائتين وخمسين قدمًا بسبب عوائق لا سبيل إلى اجتيازها، وكان فوقنا سقف مقبو لا يمكن الصعود إليه، واستحال طريقنا إلى جدران دائرية، وهنا بدأت مملكة النبات كفاحها ضد مملكة المعادن. فقد رأيت بضع شجيرات بل بعض أشجار تمتد من شقوق الجوانب، وقد تعرفت منها على نبات العنجد بعصارته الحارقة تسيل على جوانبه وشجر اليمام «الهليوتروب» الذى يدور مع الشمس أينما تدور، ولكنه كف هنا عن التطلع للشمس لأن أشعتها لا تصل إليه قط. ولذلك كانت أوراقه تتدلى فى تخاذل، وكانت ألوانها شاحبة، ورائحتها زائلة. وكانت أزهار الكريزنتيوم تنمو على استحياء عند أقدام أعواد الند وقد سقمت أوراقها الطويلة. وقد لاحظت بين خطوط اللابا وجود أزهار بنفسج كانت لها رائحة عطرية خفيفة. وأعترف أنى شممت رائحتها فى ابتهاج فإن العطور هى روح الزهور، أما أزهار البحر - الهيدرونيت البديعة - فإنها بلا روح.

وكنا قد وصلنا عند القاعدة إلى مجموعة من أشجار التين القوية التى دفعت الصخور جانبًا بقوة جذورها وهنا هتف نيدلاند قائلاً:

- عجبًا .. هذه خلية نحل.

فقلت فى لهجة تنم عن دهشة صادقة:

- خلية نحل!..

- نعم النحل يطن حولها...

ولم يسعنى حين اقتربت إلا الاعتراف بالأمر الواقع. فقد رأيت فى مدخل فجوة بجذع شجرة التنين بضعة آلاف من هذه الحشرات العاملة المعروفة فى جميع جزر الكناريا والتى يقدر الجميع إنتاجها كل تقدير.

وقد أراد نيدلاند طبعًا أن يظفر بكمية من الشهد، ولم يكن من الكياسة أن أنفس عليه هذه الرغبة، وسرعان ما قدح الزناد وأشعل النيران فى بعض الأوراق الجافة الممزوجة بالمواد الكبريتية؛ ومالبث الدخان أن طرد من الخلية النحل. فإذا الطنين يخف تدريجيًا وإذا نحن نظفر من الخلية ببضعة أرطال من العسل وضعها نيدلاند فى جعبته وهو يقول:

- عندما أمزج هذا العسل بعجينة من دقيق العظام، فسأقدم لكما كعكة شهية.

فقال كونسايل:

- ستكون طيبة المذاق كفطيرة الزنجيل.

فقلت:

- لتكن إذًا فطيرة الزنجبيل ولكن هيا نتابع رحلتنا الممتعة.

وفى بعض المنعطفات التى اجتزناها بدت البحيرة على أتم سعتها، وكان الكشاف الكهربائى يضىء سطحها الساجى الهادى الذى لا أثر للموج فيه.

وكانت الغواصة مستقرة فى موضعها وكان بحارتها فوق السطح على رصيف المرفأ يبدون كظلال سوداء مرسومة بوضوح فى الضوء.

وكنا فى تلك اللحظة ندور حول أعلى قسم من طبقات الصخور التى يرتكز عليها السقف. وقد رأيت عندئذٍ أن النحل لم يكن الممثل الوحيد للمملكة

الحيوانية فى داخل هذا البركان، إذ شاهدت طيورًا برية تحلق وتدور هنا وهناك فى الظلام. تنفر من أوكارها المستقرة على أطراف الصخور.

وكان ثمة بواشق بصدورها البيضاء وأفراخها الزائطة. وعلى مهابط المنحدرات كانت طيور الحبارى السمينة تتواثب بكل ما فى سيقانها الطويلة من سرعة. وللقارئ أن يتصور نيدلاند وهو يبدى لهفته إلى هذا الصيد الدسم ويأسف لخلو يديه من البندقية. وقد حاول أن يستبدل الحجارة بالرصاص، وبعد عدة محاولات فاشلة استطاع أن يصيب طائرًا بديعًا. والواقع أنه غامر بحياته عشرين مرة قبل أن ينجح فى إصابته، ولكنه استطاع أخيرًا أن يضمه إلى كمية العسل فى الجعبة.

وصار لزامًا علينا أن نهبط نحو الشاطئ بعد أن استحال الاستمرار فى الصعود. وكانت فوهة البركان المفتوحة تبدو كفتحة البئر. ومن مكاننا يتهيأ لنا أن نرى السماء بوضوح. وقد شاهدت السحب المضطربة تلمس أطراف الجبل بأجنحتها الرطيبة وهى تتدفع أمام الرياح الغربية. وكان ذلك دليلاً على أنها سحب منخفضة لأن البركان لم يكن يرتفع أكثر من ثمانمائة قدم فوق سطح البحر.

وبعد نصف ساعة من مغامرة نيدلاند مع الطائر، وصلنا إلى الشاطئ الداخلى، وهنا رأينا المملكة النباتية ممثلة فى أبسطة كبيرة من البللورات البحرية وهى نوع من النباتات الطحلبية، ذات قدرة كبيرة على البقاء، كما تحمل أسماء مختلفة منها «السمار» وقد جمع كونسايل حزمًا منها. أما المملكة الحيوانية فيمكن إحصاء آلاف القشريات من كل نوع، والسرطانات البحرية، والجنبرى والكابوريا وأنواع من الحرباءات وكميات كبيرة من المحار والركنيش، و «أنواع من السمك» والبطلينوسات نوع من الأسماك الصدفية.

وفى ذلك المكان وجدنا مغارة صغيرة رائعة، وشد ما كانت بهجتى وصاحبى عندما رقدنا على رمالها الناعمة وكانت النيران قد صقلت جدرانها اللامعة المكسوة بالميناء المموهة بالميكا. ونقر نيدلاند على الجدران ليعرف مبلغ سمكها فلم أتمالك عندئذٍ من الابتسام ثم تطرق الحديث إلى مشروعات الهرب الخالدة،

وبدا لى أن أمد له فى حبل الأمل بقولى إن الربان نيمو لم يأت إلى هذه المنطقة الجنوبية إلا ليحصل على حاجته من الصوديوم، وهكذا كان يخامرنى الأمل فى عودته بعد هنا إلى الشواطئ الأوربية أو الأمريكية مما يتيح لنيدلاند أن يكرر محاولته الأولى بنجاح.

واستلقينا نحو ساعة فى تلك المغارة الجميلة، وسرى الفتور إلى حديثنا بعد أن كان حاميًا وشعرنا بميل إلى النوم وإذا لم أجد ما يمنعنى من تحقيق هذه الرغبة فقد استغرقت فى سبات عميق وقد حلمت والإنسان لا يختار أحلامه أننى قد تحولت إلى دويبة لا فقارية دقيقة، وأن هذه المغارة هى المحارة التى تنطبق على ، وفجأة استيقظت على صوت كونسايل وهو يصيح قائلاً:

- انظروا..

فسألته وأنا أرفع رأسى.

- ماذا حدث؟.

- إن المياه آتية إلينا..

فنهضت ورأيت المياه تندفع نحونا كالسيل الجارف، وما دمنا لم نكن دويبات لا فقارية حقًا فقد اضطررنا إلى الفرار وإن هى إلا لحظات حتى كنا بمأمن فى أعلى المغارة.

وسألنى كونسايل قائلاً:

- ما هذا.. أهى ظاهرة طبيعية جديدة..

فأجبته قائلاً:

- لا يا صاحبى.. إنه المد!.. المد الذى أوشك أن يغرقنا كما فعل مع بطل وولتر سكوت.. لقد ارتفعت مياه المحيط فى الخارج. وبحكم قانون التوازن الطبيعى ارتفع معها سطح البحيرة.لقد نجونا بعد حمام بارد هلموا بنا إلى الغواصة لإبدال ملابسنا.

وبعـد ثلاثة أرباع سـاعـة أتممنا دورتنا حـول جـدران الكهف ثم عـدنا إلى الغواصة حيث كان بحَّارتها قد أوشكوا على الفراغ من شحن الصوديوم إليها . .

وأمست مستعدة للإبحار فورًا .

ولكن الربان نيمو لم يصدر أمرًا ، ولعله قرر الانتظار حتى الليل ثم الخروج سرًا من الممر المائى.

وأيًا كان الأمر فإنه لم يحل اليوم التالى حتى تركت الغواصة مرساها فى تلك البحيرة، وأخذت تمخر الماء بعيدًا عن كل يابسة. وعلى عمق بضع ياردات من سطح المحيط.

الفصل الخامس والثلاثون

بحر سارجاسو

لم تتغير وجهة الغواصة وهكذا كان علينا أن نفقد كل أمل فى العودة إلى البحار الأوروبية فى الوقت الحالى فقد تابع الريان نيمو اتجاهه إلى الجنوب. ترى إلى أين يذهب بنا. ذلك مالم أجسر على التفكير فيه.

وفى ذلك اليوم اجتازت الغواصة منطقة فريدة فى المحيط، وكل إنسان يعرف أمر ذلك التيار الكبير الدافئ المياه المعروف باسم تيار الخليج وبعد مغادرة هذا التيار خليج فلوريدا يتجه نحو ستزيرجن، ولكنه ينقسم إلى فرعين بعد خليج المكسيك بمسافة، أى فى الدرجة الرابعة والأربعين من خط العرض الشمالى وعلى الفرع الرئيسى إلى شواطئ إيرلنده والنرويج، بينما ينحرف الثانى إلى الجنوب فى جوار جزائر الآزور، ثم يقوم بدورة بيضاوية بعد اصطدامه بالشواطئ الإفريقية، فيعود إلى جزر الانتيل.

وهذا الفرع الثانى يحيط بنطاق مياهه الدافئة ذلك الجانب البارد الهادئ من المحيط المسمى بحر سارجاسو. إنه بحيرة كاملة فى قلب المحيط وتحتاج مياه التيار الكبير إلى ثلاثة أعوام لكى تتم دورتها حوله.

وبحر سارجاسو إن أردنا الدقة فى التعبير يغطى كل مساحة قارة أطلانتيس الغارقة، وقد قرر بعض العلماء أن الأعشاب الكثيرة التى تطفو على سطحه، منتزعة من برارى تلك القارة القديمة. ولكن الاحتمال الأرجح على كل حال هو أن هذه الأعشاب والنباتات البحرية والطحالب يحملها تيار الخليج الدافئ من

الشوطئ الأوربية والأمريكية إلى هذه المنطقة. وكان ذلك هو أحد الأسباب التى جعلت كولمبوس يؤمن بوجود الدنيا الجديدة. فعندما وصلت سفن ذلك الملاح الباسل إلى بحر سارجاسو، أخذت تشق طريقها بصعوبة بين أكوام الأعشاب والنباتات البحرية التى اعترضتها مما أثار الفزع فى قلوب البحارة، وضيع منهم ثلاثة أسابيع كاملة فى اجتيازها.

تلك هى المنطقة التى ألمت بها الغواصة، برارى مائية ممتدة، أو بساط واسع سميك من الأعشاب والطحالب البحرية والثمار الاستوائية التى يبلغ من كثافتها وتراكمها أن مقدم أية سفينة لا تكاد تشق طريقها بينها. وقد حرص الربان نيمو على السير تحت سطح الماء ببضع ياردات حتى لايدع هذه الأخشاب تلتف حول رفاصها.

واسم «سارجاسو» مشتق من الكلمة الإسبانية «سارجازيو» ومعناها «قش البحر» وهو نوع من النبات التوتى الثمار تتكون منه معظم أعشاب هذه المنطقة، والتفسير الذى علل به العالم مورى مؤلف «الجغرافيا الطبيعية للبحار» وجود هذه النباتات البحرية فى هذه المنطقة الهادئة من المحيط هو كما يلى :

«يبدو لى أن التفسير الذى يمكن أن نقدمه هو نتيجة تجربة معروفة للجميع فإذا وضعنا قطعًا من الفلين أو من أية مادة طافية فى وعاء به ماء وأحدثنا فيه حركة دوارة، رأينا القطع المتناثرة تتجمع فى قلب السطح المائى أو بعبارة أصح، فى المكان الذى يقل فيه الاضطراب والحركة عن غيره. وهكذا يمكن تعليل هذه الظاهرة إذا تصورنا أن وعاء الماء هو المحيط الأطلنطى وأن تيار الخليج هو الحركة الدوارة فيه، وأن بحر ساجاسو هو أقل الأمكنة فيه اضطرابًا، وهو المكان الذى تتجمع فيه الأجسام الطافية..».

وأنا أتفق فى هذ الرأى مع مورى، وقد أمكننى أن أدرس هذه الظاهرة فى نفس البحر الذى قلما تغامر السفن بالمرور فيه.. فقد كانت تطفو فوق رءوسنا مواد من كافة الأصناف. وكانت تتشابك بين هذه الأعشاب المائلة إلى اللون البنى جذوع أشجار من جبال روكى أو الأنذز حملتها تيارات نهر الأمازون أو نهر

المسيسبى. مع الكثير من الصوارى وبقايا هياكل وألواح السفن، وقد بلغ تراكم المحار والقواقع فوقها أنها لم تستطع الارتفاع إلى سطح الماء وسيعزز الزمن يومًا ما آراء مورى فى أن هذه المواد المتراكمة منذ أحقاب عديدة سوف تتعدن بفعل المياه. وأنها ستصبح معينًا لا ينضب من مناجم الفحم، وهو احتياطى ضخم تعده الطبيعة البعيدة النظر لحين يستنفذ الإنسان مناجم الفحم فى اليابسة.

وقد لا حظت بين أكداس النباتات والأعشاب بعض أسماك الثريا القرمزية الجميلة، والا كتيا بمجساتها الطوال والميديموز الحمراء والخضراء والزرقاء ولاسيما أسماك الريوستروم بمظلاتها الزرقاء ذات الحواف البنفسجية.

وانقضى يوم الثانى والعشرين من شهر فبراير كله فى بحر سارجاسو ذى الأسماك الكثيرة التى تقتات بالنباتات البحرية والقشرية وهى الغذاء الموفور، أما فى اليوم التالى فقد بدا المحيط فى امتداده الرحيب.

ومنذ ذلك اليوم وطوال تسعة عشر يومًا. أى من الثالث والعشرين من فبراير إلى الثانى عشر من مارس ظلت الغواصة فى عرض الأطلنطى، منطلقة بسرعة منتظمة قدرها ثلاثمائة ميل كل أربع وعشرين ساعة. وقد بدا جليًا أن الربان نيمو اعتزم استكمال برنامجه البحرى وأنه بعد الطواف حول رأس هورن سيمضى إلى المنطقة الجنوبية من المحيط الهادى.

وكان نيد لاند إذ ذاك محقًا فى شعوره بالخوف إذ لم يكن الهرب من الغواصة ممكنًا فى تلك البحار الواسعة الخالية تقريبا من الجزر، ثم إنه لم يكن ثمة وسيلة لمعارضة رغبات الربان نيمو كما لم يكن أمامنا إلا الخضوع. ولكنى كنت أرى أن الهدف الذى لا يمكن بلوغه بالقوة أو بالحيلة، قد يتحقق بالحجة والإقناع. فهلا يرضى الربان نيمو فى نهاية الرحلة أن يطلق سراحنا إذا أقسمنا بكتمان سره مدى الحياة - قسم بالشرف يوجب علينا أن نبر به. ولكنه موضوع دقيق ينبغى مناقشته مع الربان. فهل ترى يستقبل هذا الرجاء لإطلاق سراحنا بروح طيبة. ألم يعلن لنا من أول الأمر، وبأسلوب حاسم أن سره الكبير يوجب بقاءنا سجناء فى الغواصة إلى ماشاء الله. ألا يبدو له صمتى خلال الأشهر

الأربعة قبولاً ماكرًا للأمر الواقع. ألا يحتمل أن تثير العودة إلى مناقشة هذا الموضوع شكوكه وهى تعوق محاولتنا للهرب إذا سنحت لنا الفرصة المناسبة لتكرارها. لقد رحت أستعرض هذه الاحتمالات جميعًا وأفحصها فى ذهنى ثم عرضتها على كونسايل الذى لم يكن أقل حيرة وارتباكًا - رغم أنى لا أركن إلى اليأس بسهولة. فقد أدركت أن الفرص السانحة لرؤية أهلى وعشيرتى فى اليابسة كانت تتضاءل يومًا بعد يوم وفوق هذا كله ذهب الربان نيمو يندفع بالغواصة إلى جنوبى المحيط الأطلنطى فى كل جرأة.

ولم يقع خلال هذه الأيام التسعة عشر شيء يستحق الذكر، ولم أكن أرى الربان نيمو إلا لمامًا، إذ كان دائم المشاغل. وكثيرًا ماكنت أرى فى المكتبة كتبًا تركها مفتوحة، ولاسيما كتب التاريخ الطبيعى. وكان مؤلفى عن أعماق البحار مملوء الهوامش بتعليقاته وآرائه التى كانت تتعارض أحيانًا مع آرائى ونظرياتى ولكنه لم يحاول أن يتجاوز هذا الحد فى معارضته وقلما كان يناقشنى فى هذا المقام. وكنت أحيانًا أخرى أسمع النغمات الشجية وهو يعزف على الأرغن بتلك الروح المعبرة، ولكن هذا لم يكن إلا ليلا وفى أبعد الأماكن عن البشر، أى عندما ترقد الغواصة فى فيافى المحيط.

وكنا فى خلال هذه الرحلة نقضى أيامًا كاملة على سطح البحر الخالى تمامًا إلا من بعض السفن التى كانت فى طريقها إلى جزر الهند عند طريق رأس هورن. وفى ذات يوم طاردنا زورق لصيد الحيتان وهو يحسبنا بطبيعة الحال حوتًا عظيمًا. ولكن الربان نيمو أبى أن يضيع وقت بحارة الزورق البواسل وجهدهم، فأنهى المطاردة بالغوص تحت سطح الماء. ويبدو أن هذا الحادث أثار فى نفس نيد لاند أشد الاهتمام. ولست أشك فى أنه كان يتمنى لو أن أولئك الصيادين استطاعوا تحطيم ألواح الغواصة الحديدية بحرابهم.

وكانت الأسماك التى شاهدتها مع كونسايل فى خلال الفترة لا تختلف إلا قليلاً عما سبق أن شاهدناه فى خطوط العرض الأخرى. وكان أهمها أنواعًا من مرتبة الغضروفيات الرهيبة التى تنقسم إلى ثلاث مجموعات فرعية. وهذه بدورها تنقسم إلى مالا يقل عن اثنين وثلاثين نوعًا. منها سمك الكلب من

«فصيلة القرش المخطط» الذى يبلغ طوله خمس ياردات، وهو برءوس مفرطحة أعرض من جسمها، وزعانف ذنبية مستديرة وسبعة خطوط طويلة سوداء كبيرة متوازية على ظهره. وسمك الكلب ذو اللون الرمادى والخيشوم ذو الفتحات السبعة. وزعنفة الصدر الوحيدة القائمة فى منتصف جسمه.

ثم نمور البحر المعروفة باسم «كلاب البحر» وهى من أشرس وأعنف أنواع الأسماك. وقد يرتاب الإنسان فيما يرويه الصيادون عنها. ولكنهم يقولون إنه عثر ذات يوم فى بطن واحد منها على رأس بقرة وجسم عجل كامل، وفى بطن آخر على سمكتين كبيرتين وبحار بملابسه الكاملة، وفى بطن ثالث على جندى بسيفه، وأخيرًا على حصان وراكبه. وهذا كله ولا شك نوع من المبالغات. وكل ما أستطيع أن أذكره هو أن الغواصة لم تظفر قط بواحدة من هذه الوحوش البحرية، ولهذا لم أستطع الجزم بشراستها.

وكانت ترافقنا لمدة أيام عديدة مجموعات من الدرافيل الرشيقة اللعوب، تتألف كل مجموعة من خمسة أوستة تنطلق معًا للصيد كالذئاب. وهى بطبيعتها لا تقل وحشية عن كلاب البحر إذا صدقنا العالم الدانمركى الذى استخرج من معدة إحداها ثلاث عشرة ترسة، وخمس عشرة فقمة. وينتمى الدرفيل إلى أكبر أنواع الغرامبوس «الحيتان الدرفيلية» ويزيد طوله أحيانًا عن أربعة وعشرين قدمًا وتضم أسرة الدرفيل ست مراتب والنوع الذى رأيته ينتمى إلى مرتبة (الدلفينورينكس) المشهورة بأفواهها الطويلة الضيقة جدًا والتى يبلغ طولها أربعة أمثال جمجمة الرأس. أما أجسامها البالغ طولها ثلاث ياردات فهى سوداء الظهور، ببطون بيضاء وقرمزية، بنقط قليلة نادرة.

ويمكن أن أذكر أيضًا مما رأيته فى هذه البحار أنواعًا عجيبة من السمك من مرتبة الأكانتوبتر بحيان التابعة لأسرة الأسقين. ويزعم بعض المؤلفين من كبار الشعراء لا العلماء أن هذه الأسماك تغنى غناء عذبًا، وأن أصواتها المجتمعة تفوق فى عذوبتها أى «كورس» من البشر. ولست أقول إن هذا لم يقع ولكننا لم نستمع مع الأسف أثناء مرورنا إلى هذه المعزوفات.

وصفوة القول لقد استطاع كونسايل أن يصنف كثيرًا من السمك الطائر، ولم يكن هناك ماهو أعجب من مشهد الدرافيل أثناء مطاردتها المحكمة لهذه الأسماك. فمهما حلقت الأسماك، ومهما حاولت الهرب كانت تجد فى انتظارها دائمًا شدق مفتوح لاستقبالها. وكانت هذه الأسماك من نوع الغرنار الطائر ذات أفواه مشعة تبدو فى الليل وهى تشق الجو بخطوط نارية ثم تغطس فى ظلمات الماء كنجوم متهاوية.

واستمرت رحلتنا فى هذه الظروف حتى اليوم الثالث عشر من شهر مارس، وفى ذلك اليوم شغلت الغواصة بعمليات قياس للأعماق مما أثار اهتمامى إلى حد كبير.

كنا عند ذاك قطعنا نحو ١٣ ألف فرسخ منذ رحيلنا من أعالى البحار فى المحيط الهادى. وكان جهاز تحديد الموقع يشير إلى أننا فى جنوبى خط العرض ٣٧: ٤٥ درجة وغربى خط الطول ٥٣: ٣٧ درجة وهو نفس الموضع الذى أرسل فيه الربان دنهام. قائد السفينة هيرالدا - حبالاً معدنية لقياس عمق المحيط طولها ١٤ ألف ياردة دون أن تصل إلى القاع. وهنا أيضًا لم يستطع اللفتانت باركر ربان السفينة الأمريكية كونجرس ـ أن يصل إلى قاع المحيط بحبال معدنية طولها ١٤٤٠٠ ياردة.

ولكن الربان نيمو اعتزم الوصول إلى قاع هذه المنطقة بالغواصة. وقد تأهبت لتدوين ملاحظاتى فى أثناء عمليات قياس العمق فيها وبقيت نوافذ الصالون البللورية مفتوحة عندما بدأت العمليات.

ويمكن بطبيعة الحال أن نتصور أن امتلاء خزانات الغواصة بالماء لا يكفى للهبوط بها إلى القاع. فمن المحتمل أن ثقل الخزانات لا يكفى للهبوط بالغواصة إلى أى عمق. فضلاً عن هذا فإن العودة إلى السطح مرة أخرى تستوجب التخلص من الماء الزائد، والمرجح أن مضخات التفريغ ليست لها القوة الكافية لمقاومة الضغط الخارجى.

ولكن الربان نيمو قرر الهبوط إلى الأعماق بواسطة الألواح الجانبية المثبتة فى جوانب الغواصة بانحدار تبلغ زاويته ٤٥ درجة بالنسبة لمستوى الماء. وسرعان ما أخذ الرفاص يدور بكل قوته، وإذا ألواحه الرباعية تضرب الماء بعنف كبير. وجعل هيكل الغواصة المهتز بتأثير ضربات الرفاص يهبط تدريجيًا إلى أعماق الماء. وجلست مع الربان فى الصالون نرقب مؤشر الغوص وهو يتحرك بسرعة، وسرعان ما اجتزنا حدود المناطق المأهولة بالأسماك، فهناك أنواع لا تستطيع الحياة إلا قريبًا من أسطح الأنهار والبحار، بينما تعيش الأقلية فيما هو أكثر عمقًا. وبين هذه الأنواع رأيت قرش الهكسان - وهو من فصيلة كلاب البحر - وله ستة خياشيم وعيناه كبيرتان فى قوة التلسكوب وجلد المالارمات وعنق رمادى وزعانف جانبية سوداء تحمى عظام صدره، ثم سمك الغرباء الذى يعيش فى عمق ١٢٠٠ ياردة ويتحمل ضغطا مائيا يساوى مائة وعشرين ضغطًا جويًا.

وسألت الربان نيمو إن كان رأى من قبل سمكًا يعيش فى مثل هذه العمق فقال:

- نادرًا. ولكن إذا تحدثنا بلغة العلم، فماذا يعرف العلماء؟

- يعرفون أننا كلما أمعنا فى الغوص اختفت الحياة النباتية قبل الحيوانية ويعرفون أيضًا أنه حيث لاتزال توجد الحياة الحيوانية فى الأعماق. قد لا يوجود عود واحد من النبات البحرى. ويعرفون أيضًا أن المحار والتليرين تعيش على عمق ألفى ياردة وأن ماكلينتوش بطل البحار القطبية اصطاد سمكة من نوع نجم البحر من عمق خمسة آلاف ياردة ويعرفون أن بحارة السفينة الحربية بلودوج اصطادوا سمكة من نوع نجم البحر أيضًا من عمق ٦٢٤٠ ياردة ولكن لعلك تقول ياكابتن إنهم لا يعرفون شيئًا.

- لا يا بروفسور لن أكون فظًا إلى هذا الحد.. ولكنى أسألك فقط كيف تفسر قدرة الحيوان على الحياة فى مثل هذا العمق.

- هناك تعليلان : الأول لأن التيارات الرأسية الناشئة من اختلاف ملوحة وكثافة المياه تتيح حركة كافية تحفظ العناصر الأولية لحياة النجميات البحرية.

- صدقت.

- وأيضًا لأنه إذا كان الأوكسجين هو عماد الحياة فالمعروف أن كميات الأوكسجين المتحللة فى مياه البحر تزيد بدلاً من أن تقل كلما هبطنا إلى الأعماق. وأن الضغط المتزايد يؤدى إلى ضغط كميات الأوكسجين به.

فقال الريان نيمو فى صوت ينم عن الدهشة :

- آه.. أتعرفون هذه الحقيقة؟ حسناً يابروفسور؛ جميل منكم أن تعرفوا هذا لأنه لا يعدو الحقيقة. ويمكننى أن أضيف أن المثانة الهوائية فى الأسماك التى تصاد فوق سطح الماء تحتوى على أزوت أكثر من الأوكسجين وعلى أوكسجين أكثر من الأزوت إذا صيدت فى أغوار أعمق. وهذه الحقيقة تطابق نظريتكم. ولكن هيا نتابع ملاحظاتنا.

ونظرت إلى جهاز تسجيل العمق. فألفيته يشير إلى عمق ستة آلاف ياردة. وكانت الغواصة قد استغرقت ساعة فى الهبوط كما استمرت فى الغوص منسابة بألواحها الجانبية المائلة، وكانت المياه العميقة رائعة الشفافية إلى حد يجل عن الوصف. وبعد ساعة أخرى كنا فى عمق ثلاثة عشر ألف ياردة، ومع ذلك لم يكن ثمة أثر للقاع.

وأخيرًا لمحت على عمق أربعة عشر ألف ياردة قممًا سوداء بين الماء. ولكن قد تكون قمم جبال مرتفعة كالهملايا أو مونت بلانك، بل ربما أكثر ارتفاعًا، ومعنى هذا أن القاع فى تلك الأغوار مازال مجهولاً.

وظلت الغواصة ممعنة فى الهبوط رغم الضغط العنيف الذى كانت تتحمله. وأحسست بالألواح الجانبية المائلة تهتز، وبمرابطها وبالقضبان تتحنى، وبالفواصل تئن بللور النوافذ يكاد يتقوس تحت الضغط المائى الشديد. وقد يمكن أن تسحق الغواصة سحقًا لولا أنها كانت متماسكة ككتلة الصخر كما قال الريان.

وكنت ونحن نهبط متحاشين هذه الصخور الضائعة فى الأعماق أرى بعض الأصداف والقواقع وهى لاتزال حية، وبعض أنواع من النجميات البحرية.

ولكن سرعان ما اختفت هذه الأنواع الأخيرة التى تمثل مملكة الحيوان؛ وبعد عمق عشرة أميال تجاوزت الغواصة حدود الحياة تحت الماء كما يتجاوز البالون طبقات الجو الصالحة للتنفس. ولم نلبث أن وصلنا إلى عمق ستة عشر ألف ياردة، أى أن جوانب الغواصة كانت تحتمل ضغطا مائيًا يوازى ١٦٠٠ ضغط جوى أو ٣٢٠٠ رطل على كل سنتيمتر مربع من سطحها.

وهتفت قائلاً :

– ياله من موقف عجيب لقد اجتزنا مناطق لم يسبق لإنسان أن وصل إليها.. انظر ياكابتن... انظر إلى هذه الصخور الرائعة. إلى هذه الكهوف الموحشة.. إلى هذه المعالم الأخيرة من الكرة الأرضية حيث تستحيل الحياة! أية مجاهل هذه؟ وكيف نعود منها بالذكريات فقط؟

– هل تريد أن تعود بما هو أفضل من الذكريات.

– ماذا تعنى؟

– أعنى أنه ليس ثمة أسهل من أن نلتقط صورًا فوتوغرافية لهذه المناطق العجيبة.

وقبل أن أعرب عن دهشتى لهذا الاقتراح الجديد أصدر الربان نيمو أمرًا حضرت على أثره آلة تصوير إلى الصالون. وكانت اللجج المائية تبدو وراء النوافذ البللورية الواسعة شديدة الوضوح فى الضوء الكهربائى المنساب من الغواصة. وما كان يمكن أن تمدنا أشعة الشمس نفسها بأسطع من هذا الضوء القوى. واستطاعت الغواصة بفضل حركة رفاصها وخضوعها للألواح الجانبية أن تبقى ثابتة مكانها. وصوبت آلة التصوير إلى هذه المشاهد فى قاع المحيط وماهى إلا لحظات حتى ظفرنا بصور سلبية كانت غاية فى الوضوح.

أما الصور الإيجابية فقد أوضحت لنا أشكال الصخور البدائية التى لم تشهد قط ضوء السماء، وهى صخور الجرانيت السفلى التى تكون الأساس القوى للكرة الأرضية. والكهوف الهائلة المحفورة فى الكتل الصخرية الضخمة، كلها مصورة بخطوط واضحة وكأنما رسمتها ريشات بعض الفنانين الفلمنكيين. ومن وراء

المناظر الأمامية ظهرت سلاسل الجبال الرائعة التى كانت بمثابة الإطار الخلفى لها. ولا أستطيع وصف شعورى وأنا أرى صور هذه الصخور السوداء الناعمة المصقولة الخالية من الطحلب ومن البقع والتى كانت تبدو فى أشكال عجيبة وهى مستقرة فوق بساط من الرمال المتألقة فى الضوء الكهربائى.

ومهما يكن فقد قال لى الريان نيمو بعد أن فرغ من عمليات جس الأعماق.

- ينبغى أن نصعد الآن يابروفسور. فلا يصح أن نُعرِّض الغواصة لهذا الضغط فترة طويلة.

فهتفت قائلا :

- نصعد إلى السطح؟

- تمالك نفسك.

وقبل أن أفهم المراد من تحذير الريان لى على هذه الصورة ألفيتنى مُلقى فوق سجادة الصالون.

فقد أمر الريان بتوقف الرفاص، وتحركت الألواح الجانبية رأسيا، وإذا الغواصة ترتفع بسرعة مذهلة كالبالون فى الهواء. كانت تشق الماء فى صعودها بصوت رنان، بحيث لم يكن فى مقدورنا أن نرى شيئًا، وفى أربع دقائق قطعنا الأميال الثلاثة عشر التى كانت تفصلنا عن سطح المحيط. وبعد أن برزت الغواصة كالسمكة الطائرة عادت فاستقرت فوقه بحركة جعلت الأمواج تتلاطم عاليًا.

الفصل السادس والثلاثون

حيتان وقياطس

تابعت الغواصة طريقها جنوباً ليلة الرابع عشر من شهر مارس. وقد خطر لى أننا سنتجه غرباً بعد الوصول إلى رأس هورن، أى شطر المحيط الهادى، وبذلك نتم رحلتنا حول العالم. ولكن لم يحدث شىء من هذا القبيل على كل حال، واستمرت الغواصة فى طريقها صوب البقاع الجنوبية فماذا كانت وجهتها: إلى القطب الجنوبى؟ إن هذا لهو الجنون. لقد بدأت أعتقد أن مخاوف نيد لاند لها ما يبررها إزاء تهور الربان نيمو.

وكان نيد لا ند قد أمسك حينا عن مفاتحتى فى مشروعات الهرب فأصبح قليل الكلام، بل كان أقرب إلى الصمت التام. وكنت أعرف ما يعانى بسبب هذا الأسر الطويل، وأحسست أن غضبه يتراكم فى أعماق نفسه حتى كان إذا التقى بالربان تألقت عيناه بنيران دفينة. وكنت أخشى فى كل حين أن يدفعه عنفه الطبيعى إلى عمل لا تحمد عقباه.

وفى ذلك اليوم الرابع عشر من شهر مارس أقبل مع كونسايل إلى غرفتى ولما سألتهما عن سبب هذه الزيارة قال نيد لاند.

- لدى سؤال يسير لك يا سيدى.

- تكلم يانيد.

- كم رجلاً تضمهم الغواصة فى رأيك-

لا أدرى يا صديقى.

يبدو لى أنها فى غير حاجة إلى عدد كبير من البحارة لقيادتها.

ـ نعم. وفى مثل ظروفنا هذه يكفى عشرة رجال للعمل بها.

ـ حسناً، فلماذا إذا تضم أكثر من هذا العدد؟

ـ لماذا؟

وحدقت فى وجه نيد لاند الذى كان من السهل معرفة نواياه ثم استطردت قائلا:

ـ لأن الغواصة، إذا صح ظنى وصدق حدسى عن موقف الربان نيمو، ليست مجرد ملاذ يأوى إليه وإنما هى مكان يحتمى به أولئك الذين قطعوا كل صلة لهم بالأرض كالربان.

فقال كونسايل:

ـ ربما. ولكن الغواصة مع هذا لايمكن أن تضم سوى عدد معين من الرجال يستطيع سيدى أن يقدر عددهم.

ـ وكيف ذلك يا كونسايل؟

ـ بالحساب. إن سيدى يعرف الآن حجم هذه الغواصة، وبالتالى يستطيع أن يعرف كمية الهواء بها، كما يعرف مقدار حاجة كل فرد إلى الهواء، ويضاف إلى هذه النتائج اضطرار الغواصة للصعود فوق سطح الماء كل أربع وعشرين ساعة..

ولم يتم كونسايل عبارته، ولكنى أدركت مراده فقلت:

ـ إننى أفهمك يا كونسايل.. ولكن هذه التقديرات رغم بساطتها لا يمكن أن تؤدى بنا إلى نتائج محددة.

فقال نيدلاند فى إصرار :

ـ هذا لا يهم.

ـ حسناً. هذه هى التقديرات.. إن الرجل الواحد يتنفس فى الساعة الواحدة كمية من الأكسجين الموجودة فى مائة لتر من الهواء. أى أنه يتنفس فى أربع

وعشرين ساعة الأكسجين الموجود فى ٢٤٠٠ لتر هواء، ولهذا يجب أن نعرف كم لتر من الهواء تتسع لها الغواصة فى أربع وعشرين ساعة. فقال كونسايل:

- تماما..

- إن سعة الغواصة هى ١٥٠٠ طن والطن ألف لتر. أى أن سعتها مليون ونصف مليون لتر من الهواء إذا قسمناها على حاجة الرجل الواحد فى الأربع والعشرين ساعة أى على ٢٤٠٠ لتر.

وبسرعة سطرت العملية الحسابية بالقلم الرصاص وأردفت قائلا:

- كانت النتيجة ٦٢٥ أى أن الغواصة بهذه العملية الحسابية بها من الهواء ما يكفى ٦٢٥ رجلا فى الأربع والعشرين ساعة.

فقال نيدلاند:

- ٦٢٥ رجلا..!

- ولكنى أؤكد أن كل من فى الغواصة ركاباً وبحارة ومهندسين وخدم لا يتجاوزون عشر هذا العدد..

أى نحو ٦٢ رجلا..

فغمغم كونسايل قائلا:

- إنه عدد كبير بالنسبة لنا نحن الثلاثة.

- ولهذا لا يسعنى يا صديقى المسكين نيد لاند إلا أن أنصحك بالصبر.

فقال كونسايل:

- وربما ما هو أكثر من الصبر أيضًا.. بالاستسلام.

لقد عبر كونسايل بهذه الكلمة عن الحقيقة، ثم استطرد يقول:

- ومع هذا. فلن يستطيع الربان نيمو السير إلى الجنوب دواماً.

لا مندوحة له من التوقف فى مكان ما، ولو على شاطئ جليدى، وبعد ذلك لن يسعه سوى العودة إلى البحار المتحضرة، وإذ ذاك يمكننا استئناف الحديث عن الهرب.

فهز نيد لاند رأسه، ومسح بيده على جبينه، ثم انصرف من الغرفة دون جواب.

وقال كونسايل:

- هلا أذن لى سيدى بإبداء ملاحظة واحدة؟ إن نيد لاند المسكين يفكر فى كل شىء لا يستطيع أن يحصل عليه. إن كل شىء فى حياته الماضية يرتد إلى ذهنه. وكل ما هو محرم علينا يأسف له ويهفو إليه. إن ذكرياته القديمة تثقل على ذهنه وتملأ قلبه بالحنين. هذا شىء يسهل إدراكه. ماذا فى وسعه أن يفعل هنا؟ لاشىء، إنه ليس عالمًا كسيدى؟ ولم يؤت الإحساس بتذوق جمال البحث مثلنا: إنه لا يتردد فى المجازفة بكل شىء فى سبيل دخول إحدى حانات موطنه مرة أخرى.

حقاً إن الحياة الرتيبة فى الغواصة لا يطيقها رجل مثل نيد لاند ألف حياة كلها الحركة والحرية، ولم تكن الأحداث التى يمكنه الاشتراك فيها إلا قليلة نادرة. ومع ذلك ففى ذلك اليوم وقع حادث أعاد إلى نيد لاند ذكريات أيامه الباهرة.

ففى الساعة الحادية عشرة صباحًا التقت الغواصة وهى على سطح المحيط بفوج من الحيتان. وهو لقاء لم يدهشنى إذ كنت أعلم أن هذه الحيوانات البحرية التى يتعقبها الصيادون فى غير هوادة، قد اتخذت من البحار النائية ملاذاً لها.

وإن الدور الذى لعبه الحوت فى عالم البحار وتأثيره فى الاكتشافات الجغرافية لهو دور كبير. فالحوت هو الذى استدرج فى أعقابه أوائل الصيادين من أبناء الباسك، ومن بعدهم النمسويين والإنجليز والهولنديين، وأثار فيه الجرأة لمواجهة أخطار المحيط، وقادهم من أقصى العالم إلى أقصاه. وتميل الحيتان إلى الحياة فى المناطق الشمالية والجنوبية من المحيطات. وحتى الأساطير القديمة زعمت أن الحيتان استدرجت الصيادين إلى مدى عشرين ميلا من القطب الشمالى. فإن كان هذا حديث خرافة، فإنه واقع يوماً، ولهذا يحتمل أن يصل الناس فى مطاردتهم الحيتان فى الأصقاع المتجمدة إلى المنطقة القطبية التى ظلت حتى الآن مجهولة للإنسان.

وكنا إذ ذاك جالسين على سطح الغواصة والبحر هادئ من حولنا وكان شهر أكتوبر فى تلك المناطق قد أضفى علينا جواً إفريقياً جميلا. وكان نيدلاند الذى لا يخطئ فى مثل هذه الظروف هو الذى أشار إلى وجود حوت فى الأفق الشرقى. فلما دققنا النظر شاهدنا ظهره الأسود يرتفع ويهبط فوق الأمواج على بعد خمسة أميال من الغواصة، وعندئذ صاح نيدلاند:

ـ آه لو كنت الآن فى زورق لصيد الحيتان، لملأ هذا المشهد صدرى، بهجة، إنه حوت ضخم. انظر كيف يدفع أعمدة الماء الهواء والبخار من منخاريه بقوة! تباً لهذا، لماذا قيدت إلى قطعة الحديد هذه.

فقلت له:

ـ ما هذا يا نيد، ألم تنس بعد حبك للصيد؟

ـ هل يستطيع صياد حيتان أن ينسى مهنته يا سيدى، هل يمكن أن يسأم الانفعال الذى تثيره فى نفسه مطاردة الحوت؟

ـ هل سبق لك الصيد فى هذه البحار يا نيد؟

ـ كلا يا سيدى بتاتا فى بحار القطب الشمالى، وأحيانا فى مضايق بهرنج ودافيز.

ـ إذن فلا يزال حوت المناطق الجنوبية مجهولا لك، لقد اعتدت حتى الآن صيد حيتان جرينلاند لأنها لا تستطيع المجازفة باختراق المياه الدافئة فى منطقة خط الاستواء.

فهتف نيد لاند فى صوت ينم عن الدهشة والاستنكار.

ـ آه يا بروفسور.. ما هذا الذى تقوله؟

ـ أقول ما هو واقع حقاً..

ـ حسنا. لكنى أعرف ما حدث لى شخصياً عام ١٨٦٥، أى منذ عامين ونصف عام، فقد اصطدت بالقرب من جرينلاند حوتاً وجدت فى جنبه حربة صياد من مضيق بهرنج. فخبرنى يا سيدى كيف تمكن هذا الحوت الذى أصيب فى شاطئ

أمريكا الغربى أن يصل إلى الشاطئ الشرقى حيث لقى حتفه، ما لم يكن قد دار حول رأس هورن أو رأس الرجاء الصالح، مجتازا أقاليم المياه الدافئة فى خط الاستواء.

فقال كونساي:

- إنى أشاطر نيد رأيه وأنا فى انتظار إجابة سيدى؟

فقلت:

إن جوابى يا كونساي هو أن الحيتان تتأقلم تبعاً لأنواعها فى بحار معينة لا تبرحها، فإذا كانت هذه المخلوقات تنتقل من مضيق بهرنج أو دافيز، فإن السبب ببساطة يرجع إلى وجود ممر من بحر إلى آخر إما على شواطئ أمريكا أو آسيا.

فغمز نيد لاند بعينه قائلاً:

- هل يتحتم أن أصدقك يا سيدى؟

فأجاب كونساي قائلاً:

- يجب أن تصدق.

- فى هذه الحالة لا أعرف أنواع الحيتان التى تجوب هذه المناطق لأنى لم أصطد فيها من قبل.

- هذا ما قلته لك يا نيد.

فقال كونساي:

- وهذا أدعى لأن تتعرف بها.

فهتف نيد لاند قائلاً:

- انظروا..انظروا.. إنه يقترب. إنه آتٍ إلينا، إنه يتحدانى، إنه يعرف أنى سأقف أمامه عاجزًا.

وضرب سطح الغواصة بقدمه وارتعدت يده وهو يهز بها رمحًا وهميًا.

ثم سألنى قائلا:

ـ هل توجد حيتان بهذا الحجم فى البحار الشمالية.

ـ تقريبا يا نيد..

ـ لأنى رأيت حيتانا ضخمة يا سيدى.. حيتانا يبلغ طول الواحد منها مائة قدم بل لقد قيل لى إن حيتان الهولاموك والأمجاليك فى مياه جزر الوشيان، يبلغ طول الواحد منها أحياناً مائة وخمسين قدمًا.

ـ يخيل إلى أن فى هذا مبالغة. فإن هذه الأحياء المائية التى تتحدث عنها هى حيتان من نوع القياطس ولها زعانف صدرية، أصغر حجمًا من الحيتان العادية.

وهتف نيد لاند دون أن تفارق عيناه سطح المحيط.

ـ آه.. إنه يزداد قرباً.. إنه ينتقل إلى المياه المحيطة بالغواصة.

ثم استأنف حديثه الأول قائلاً:

ـ إنك تتحدث عن حوت القيطس كأنه مخلوق صغير ولكنى سمعت حديثاً عن حيتان هائلة من هذا النوع وهى حيوانات بحرية ذكية يقال إنها تغطى أجسامها بالطحالب والأعشاب البحرية حتى حسبها الناس جزراً صغيرة، فهبطوا فوقها وأقاموا الخيام وأشعلوا النار.

فقاطعه كونسايل قائلا:

ـ وأقاموا المنازل!

ـ نعم أيها الهازل. ثم إذا الحوت يغطس دون سابق إنذار ويجر معه السكان إلى قاع البحر.

فقلت ضاحكا:

ـ كما حدث فى رحلة السندباد البحرى.. آه يانيد.. يبدو أنك من عشاق القصص الخرافية، ما حجم القياطس التى تتحدث عنها، وأرجو ألا تكون مصدقا لما قيل لك فى صددها.

فأجاب نيدلاند بلهجة جادة:

ـ يا سيدى العالم الطبيعى كل شىء عن الحيتان ممكن تصديقه.. يا لسرعة هذا الحوت! لقد قيل إن هذه المخلوقات يمكنها الطواف حول العالم فى أسبوعين.

ـ لن أناقض هذا الرأى.

ـ ولكن ما قد لا تعرفه يا مسيو أروناكس هو أن الحيتان فى بدء الخليقة كانت تطوف الكرة الأرضية بأسرع من هذا.

ـ أحقاً يا نيد؟ كيف هذا؟

ـ كانت ذيولها فى تلك الأحقاب كذيول السمك.. أى أنها وهى مضغوطة رأسيا كانت تضرب الماء من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين ولكن الخالق وقد رأى أنها أسرع مما ينبغى أزال ذيولها فأصبحت تضرب الماء من أعلى إلى أسفل فقلت سرعتها.

فقلت متحدياً أسلوبه:

ـ حسناً يانيد.. هل يتحتم أن أصدقك؟..

ـ إلى حد ما. كما لو قلت لك إنه توجد حيتان طول الواحد منها ثلاثمائة قدم وزنته مائة ألف رطل.

ـ هذا تهويل ولا ريب. ومع ذلك فيجب الاعتراف بوجود حيتان بالغة الضخامة منذ أمكن استخراج مائة وعشرين طنا من الزيت منها.

فقال نيد لاند.

ـ هذا شىء رأيته يحدث.

ـ إنى أصدق هذا يا نيد لاند كما أصدق أن من الحيتان ما يبلغ حجمه مائة فيل. فهل تتصور أثر هذه الكتلة الهائلة حين تندفع بكل سرعتها؟

فقال كونسايل:

ـ هل يمكن للحوت أن يغرق سفينة؟

ـ لا أظن. ومع ذلك قيل إن حوتاً فى هذه المناطق الجنوبية ألقى بجسمه على السفينة اسكس وقذف بها إلى الوراء بسرعة ١٤ قدماً فى الثانية فاندفعت المياه إليها وغرقت فوراً.

فنظر نيدلاند إلى بعين هازلة وقال :

– أما أنا فقد أصبت بضربة من ذيل حوت.. أعنى زورقى طبعًا. وقد ألقت الضربة بى وبزملائى مسافة عشرين قدمًا. ولكن حوتى هذا يعتبر رضيعًا بالنسبة لحوتك.

فقال كونسايل :

– هل تعيش هذه الحيتان طويلاً :

فقال نيدلاند بلا تردد :

– ألف عام.

– كيف عرفت هذا يانيدلاند؟

– هكذا يقولون..

– ولكن ما الذى جعلهم يقولون هذا؟

– لأنهم يعرفون مايقولون.

فقلت:

– لايانيد.. إنهم لايعرفون يقينًا. ولكنهم يظنون، وإليك البيان : كانت هذه الحيتان منذ أن بدأ الصيادون مطاردتها لأول مرة، أى منذ أربعمائة عام، أكبر حجمًا مما هى الآن، ولهذا السبب ظن الناس من الوجهة المنطقية أن صغر حجم الحيتان نسبيًا راجع إلى أنها لم تبلغ سن الاكتمال. وهذا ماجعل العالم بانون يقول إنه من الممكن أن تعيش الحيتان ألف سنة... فهل فهمت؟..

ولكن نيد لاند لم يكن منصتًا إلى. فقد كان الحوت يزداد اقترابًا وهو يلتهمه بنظراته وإذا به يصيح قائلا :

- إنه ليس حوتًا واحدًا بل عشرة.. عشرون، فوج كامل... كل هذا وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئا.. مقيد اليدين والقدمين.. فقال كونسايل :

- ولكن لماذا لا نلتمس ياصديقى الإذن من الريان نيمو لمطاردتها.

وماكاد كونسايل يتم عبارته حتى هبط نيدلاند إلى داخل الغواصة باحثًا عن الريان. وبعد فترة وجيزة عاد الاثنان إلى السطح.

ونظر الريان إلى فوج الحيتان التى كانت تلهو على بعد ميل من الغواصة. ثم قال :

- إنها حيتان جنوبية.. إنها ثروة لأسطول كامل من زوارق الصيادين..

فقال نيدلاند :

- حسنًا ياسيدى.. هل تأذن لى بمطاردتها حتى لا أنسى مهنتى كصياد حيتان.

- ومافائدة صيدها؟ لسنا فى حاجة إلى زيت الحوت فى الغواصة.

فاستطرد نيدلاند قائلا :

- ولكنك ياسيدى أذنت لنا بصيد بقرة البحر فى البحر الأحمر.

- ذلك لكى نحصل على لحم طازج للبحارة. أما الآن، فإن صيدك لهذه الحيتان لن يكون إلا إرضاء لشهوة القتل. أنا أعرف أن هذه الشهوة إحدى الغرائز البشرية ولكنى لا أقر مجاراتها. إن الصيادين أمثالك يانيدلا يرتكبون خطأ فادحًا بقتلهم هذه الحيتان المسالمة، جنوبية أو عادية وهذا هو السبب فى استعمارهم خليج بافن بأجمعه. إنهم سيقضون على هذه الحيوانات النافعة ولهذا أحب أن تدع هذه الحيوانات البحرية البائسة وشأنها. وحسبها ماتعانيه من أعدائها الطبيعيين كالقياطس، وسمك السيف، وسمك المنشار دون تدخل منكم.

وإنى أترك القارئ يتصور وجه نيدلاند أثناء هذه المحاضرة الأخلاقية.

كان من العبث أن نحاول بمثل هذه الحجج إقناع صياد. فقد تطلع نيدلاند إلى الريان وبدا بوضوح أنه لم يفهم شيئًا. ولكن الريان كان على حق لأن جشع الصيادين وضراوتهم سيؤديان يومًا إلى انقراض آخر حوت فى المحيط.

وصفر نيدلاند بشفتيه لحنًا أمريكيًا ثم أولانا ظهره. أما الريان نيمو فقد اتجه بنظره إلى فوج الحيتان، ثم خاطبنى قائلاً :

- كنت على حق ياسيدى فى قولى إن للحيتان أعداء طبيعيين بما فيه الكفاية. ويبدو أن الحيتان ستضطر قبل فترة طويلة إلى الدفاع عن نفسها، هل ترى يامسيو أروناكس هذه النقط السوداء المتحركة على بعد نحو ثمانية أميال.

- نعم ياكابتن..

- إنها حيتان القياطس. وهى حيوانات بحرية وحشية رهيبة. إنها أحيانًا تسبح فى مجموعات قد يصل عدد كل منها إلى مائتين أو ثلاثمائة. وعندى أن من الحكمة القضاء على هذه الوحوش القاسية الشريرة.

والتفت نيدلاند إلينا بسرعة حين سمع هذه العبارة الأخيرة، بينما قلت:

- حسنًا ياكابتن.. لا يزال أمامنا وقت لإنقاذ الحيتان المسالمة.

- لا جدوى من تعريض أنفسنا للخطر. ويكتفى أن نفرق هذه القياطس إن الغواصة مزودة بمهامز من الصلب تماثل فى رأيى حراب السيد نيدلاند.

ولم يتمالك نيدلاند أن هز كتفيه وكأنما يقول لنفسه : «من سمع من قبل عن مهاجمة الحيتان الوحشية بنتوءات سفينة».. أما الريان فقد أردف قائلا :

- مهلاً يامسيو أروناكس.. ستشهد لونًا من الصيد لم يسبق أن شهدت مثله. إنى لا أشفق على هذه الحيتان الوحشية.. فإنها عبارة عن أشداق وأسنان. أشداق وأسنان.. هذا أصدق وصف للقياطس. أو «حوت العنبر» فهو يتجاوز فى الطول أحيانًا خمسة وسبعين قدمًا. ويحتل رأسه الضخم ثلث جسمه. وهو أقوى سلاحًا من الحوت العادى الذى لا يضم فى فكه الأعلى سوى عظام حوتية أما القيطس فإن فى فكه الأعلى خمسة وعشرين نابًا طول كل منها نحو ثلاث

بوصات مخروطية الشكل حادة الأطراف ويزن الناب الواحد نحو رطلين ويوجد في هذا الجزء العلوى من الرأس الضخم وفي كهوف كبيرة مقسمة إلى خياشيم، نحو ثمانمائة رطل من زيت الحوت الثمين أو زيت (الأيل)، والقيطس وحش بحرى رهيب. وهو أقرب إلى الجنس الضفدعى منه إلى الأسماك، على حد وصف فريدول. وهو مشوه التركيب إذ إن جانبه الأيسر كله يوصف بأنه ناقص التكوين وهو لا يبصر إلا بعينه اليمنى فقط.

وفى هذه الأثناء كان فوج القياطس الهائلة يزداد اقترابًا بعد أن رأت الحيتان واستعدت لمهاجمتها، وبوسع المرء أن يتنبأ سلفًا أن الانتصار سيكون للقياطس لا لأنها أقوى سلاحًا فى الهجوم على أعدائها المسالمة فحسب، بل ولأنها أقدر على البقاء فترات أطول تحت سطح الماء.

وأسرعت الغواصة إلى نجدة الحيتان قبل فوات الوقت، فغاصت تحت السطح، واتخذت مع كونسايل ونيد لاند أماكننا وراء النافذة البللورية فى الصالون وانضم الربان نيمو إلى عامل الدفة فى المقصورة البللورية ليقود الغواصة بوصفها آلة للدمار. وسرعان ماشعرت بازدياد حركة الرفاص، وازدادت سرعة الغواصة على الأثر.

وكانت المعركة بين الحيتان والقياطس قد بدأت عندما وصلت الغواصة إلى ميدانها. وتوخى الربان فى توجيهها تشتيت شمل القياطس التى لم تفزع أول الأمر من هذا الوحش الذى اشترك فى المعركة ولكنها لم تلبث أن بدأت تتلقى ضرباتها.

يا لها من معركة! إن نيدلاند نفسه لم يتمالك لفرط حماسته من أن يصفق طربًا. وكانت الغواصة إذ ذاك بمثابة حربة هائلة مشرعة فى يد الربان، فهى تندفع إلى الكتل الحيوانية وتشقها من طرف إلى طرف تاركة وراءها أنصافًا من جثث تختلج بالموت، ولم تكن بدورها تحس بالضربات الهائلة الموجهة إليها من ذيول القياطس ولا بالهزات الناتجة من اندفاعها إليها. وكانت إذا فرغت من القضاء على قيطس اندفعت إلى آخر، لتقضى عليه فى موضعه قبل أن يهرب. وهى خلال هذا تندفع أمامًا وخلفًا، طيعة لربانها، وتغطس فى أثر الوحوش حين تغطس ثم تندفع

صاعدة إلى السطح ضاربة هذا الوحش أو ذاك بجوانبها المهمازية، ممزقة أجساد كل مايعترض سبيلها، مخترقة بمقدمتها الحادة مايقع أمامها.

يالها من مذبحة.. ويا له من دوى واصطخاب فوق سطح الماء، ويا له من فحيح ونخير يصدران من هذه الحيوانات الوحشية حين يدركها الفزع. أما ذيولها فكانت فى هذه المياه الهادئة بمثابة المنافيخ تحرك ساكنيها.

ودامت هذه المذبحة الهوميرية ساعة دون أن يتاح للقياطس فرصة الهرب. وقد حاول نحو عشرة منها بضع مرات تحطيم الغواصة بتكتلها. وكنا نرى من النوافذ البللورية أشداقها الهائلة المرصوفة بالأنياب، وعيونها الضخمة. ولم يتمالك نيدلاند أن راح يصب عليها سيول غضبه وتهديداته وكنا نشعر بها وقد تشبثت بالغواصة ككلاب الصيد وهى تطارد خنزيرًا وحشيًا فى أجمة. ولكن الغواصة كانت بقوة رفاصها المتزايدة تحملها هنا وهناك، أو ترفعها إلى مافوق الأمواج رغم ثقلها الهائل وعنف تشبثها.

وأخيرًا تشتت شمل الكتلة الوحشية وساد الهدوء مرة أخرى سطح البحر. وشعرت بالغواصة ترتفع إلى سطح المحيط. وما أن فتحت المنافذ حتى اندفعنا إلى ظهرها.

إن البحر مغطى بالجثث الممزقة.. وما كان فى مقدور انفجار عنيف أن يشتت أو يمزق هذه الكتل اللحمية كما فعلت الغواصة. فقد كنا نطفو بين جثث هائلة ظهورها مائلة للزرقة، وبطونها مبيضة وقد علتها كتل بارزة من اللحم المتورم. وكانت بقية القياطس المذعورة تنطلق هاربة إلى الأفق البعيد. كما اصطبغت الأمواج باللون الأحمر مدى أميال حول الغواصة حتى لكأنما هى تطفو فى بحر من الدماء.

وانضم الربان نيمو إلينا قائلا :

– حسنًا يامستر نيدلاند.

فقال نيدلاند الذى هدأت حماسته :

– حسنًا ياسيدى.. كان مشهدًا رهيبًا حقًا. ولكننى لست قصابًا بل صيادًا. إن ماحدث ليس إلا مجزرة.

- إنها مجزرة وحوش شريرة وليست الغواصة إلا سكين قصاب.

- إننى أفضل عليها حرية الصيد.

فقال الربان نيمو وهو يحدج نيدلاند بنظراته :

- كل إنسان يفضل سلاحه الخاص.

وخشيت أن يبدر من نيدلاند عمل عنيف تكون له نتائج يؤسف لها. ولكنه شغل عن غضبه بمشهد حوت كانت الغواصة قد اقتربت منه.

كان حوتًا لم يكتب له النجاة من أنياب القياطس، وقد عرفت أنه من حيتان البحار الجنوبية برأسه المفرطح الأسود. وكان يختلف - من الوجهة التشريحية - عن الحوت الأبيض أو حوت الثلوج بسبع فقرات مخروطية ملتحمة، وبزيادة ضلعين عن بقية جنسه. وكان الحوت المسكين مقلوبا على جانبه جثة هامدة وبطنه ملئ بالجروح الناشئة عن عض الأنياب. وكان ثمة حوت رضيع تعلق بزعنفته المشوهة، ولم يستطع هذا الصغير أيضًا أن ينجو من المذبحة. وكان فمه مفتوحًا تجرى فيه المياه داخلة خارجة. مرسلة خلال عظامه خريرًا كخرير أمواج تتكسر على الشاطئ.

واقترب الربان نيمو بالغواصة من جثة الحوت، وهبط اثنان من البحارة فوقه. ودهشت إذ رأيتهما يحلبان من أثدائه كل مافيها من لبن أى مايتراوح بين طنين وثلاثة أطنان.

وقدم الربان إلىّ قدحًا من هذا اللبن الذى مازال محتفظًا بدفئه. ولم يسعنى سوى إبداء نفورى من هذا الشراب، ولكنه أكد لى عذوبته وعدم اختلافه عن لبن البقر.

ولما تذوقته وجدته كما وصفه. وأدركت أنه سيكون طعامًا احتياطيًا مفيدًا لنا. فهو على صورة زبد أو جبن سيغدو تغييرًا طيبًا فى طعامنًا اليومى.

ومنذ ذلك اليوم كنت ألا حظ والقلق يساورنى ازدياد كراهية نيدلاند للربان ولهذا قررت أن أراقب تصرفاته وحركاته بعناية واهتمام.

الفصل السابع والثلاثون

شاطئ الجليد

استأنفت الغواصة سيرها جنوبًا متبعة المدار الخمسين بسرعة بالغة. ترى هل ينوى ربانها أن يمضى بنا إلى القطب. لا أظن هذا. لأن كل محاولة بذلت حتى ذلك الحين للوصول إلى القطب الجنوبى كان مآلها الفشل. وفضلا عن هذا فقد فات موسم الوصول إلى هذا القطب. لأن الثالث عشر من شهر مارس فى المناطق القطبية الجنوبية. يعادل الثالث عشر من شهر سبتمبر فى المناطق القطبية الشمالية. وهو بدء الفترة التى يتساوى فيها الليل والنهار.

وفى اليوم الرابع عشر رأيت فى خط عرض ٥٥ درجة كتلة جليدية طافية وكانت صخرة ثلجية يتراوح طولها بين عشرين وخمسة وعشرين قدمًا مكونة حواجز تتكسر عليها الأمواج. وتابعت الغواصة مسيرها على سطح المحيط. وكان نيدلاند الذى سبق له الصيد فى هذه المياه القطبية الشمالية معتادًا على رؤية جبال الجليد الطافية. أما أنا وكونسايل فقد كنا نستمتع بمشاهدتها لأول مرة.

وكان يمتد نحو الأفق الجنوبى شاطئ أبيض براق يطلق عليه صيادو الحيتان الإنجليز اسم الشعاع الثلجى لأن السحب مهما تراكمت لا تستطيع أن تحجبه كما كان يعلن دائمًا عن وجود تراكم ثلجى أو شاطئ.

وفى الواقع سرعان ما ظهرت كتل أضخم وأضخم. كان بريقها يختلف تبعًا لحالة الضباب. وكان بعض هذه الكتل يكشف عن عروق خضراء بداخلها. وكأنما رسمت هذه الخطوط الطوال المتموجة بسلفات النحاس. وكان بعضها -

كالجشمت الهائل - يهيئ للضوء أن يتألق داخلها. وكان غيرها يعكس أشعة الشمس من آلاف الجوانب البللورية. وكان ثمة غير هذه وتلك كتل مظللة بطبقات كلسية مصقولة تكفى لإنشاء مدينة هائلة كاملة من الرخام.

وكانت هذه الجزر العائمة تزداد عددًا وحجمًا كلما أمعنت الغواصة فى سيرها نحو الجنوب. وقد رأيت الطيور القطبية تحط عليها بالآلاف. وكانت أطيار النورس، والدانارد والناصوح تكاد تصم آذاننا بصيحاتها. وقد ظن بعضها أن الغواصة ظهر حوت. فأقبلت تحط عليها وتنقر ألواحها الرنانة بمناقيرها.

وكان الريان نيمو حريصًا على البقاء فى مقصورة القيادة أثناء سيرها بين كتل الجليد. وكان يرقب هذه المناطق الموحشة باهتمام. وكنت أرى ملامحه الهادئة تضيئها أحيانًا سمات الحيوية والانتعاش.

ترى هل يقول لنفسه إنه فى هذه البحار القطبية النائية عن البشر، كأنما هو فى بيته ووطنه، وسيد لهذا الفضاء غير المحدود؟ ربما.. ولكنه لم يتحدث بما فى نفسه. بل كان يظل بلا حراك لا يفيق إلا حين تنتابه غريزة الشعور بالخطر أثناء القيادة. فإذا هو يقود الغواصة ببراعة. متحاشيًا الاصطدام بهذه الجبال العائمة التى كان طول بعضها يبلغ بضعة أميال. وارتفاعها نحو مائتى أو ثلاثمائة قدم وكان الأفق يبدو أحيانًا مسدودًا تمامًا. وفعلا اختفت جميع الممرات المائية فى نهاية الدرجة الستين من خط العرض وكان الريان نيمو قد استطاع بالبحث الدقيق أن يهتدى إلى فجوة نفذ منها ببراعة وهو يعرف تمامًا أنها ستلتحم وراءه.

على هذا النحو كانت الغواصة تنقاد لهذه اليد البارعة. وتغوص بين كتل الجليد التى كانت مصنفة طبقًا لحجمها وتكوينها تصنيفًا دقيقًا يبهج قلب كونسايل. فهى جبال الجليد. وحقول الجليد والرزم عند ماتكون دائرية والجدران عندما تتكون من قطع مستطيلة.

وكان الجو باردًا وكان مقياس الحرارة المعرض للهواء الخارجى يدل على أن حرارة الجو تبلغ درجتين أو ثلاثا تحت الصفر. ولكنا كنا ننعم بالدفء بفضل

ملابسنا المصنوعة من فراء الفقمات أو الدببة القطبية. أما داخل الغواصة المزودة بأجهزة الدفء الكهربائية، فكان يتحدى أعنف الأجواء الباردة. وفضلا عن هذا كان يمكن أن تهبط الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء حيث الجو الحرارى محتمل. ولو أننا وصلنا قبل شهرين، لوجدنا النهار دائمًا فى هذه المناطق! أما الآن فقد كان الليل يستمر ثلاث ساعات أو أربعًا تظل تزداد حتى تمتد فترة الليل فى هذه المنطقة من الدائرة القطبية ستة أشهر.

وفى اليوم الخامس عشر من شهر مارس اجتزنا خطوط عرض جزائر نيو جتلاند ونيو أوركنى وقد أخبرنى الريان أن جماعات كثيرة من حيوان الفقمة كانت تستوطن هذه المناطق من قبل. ولكن صيادى الحيتان الإنجليز والأمريكيين الذين استبدت بهم شهوة القتل أبادوا تجمعات هذا الحيوان المسالم عن آخرها. ولم يرحموا حتى الإناث والرضع وخلفوا وراءهم سكون الموت بعد أن كان دبيب الحياة والنشاط يملأ الجو.

وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم السادس عشر. اجتازت الغواصة وهى تتبع المدار الخامس والخمسين، حدود الدائرة القطبية الجنوبية، حيث أحاطت بنا الثلوج من جميع الجهات وسدت فى وجوهنا الأفق، ورغم ذلك ظل الريان يتنقل من ممر إلى آخر ملتزمًا الاتجاه الجنوبى.

وفى هذا قلت :

- ترى ماهى وجهته؟

فقال كونسايل :

- إنه يتجه إلى حيث يشاء.. وعلى أى حال سيضطر إلى التوقف عندما يعجز عن المضى.

- هذا رأى غير مؤكد.

ولكنى أعترف، مع هذا، أننى لم أكن ساخطًا على هذه الرحلة المتسمة بروح المغامرة. ولا أستطيع أن أصور دهشتى لمظاهر الجمال فى تلك المناطق الجديدة.

فقد كان الجليد يتخذ أبهى الأشكال. فهنا مثلا كانت الكتل المتجمعة تبدو كمدينة شرقية بمساجدها ومآذنها العديدة. وهناك مدينة مقلوبة تبدو كأنها ملقاة على الأرض. بفعل زلزال عنيف. وكانت المشاهد تتغير باستمرار فى ضوء الشمس. أو تختفى وراء غلائل الضباب. بين الزوابع الثلجية. وكان دوى سقوط الكتل الجليدية يسمع فى جميع الجهات. وكانت الكتل الثلجية العارمة تغير المشاهد كأنها معالم صور متحركة.

وعندما كانت الغواصة تهبط إلى الأعماق فى لحظة اضطراب هذه الكتل المائية كان الصوت ينفذ إلى الماء فى هدير بالغ مروع؛ وكان سقوط الكتل يثير دوامات تصل إلى أعماق المحيط حتى كانت الغواصة تضطرب وتتمايل كسفينة فى براثن ثورة العناصر الطبيعية.

وكنت أعتقد كلما سدت الطرق أمامنا أننا أصبحنا أسرى هذه الكتل الرهيبة. ولكن الربان نيمو كان يتقدم بوحى غريزته، وكان يسترشد بأقل علامة لتحديد ممرات جديدة للغواصة. والحق أنه لم يكن يخطىء فى التقاط خيوط الماء الزرقاء التى تتخلل حقول الجليد. ولهذا لم يخالجنى الشك فى أنه قاد الغواصة قبل هذه المرة فى البحار المتجمدة الجنوبية.

ولكن هذه الحقول الجليدية لم تلبث أن سدت الطريق تمامًا فى اليوم السادس عشر من شهر مارس. ولم يكن هذا شاطئ الجليد بعد. بل كان حقولا ثلجية جمدها البرد حتى صارت كالأسمنت؛ ولكن هذه العقبة لم توقف الربان نيمو، فقد اندفع بالغواصة فى عنف مخيف فإذا هى تنساب فى الكتل المتجمدة تشقها كالنصل فى صوت قاصف رهيب. كانت كالمدق المستعمل فى العصور القديمة وهو يندفع بقوة هائلة. وكانت قطع الثلج المتطايرة فى الهواء تتساقط حولنا كالمطر. واستطاعت الغواصة بقوتها الذاتية الدافعة أن تشق لنفسها ممرًا مائيًا. وهى أحيانًا كانت تحط بكل قوتها على ركام الجليد فتحطمها بثقلها. وأحيانًا أخرى كانت تلتحم بمقدمتها مع الثلوج فتشقها بحركة بارعة. وتفتح فيها ممرًا واسعًا.

وفى تلك الأيام كانت الأمطار الغزيرة تنهمر علينا بلا انقطاع. ولم يكن بوسعنا إذا تكاثف الضباب أن نرى أول الغواصة ونحن فى آخرها. وكانت الرياح تعصف حولنا فى كل اتجاه. وكانت الثلوج تهطل وتتراكم فى أكوام صلبة كنا نحطمها بالمعاول. وكانت درجة الحرارة البالغة ٥٠ درجة تحت الصفر قد علت جوانب الغواصة الخارجية بطبقة من الجليد. وما كان لسفينة شراعية أن تشق طريقها فى مثل هذه المنطقة. لأن الحبال تتجمد على (البكر) من فرط البرد. ولكن السفينة التى تدار بالكهرباء لا بالفحم، هى التى تستطيع وحدها السير فى هذه المنطقة النائية. وكان «البارومتر» فى هذه الظروف ينم دائمًا عن الهبوط الشديد. ولم يكن بوسعنا الاعتماد على تقديرات البوصلة البحرية. فقد كان مؤشرها يدل على اتجاهات مضادة ونحن نقترب من القطب المغناطيسى الجنوبى الذى لايجب الخلط بينه وبين جنوب الكرة الأرضية. فإن هذا القطب المغناطيسى يقع طبقًا لنظرية هانستين بالقرب من خط العرض ٧٠ درجة وخط الطول ١٣٠ درجة. وطبقًا لنظرية دوبيرى يقع فى خط الطول ١٣٠ درجة وخط العرض ٣٠ : ٧٠ درجة وكان علينا أن ندون مختلف الملاحظات على البوصلة بعد وضعها فى عدة أماكن بالغواصة لتقدير المعدل. وماكان علينا إلا أن نراجع هذه التقديرات بين وقت وآخر لتحديد مواقعنا وهى طريقة غير مرضية بين ممرات ضيقة تتغير معالمها باستمرار.

وأخيرًا فى الثامن عشر من شهر مارس. وبعد محاولات عنيفة فاشلة توقفت الغواصة توقفًا تامًا. وهى لم تتوقف أمام جداول ثلجية أو حقول جليدية بل أمام حاجز راسخ مكون من كتل جليدية ملتحمة.

وقال نيدلاند :

- هذا شاطئ الجليد.

وقد أدركت أن هذا الشاطئ عقبة كؤود لا منفذ منها فى نظر نيدلاند أو غيره من الملاحين الذين سبقونا إليه. وكان الريان قد انتهز فرصة شروق الشمس لحظة واحدة عند الظهر. فأسرع بتحديد موضعنا، فإذا نحن فى نقطة تقع بين

خط الطول ٣٠ : ٥١ درجـة وجنوبى خط العـرض ٣٩ : ٦٧ درجـة وهى نقطة سحيقة فى هذه المناطق الجليدية.

ولم يكن ثمة دليل على وجود بحار أو مسطحات مائية أمام نواظرنا وإنما امتد من مقدمة الغواصة سهل شاسع مغطى بكتل مبعثرة يبدو كسطح نهر قبل تكسر الثلوج فوقه. ولكن بصورة مضاعفة إذ كانت القمم والأطراف الثلجية الدقيقة ترتفع هنا وهناك إلى مائتى قدم. وعلى مسافة منها سلسلة من التلال الثلجية منحدرة الجوانب وعرة، كسيت بطبقة لامعة رمادية وكأنها مرايا هائلة تعكس بعض أشعة الشمس نصف الغارقة فى غلائل الضباب. وكان السكون الرهيب يخيم بصرامة فوق هذا المشهد الموحش. فلا يقطعه بين حين وآخر سوى خفق أجنحة طيور النورس أو الفاصوح. وعلى الجملة كان كل شىء متجمدًا.. حتى الصوت..

وهكذا اضطرت الغواصة إلى التوقف فى سيرها المحفوف بالمخاطر بين حقول الجليد.

وذات يوم قال نيدلاند :

- سيدى.. إذا حاول ربانك أن يمضى إلى أبعد من هذا..

- حسنا.

- سيكون رجلا بارعًا حقًا..

- لماذا يانيد.

- لأن أحدًا لم يستطع قط اجتياز شاطئ الجليد. إن ربانك هذا رجل قوى.. ولكنه برغم هذا لن يكون أقوى من الطبيعة. وعليه أن يتوقف - شاء أو لم يشأ - حيث أرادت له الوقوف.

لاشك فى هذا يانيدلاند. ومع ذلك بودى أن أعرف ماذا وراء هذا الشاطئ الجليدى. أهو جدار أم ماذا؟ إن هذا يضايقنى إلى حد كبير...

فقال كونسايل :

- إن سيدى على حق.. إن الجدران لم تبتكر إلا لمضايقة العلماء. لا ينبغى أن تكون أمامهم جدران فى أى مكان.

فقال نيدلاند:

- حسنا.. إن ما وراء شاطئ الجليد معروف تمامًا..

- ماهو؟..

- جليد.. وجليد.. ولا شىء غير الجليد.

- هل أنت واثق من هذه الحقيقة يانيد. أنا شخصيًا غير واثق. ولهذا أريد أن أمضى لكى أعرف.

- حسنا ياسيدى البروفسور.. عليك أن تتخلى عن هذه الفكرة. لقد وصلت إلى شاطئ الجليد. وفى هذا الكفاية. ولن نستطيع أن نمضى إلى أبعد منه. لا أنت ولا الريان ولا الغواصة. علينا أن نعود نحو الشمال مرة أخرى أراد أو لم يرد.. إلى بلاد الحضارة.

وكان على أن أوافق نيدلاند على رأيه. فإنه حتى لو صنعت السفن التى تستطيع السير على حقول الجليد، فإنها ستضطر للوقوف أمام شاطئ الثلوج.

والواقع أنه برغم جهود الغواصة. وبرغم القوى المزودة بها لتحطيم الثلوج وقفت بلا حركة أمام هذا الشاطئ الجليدى، والمعروف كقاعدة أنك إذا لم تستطع أن تتقدم إلى الأمام. كان عليك أن تعود إلى الوراء. ولكن العودة إلى الوراء هنا أمست مستحيلة تمامًا كالتقدم إلى الأمام، ذلك لأن الممرات التى تقدمنا منها لم تلبث أن أغلقت وراءنا. وبعد أن أطالت الغواصة المكث هنا فستصبح محاصرة من جميع النواحى. وهذا ما حدث فى الساعة الثانية بعد الظهر. فقد أحدقت بها الثلوج وبسرعة مذهلة، ولم يسعنى إلا الاعتراف بأن تصرف الريان نيمو كان مجردًا من أسباب الحكمة، وكنت عندئذ على سطح الغواصة. وظل هو يرقب الموقف بضع دقائق ثم قال لى :

حسنًا يا بروفسور ما رأيك فى هذا؟

ـ أعتقد أننا وقعنا فى الفخ يا كابتن.

ـ وقعنا فى الفخ. ماذا تعنى؟

ـ أعنى أننا لن نستطيع أن نتراجع أو نتقدم فى أى اتجاه ومعنى هذا فى رأيى أننا وقعنا فى الفخ أو على الأقل فى قارة غير مأهولة.

ـ كأنك لا تعتقد يا مسيو أروناكس أن فى مقدور الغواصة الخروج من هذا المأزق.

ـ ليس بالسهولة التى تتصورها يا كابتن. لأن موسم ذوبان الثلوج لا يزال بعيدًا جدًا...

قال بتهكم :

ـ آه .. أنت دائمًا هكذا لا ترى غير العقبات والمصاعب ولكنى أؤكد لك أن الغواصة لن تخرج من هذا الفخ وحسب بل وستمضى قدمًا...

وقلت وأنا أحدق فى وجهه.

ـ نحو الجنوب.

ـ نعم يا سيدى.. ستمضى إلى مدار القطب..

فهتفت قائلا ولم أتمالك من رفع يدى لفرط الدهشة:

ـ إلى القطب؟..

فأجاب الربان ببرود:

ـ نعم .. إلى قطب المنطقة الجنوبية.. إلى النقطة المجهولة التى تلتقى عندها كل مدارات الكرة الأرضية وأنت تعرف أنى أفعل بالغواصة ما أريد.

ـ أجل كنت أعرف هذا. أعرف أن الإنسان قد يندفع فى تهوره إلى أقصى حد ولكن هذه المغامرة تتسم بالجنون التام. وليس سوى عقلية مجنون تتصور إمكان الوصول إلى طرف القطب الجنونى.

ثم خطر لى أن أسأل الريان إن كان قد اكتشف هذا القطب الذى لم تطأه قدم مخلوق بشرى فقال:

- لا يا بروفسور.. سنكتشف هذا القطب معًا.. هناك حيث فشل الكثيرون.. لن أفشل. إننى لم أتقدم بالغواصة قط إلى هذا الحد جنوبًا.

ولكنى أكرر لك أننا سنمضى قدمًا..

فقلت فى تهكم يسير:

- أتمنى لو أصدقك يا كابتن.. ولكنى أصدقك.. نعم.. ليس أمامنا عقبات! سنحطم شاطئ الجليد.. فإذا قاومنا.. فسنزود الغواصة بالأجنحة لكى نعبره.

فقال الريان نيمو بهدوء:

- نعبره. لن نعبره. ولكننا سنجتازه من أسفل.

- من أسفل؟

وومضت فى ذهنى فجأة بعض مشروعات الريان، لقد أدركت كل شىء.. أدركت أن مميزات الغواصة العجيبة ستخدمنا فى هذه المغامرة الخارقة.

وقال الريان فى شبه ابتسام:

- أرى أننا بدأنا نتفاهم يا بروفسور. لقد أدركت فعلا بعض الإمكانيات. أعنى إمكانيات النجاح التى تنتظر هذه المحاولة.. إن المستحيل أمام سفينة عادية هو الممكن أمام الغواصة. إن كان ثمة قارة عند القطب الجنوبى، فسوف نتوقف أمام هذه القارة: أما إذا كان العكس ووجدنا القطب الجنوبى سابحًا فى بحار مفتوحة فسوف تصل الغواصة إليه...

فقلت مدفوعًا بقوة منطق الريان:

- المؤكد أنه برغم تجمد سطح البحر بالثلوج فإن جوفه يظل سائلا. وذلك بفضل العناية الإلهية التى جعلت معدل كثافة مياه البحر أعلى من معدل العناصر المماثلة لها، وإذا لم أكن مخطئًا فإن نسبة حجم الجزء الغاطس من شاطئ الجليد إلى حجم الجزء الطافى كنسبة ثلاثة إلى واحد.

ـ نحو ذلك يا بروفسور... فإن لكل قدم مكعب من جبال الثلج الطافية، ما يوازيه من الثلج تحت السطح ثلاث مرات، وإذا كانت هذه الجبال الثلجية ترتفع الآن ثلاثمائة قدم، فإن الجزء الغاطس منها لا يزيد على تسعمائة قدم فما قيمة هذا العمق اليسير بالنسبة للغواصة.

ـ لا شيء يا كابتن.

ـ إنها قد تهبط أيضًا إلى أغوار أعمق حيث تعتدل حرارة المياه. ولكن المشكلة هى أننا سنضطر للبقاء تحت سطح الماء أيامًا عديدة دون أن نجدد هواء الغواصة.

ـ أهذه هى المشكلة إن للغواصة مستودعات هوائية ضخمة.. سنملأها وستزودنا بالأوكسيجين اللازم لنا.

فقل الريان باسما:

ـ أحسنت يا بروفسور ولكنى لا أريد أن تتهمنى بالتهور. ولهذا أضع أمامك سلفًا ما قد يعترض طريقنا.

ـ هل بقيت عقبات أخرى؟

ـ واحدة فقط.. يحتمل إذا كان ثمة بحر فى القطب الجنوبى أن يكون سطحه متجمدًا تمامًا فلا تستطيع الصعود إليه.

ـ حسنا يا سيدى... هل نسيت أن الغواصة مزودة بمقدمة حديدية قوية، وأنه فى مقدورنا أن ندفع بها رأسيًا إلى طبقة الجليد فتنشق فورًا من أثر الاصطدام.

ـ آه.. إن أفكارك نيرة اليوم يا بروفسور.

فقلت وأنا أزداد حماسة:

ـ فضلا عن هذا فلماذا لا نجد بحرًا مفتوحًا فى القطب الجنوبى كما هو الشأن فى القطب الشمالى. إن قطبى الجليد وقطبى الأرض، ليست كلها متماثلة الحالات فى الشمال وفى الجنوب وحتى يكون لدينا الدليل المحقق على العكس، لنا أن نعتقد بوجود إما قارة أو محيط غير متجمد فى كلا القطبين.

- وهذا ما أراه أيضاً يا مسيو أروناكس وكل ما أقوله هو أنك بعد أن كنت نكثر من معارضة رأيى، أصبحت الآن تتهال على بالآراء المؤيدة له.

ولم يتجاوز الربان نيمو الحقيقة. فقد رحت أنافسه فى الجرأة والإقدام. وكنت أنا الذى أحاول أن أدفعه إلى القطب.. لقد سبقته بخيالى.. ولكن.. لا.. يا لبلاهتى.. إن الربان نيمو يعرف ما لهذه المغامرة وما عليها. وكل ما هنالك أنه كان يمتع نفسه برؤيتى مندفعًا فى التحمس لأحلام مستحيلة التحقيق.

وفى خلال ذلك لم يضيع الربان وقته.. فبإشارة منه أقبل الضابط الأول وتبادل الإثنان حديثًا بلغتهما غير المفهومة. وسواء كان الضابط على علم بأمر هذه الرحلة من قبل أو أنه فوجئ بها ووجدها ممكنة فلم يبد أدنى دهشة.

وكان ذلك شأن كونسايل الذى لم يدهش وأنا أخبره بعزمنا على الوصول إلى القطب الجنوبى. وقد قنعت منه بعبارته التقليدية التى يجيب بها فى مثل هذه الظروف «كما يريد سيدى» أما نيدلاند فقد هز كتفيه قائلا:

- إننى آسف لك ولربانك يا بروفسور.

- ولكننا سنذهب إلى القطب يا نيد.

- جائز. ولكنكم لن تعودوا...

وبدأت الاستعدادات لهذه الرحلة الجريئة، فأخذت مضخات الغواصة القوية فى ملء المستودعات بالهواء وحفظه تحت ضغط مرتفع حتى إذا كانت الساعة الرابعة بعد الظهر، أخبرنى الربان بأن منافذ الغواصة ستغلق فألفيت نظرة على شاطئ الجليد المتراكم الذى سنمضى تحته وكان الجو صافيًا والهواء نقيًا والبرد قارسًا ودرجة الحرارة ١٢ تحت الصفر ولكن الريح كانت ساكنة مما جعل هذه البرودة محتملة.

ووقف نحو عشرة رجال حول الغواصة بالمعاول يحطمون الثلوج عن جوانبها وسرعان ما تحررت لأن طبقة الثلوج التى تراكمت حولها كانت يسيرة وانتقلنا جميعًا إلى الداخل وامتلأت الخزانات كالمعتاد بالماء المتخلف من عملية إزالة الثلج وسرعان ما هبطت الغواصة إلى ما تحت السطح.

واتخذت مكانى بجانب كونسايل فى الصالون. ومن خلال النوافذ البللورية كنت أرى درجات الأعماق المختلفة فى المحيط الجنوبى وبدأ مقياس الحرارة يرتفع.

وعلى عمق تسعمائة قدم كما توقع الريان كنا نطفو تحت الشاطئ المتجمد ولكن الغواصة استمرت فى الهبوط حتى وصلت إلى عمق ثمانمائة باردة.

ولكن درجة الحرارة التى كانت ١٢ درجة تحت الصفر فوق السطح أصبحت فى هذا العمق ١٠ درجات تحت الصفر أى أننا اكتسبنا درجتين. وكانت عمليات الغوص تتم بإحكام تام.

وقال لى كونسايل..

- سنجتاز هذه المياه الجنوبية حتما، إذا سمح لى سيدى أن أقول هذا.

فقلت بصوت كله اليقين.

- هذا ما أقدره.

ومضت الغواصة فى أعماق البحر إلى الطريق المؤدى إلى القطب رأسا على المدار الثانى والخمسين وكانت الدرجات الباقية من ٣٠ : ٦٧ إلى ٩٠ درجة نحو اثنتين وعشرين درجة ونصف درجة. ولكى نجتازها كان علينا أن نقطع نحو ألف وخمسين ميلا. وكانت الغواصة تنطلق بسرعة معدلها ٢٦ ميلا فى الساعة أى بسرعة قطار فرنسى سريع، فإذا استمرت تسير بهذا المعدل أربعين ساعة، فإن هذا الوقت يكفى لوصولها إلى القطب.

وكانت جدة المناظر قد ربطتنا إلى نوافذ الصالون البللورية طوال الليل، ذلك أن المياه كانت مضاءة بنور الكشاف الكهربائى، ولم تكن الأسماك تعيش فى هذه المياه المغلقة، وإنما كانت تستخدمها للمرور من المحيط المتجمد الجنوبى إلى البحار القطبية المفتوحة.. وكانت الغواصة تسير بسرعة تجلت لنا من اهتزازات هيكلها الصلبى المستطيل.

وفى نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل ذهبت لنيل قسط من الراحة مدى ساعات. وحذا كونسايل حذوى. ولم ألتق بالريان وأنا فى الطريق إلى غرفتى وبدا لى أنه فى مقصورة القيادة.

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر مارس عدت إلى مكانى من النافذة بغرفة الصالون، وكان جهاز السرعة يدل على اعتدال سرعة الغواصة، فقد كانت فى طريقها إلى السطح وكانت ترتفع متهادية وهى تفرغ الخزانات ببطء.

وشعرت بقلبى يخفق بسرعة. ترى هل كنا فى الطريق إلى جو القطب الطليق.. لا.. لقد أدركت من صدمة الغواصة أنها ارتطمت بقاع الشاطئ الجليدى الذى عرفت من رنين الارتطام المكتوم أنه لايزال كثيفًا سميكا. لقد اصطدمنا بقاع سمكه ألف قدم تعلوه طبقة جليدية سمكها ألفا قدم منها ألف قدم بارزة فوق سطح الماء.. ومعنى هذا أن سمك الشاطئ الجليدى هنا أشد منه عند حدوده الأولى وهى حقيقة غير مشجعة.

وكررت الغواصة هذه التجربة بضع مرات طوال ذلك اليوم وفى كل مرة كانت تصطدم بجدار سميك كأنه السقف وفى بعض الأحيان كانت تلتقى بهذا السقف على عمق ثلاثة آلاف قدم.

وكنت أسجل بدقة مختلف درجات العمق، وهكذا أتيح لى الحصول على صورة تقريبية لهذه السلسلة.

وفى المساء لم يحدث أى تغيير فى الموقف. وكانت الثلوج لاتزال على عمق يتراوح بين ألف ومائتى قدم وألف وثمانمائة قدم وهو سمك دل على أن الطبقة الثلجية بدأت تخف تدريجيًا ولكن أية طبقات ثلجية لا تزال مع هذا بيننا وبين سطح الماء؟ وبلغت الساعة الثامنة مساء وطبقًا للقاعدة اليومية كان على الغواصة أن تصعد إلى السطح لتجدد الهواء قبل ذلك بأربع ساعات ولكنى لم أعان كثيرًا من عدم تجديد الهواء رغم أن الربان نيمو لم يكن قد لجأ إلى الهواء الاحتياطى.

وكان نومى مضطربًا تلك الليلة بعد أن هاجمنى الأمل والخوف متعاقبين حتى استيقظت بضع مرات. ذلك وما برحت الغواصة ماضية فى طريقها. وفى نحو الثالثة صباحًا وجدت أن الجزء الغاطس من الجليد صار على عمق مائة

وخمسين قدمًا فقط ومعنى هذا أنه لم يبق بيننا وبين سطح الماء غير هذه المائة والخمسين قدما. لقد تحول شاطئ الجليد تدريجيًا إلى حقل جليدى وغدت الجبال الثلجية سهولا..

ولم يفارق نظرى جهاز تسجيل الأعماق واستمرت الغواصة فى طريقها صعودًا مقتفية أثر السطح اللامع الذى كان يتألق بتأثير الكشاف الكهربائى. وأخذ الشاطئ الجليدى ينخفض من أعلى ومن أسفل ممتدًا فى منحدرات طويلة وكان سمكه يقل تدريجيًا ميلا بعد ميل.

وأخيرًا وفى الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم المشهود التاسع عشر من شهر مارس فتح باب الصالون وأقبل الربان نيمو قائلا:

- البحر المفتوح..

الفصل الثامن والثلاثون

القطب الجنوبى

واندفعت مسرعًا إلى السطح. نعم رأيت البحر ممتدًا حيث كان ثمة قطع من الجليد والكتل الثلجية العائمة متناثرة هنا وهناك، وكانت المياه تمتد إلى غاية البصر، وكان ثمة عالم من الطيور فى الجو وجموع لا حصر لها من السمك فى الماء الذى كان لونه يختلف طبقًا للعمق متراوحًا بين الأزرق القاتم والأخضر الزيتونى. ودل مقياس الحرارة على أن حرارة الجو ثلاث درجات فوق الصفر وهو جو يبدو ـ نسبيًا ـ كالربيع الكامن وراء ذلك الشاطئ الجليدى الذى كانت تلاله الثلجية البعيدة تبدو فى الأفق الشمالى.

وسألت الريان بقلب خافق:

ـ هل نحن الآن عند القطب؟

ـ لا أعرف حتى الآن، سنحدد موقعنا فى ساعة الظهيرة.

فقلت متطلعًا إلى السماء الملبدة:

ـ ولكن هل تبرز الشمس من خلال هذه السحب؟

ـ إن أقل ضوء منها فيه الكفاية.

وعلى بعد نحو عشرة أميال من جنوبى الغواصة كان ثمة جزيرة معزولة ترتفع نحو ستمائة قدم فى الهواء فاتجهنا إليها فى حذر خشية أن يكون البحر ممتلئًا بالحواجز الصخرية.

وبعد ساعة وصلنا إلى الجزيرة.. وبعد ساعتين أتممنا الدورة حولها وكان محيطها يتراوح بين أربعة وخمسة أميال، وتفصل قناة ضيقة بينها وبين أرض شاسعة.. وربما كانت هذه الأرض جزءًا من قارة لم يكن بوسعنا أن نبصر حدودها، وأعتقد أن وجودها يؤيد نظرية مورى، فإن هذا العبقرى الأمريكى قد ذكر فى الواقع أن البحر فيما بين القطب الجنوبى وبين خط العرض ٦٠ درجة مغطى بجبال جليدية ذات حجم هائل لا يوجد لها مثيل فى شمال الأطلنطى.

ونخلص من هذه الحقيقة إلى أن الدائرة القطبية الجنوبية عبارة عن مساحات ضخمة من الأرض، لأن جبال الجليد الهائلة لا تتكون فى عرض المحيط بل بالقرب من الشواطئ.. وبناء على تقديراته فإن كتلة الجبال الجليدية المحيطة بالقطب الجنوبى تكون رأسًا جغرافية هائلة يبلغ اتساعها ثلاثمائة ميل.

وتوقفت الغواصة على بعد ستين مترًا من الشاطئ الصخرى خوفًا من أن يغوص قاعها فى الرمال، وبعد أن أنزل الزورق إلى الماء هبطت فيه مع كونسايل والربان نيمو واثنين من الرجال يحملان الأجهزة، وكانت الساعة العاشرة صباحًا ولم أبصر نيد لاند الذى أبى ولاشك أن يعترف بخطئه عقب وصولنا إلى القطب الجنوبى.

وبعد تجديف قصير الأمد وصلنا بالزورق إلى رمال الشاطئ حيث رسونا وفيما كان كونسايل يهم بالهبوط أوقفته وقلت للربان:

ـ كابتن نيمو.. من حقك أن يكون لك شرف أول من يضع قدمه على هذه الأرض..

ـ نعم يا بروفسور.. وأنا لا أتردد أن أفعل هذا لأنه لم يسبق لمخلوق بشرى أن وضع قدميه عليها.

قال هذا ووثب بخفة إلى الرمال، ولا شك أن الانفعال الشديد جعل قلبه يخفق بقوة، وما لبث أن تسلق صخرة بارزة تشبه الهضبة ووقف فوقها عاقدًا ذراعيه جامدًا صامتًا، وبدا كأنه يستحوذ بنظراته الملهوفة على كل هذه المناطق الجنوبية وبعد استطراد عنيف فى هذه التأملات الصامتة دام خمس دقائق التفت إلينا قائلا:

ـ هل أنت مستعد يا بروفسور؟

فهبطت يتبعنى كونسايل تاركًا البحارين فى الزورق وبعد مسافة يسيرة وجدت التربة مكونة من التون المحمر «حجر رملى ذى مسام» وكأنها من آجر مسحوق وكانت مكسوة بجداول اللابا الباردة وحجارة الخفاف الشفافة «المعروف أصلها البركانى» وفى بعض الأماكن كانت سحب الدخان الحقيقية تشهد بأن النيران الجوفية لا تزال محتفظة بقواها ومع ذلك لم أشهد حين تسلقت مرتفعًا صخريًا على الشاطئ أى بركان على مدى أميال عديدة فى كل ما حولى والمعروف أن الرحالة جيمس روس وجد فى المناطق الجنوبية بركانى أبرميوس وتيمرور عند خط العرض ٣٢ : ٧٧ درجة وخط الطول ١٦٧ درجة فى عنفوان ثورتهما.

وكانت نباتات هذه القارة النائية تبدو محدودة جدًا، فقد كانت بعض الأعشاب المعروفة باسم «الأشنة» أو حزار الصخر منتشرة على الصخور السوداء وبعض النباتات الفطرية والنباتات البدائية المزدوجة الفلقة، وهو نوع من الخلايا موضوعة بين صدفين من الكوارتز وبعض الطحالب الفسفورية الطويلة الحمراء والقرمزية الموضوعة فوق المثانات السبحية التى يلقى بها المد إلى الشاطئ. كانت هذه هى كل الأنواع القليلة التى تتكون منها المملكة النباتية فى تلك الأصقاع.

وكان الشاطئ تتناثر فيه المحارات والقواقع والأصداف واليكاردات القلبية الشكل، ولا سيما القليوزات ذات الأجسام الغشائية والرءوس التى تتكون من فلقتين مستديرتين، كما رأيت أيضًا آلافا مؤلفة من القليوزات الجنوبية «أسماك صغيرة» طولها نحو خمسة سنتيمترات كانت الحيتان تلتهمها بالملايين وكانت بعض أنواع الفراشات البحرية تشيع الحياة فى الماء القريب من الشاطئ.

وفى الأماكن الضحلة من الشاطئ رأيت بين العناصر المرجانية وبعض الأحياء المرجانية المتحجرة التى تعيش، طبقًا لنظرية جيمس روس، على عمق ألف ياردة من المنطقة الجنوبية، وأسماك المازور، من النوع الصغير ـ وكميات كبيرة من سمك الاصطرياد المعروف فى هذه الأجواء، أما سمك نجم البحر فكان يرصع القاع الضحل.

ولكن الفضاء كان حاشدًا بعدد لا يحصى من الطيور، كانت الآلاف ترفرف من مكان إلى آخر وهى تصم آذاننا بصيحاتها، وتجمعت آلاف أخرى فوق الصخور تشخص إلينا دون خوف ونحن نمر بجانبها، وتتجمع مستأنسة عند أقدامنا، وكان ثمة طيور البنجوين التى تبدو رشيقة فى الماء ولكنها فوق اليابسة ثقيلة شوهاء ومنها كانت تنبعث أصوات خشنة وكانت تتشكل فى مجموعات قليلة الحركة ولكنها كثيرة الصخب والضجيج.

وقد رأيت بين أنواع الطيور طائر القيونيز الطويل السيقان الذى يناهز حجم الحمام، وهو أبيض اللون قصير المنقار تحيط بكل عين منه دائرة حمراء، وقد اصطاد كونسايل كثيرا منها لأن لحومها - إذا أتقن طهوها - طيبة المذاق وكانت طيور الفطرس - أو الصخابة - تحلق فى الجو وهى تسمى بحق غربان المحيط ويبلغ طول جناحيها أثناء التحليق أربع ياردات ونصف كما رأيت طيور النورس الضخم وطيور القبرق ذات الأجنحة المقوسة. وهى مشغوفة بأكل لحوم الفقمة وطيور الدامير - وهى نوع من البط الصغير يتلون أعلى جسمه بالأبيض والأسود وأخيرًا مجموعات مختلفة من طيور النورس العادية، بعضها مائل إلى البياض وله أجنحة يحف بها اللون البنى وبعضها أزرق وهى تنتمى إلى المناطق المتجمدة الجنوبية أى أنها ممتلئة بالشحم وقد قلت لكونسايل فى هذه المناسبة «إن سكان جزر فارد يكتفون بوضع فتيل فى أجسام هذه الطيور - بعد قتلها - ثم إشعال الفتيل فإذا هى تضىء لهم».

فقال كونسايل:

- إنها لا تضىء فحسب بل تعدو مصابيح حقيقية ولم لم تزودها الطبيعة بالفتائل أيضًا.

وعلى بعد نصف ميل آخر رأيت التربة زاخرة بأوكار طير الران، وبدت الأرض كأنها منطقة تفريخ يبرز منها عدد كبير من الأفراخ، وأمر الريان نيمو بقتل مئات منها لأن لحومها الرمادية طيبة المذاق وكانت لها أصوات كنهيق الحمير وحجم الواحدة منها كحجم الأوزة وهى اردوازية اللون من أعلى بيضاء من أسفل تحيط

بأعناقها خطوط صفراء كأنها العناقات «ربطات العنق» وكانت هذه الطيور تستسلم للموت ضربًا بالحجارة دون أن تحاول الهرب.

وفى خلال هذا لم تتقشع السحب ولم تظهر الشمس حتى الحادية عشرة فشعرت بالقلق لهذا السبب، فبغير الشمس لا نستطيع تسجيل شىء، فكيف إذن نستطيع أن نتأكد من وصولنا إلى القطب.

ولما انضممت إلى الريان نيمو وجدته مستندًا إلى الصخرة يتطلع إلى السماء ويبدو متبرمًا متضجرًا، ولكن لم يكن له حيلة فى هذا، فإن هذا الرجل القوى الجسور لا قبل له بالسيطرة على الشمس كما هو شأنه مع البحر.

وحلت الساعة الثانية عشرة دون أن تظهر الشمس برهة واحدة، بل لم يكن فى مقدورنا أن نستشف مكانها وراء أستار السحب التى سرعان ما تحللت وراحت تمطر ثلجًا.

وقال الريان ببساطة ونحن فى طريق العودة إلى الغواصة تحت المطر الثلجى.

ـ لا مندوحة لنا من الانتظار حتى غد.

وفى فترة غيابنا ألقيت شباك الصيد فى الماء، فجعلت أتفحص الأسماك التى وقعت فيها باهتمام كبير، كانت البحار فى المنطقة المتجمدة الجنوبية ملاذًا لمقادير هائلة من السمك المهاجر الهارب من عواصف البحار فى المناطق العالية ليقع بين أشداق الفقمة وخنازير البحر، وقد رأيت كثيرًا من سمك القد الذى يبلغ طول الواحدة منه ثلاث بوصات وأنواعًا أخرى من أسماك غضروفية مائلة للبياض بخطوط عرضية شاحبة وهى مزودة بالسهام العظمية وأسماك الخميرة القطبية التى يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أقدام وهى مستطيلة الجسم كثيرًا، بيضاء الجلد، فضية ناعمة برأس مستدير وظهر مزود بثلاث زعانف وبحيزوم ينتهى بخرطوم صغير ينثنى إلى الخلف نحو الفم، وقد تذوقت هذا النوع من السمك، فوجدته غير سائغ رغم أن كونسايل استطابه كثيرًا.

واستمرت الأمطار الثلجية إلى اليوم التالى؛ فاستحال علينا البقاء على سطح الغواصة فمضيت إلى غرفة الصالون حيث جلست لتدوين مذكراتى عن رحلتنا

هذه إلى القطب الجنوبى، وكنت أسمع صياح طيور النورس الصخاب وهى تمرح إبان الزوبعة الثلجية. ولم تبق الغواصة فى مكانها بلا حراك بل راحت تجوب شواطئ القارة فتقدمت عشرة أميال نحو الجنوب فى ظل الشفق المتخلف عن الشمس وهى تقترب من أفق المغيب.

وفى اليوم التالى، العشرين من شهر مارس، توقف سقوط الثلج وكان الجو أميل إلى البرودة، إذ كانت درجة الحرارة ٢ تحت الصفر، وارتفع الضباب حتى رجوت أن نتمكن من تحديد موضعنا فى هذا اليوم.

ولما لم يخرج إلينا الربان ركبت الزورق مع كونسايل إلى الشاطئ وكانت طبيعة التربة بركانية ففى كل مكان كنت أرى آثار اللابا والحمم والبازلت ولكن دون أثر لفوهة البركان الذى أخرجت منه، وكان ثمة أسراب عديدة من الطير تستوطن القارة القطبية فى كل مكان ولكنها كانت تقتسم هذه الامبراطورية مع الأسراب الكثيرة من الثدييات البحرية التى كانت تحدق إلينا بنظرات رقيقة.. كانت فقمات من كل نوع بعضها راقد على الأرض وبعضها فوق قطع من الجليد الطافى وكثيرًا منها يخرج من الماء أو يقفز إليه وعند اقترابنا منها لم تحاول الهرب فهى لم تشهد رجلا من قبل وجعلت أحصى من أعدادها ما يكفى مؤونة بضع مئات من السفن.

وقال كونسايل...

ـ حمدًا لله أن نيدلاند لم يصحبنا فى هذه الجولة..

ـ لماذا يا كونسايل؟

ـ لأن هذا الصياد المتهور ما كان ليتردد فى قتل هذه الفقمات.

ـ ليس من المعقول أن يقتلها كلها ولكن أعتقد أننا ما كنا نستطيع منعه من قتل بعض هذه الثدييات البحرية البديعة وهذا مما يثير غضب الربان نيمو الذى لا يحب إهراق دماء المخلوقات المسالمة.

ـ إنه على حق.

- بالتأكيد يا كونسايل. ولكن.. ألم تصنف بعد بعض أنواع هذه الحيوانات البحرية.

- إن سيدى يعرف تمامًا أننى لست بارعًا فى التصنيف العلمى إذا ذكر لى سيدى أسماء هذه الحيوانات فإنى....

- إنها الفقمات(1) والأفظاظ(2).

- هما نوعان ينتميان إلى أسرة الزعنفيات وينتهيان إلى فصيلة الدرفيليات من الثدييات البحرية أى نوع من الفقاريات.

- أحسنت يا كونسايل.. ولكن هذين النوعين ينقسمان أيضًا إلى أنواع أخرى كثيرة.. وما لم أكن مخطئًا فستتاح لنا فرصة رؤيتها هنا.. هيا بنا..

وكانت الساعة الثامنة صباحًا.. أى كان أمامنا أربع ساعات يمكن استغلالها قبل أن نستفيد من ظهور الشمس وهكذا تقدمت شطر الخليج الواسع المجوف فى مرتفعات الشاطئ الصخرية.

بوسعى أن أقول إن الأرض والصخور والثلوج كانت على امتداد البصر محجوبة بالثدييات البحرية حتى لم أتمالك أن أتلفت حولى بحركة غريزية مفتقدًا بروتيوس أو الراعى الأسطورى الذى يشرف على هذه القطعان الضخمة التى يمتلكها «الإله نبتون» وكانت الفقمات أكثر من أى شىء آخر اجتمعت أفواجًا ذكورًا وإناثًا منها الوالد الذى يراعى شئون أسرته والأم التى ترضع صغارها وكان بعض الصغار قد اشتد عودها فجعلت تتحرك بضع خطوات وإذا أرادت هذه الفقمات الانتقال من مكان إلى آخر مضت فى وثبات قليلة تقوم بها عن طريق تقلصات عضلات جسمها مستعينة بزعنفتها الوحيدة الشوهاء التى تكون مع العظم اللامى ذراعًا كاملا، وينبغى أن أقول إن هذه الحيوانات حين تصل إلى الماء تسبح ببراعة فائقة بسلسلتها الفقارية وإذا هى استراحت على الأرض،

---

(1) الفقمة هى الحيوان البحرى المعروف باسم سبع البحر.

(2) والفظ هو فرس البحر.

اتخذت أجمل الأوضاع ولهذا السبب فطن القدماء إلى نظراتها الآسرة المعبرة التى تفوق أية نظرة يمكن أن ترسلها امرأة جميلة وعيونها الصافية الجذابة وأوضاعها الفاتنة فاتخذوا منها صورًا شعرية حتى جعلوا من الذكور آلهة البحر ومن الإناث حوريات الماء.

وقد لفتُ نظر كونسايل إلى كبر حجم فلقات المخ فى هذه الحيوانات الطريفة فليس بين الثدييات عدا الاتساق. هذا الحجم الكبير للمخ ولهذا كانت الفقمات قادرة على استيعاب قدر معين من التعليم ويسهل استئناسها، وأعتقد مع غيرى من العلماء الطبيعيين أنه يمكن بالتدريب الجيد استخدامها ككلاب لصيد السمك.

وكان سواد هذه الفقمات يرقد على الصخور أو على الرمال، وقد لاحظت بين هذه الفقمات التى ليس لها آذان خارجية مما يجعلها تختلف عن القناوس «ثعالب الماء» ذات الآذان الظاهرة. أنواعًا مختلفة من فقمات الأستونوريتشى وطولها نحو تسعة أقدام ولها رأس البولدج وهى مسلحة بعشرة أسنان فى كل فك فيها أربعة قواطع فى أعلى وأخرى فى أسفل ونابان كبيران على هيئة الزنابق. وبين هذا النوع كانت تنساب الفيلة البحرية وهى نوع من الفقمات ذات خراطيم صغيرة متحركة «وهى مقصورة على النوع الضخم فقط» ولم تحاول أن تبتعد ونحن نقترب منها حتى قال كونسايل:

- أهى حيوانات خطرة؟

- كلا ما لم يهاجمها أحد فإن غضب الفقمة رهيب وهى تدافع عن صغارها ولا يستبعد أن تحطم زوارق الصيد فى ثورة غضبها.

- إن حقها فى هذا مقرر.

- وأنا لم أنكر هذا الحق.

وتوقفنا بعد ميلين أمام مرتفع يحمى الخليج من رياح الجنوب، وكان شديد الانحدار إلى البحر يغطيه زبد الأمواج ومن ورائه سمعنا خوارًا هائلا كالذى يصدر عن قطيع من الثيران.

حسنا ترى هل سنشاهد حفلة ثيران موسيقية.

- لا .. بل حفلة موسيقية لأفراس البحر.

- أهى تتصارع..

- إما أنها تتصارع أو تتلاعب..

- يجب أن نراها إذن يا سيدى.

- يجب يا كونسايل.

وعبرنا المرتفع الصخرى بين منزلقات غير ظاهرة للعيان. وفوق صخور جعلها الثلج منزلقة حتى زلت قدمى أكثر من مرة وأصبت برضوض ولكن كونسايل الذى كان أثبت وأكثر حذرًا وأقل تعثرًا راح يساعدنى وهو يقول:

- لو تفضل سيدى وجعل ساقيه أكثر انفراجًا لاستطاع الاحتفاظ بتوازنه..

ولما بلغنا قمة المرتفع رأيت سهلا واسعًا مكسوًا بالثلوج، حجبته أفراس البحر، وكانت تلعب وتتصايح بهجة لا غضبًا.

وكانت أفراس البحر تشبه الفقمات جسمًا فى وضع الأطراف، ولكن فكاكها السفلى خالية من القواطع والأنياب أما أنياب الفك الأعلى فهى أسلحة دفاع طول كل منها نحو ياردة وهذه الأنياب العاجية أصلب من أنياب الفيلة وغير معرضة للاصفرار وهى مناط إقبال كثير، ولهذا السبب يتهافتون على صيدها ولا يتورع الصيادون عن قتلها وقتل إناثها وصغارها حتى يبلغ عدد القتلى فى كل عام أكثر من أربعة آلاف.

وقد أتيح لى الوقت الكافى لملاحظة هذه الحيوانات العجيبة بإمعان وأنا أمر بقربها لأنها لم تكترث لنا، كانت جلودها سميكة مجعدة لها لون الظباء مع ميل إلى الاحمرار وشعرها قصير متناثر وطول بعضها نحو اثنى عشر قدمًا وهى أهدأ وأقل حذرًا من زميلاتها فى الشمال؛ بمعنى أنها لا تضع الحراس للتحذير ممن يقترب من مواطنها.

وبعد أن تم لى فحص مدينة أفراس البحر هذه.. رأيت أن أعود أدراجى إلى

الغواصة، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة فإذا بدا للربان نيمو أن تحديد المكان ميسور إذ ذاك، كنت معه أثناء قيامه بهذه العملية ولكن الأمل على كل حال كان ضعيفًا فى ظهور الشمس هذا اليوم، فقد كانت السحب المتراكمة فى الأفق تحجبها عنا وكأنما كان هذا الكوكب الغيور يأبى على البشر أن يكتشفوا قطب الأرض.

ومهما يكن فقد قررت العودة إلى الغواصة فسرنا فى ممر ضيق كان صاعدًا إلى قمة المرتفع الصخرى على الشاطئ، ووصلنا إلى المكان الذى هبطنا فيه من الزورق فى الحادية عشرة والنصف وكان الزورق قد جاء أثناء غيابنا بالربان الذى رأيته واقفًا فوق كتلة من البازلت وآلات الرصد فى يده وعيناه محدقتان فى الأفق الذى كانت الشمس ترسم عليه قوسًا مستطيلا.

ووقفت بجانبه صامتًا، وحلت الساعة الثانية عشرة دون أن تظهر الشمس كما حدث فى اليوم السابق:

وبدا الأمر كالكارثة، فقد كان علينا أن نرصد موضعنا فإن لم يتيسر هذا فى اليوم التالى ضاع كل أمل فى تحديد مكاننا.

ذلك أننا كنا فى اليوم العشرين من شهر مارس واليوم التالى كان الواحد والعشرين وهو يوم الاستواء فى تلك المناطق فإن لم نحدد مكاننا فيه، فإن الشمس ستختفى وراء الأفق مدى نصف عام، ومع اختفائها يبدأ الليل القطبى الطويل ويظل هذا الليل حتى يوم الاستواء فى سبتمبر حيث تبدو أول أشعة الشمس فى الأفق وتظل ترتفع رويدًا رويدًا يومًا بعد يوم حتى اليوم الواحد والعشرين من شهر ديسمبر حين يبدأ فصل الصيف فى هذه المناطق الجنوبية. وقد مالت الشمس فى المغيب وغدا سوف ترسل آخر أشعتها ثم تختفى ستة أشهر.

ولما ذكرت للربان نيمو رأيى ومخاوفى فى هذا الشأن قال:

- إنك على حق يا مسيو أروناكس إذا لم أستطع أن أظفر غدًا بسمت الشمس فلن أستطيع أن أرصد موضعنا هذا لمدة ستة أشهر ولكن ما دامت الأقدار قد

جاءت بى إلى هذه المناطق فى اليوم الواحد والعشرين من شهر مارس فسيتيسر لى غدًا أن أرصد هذا المكان إذا ظهرت الشمس وقت الظهيرة.

- لماذا يا كابتن.

- لأنه ما دامت الشمس ترسم هذه الأقواس المستطيلة فسوف يصعب تحديد ارتفاعها بصدق فوق الأفق ومن المحتمل جدًا أن نخطئ التقدير بالآلات.

- إذن ماذا أنت فاعل؟

- سأستخدم الكرونومتر فقط، فإذا ظهر قرص الشمس غدًا أى فى ظهر اليوم الواحد والعشرين من شهر مارس مقسومًا تمامًا عند النصف بخط الأفق الجنوبى فسأعرف أننا فى القطب الجنوبى.

- هذا صحيح .. ولكن المعادلات الرياضية لا تعترف بمثل هذا التقدير لأنه ليس من المحتم أن يبدأ يوم الاستواء هنا فى الثانية عشرة تمامًا.

- بلاشك يا بروفسور.. ولكن الخطأ الذى قد يحدث لن يتجاوز مسافة مائة ياردة، وهذا كل ما نحتاج إليه، إلى الغد إذن.

وعاد الريان نيمو إلى الغواصة وبقيت مع كونسايل حتى الساعة الخامسة مساء ونحن نجوب الشاطئ نلاحظ، وندرس ولم أجد ما يثير الغرابة غير بيضة بنجوين ذات حجم كبير لا يتردد أى هاو فى شرائها بأربعين جنيهًا وكان لونها البرتقالى وما يغطيها من خطوط وعلامات بدت كالأحرف الهيروغليفية قد جعلها كإحدى العجائب وعهدت بحفظها إلى كونسايل الذى استطاع بثباته وحذره وهو يمسكها كأنها قطعة خزف ثمين، أن يعود بها سالما إلى الغواصة وفى الغواصة وضعت البيضة النادرة فى خزانة زجاجية بالمتحف وتناولت عشائى بشهية من شرائح كبد الفقمة وكان مذاقها كلحم الخنزير ثم أويت إلى فراشى مطمئن البال.

وفى اليوم التالى الواحد والعشرين من شهر مارس صعدت إلى سطح الغواصة فى الخامسة صباحًا فوجدت الريان نيمو هناك وإذا هو يقول لى :

- إن الجـو يصـحـو قليـلا وأملى فـيـه كـبـيـر سنهبط بعد طعـام الإفطار إلى الشاطئ فنتخذ لأنفسنا موضعًا للرصد.

وبعد أن تم الاتفاق على هذا ذهبت إلى نيد لاند وحاولت إقناعه لمصاحبتنا ولكن الصياد العنيد أبى وقد تبينت أن نفرته - كغضبه تزداد يومًا بعد يوم ومع ذلك لم آسف على رفضه صحبتنا فى تلك الظروف فقد كان ثمة مجموعة كبيرة من الفقمة على الشاطئ ولا ينبغى أن نضع مثل هذا الإغراء أمام صياد متهور...

وهبطت إلى الشاطئ بعد الفراغ من طعام الإفطار وكانت الغواصة قد تقدمت أثناء الليل مسافة أخرى مقدارها أربعين ميلا نحو الجنوب.. وقد توقفت على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ الذى كان مرتفعًا إلى علو ١٦٠٠ قدم وكان الزورق يقل الربان نيمو، واثنين من البحارة وآلات الرصد وهى الكرونومتر والمنظار المقرب والبارومتر.

وفى الطريق رأيت كثيرًا من الحيتان المنتمية إلى البحار الجنوبية منها «الحوت الأيمن» الذى بلا زعنفة فى ظهره والحوت الطائر ببطنه الموثوقة وزعانفه الضخمة البيضاء لم تصل إلى حد الأجنحة رغم تسميته تلك والحوت الأصفر البنى، ذو الزعانف الظهرية وهو أنشط أنواع الوحوش البحرية، إن هذا الحيوان البحرى يستطيع إسماع صوته إلى مسافات بعيدة حين يدفع الماء والبخار من منخاريه فى الهواء فتبدو عندئذ كأعمدة من الدخان. كانت هذه الثدييات البحرية المختلفة تجعل من نفسها جماعات فى هذه البحار الهادئة وقد أدركت أن هذا الحوض من القطب الجنوبى قد أصبح ملاذا تلجأ إليه هذه الوحوش البحرية التى يطاردها الصيادون بإلحاح.

ورأيت صفوفًا طويلة من السالبيا ومجموعات من اللافقاريات الصيرنانية ومن قناديل البحر الكبيرة التى كانت تتراقص مع حركات الموج.

وهبطنا إلى الشاطئ فى الساعة التاسعة صباحًا وكانت السماء تزداد صحوًا والسحب تطير نحو الجنوب، والضباب يرتفع عن سطح البحر البارد، وسار الربان نيمو إلى قمة المرتفع الذى اعتزم ولا شك أن يتخذه مكانًا للرصد وكان

الصعود إليه شاقًا عسيرًا بسبب اللابا المسنونة والحجارة الزجاجية وفى جو تتساب منه أحيانًا الروائح الكبريتية المنبثقة من الشقوق، ورغم أن الريان لم يعتد الحياة فوق اليابسة فقد راح يتسلق المرتفع بخفة ومرونة لم أستطع أن أجاريه فيهما حتى ليحسده صياد الغزلان عليهما.

واستغرقنا ساعتين فى الوصول إلى القمة التى كان بعضها من صخور البروفير، وبعضها من صخور البازلت ومن فوقها رأينا البحر الواسع الممتد إلى حدود الأفق الجنوبى أما عند أقدامنا فقد امتدت حقول الثلج الناصعة البياض وفوق رءوسنا كانت السماء الشاحبة الزرقة خالية من الضباب وعند الجنوب كان قرص الشمس ككرة من النار، يوشك أن ينحدر وراء الأفق أما البحر فكانت تنبثق منه مئات من النوافير المتألقة بينما كانت الغواصة تبدو من بعيد كوحش بحرى نائم ومن ورائنا امتدت الصخور والكتل الثلجية الطافية إلى مدى البصر.

ولما وصل الريان نيمو إلى قمة المرتفع قاس ارتفاعه بدقة بواسطة البارومتر لإدخاله فى تقديراته عند الرصد.

وفى الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا بدت الشمس عن بعد كأنها قرص من الذهب يسكب أشعته فوق أرض وبحار لم تطأها أقدام رجال غيرنا من قبل.

وراح الريان نيمو وهو مزود بعدسة شبكية تستطيع بمعونة مرآة أن تصحح انكسار الضوء، يرقب الشمس وهى تختفى تدريجيًا وراء الأفق راسمة قوسًا مستطيلا وأمسكت أنا بالكرونومتر وشعرت بقلبى يخفق بعنف، فإذا توافق اختفاء نصف قرص الشمس مع موعد الظهيرة فى الكرونومتر فقد ثبت أننا فى سمت القطب الجنوبى نفسه.

وصحت قائلا:

- الثانية عشرة ظهرًا.

- القطب الجنوبى...

قالها الريان بصوت رصين وهو يسلمنى العدسة التى أظهرت قرص الشمس عند انتصافه تمامًا على خط الأفق.

ونظرت إلى أشعة الشمس وهى تتوج القمة وإلى الظلال الصاعدة إليها ببطء ولم يلبث الريان فى تلك اللحظة أن وضع يده على كتفى قائلا:

- بروفسور .. فى عام ١٦٠٠ دفعت التيارات والعواصف الريان الهولندى نمريك إلى خط العرض ٦٤ درجة جنوبًا حيث اكتشف جزر چتلاند وفى اليوم السابع عشر من شهر فبراير عام ١٧٧٣ وصل الرحالة الباسل كوك فى إبحاره على خط الطول ٣٨ درجة إلى خط العرض ٣٠ ـ ٦٧ درجة وفى الثلاثين من شهر يناير عام ١٧٧٤ وعلى خط الطول ١٠٩ وصل نفس الرحالة إلى خط العرض ١٥ ـ ٧١ درجة وفى عام ١٨١٩ وصل الرحالة الروسى بلنهجورن إلى خطى الطول والعرض ٦٩ ووصل فى عام ١٨٢١ إلى خط العرض ٧٦ وخط الطول ١١١ غربًا وفى عام ١٨٢٠ توقف الرحالة الإنجليزى برنسفيلد عند خط العرض ٦٥ وفى نفس العام اكتشف الرحالة الأمريكى موريل ـ الذى لا يوثق بتقريره تمامًا ـ بحرًا مفتوحًا على خط العرض ١٤ ـ ٧٠ متبعًا خط الطول ٦٢ وفى نفس العام وصل صياد فقمة إنجليزى الجنسية يدعى ويديل إلى خط العرض ١٤ ـ ٧٢ على خط الطول ٣٥ ثم خط العرض ١٥ ـ ٧٤ على خط الطول ٣٦ وفى عام ١٨٢٩ استولى الريان الإنجليزى فورستر قائد السفينة شانيلر على القارة المتجمدة الجنوبية على خط العرض ٢٠ ـ ٦٣ وخط الطول ٢٦ ـ ٦٦ وفى ٢١ فبراير عام ١٨٣١ اكتشفت الرحالة الإنجليزى بيسكو منطقة اندرباى لاند فى خط العرض ٥٠ ـ ٦٨ وفى فبراير عام ١٨٣١ اكتشف منطقة أديليد لاند على خط العرض ٤٥ ـ ٦٤ وفى ١٨٣٨ توقف الرحالة الفرنسى دومونت دورفيل عند شاطئ الجليدى على خط العرض ٥٧ ـ ٦٢ وقد سجل بالرؤيا أرض لويس ـ فيليب وقد شاهد بعد عامين ومن نقطة جديدة فى الجنوب منطقة أديليد لاند فى ٢١ يناير على خط العرض ٣٠ ـ ٦٦ واكتشف بعد ثمانية أيام شاطئ كلير على خط العرض ٤٠ ـ ٦٤ درجة وفى عام ١٨٣٨ وصل الإنجليزى ويلكز إلى خط العرض ٦٩ درجة على خط الطول ١٠٠ درجة وفى عام ١٨٣٩ اكتشف الإنجليزى باللينى منطقة سابرينا على حدود الدائرة القطبية وأخيرًا فى ١٢ يناير عام ١٨٤٢ اكتشف الإنجليزى جيمس روث قائد السفينتين إيروبيوس وتيرور منطقة فكتوريا لاند على خط

العرض ٥٦ ـ ٧٦ شرقى خط الطول ٧ ـ ١٧١ وفى نفس الشهر وصل إلى خط ٧٤ درجة عرضًا وهى أعلى نقطة وصل إليها أحد حتى ذلك الحين وفى السابع والعشرين من الشهر نفسه وصل إلى خط العرض ٨ ـ ٧٦ درجة وفى اليوم الثامن والعشرين وصل إلى خط العرض ٣٢ ـ ٧٧ درجة وفى اليوم الثانى من شهر فبراير وصل إلى خط العرض ٤ ـ ٧٨ وفى عام ١٨٤٢ عاد إلى خط العرض ٧١ درجة ولم يستطع تجاوزه أما أنا الريان نيمو فقد وصلت فى اليوم الواحد والعشرين من شهر مارس عام ١٨٦٨ إلى القطب الجنوبى نفسه على خط العرض ٩٠ درجة وإنى لأضع يدى على هذا الجزء من الكرة الأرضية وهو يوازى سدس مساحتها المعروفة.

ـ لحساب من تستولى على هذه المنطقة يا كابتن؟

ـ لحسابى يا سيدى.

قال هذا وبسط علمًا أسود توسطه حرف (ن) مكتوبًا بالذهب ثم استدار نحو الشمس التى كانت أشعتها الأخيرة تلامس أفق البحر وقال:

ـ وداعًا أيتها الشمس واختف أيها الكوكب المنير ارقد طليقًا تحت البحر ودع ليالى ستة أشهر تبسط ظلامها على هذه المملكة الجديدة.

الفصل التاسع والثلاثون

أحادثة أم حدث؟

بدأت استعدادات الرحيل فى اليوم التالى،الثانى والعشرين من شهر مارس وكانت آخر ومضات الشفق تذوب فى سواد الليل وكان البرد قارسًا مشتدًا ونجوم السماء تلمع فى وضح عجيب وفى سمت الرأس كان ذلك النجم الرائع يتألق باهرًا وأعنى به النجم القطبى فى تلك المناطق المتجمدة الجنوبية.

وكانت حرارة الجو ١٢ درجة تحت الصفر والرياح كلما هبت تلسع كالسياط وجبال الثلج تزداد على سطح البحر والبحر يبدو كأنه تجمد كله ولاحت على سطحه رقاع كثيرة قاتمة تنبئ عن تجمعات جديدة للثلج الوليد والواضح أن هذه البحار الجنوبية تغدو مقفلة تمامًا أثناء تجمدها ستة أشهر فى العام فماذا تفعل الحيتان خلال هذه الفترة؟ لاشك أنها تلتمس من تحت الثلوج بحارًا أخرى تلوذ بها أما الفقمات وأفراس البحر التى تعتاد الحياة فى مختلف الأجواء فإنها لا تبرح هذه المناطق المتجمدة إن لهذه الحيوانات غرائز تدفعها إلى حفر فجوات فى حقول الجليد وتركها مفتوحة دائمًا وهى تخرج من فجواتها تحت الثلوج للتنفس وتهرب الطيور من البرد مهاجرة إلى الشمال ولا يسيطر فى القارة القطبية فى هذه الفترة سوى الثدييات البحرية.

وامتلأت خزانات الغواصة بالماء فى الوقت المناسب وشرعت تهبط فى بطء حتى توقفت على عمق ألف قدم ثم أخذت تضرب الماء برفاصها منطلقة إلى

الشمال بسرعة خمسة عشر ميلاً فى الساعة، وعند المساء كانت تسبح تحت الحاجز الهائل للشاطئ الجليدى.

وأغلقت نوافذ الصالون على سبيل الحيطة والحذر، تحاشيًا لاصطدام الغواصة بصخرة غائصة تحطم زجاجها. وأمضيت يومًا فى كتابة مذكراتى ثم استغرقت فى التفكير فى القطب الجنوبى. لقد وصلنا إلى هذا القطب النائى عن البشر دون مشقة ولا استهداف للخطر وكأنما كانت مركبتنا السابحة تنساب على قضبان سكة حديدية. وهاهى ذى العودة قد بدأت فعلا. فهل تدخر لنا مفاجآت جديدة. لقد خطر لى أن هذا قد يحدث فإن غرائب الأعماق لا ينضب لها معين. ففى الأشهر الخمسة والنصف التى أقمناها فى هذه الغواصة منذ أن دفعت بنا الأقدار إليها، قطعنا أربعين ألف فرسخ. وفى خلال هذه المسافة التى تزيد عن محيط الكرة الأرضية رأينا من الأحداث كل عجيب خطير. الصيد فى غابات كريسبو تحت سطح الماء والجنوح فى مضايق توربيز. ومقابر المرجان ومصايد اللؤلؤ فى سيلان ونفق العرب تحت برزخ السويس ونيران سانتورين وكنوز خليج فيجو وقارة الأطلانتيس ثم القطب الجنوبى لقد أخذت هذه الذكريات كلها تمر بذهنى فلا تدع لى الفرصة للاستغراق فى النوم.

واستيقظت فى الساعة الثالثة صباحًا، على صدمة عنيفة، فانتفضت جالسًا فى فراشى وأرهفت السمع فى ظلام الغرفة، فما شعرت إلا وأنا ألقى بعنف على الأرض ويبدو أن الغواصة ارتدت بقوة بعد الاصطدام.

ولم ألبث أن جعلت أتلمس طريقى على الحاجز إلى وسط الغواصة ثم إلى الصالون الذى كان مضاء من خلال سقفه المشع وكان الأثاث كله مقلوبًا ولكن مصاريع النوافذ كانت لحسن الحظ محكمة فلم تتخلخل وكانت الصور المعلقة على الجانب الأيمن. بعد أن أمست الغواصة شديدة الميل. ملقاة على الأرض بينما كانت الصور فى الجانب الآخر معلقة على ارتفاع قدم من أطرافها السفلى.. لقد مالت الغواصة على جانبها الأيمن واستقرت دون حراك.

وسمعت من الداخل وقع أقدام ولغط أصوات ولكن الريان نيمو لم يظهر فى الصالون وبينما كنت أهم بالانصراف أقبل كونسايل ونيدلاند.

فقلت لهما:

ـ ماذا حدث؟

فهتف نيدلاند قائلا:

ـ يا للشيطان!.. إننى أعرف تمامًا ماذا حدث... لقد اصطدمت الغواصة وإذا نظرنا إلى كيفية جنوحها أدركنا أنه لن يسهل تعويمها كما حدث فى مضايق توريز.

فقلت:

ـ ولكن... أليست على الأقل فوق سطح الماء؟

فقال كونسايل:

ـ إننا لا نعرف..

فقلت :

ـ من السهل أن نعرف هذا.

ونظرت إلى جهاز تسجيل الأعماق فوجدت لدهشتى أننا على عمق ثلاثمائة وستين ياردة.. فقلت متعجبًا:

ـ ما معنى هذا؟

فقال كونسايل:

ـ يجب أن نسأل الريان نيمو.

وقال نيد لاند:

ـ وأين نجده؟

فقلت لهما:

ـ اتبعانى..

وغادرنا الصالون إلى غرفة المكتبة فلم نجد بها أحدًا. كما لم نجد أحدًا فى السلم المركزى أو فى غرفة الملابس. وخطر لى أن الربان نيمو لابد أنه موجود فى مقصورة القيادة، وهكذا لم يكن أمامنا سوى الانتظار فعدنا إلى الصالون.

ولن أذكر بالتفصيل حالة نيد لاند فى تلك اللحظة.. فقد وجد الآن سببًا آخر لإطلاق غضبه فتركته يتمادى فى ثورته دون أن أبادره برد.

وبقينا هكذا عشرين دقيقة ونحن نرهف السمع لكل صوت داخل الغواصة وما لبث الربان نيمو أن جاء وقد بدا عليه أنه لم يبصرنا وكان وجهه الهادئ عادة ينم عن أشد القلق وبعد أن نظر إلى البوصلة ثم إلى المانومتر، وضع إصبعه على نقطة فى الخريطة البارزة التى تمثل البحار الجنوبية.

ولم أشأ أن أقطع عليه تفكيره وعمله ولكنه التفت إلى بعد برهة فقلت له مرددًا عبارته التى قالها فى مضايق توريز:

- أهو حدث عارض يا كابتن؟

- لا يا بروفسور.. بل هو حادث هذه المرة.

- حادث خطير؟

- ربما..

- أهناك خطر قريب..

- لا..

- هل اصطدمت الغواصة بشىء؟

- نعم.

- كيف ذلك؟

- بسبب عارض طبيعى لا لخطأ من جانبنا فلم يكن ثمة أخطاء فى قيادتنا للغواصة. وليس فى مقدور أحد أن يمنع الطبيعة من السير فى مجراها. وإذا كان يمكن مقاومة قوانين البشر فلا يمكن مقاومة قوانين الطبيعة.

لقد اختار الريان نيمو لحظة فريدة للتعبير عن هذه التأملات الفلسفية ولكن إجابته فى عمومها لم توضح لى شيئًا. فقلت له:

- هل يمكن يا سيدى أن أعرف سبب هذه الحادثة؟

- لقد انقلبت كتلة ضخمة من الثلج بل جبل كامل رأسًا على عقب. فجبال الجليد التى تعوم فى مياه دافئة أو تتعرض لصدمات مفاجئة يرتفع فيها مركز التوازن فإذا هى تنقلب بأكملها. وهذا ما حدث، فقد انقلبت إحدى هذه الكتل وصدمت الغواصة فى سيرها تحت سطح الماء. ثم انزلقت تحت هيكلها ودفعتها بقوة عارمة إلى مياه أقل كثافة فألقت بها على أحد جانبيها.

ألا يمكن الاستعانة بخزانات الماء لكى تسترد الغواصة توازنها.

- هذا ما يفعله البحارة الآن يا سيدى. ويمكنك أن تسمع صوت المضخات وهى تعمل انظر إلى مؤشر جهاز تسجيل العمق إنه يدل على أن الغواصة ترتفع، ولكن كتلة الجليد ترتفع معها.

فإذا لم يوقف ارتفاعها معنا فلن يتغير شىء من موقفنا.

وظلت الغواصة على حالها. ولم يكن ثمة شك فى أنها ستسترد توازنها عندما تتوقف كتلة الجليد عن الارتفاع معها. ولكن من يدرينا أننا لن نصطدم إذ ذاك بقاع شاطئ الجليد فنعصر عصرًا شنيعًا بين سطحين متجمدين.

وفجأة أحسسنا بحركة خفيفة فى هيكل الغواصة.. وبدا لنا أنها تتوازن إلى حد ما وكانت الأشياء المقلوبة فى الصالون تعود إلى حالتها الأولى شيئًا فشيئًا وأصبحت الحواجز أكثر استقامة ولم يلفظ أحد بكلمة وإنما أخذنا نرقب الغواصة وهى تسترد توازنها بانفعال متزايد وعادت الأرض تحت أقدامنا فى وضع أفقى ومرت عشر دقائق هتفت بعدها قائلا:

- أخيرًا توازنت الغواصة.

فقال الريان وهو يتجه إلى باب الصالون:

- نعم ..

ـ هل ستطفو بنا مرة أخرى؟

ـ بالتأكيد فمازالت الخزانات ممتلئة فإن الغواصة ستصعد إلى السطح عند تفريغها.

وعلى إثر ذهاب الربان لاحظت أن الغواصة كفت عن الصعود بأمر منه ولو أنها استمرت فى صعودها لاصطدمت بقاع الشاطئ الجليدى ولذلك كان من الأفضل بقاؤها فى الماء.

وقال كونسايل:

ـ لقد نجونا بمعجزة.

نعم كان يمكن أن نسحق بين كتلتين من الجليد أو على الأقل نبقى محصورين بينهما وإذا عجزنا عن تجديد الهواء، فإن.. نعم.. لقد نجونا بمعجزة حقًا.

فغمغم نيد لاند قائلا..

ـ ليت الأمر اقتصر على...

ولم أشأ أن أدخل مع نيد لاند فى جدل عقيم وهكذا لم أرد عليه وفضلا عن هذا فقد رفعت الألواح عن النوافذ البللورية فى تلك اللحظة فانساب من خلالها ضوء الكشاف الكهربائى .

وكنا بين أحضان الماء كما قلت ولكنى رأيت على مسافة ثلاثين قدمًا من جانبى الغواصة جدارًا من الثلج الناصع وكان هذا الجدار يبدو من أعلى ومن أسفل من أعلى لأن قاع شاطئ الجليد يكون سقفًا هائلا ومن أسفل لأن كتلة الجليد التى كانت تنزلق تدريجيا، وجدت حاجزين هابطين من سقف الشاطئ الجليدى فاستندت إليهما وبقيت مكانها وهكذا غدت الغواصة حبيسة فى نفق طولى من الجليد يبلغ عرضه ستين قدمًا ممتلئ بالماء الساكن ولهذا كان من السهل أن نمضى إلى الأمام؛ أو إلى الوراء، أو أن تجد ـ إذا غاصت بضع مئات من الأقدام ـ طريقًا مائيًا مفتوحًا تحت شاطئ الجليد .

ورغم انطفاء ضوء الصالون فقد ظل النور فيه باهرًا وذلك لانعكاس الضوء الكهربائى على جدران الجليد الناصعة بقوة مضاعفة وليس فى مقدورى أن أصف تلاعب أشعة الضوء الكهربائى فوق هذه الكتل ذات الأشكال العجيبة فقد كانت كل زاوية وكل طرف وكل سطح يعكس ضوءًا يختلف باختلاف لون عروق الجليد كانت بمثابة منجم مجوهرات رائع فيه الزمرد الذى تتقاطع إشعاعاته الزرقاء مع بريق الزبرجد الأخضر وكانت الظلال السماوية اللون تجرى هنا وهناك بين مختلف أطراف الزوايا كأنها مجموعة من اللآلئ التى يخطف بريقها الأنظار وكانت قوة ضوء الكشاف قد تضاعفت مئات المرات بسبب هذه الانعكاسات وكأنها مصباح قوى يرسل أشعته بواسطة عدسات منارة ضخمة.

وهتف كونسايل قائلا:

ـ آه... ما أجمل هذا.. ما أجمله..

ـ نعم إنه مشهد رائع.. أليس كذلك يا نيد؟

ـ نعم سحقًا لكل شىء إنه مشهد رائع حقًا وإن اعترافى بهذه الحقيقة يزيدنى غضبًا على غضب فإن أحدًا لم يشهد قط مثل هذا المنظر ولكننا قد ندفع ثمن هذه المتعة غاليًا أعتقد أننا نرى هنا أشياء ما كان مقدرًا فى عالم الغيب أن يراها أحد.

وكان نيدلاند على حق فإن المشهد كان أجمل مما يتصوره البصر وفجأة بدرت من كونسايل صيحة جعلتنى أستدير إليه قائلا:

ـ ماذا حدث؟

ـ أرجو من سيدى أن يغمض عينيه ويكف عن النظر.

قال هذا وهو يرفع يديه بسرعة ويخفى بهما عينيه فقلت:

ـ ولكن ماذا حدث يا بنى؟

ـ لقد بهرت عيناى.. أصبت بالعمى.

فاستدارت عيناى برغمى إلى النافذة ولكنى لم أستطع احتمال الوهج النارى الذى سلط عليهما ولم ألبث أن أدركت ما حدث. فإن الغواصة قد انطلقت بكل سرعتها وإذ ذاك استحالت الأضواء الساطعة المنعكسة فى سكون إلى ومضات باهرة كخطف البرق لقد تجمعت أضواء كتل الماس هذه واتحدت فى وميض واحد.

ثم أغلقت نوافذ الصالون ووضعنا أيدينا فوق أعيننا التى بهرتها الأضواء الساطعة المتحركة كما تتبهر العيون من أشعة الشمس فى سمت الظهيرة واستغرق زوال الألم برهة غير وجيزة قال كونسايل بعدها وهو يرفع يديه:

- يا إلهى ما كنت لأصدق هذا أبدًا!

وقال نيد لاند:

- وأنا لا أكاد أصدق ما رأت عيناى.

وأردف كونسايل قائلا:

- عندما نعود إلى الأرض مثقلين بمثل هذه العجائب ماذا يكون شعورنا حيال القارات التافهة وآثار صنع الإنسان الهزيلة. كلا إن العالم المأهول لم يعد يليق لنا بعد الذى رأيناه.

كانت مثل هذه الكلمات التى فاه بها كونسايل الهادئ عادة تدل على مدى ما وصلت إليه انفعالاتنا النفسية ولكن نيد لاند لم يعجز كعادته عن سكب بعض الماء البارد عليها فقال وهو يهز رأسه:

- العالم المأهول لا تنزعج يا صديقى كونسايل لن نرى قط العالم المأهول مرة أخرى.

وكانت الساعة الخامسة صباحًا إذ ذاك وفى تلك اللحظة أحسسنا بهزة فى الجزء الأمامى من الغواصة فأدركت أن مقدمتها صدمت بكتلة من الجليد وقد خطر لى عندئذ أن ما حدث هو خطأ فى القيادة لأن النفق المائى المحفوف بالكتل الجليدية ليس طريقا تسهل الملاحة فيه ولهذا السبب تصورت أن الربان نيمو قد يدور حول هذه الكتل أو يستمر فى اجتياز هذا النفق الضيق ذلك لأن

طريقنا لم يكن على كل حال مغلقًا تمامًا ولكن الغواصة بعكس ما توقعت أخذت فى التراجع مما جعل كونسايل يقول:

- إنها تسير إلى الخلف.

- نعم لا شك أنه ليس للنفق مخرج فى هذه الناحية.

- وماذا سيحدث بعد ذلك؟

- الأمر جد بسيط.. فسوف نعود أدراجنا لنخرج من الطرف الآخر هذا هو كل شىء.

وكنت أحس بقولى هذا أننى أبدو واثقًا من نفسى أكثر من الواقع وكان تراجع الغواصة خلال ذلك يزداد معدله وكانت تحملنا برفاصها العكسى فى سرعة بالغة..

وقال نيدلاند:

- سيكون هذا عاملا من عوامل التأخير.

- وما قيمة بضع ساعات ما دمنا نخرج سالمين.

- نعم .. ما دمنا نخرج سالمين.

وأخذت أروح وأغدو برهة فيما بين الصالون وغرفة المكتبة ولزم صاحبى الصمت وأخيرًا تهالكت فوق الأريكة وتناولت كتابًا جعلت أحدق فيه بنظرات آليه وبعد ربع ساعة أقبل كونسايل نحوى قائلا:

- هل يقرأ سيدى شيئًا شائقًا؟

- جدًا..

- هذا ما خطر لى، لأن سيدى يقرأ كتابًا من مؤلفاته.

- مؤلفاتى!؟

وتبينت حقًا أنى ممسك بكتابى «أعماق البحار» دون أن أدرى فطويته واستأنفت مسيرى جيئة وذهابًا وأخيرًا نهض نيد لاند وكونسايل للانصراف...

فقلت لهما:

ـ انتظرا.. لنبق هنا معًا حتى تخرج الغواصة من النفق.

فقال كونساي:

ـ كما يشاء سيدى..

وانصرمت ساعات وكنت أرفع بصرى بين حين وآخر إلى الآلات المعلقة على جدران الصالون فرأيت من مقياس الأعماق أن الغواصة على عمق ثابت مقداره تسعمائة قدم، وأن البوصلة تشير إلى أننا نتجه جنوبًا وجهاز السرعة يدل على أننا نتطلق بسرعة عشرين ميلا فى الساعة، وهى سرعة بالغة فى مثل هذا الحيز الضيق ولكن الربان نيمو كان يعرف أنه لا يستطيع أن يمضى بأسرع من هذا رغم أن الدقائق عندئذ كانت كالأجيال.

وفى الدقيقة الخامسة والعشرين بعد الساعة الثامنة، شعرنا بصدمة أخرى فى المؤخرة هذه المرة فامتقع وجهى، وأسرع صاحباى إلى جانبى، فأمسكت بيد كونساي وأخذ كل منا يسأل الآخر بعينيه فى نظرات أبلغ من كل حديث.

وفى تلك اللحظة أقبل الربان إلى الصالون فذهبت إليه قائلا:

ـ هل الطريق مسدود من الجنوب.

ـ نعم.. إن انقلاب كتلة الجليد سد جميع المخارج.

ـ هل أصبحنا إذن محاصرين؟

ـ نعم.

الفصل الأربعون

الحاجة إلى الهواء

وهكذا أحيطت الغواصة من فوقها ومن تحتها بجدران من الجليد لامنفذ منهما. وصرنا محصورين فى شاطئ الجليد. وضرب نيد لاند المائدة بجُمع يده فى عنف، ولم يلفظ كونسايل بكلمة، ونظرت إلى الريان فإذا وجهه يسترد سكونه المعتاد ولم يلبث أن عقد ذراعيه على صدره كما يفعل حين يستغرق فى تأملاته، وكانت الغواصة ثابتة لا تريم.

وأخيرًا تكلم الريان بصوته الهادئ فقال:

ـ أيها السادة.. هناك وسيلتان للموت فى ظروفنا الحالية..

والحق أن هذا الرجل العجيب بدا كأنه أستاذ للرياضيات يشرح مسألة لتلاميذه وقد استطرد يقول:

ـ أن نموت سحقًا بين كتل الجليد. والثانية، أن نموت اختناقًا، ولن أتحدث عن احتمال موتنا جوعًا لأن مخازن الغواصة فيها ما يكفى ويزيد.

فقلت:

لا يمكن أن نموت اختناقًا ياكابتن، لأن مستودعات الهواء مملوءة.

ـ صحيح. ولكنها لن تفى بحاجتنا من الهواء إلا مدة يومين وقد مضى علينا الآن ٣٦ ساعة تحت الماء وجو الغواصة الثقيل يحتاج منذ الآن إلى تغيير الهواء، أى أن الاحتياطى منه سينفد بعد ثمان وأربعين ساعة.

- حسنًا يا كابتن. يجب إذًا أن نخرج من هذا المأزق قبل ثمان وأربعين ساعة.

سنحاول بكل وسيلة أن نجد منفذًا بين هذه الأسوار الجليدية المحدقة بنا.

- فى أى جانب سنبدأ المحاولة.

- سأستعين بالمجسات، وستهبط الغواصة إلى الجانب السفلى ويرتدى رجالى ملابس الغوص لتحطيم أضعف جانب من هذا الجدار الثلجى.

- هل يمكن أن ترفع الألواح عن نوافذ الصالون؟

- بالتأكيد.. إننا لا نتحرك الآن.

وخرج الربان نيمو. وانبعث فحيح فهمت منه أن الخزانات تمتلئ بالماء وأخذت الغواصة فى الهبوط حتى استقرت فوق قاع من الثلج على عمق ثلاثمائة وخمسين ياردة وقد قلت:

- يا صاحباى؟ إن الموقف خطير ولكنى أعتمد على شجاعتكما ونشاطكما.

فقال نيد لاند:

- ليس هذا هو الوقت المناسب لإزعاجك بالتذمر والشكوى. إنى مستعد للقيام بأى عمل لصالح الجميع.

فقلت وأنا أصافحه:

- عظيم جدًا يا نيد.

- إننى بارع فى استخدام المعول براعتى فى الصيد بالحربة. فإذا كنت ذا فائدة للربان فيمكنه الاعتماد علىَّ.

- إنه لن يرفض خدماتك يا نيد.. هلم إليه.

وقصدت مع نيد لاند إلى الغرفة التى كان رجال الغواصة يرتدون فيها ملابس الغوص وهناك أخبرت الربان باستعداد نيد للمعاونة. فرحب به. وارتدى صاحبى ملابس الغوص واستعد مع زملائه وحمل كل منهم على ظهره جهاز «روكوابرول»

الملىء بالهواء النقى وهو ما أنقص قدرًا كبيرًا من احتياطى الهواء فى الغواصة أما مصباح رومكروف فلم تكن له فائدة فى مياه يسطع فيها الضوء الكهربائى.

ولما فرغ نيد لاند من ارتداء ملابس الغوص عدتُ إلى الصالون حيث رأيت الألواح مرفوعة عن النوافذ البللورية فأخذت مكانى بجانب كونسايل ورحت أتفحص بنظرى المرقد الجليدى الذى استقرت الغواصة فوقه.

وبعد لحظات رأينا نحو اثنى عشر رجلا من البحارة يخرجون إلى الجليد وكان بينهم نيد لاند الذى عرفته بطول قامته وكذلك الربان نيمو.

وقبل ابتداء الحفر فى الجدران استخدم الربان المجسات ضمانًا لسلامة العمل، ونفذت المجسات الطويلة المدببة فى الجدران الجانبية. ولكنها لم تلبث أن توقفت بعد أن نفذت مسافة ٤٥ قدمًا عند جدران جليدية شديدة الكثافة والسمك ولم يكن ثمة فائدة من جس السقف الجليدى لأنه يكوِّن قاع شاطئ الجليد الذى لا يقل سمكه عن ألف ومائتى قدم، وشرع الربان نيمو يجس الجانب السفلى من طبقة الثلج التى تفصلنا عن الماء فوجد أن سمكها لا يزيد عن ثلاثين قدمًا، وهكذا كان يتحتم علينا أن نستخرج من الجليد نحو سبعة آلاف ياردة مكعبة لنجرف فجوة تنفذ منها الغواصة إلى طبقة الماء السفلى.

وبدأ العمل فورًا فى نشاط بالغ، وقد رأى الربان بدلا من الحفر حول الغواصة - وهى عملية شاقة - أن يأمر بحفر خندق ضخم على مسافة ثمانى ياردات من مقدمتها وفى وقت واحد شرع الرجال فى الحفر فى نقط مختلفة على حدود الخندق وسرعان ما بدءوا فى إخراج القطع الجليدية، من أماكنها، وكانت هذه القطع بحكم قانون الجاذبية العجيب تطير لأنها أخف وزنا من الماء إلى سقف النفق حيث تلتصق به وتزيد من سمكه. بينما يزداد قاعه رقة.

وبعد ساعتين من العمل المتواصل عاد نيد لاند وزملاؤه إلى الغواصة مجهدين، وخلفهم فى العمل عدد آخر من البحارة انضممت أنا وكونسايل إليهم وكان رئيسنا فى هذه المرة ضابط الغواصة الأول.

وكان الماء شديد البرودة. ولكنى لم ألبث أن استدفأت وأنا أضرب بالمعول.

ـ وكنت أشعر بخفة فى حركاتى رغم أننا كنا نعمل فى ضغط يساوى ثلاثين ضغطًا جويا.

ولما عدت إلى الغواصة بعد ساعتين من العمل لتناول الطعام والراحة، شعرت بفارق كبير بين الهواء الذى كان يزودنى به المستودع وبين الهواء فى جو الغواصة الذى أصبح مثقلاً بثانى أكسيد الكربون، ذلك أن هواءها لم يجدد فى الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة، ففقد الكثير من عناصره المانحة للحياة، ومهما يكن فقد استطعنا فى اثنتى عشرة ساعة أن نستخرج من الجليد ما يبلغ حجمه ستمائة ياردة مكعبة. ولكن حتى لو استطعنا العمل دائمًا بهذا المعدل فسنحتاج إلى خمس ليال وأربعة أيام لنفرغ من هذه المهمة.

وقلت لصاحبى: خمس ليال وأربعة أيام وكل ما لدينا من هواء احتياطى لا يكفى أكثر من يومين.

فقال نيد لاند:

ـ حتى يغير هذا التقدير لو خرجنا من هذا السجن اللعين فسنبقى محصورين تحت شاطئ الجليد وقتًا آخر دون أن نجد الهواء النقى المطلوب.

وكانت تلك هى الحقيقة. فمن ذا يستطيع تحديد أقل مدة كافية لخلاصنا؟ ألا يحتمل أن نموت اختناقًا قبل أن تصل الغواصة إلى سطح الماء؟ أترى هل قدر لها أن تدفن بمن فيها داخل هذا القبر الثلجى، لقد كان الموقف رهيبًا. ولكن كلا منا أخذ يواجهه بشجاعة معتزمًا أن يؤدى واجبه فى النهاية.

وتم أثناء الليل كما توقعت استخراج ستمائة ياردة مكعبة أخرى من الجليد ولكن عندما جاء الصباح وارتديت ملابس الغوص وذهبت إلى الماء وجدت الحرارة هبطت من ست إلى سبع درجات تحت الصفر، ولاحظت أن الجدران الجانبية يقترب بعضها من بعض تدريجيًا، وكانت المياه المستخرجة من الخندق دون أن تسخن بتأثير حركة العمال والمعاول. تميل إلى التجمد مرة أخرى، فأية فرصة للنجاة إزاء هذا الخطر الجديد المحدق. وكيف نستطيع أن نمنع تجمد مياه النفق الضيق فإنها لو تجمدت لحطمت جوانب الغواصة كما يتحطم الزجاج.

ولم أشأ أن أفضى إلى صاحبى بأمر هذا الخطر الجديد، ولم أغامر بتثبيط همتهم وهم يؤدون العمل الشاق ولكنى فاتحت الربان نيمو فى الأمر عند عودتى إلى داخل الغواصة، فقال بصوته الهادئ الذى لا تنال منه الأحداث مهما اشتدت خطورتها:

- أننى أعرف هذا، إنه مجرد خطر جديد لا سبيل إلى اجتنابه، إن الفرصة الوحيدة للنجاة هى أن نعمل بأسرع من تجمد الماء: المسألة الآن سباق بيننا وبين الطبيعة..

فقلت وكان علىّ أن أعتاد هذا اللون من الحديث:

- نعم يجب أن نكون السابقين.

وفى ذلك اليوم أخذت أعمل بقوة ساعات عديدة، وكان العمل يذكى همتى، وفضلاً عن ذلك كان معنى هذا العمل التنفس من مستودع الهواء النقى المتصل بجهاز الغوص، والبعد عن جو الغواصة الفاسد.

وقرب المساء كنا قد حفرنا ستمائة ياردة مكعبة أخرى فى الخندق. فلما عدت إلى الغواصة كدت أختنق بثانى أكسيد الكربون الذى ملأ جوها إذ لم يكن لدينا المعدات الكيمائية التى تطرد هذا الغاز الخانق وإن كان عندنا الأوكسجين بوفرة، لأن الماء يحتوى على قدر كبير منه وبوسعنا أن نحتفظ بكميات كبيرة من هذا الماء السائل، لقد فكرت فى هذا ولكن ما الفائدة ما دام ثانى أكسيد الكربون الناشئ عن تنفسنا قد غزا كل أجزاء الغواصة. فلو أردنا امتصاصه لوجب علينا استخدام أملاح البوتاس الكاوية فى أوعية مع هزها باستمرار، ولكن هذه المادة لم تكن موجودة فى الغواصة وليس ثمة مادة أخرى تحل محلها.

وفى ذلك المساء، اضطر الربان نيمو إلى فتح صمامات مستودعات الهواء الاحتياطى وإطلاق كمية نقية منه داخل الغواصة، ولولا هذا لما استيقظنا أبدًا من النوم.

وفى اليوم التالى، السادس والعشرون من شهر مارس، استأنفت عملى فى حفر الخندق لرفع مسطح الياردة الخامسة من طبقة الجليد البالغ سمكها

ثلاثين قدمًا أو عشر ياردات، وكانت الجدران الجانبية وسقف شاطئ الجليد تزداد كثافة وسمكًا باستمرار، وكان الواضح أنها ستتطبق بعضها على بعض قبل أن تخرج الغواصة من مأزقها، واستبد اليأس بى برهة، وكاد المعول يسقط من يدى فقد خطر لى أنه لم يعد ثمة جدوى من العمل مادمت سأموت مختنقا ومنسحقًا تحت الماء المتحول إلى جمدَ، وإنها لميتة لا تخطر ببال أشد الهمج وحشية، لقد خيل إلى أنى بين أشداق وحش هائل توشك أن تنطبق علىَّ بلا أمل فى النجاة.

وفى تلك اللحظة مر بى الربان نيمو الذى كان يعمل ويشرف على العمل، فلمست ذراعه وأشرت إلى جدران سجننا التى اقتربت حتى صارت على قيد أربع ياردات من الغواصة.

وأدرك الربان ما أعنى، وأشار إلىَّ أن أتبعه، فلما عدنا إلى الغواصة ونزعنا ملابس الغوص، تبعته إلى الصالون حيث قال:

- لابد يا مسيو أروناكس أن نقوم بعمل بطولى وإلا قضى علينا فى سجن قوامه الماء المتجمد كالأسمنت.

فقلت:

- نعم. وماذا يمكن أن نفعل؟

فهتف قائلاً:

- آه لو كان يتسنى للغواصة احتمال الضغط دون أن تتهشم.

فقلت وأنا لا أفهم ماذا يعنى:

ثم ماذا بعد؟

- ألا تعرف أن تجمد الماء هذا سيساعدنا؟ ألا ترى أنه فى تجميده سيحطم جدران سجننا كما يحطم فى ظروف مماثلة صخورًا أقوى من الجليد، ألا ترى أن تجمد هذا الماء سيكون سببًا لخلاصنا بدلا من أن يكون وسيلة للقضاء علينا.

- بلى يا كابتن، هذا ممكن ولكن أيا كانت مقدرة الغواصة على احتمال الضغط فلن تستطيع المقاومة فى هذه الحالة. وستسحق سحقًا وتصبح مثل لوح من الصلب المضغوط.

- أعرف يا سيدى، ولهذا لا ينبغى أن نعتمد على الطبيعة فى نجاتنا بل على أنفسنا، أى يجب أن نمنع تجمد الماء، فإن الجدران الجانبية لا تنطبق علينا فحسب، بل إنه لم يتبق أكثر من عشرة أقدام من الماء أمام الغواصة أو خلفها فإن الماء متجمد فى كل مكان حولنا.

- إلى متى يكفينا الهواء للتنفس داخل الغواصة؟

فحدق الربان فى وجهى ثم قال:

- إلى ما بعد الغد.. وعندئذ لا يبقى فى المستودعات ذرة هواء احتياطى.

وتقصد العرق البارد على جبينى، ولكن.. هل كان ينبغى أن أدهش من هذا الرد؟ لقد هبطت الغواصة تحت سطح الماء فى سمت القطب الجنوبى فى اليوم الثانى والعشرين من شهر مارس. ونحن الآن فى اليوم السادس والعشرين أى أننا عشنا خمسة أيام نتنفس احتياطى الهواء فى الغواصة وما تبقى منه يجب أن يخصص للمشتغلين فى حفر الخندق، ولا أتمالك، حين أستعيد تلك الذكرى الأليمة وأنا أدون هذا، من الشعور بالفزع يستبد بكيانى حتى ليخيل إلىَّ أنى أوشك على الاختناق.

وكان الربان نيمو فى خلال هذا يفكر فى صمت وسكون. وبدا لى بوضوح أن فكرة ما طرأت على ذهنه. وأنه يحاول طردها عنه وهو يرد على نفسه بالنفى وأخيرًا بدرت منه هذه العبارة:

- الماء المغلى.

فهتفت قائلا:

- الماء المغلى؟؟

- نعم يا سيدى... وإننا محصورون فى مكان مغلق نسبيًا؟ أفلا يؤدى الماء المغلى المرسل باستمرار من مضخات الغواصة إلى رفع الحرارة قليلا وإعاقة عملية التجميد.

فقلت فى إصرار:

- لابد أن نقوم بهذه المحاولة..

- سنقوم بها يابروفسور...

وكانت الحرارة الجوية عندئذ سبع درجات تحت الصفر، فمضى بى الربان إلى المطبخ حيث يوجد جهاز الترشيح الذى يزودنا بماء الشرب بعد تحويل ماء البحر إلى بخار، وكانت مستودعات الجهاز مملوءة بالماء فسلط التيار الكهربائى المولد للحرارة على الأنابيب الغارقة فى الماء. وسرعان ما وصلت المياه إلى درجة الغليان، فأرسلت إلى المضخات بينما حلت كمية أخرى من الماء محلها وهكذا، وبلغ من شدة الحرارة أن ماء البحر البارد كان لا يصل إلى الجهاز حتى يبلغ فى المضخات درجة الغليان.

وبعد ثلاث ساعات من بدء العملية. ارتفعت حرارة الجو إلى ست درجات تحت الصفر، لقد ظفرنا بدرجة واحدة، وبعد ساعتين كان الترمومتر يشير إلى أربع درجات وعندئذ قلت بعد أن تتبعت مراحل هذه العملية.

- إننا سننجح يا كابتن...

- أعتقد أننا سننجح.. إننا لن نسحق. ولم يبق ما نخافه الآن سوى خطر الموت اختناقًا.

وأثناء الليل ارتفعت حرارة الماء إلى الدرجة الواحدة تحت الصفر ولم يستطع الجهاز أن يرفعها أكثر من هذا القدر، ولكن لما كانت مياه البحر لا تتجمد إلا فى درجة حرارة لا تقل عن ٢ تحت الصفر. فقد اطمأننت أخيرًا لزوال خطر التجمد.

وفى اليوم التالى السابع والعشرين من شهر مارس، كنا قد رفعنا من الخندق ثمانية عشر قدمًا من طبقة الجليد، أى أنه لم يبق أمامنا سوى اثنى عشر قدمًا تحتاج إلى جهد ثمان وأربعين ساعة، لم يعد فى الإمكان تجديد الهواء داخل الغواصة. وفى ذلك اليوم سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ.

لقد أحسست بثقل شديد يجثم علىّ. فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر بلغ شعورى بالألم حدًا كبيرًا، وشعرت بفكى يكادان ينخلعان من طول ما فغرت فمى، ولهثت رئتاى وهما تتلمسان الأوكسجين اللازم للحياة. والذى أخذ يقل تدريجيًا. وانتابنى خدر، فتمددت مسلوب الحركة. أكاد أفقد كل وعيى. وجلس كونسايل الباسل المخلص بجانب فراشى رغم إحساسه بنفس الأعراض ونفس الآلام ممسكًا بيدى يشجعنى وقد سمعته يغمغم قائلا:

ـ آه لو أن فى مقدورى ألا أتنفس لأوفر لسيدى المزيد من الهواء.

فلم أكد أسمع هذه الكلمات حتى طفرت الدموع من عينى.

وبسبب هذا الجو غير المحتمل داخل الغواصة. كنا نشرع فى ارتداء ملابس الغوص إذا حل دورنا للعمل ونحن نشعر بالبهجة واللهفة.. وكانت المعاول ترن على السطح المتجمد. ولم نكن نحفل بكلال سواعدنا أو بتسلخ أيدينا. إذ ما قيمة التعب أو الجروح مادامت رئاتنا تنعم بالهواء الضرورى... لقد كنا نتنفس.. نعم كنا نتنفس..

ومع ذلك لم يكن أحدنا يحاول أن يطيل فترة العمل تحت سطح الماء، فإذا فرغ من العمل وضع على ظهر زميله اللاهث مستودع الهواء النقى الذى يسكب الحياة فى جسمه، وكان الربان نيمو يضرب لنا المثل ويُخضع نفسه لهذا النظام الدقيق. فإذا جاء دوره سلم المعول والجهاز إلى غيره، وعاد إلى داخل الغواصة ذات الجو الثقيل، هادئًا دائمًا. لا يشكو ولا يتذمر.

فى ذلك اليوم تم العمل المعتاد بنشاط متزايد. ولم يبق أمامنا غير طبقة من الثلج سمكها ستة أقدام.. كانت تفصلنا عن أعماق البحر المفتوح.. ولكن

مستودعات الهواء الاحتياطى كانت أوشكت على النفاد. وكان علينا أن ندخر القليل الباقى للعمل فى الخندق فلا نطلق ذرة منه داخل الغواصة.

ولما عدت إليها غدوت نصف مختنق وبالها من ليلة أمضيتها.. إن الآلام التى عانيتها تند على الوصف.. وفى اليوم التالى ضاقت أنفاسى. ومع الصداع الذى كنت أعانى منه، شعرت بهذا الخدر الثقيل الذى جعل منى رجلا كالسكير، وكان زملائى يحسون بهذه الأعراض نفسها وقد شعر بعض البحارة بصلصلة فى حلوقهم.

وفى ذلك اليوم السادس من فترة حصارنا رأى الربان نيمو أن العمل بالمعاول يسير ببطء شديد. فقرر اقتحام الطبقة الباقية من الثلوج التى تفصلنا عن الماء الجارى، وظل هذا الرجل محتفظًا بهدوئه ونشاطه، مغالبًا الألم الجسمانى بقوة الروح حتى استطاع أن يفكر ويدبر ويعمل.

وأصدر أمره بتخفيف الغواصة، أى برفعها عن الثلج بواسطة التغيير فى الجاذبية الفرعية، فلما طفت سُيرت فى الخندق الكبير الذى حفر ليتسع لها ثم ملئت خزاناتها بالماء، فشرعت تهبط...

وفى تلك اللحظة كان البحارة جميعًا قد دخلوها، وأغلقت جميع فتحاتها. ثم استقرت الغواصة عندئذ على طبقة من الثلج لا يزيد سمكها على ثلاثة أقدام. كما ثبتت المجسات فى عشرة مواضع.

وفتحت صمامات الخزانات كلها جملة واحدة. فاندفع إليها من الماء ما يقدر بمائة ياردة مكعبة مما أضاف إلى وزن الغواصة نحو مائتى ألف رطل. ولبثنا ننتظر ونرهف السمع ناسين آلامنا، وتداعبنا الآمال بعد أن استنفدنا جميع المحاولات.

ورغم الطنين الذى كان يملأ رأسى شعرت برنين الرفاص فى هيكل الغواصة وبازدياد هبوطها وسمعت صوت تكسر الثلوج المعروف كخرفشة الورق الجاف وهو يتمزق.. وازداد هبوط الغواصة.

وهمس كونسايل فى أذنى قائلا:

- لقد نفذنا ..

ولم أستطع أن أجيب وإنما أمسكت بيده وضغطت عليها بحركات تشنجية. أما الغواصة فقد هبطت بقوة فى الماء الجارى كأنها قذيفة مدفع أو كأنها تهوى فى قاع هاوية ليس لها قرار.

ثم سلطت القوى الكهربائية كلها على المضخات التى أخذت تطرد الماء من المستودعات، وتوقف هبوطنا بعد لحظات، وبعد برهة بدأنا فى الصعود وكان الرفاص يدور بقوة جعلت الهيكل الحديدى يهتز بكافة أجزائه وهو يندفع شمالا.

ولكن إلى متى يستمر سيرنا تحت شاطئ الجليد قبل أن نصل إلى البحر المفتوح. يوم آخر! إننى أفضل الموت على احتمال هذا اليوم.

وازداد الشعور بالاختناق وأنا شبه راقد على الأريكة فى غرفة المكتبة. وشاعت الزرقة فى وجهى وشفتى وتسلل الخدر إلى حواسى فلم أعد أبصر أو أسمع شيئًا. وتلاشت من ذهنى كل فكرة عن الوقت ولم يعد فى مقدورى أن أحرك عضلاتى.

ولم أدر كم دامت هذه الحالة... ولكنى شعرت أن آلام الموت قد بدأت.أدركت أنى أحتضر، وفجأة أفقت لنفسى حين أحسست بأنفاس قليلة من الهواء النقى تصل إلى رئتى المعذبتين، ترى هل بلغنا سطح الماء؟ هل اجتزنا منطقة الشاطئ الجليدى؟

كلا.. كان نيد لاند وكونسايل - صاحباى الباسلان - يضحيان بنفسيهما من أجلى. فقد بقى قدر يسير من الهواء النقى فى قاع الجهاز.. وبدلاً من أن يستفيدا منه راحا وهما يختنقان يستقطران هذا القليل فى رئتى وقد حاولت أن أبعد الجهاز عنى. ولكنهما أمسكا بيدى فلم يسعنى إلا أن أتنفس فى نهم.

ووقعت نظراتى على الساعة، فإذا هى الحادية عشرة، ولا شك أن اليوم كان الثامن والعشرين من مارس. وكانت الغواصة تنطلق بسرعة هائلة مقدارها أربعون ميلا فى الساعة.

أين الربان نيمو؟ هل قضى نحبه. وهل مات البحارة معه؟

وفى تلك اللحظة رأيت بواسطة جهاز الأعماق أننا على عمق خمسة وعشرين قدمًا فقط. من سطح الماء. أى أنه كان يفصلنا عن السطح، حقل بسيط من الجليد فقط، أفلا يمكننا اقتحامه.؟

ربما. ومهما يكن فقد بدا أن الغواصة تقوم بهذه المحاولة؛ إذ شعرت أنها تتخذ وضعًا رأسيًا بخفض مؤخرتها ورفع مقدمتها. ثم إذا رفاصها يدور بكل قوته وإذا هى تندفع إلى سقف حقل الثلج بقوة القذيفة الحديدية.

وإذا هى تتوقف قليلاً. ثم تتراجع لتندفع مرة أخرى بكل سرعتها. وإذا حقل الثلج يتحطم. وإذا الغواصة ـ بمجهود أخير رائع ـ تقفز إلى السطح المتجمد الذى تهشم تحتها..

وفتحت منافذها.. بل كادت المنافذ تنتزع انتزاعًا.. واندفع الهواء النقى إلى كل مكان بداخلها..

الفصل الحادى والأربعون

من رأس هورن إلى الأمازون

لم أدر على وجه التحديد كيف وصلت إلى سطح الغواصة. ربما حملنى السيد نيدلاند، ولكنى كنت أتنفس.. أستنشق الهواء المنعش.. هواء البحر وكان صاحباى بجانبى ينتشيان بجزيئات الهواء الطلق، إن البؤساء الذين حرموا الطعام طويلا لا يستطيعون أن يلتهموا أول طعام يقدم إليهم مرة واحدة.. أما نحن فلم يكن ثمة ما يجعلنا نتمالك أنفسنا فانطلقنا نملأ رئاتنا بذرات هذا الهواء وكانت نسائم البحر نفسها هى التى تسكب الحياة فى أجسادنا وقال كونسايل:

- آه.. ما أجمل الأوكسجين.. لا تخف يا سيدى من التنفس بحرية. فإن فى هذا الهواء ما يكفى الجميع.

ولم يقل نيد لاند شيئًا وإنما كان يفتح فكيه الواسعين إلى حد يفزع نمر البحر. كان يتنفس بقوة عجيبة وكأنه وهو يسحب الهواء منفاح أتون فى ذروة الحركة.

وسرعان ما استرددنا قوانا، ولما تلفت حولى رأيت أننا على سطح الغواصة وحدنا. فلم يكن أحد البحارة معنا ولا الريان نيمو، لقد اكتفى هؤلاء البحارة المدهشون بتنفس الهواء الجارى داخل الغواصة دون أن يحاول أحدهم أن يستمتع بالهواء الطلق.

وكانت أول كلمات فهت بها تعبّر عن شكرى واعترافى بالجميل لصاحبىّ. فقد أطال نيد لاند وكونسايل بقائى خلال الساعات الأخيرة من هذه المحنة.

وإن كل إحساس بعرفان الجميل ليس بالكثير على مثل هذه التضحية بالنفس.

وقد رد نيد لاند على حديثى بقوله:

- إن ما فعلناه لا يستحق التنويه يا سيدى، أى فضل لنا فيما فعلنا؟ لا شىء! إن الأمر كله لا يعدو أن يكون مسأله حسابية.. فإن حياتك تساوى أكثر من حياتنا، ولهذا وجب العمل على الاحتفاظ بها.

- لا يا نيدلاند. إن حياتى ليست بأفضل منكما. إن الرجل الطيب الكريم لا يعلو عليه أحد، وأنت هذا الرجل، وأنت يا كونسايل الباسل.. لقد تعذبت كثيرًا.

- لن أتعذب كثيرًا إذا شاء سيدى الحقيقة، كنت حقًا فى حاجة إلى بعض أنفاس من الهواء ولكنى كنت أعتقد أنى سأعتاد تلك الحالة. ثم أنى نظرت إلى سيدى وهو يحتضر وفقدت بدورى كل رغبة فى الحياة، وقد أوقف هذا تنفسى كما يقولون.

واعتراه الارتباك بعد أن فاه بعبارته تلك، فلما توقف قلت لنيد لاند.

- إننا الآن يا صديقاى مرتبطون معًا إلى الأبد، وأنا على استعداد لتنفيذ كل رغبة لكما.

فقال نيد لاند:

- وأنا على استعداد لاستغلال هذه الفرصة.

فهتف كونسايل قائلا:

- ماذا؟

فاستطرد نيد لاند قائلا:

- نعم. وذلك بأن أصحبكما معى حين أغادر هذه الغواصة اللعينة.

فقال كونسايل:

- لقد ذكرتنى... هل نحن سائرون الآن فى الطريق السوى.

فأجبته قائلا:

ـ نعم.. لأننا نتجه نحو الشمس.. والشمس الآن فى الشمال.

فقال نيد لاند:

ـ لا شك فى هذا.

ولكن بقى علينا أن نعرف هل نحن فى الطريق إلى المحيط الهادى أو إلى الأطلنطى أو بمعنى آخر إلى البحار المطروقة أو المنعزلة.

ولم أستطع أن أجزم بشىء ولكنى خشيت أن يمضى بنا الربان إلى المحيط المترامى الذى يغسل شواطئ آسيا وأمريكا، أعنى المحيط الهادى، وبهذا يكون قد أتم طوافه حول العالم تحت سطح الماء ثم عاد إلى البحار التى تتمتع فيها الغواصة بالحرية التامة.. ولكن إذا حدث هذا وطرقنا المحيط الهادى الشاسع البعيد عن المناطق المأهولة فماذا يكون من أمر المشروع الذى يعده نيد لاند للهرب؟

ولم نلبث أن أتيحت لنا الفرصة لمعرفة هذه الحقيقة المهمة، فقد كانت الغواصة تنطلق بسرعة بالغة وسرعان ما تجاوزنا الدائرة القطبية فى طريقنا إلى رأس هورن ثم أصبحنا تجاه هذا الطرف الأمريكى فى الساعة السابعة من صباح اليوم الواحد والثلاثين من شهر مارس.

وعندئذ نسينا كل آلامنا السابقة، وبدأت ذكريات حصارنا تحت الثلج تتلاشى من أذهاننا وأصبحنا لا نفكر إلا فى المستقبل فقط، ولم يعد الربان نيمو يظهر فى الصالون أو على سطح الغواصة وكانت عملية الرصد التى تجرى كل يوم ويسجلها الضابط الأول على الخارطة تدلنى على الاتجاه المحدد الذى تسير فيه الغواصة. وأشد ما كان سرورى فى ذلك المساء حين علمت أننا مبحرون شمالا فى طريق المحيط الأطلنطى.

وقد ذكرت نتيجة ملاحظاتى لكونسايل ونيد لاند الذى قال:

ـ هذه أخبار طيبة.. ولكن.. إلى أين تذهب بنا الغواصة؟

ـ لا أعرف يا نيد..

ـ ترى هل يحاول ربانها أن يمضى إلى القطب الشمالى بعد الجنوبى. ثم يعود أدراجه إلى المحيط الهادى بطريق الممر الشمالى الغربى المشهور.

فقال كونسايل...

ـ لا سبيل إلى معارضته إذا أراد هذا، أليس كذلك؟

فرد الكندى قائلا:

ـ حسنا. سنفترق عنه قبل هذا على أى حال.

فأردف كونسايل:

ـ مهما يكن فإن الربان نيمو رجل عظيم: ولن نأسف على تعارفنا به.

فقال نيد لاند:

ـ لا سيما عندما نفترق عنه.

وفى اليوم التالى: الأول من شهر إبريل، وعندما كانت الغواصة تصعد إلى سطح البحر قبيل الظهر، رأينا الشاطئ الغربى المعروف باسم «تيراديل فيوجو» وهو الاسم الذى أطلقه عليه الملاحون القدامى لكثرة الدخان المتصاعد من أكواخ الأهالى ومعناه «أرض الدخان».

وتكون «تيراديل فيوجو» سلسلة كبيرة من الجزائر تمتد مساحتها بطول تسعين ميلا وعرض مائتين وأربعين ميلا. وتقع بين خطى العرض ٥٣، ٥٦ درجة، وخطى الطول ٥٠: ٦٧ ـ ١٥: ٧٧ غربًا. وكان الشاطئ يبدو أمامى واطئًا ولكن جبالا عالية كانت ترتفع فى الأفق البعيد، بل تصورت أنى رأيت لمحات من جبل سارينتو الذى يبلغ ارتفاعه ٦٥٠٠ قدم فوق سطح البحر وهو كتلة هرمية من صخور الشست المعدنية، ذات قمة مدببة قال عنها نيدلاند:

ـ إن ظهور القمة أو اختفائها فى غلائل الضباب إعلان عن صفاء الجو أو رداءته.

ـ إنها مقياس جوى مشهور يا صديقى.

ـ نعم يا سيدى.. إنها بارومتر طبيعى لم يخدعنى قط حين كنت أبحر بين ممرات مضيق مجلان.

وفى تلك اللحظة كانت القمة واضحة شامخة فى السماء، أى كانت دليلا على صفاء الجو وهذا ما تحققنا منه فعلاً.

واقتربت الغواصة وهى تسير تحت سطح الماء من الشاطئ على مسافة أميال قليلة، ومن نوافذ الصالون كنت أرى أعشاب البحر الطويلة ونبات الفوقس الهائل، وتلك المثانيات من أعشاب الحماق «جدرى الماء» التى كان البحر فى القطب الجنوبى يحتوى على أنواع قليلة منها وكانت بأوراقها النحيلة المصقولة تمتد نحو تسعمائة قدم، وهى تبدو كأنسجة متينة وثيقة فى سمك الإبهام. وكانت شديدة المقاومة ولذلك كانت تستخدم فى شد ألواح السفن، وثمة أعشاب أخرى تعرف باسم «قلّب» طول أوراقها أربعة أقدام، تعلوها المتحجرات المرجانية وكانت تكسو قاع البحر. وتستخدم هذه الأعشاب كأوكار وغذاء لملايين القشريات واللافقاريات وسرطانات البحر والحبارات «نوع من السمك» وتنعم الفقمات وبعض الحيوانات البحرية بطعام شهى من هذا العشب المؤلف من الأسماك والنباتات البحرية على الطريقة الإنجليزية.

وانطلقت الغواصة بسرعة بالغة فى هذه الأعماق الدسمة الغنية. واقتربت فى المساء من أرخبيل جزائر فوكلاند التى استطعت فى اليوم التالى أن أتعرف على مرتفعاتها الشديدة الانحدار، وكان البحر قليل العمق فى هذه المنطقة. ومن ثم خطر لى بحق أن هاتين الجزيرتين وما يحيط بهما من جزيرات صغيرة.. كانت فيما مضى شطرًا من أراضى مجلان.

ومن المرجح أن يكون مكتشف جزائر فوكلاند هو الرحالة المشهور جون دافيز الذى أطلق عليها اسم «دافيز الجنوبية». وقد سماها ريتشارد هوكنز فيما بعد جزائر «ميدن» العذراء ثم سميت بعد ذلك جزائر «مالوينز» وهو الاسم الذى أطلقه عليها بعض صيادى السمك فى «سانت مالو» فى مستهل القرن الثامن عشر وأخيرًا سماها الإنجليز (جزائر فوكلاند) بعد استيلائهم عليها.

وقد جاءتنا شبك الصيد من هذه المنطقة بأنواع بديعة من أعشاب البحر لاسيما الفوقس الذى تكسو جذوره أفضل أنواع المحار المعروفة فى العالم. وكانت أسراب الأوز البحرى والبط تحط على سطح الغواصة بالعشرات، ثم سرعان ما تنتقل لأيدينا إلى المطابخ. أما عن الأسماك فقد لاحظت بصفة خاصة أصنافًا عظيمة من سمك القوبيون وبخاصة أسماك البوليرت التى يبلغ طول الواحدة منها ست بوصات وكلها مكسوة بنقط بيضاء وصفراء وقد أعجبت كذلك بكثير من قناديل البحر وبأجمل أنواع الأحياء المرجانية المعروفة باسم الكريزورا التى اشتهرت بها جزائر فوكلاند، وهي تكون أحيانًا أشكالاً نصف كروية كمظلة مقلمة بخطوط حمراء بنية وتنتهى باثنتى عشرة باقة منتظمة وتبدو أحيانًا أخرى كسلة مقلوبة تتفرع منها أوراق كبيرة وعسالج طويلة حمراء. وكانت هذه الأحياء المرجانية تسيح بأذرعتها التى تشبه أوراق الشجر تاركة شواربها الأمامية طافية وراءها وقد تمنيت لو احتفظت بأنواع من هذه البحريات الدقيقة ولكنها كانت تبدو كقطع من السحب أو الظلال التى لا تلبث أن تتبخر وتختفى من موطنها الأصلى.

وبعد أن غابت آخر مرتفعات أرخبيل فوكلاند وراء الأفق هبطت الغواصة إلى عمق يتراوح بين عشرين وثلاثين ياردة وأخذت تسير تجاه الشاطئ الأمريكى وفى خلال ذلك لم يخرج إلينا الربان نيمو.

وبقينا حتى اليوم الثالث من شهر إبريل فى مناطق بتاجونيا تحت سطح الماء أحيانًا، وأحيانًا أخرى فوقه، واجتازت الغواصة مصب نهر لابلاتا الواسع، وفى الرابع من إبريل كنا تجاه أراجواى ولكن على بُعد خمسين ميلا من شواطئها. وظل اتجاه الغواصة نحو الشمال متتبعة سواحل أمريكا الجنوبية الطويلة المتعرجة. وكنا عندئذ قد قطعنا ستة آلاف فرسخ منذ رحيلنا فى بحار اليابان.

واجتزنا فى الساعة الحادية عشرة منطقة كابريكون الاستوائية على خط الطول ٣٧ درجة. ثم أصبحنا تجاه رأس فريو، ولكن الربان - لسوء حظ نيدلاند - لم يكن مولعًا بسواحل البرازيل المأهولة لأنه تجاوزها بسرعة بالغة وما كان فى

مقدور سمكة أو طائر أن يحلق بنا، وهكذا فاتتنا متعة النظر إلى عجائب الطبيعة فى بحار هذه المناطق.

واستمر معدل السرعة هكذا بضعة أيام، حتى إذا كان مساء اليوم التاسع من شهر إبريل رأينا أقصى الطرف الشرقى لأمريكا الجنوبية، أى الطرف الذى يكون رأس سان روك، ولكن الغواصة تابعت سيرها السريع وهى تغوص إلى أعماق بعيدة فى المحيط حيث يقع الوادى البحرى بين هذا الرأس وبين أقليم سيراليون فى إفريقيا، إن هذا الوادى البحرى يبدأ من مرتفعات جزر الأنتيل، وينتهى شمالا إلى أعماق ضخمة تبلغ ألف ياردة. وفى هذه المنطقة يتكون الحوض الجيولوجى للمحيط. عند جزائر الأنتيل الصغرى من سلسلة مرتفعات يبلغ ارتفاعها ثلاثة أميال ونصف ميل، شديدة الانحدار تقابلها عند جزائر رأس فيرد مرتفعات لا تقل امتدادًا وارتفاعًا وبين هذه وتلك تقع قارة، الاطلانطيس الغارقة وتتناثر فى قاع هذا الوادى البحرى جبال تضفى عليه طابعًا خاصًا، وإنى أصف هذا الحوض مستعينًا بخرائط بحرية كانت فى مكتبة الغواصة، وهى خرائط يبدو بوضوح أنها من أعمال الربان نيمو، وأنه رسمها عن مشاهدات شخصية.

ولبثنا يومين بين هذه الأعماق الغائرة ذات السهول والمنحدرات التى كانت الغواصة تبحر فيها بطريقة لولبية جعلتها تعلو وتهبط بين سائر المنحدرات والمرتفعات. وفى اليوم الحادى عشر من شهر إبريل، صعدت الغواصة فجأة إلى السطح، وإذا نحن نرى الأرض عند مصب نهر الأمازون.. وهو مصب ضخم تنساب فيه كميات هائلة من ماء النهر إلى البحر فتجعلها أقل ملوحة إلى مسافة أميال عديدة.

وكنا عندئذ قد عبرنا خط الاستواء وعلى مسافة عشرين ميلا نحو الغرب رأينا أرض غانا الفرنسية التى كان يمكن أن نجد فيها ملاذًا سهلا. ولكن الريح كانت تهب كالإعصار، والأمواج الثائرة، ما كانت لتسمح لزورق صغير أن يطفو فوقها ولا شك أن نيدلاند قد أدرك هذه الحقيقة، لأنه لم يتحدث إلىَّ بشىء، أما من ناحيتى فإنى لم أعرض لمشروع هربه، لأنى لم أرد إغراءه للقيام بمحاولة تنتهى بالفشل حتما.

وشغلت نفسى عن موضوع الهرب بالاستغراق فى دراساتى المتعة. ففى خلال يومى ١١ و١٢ إبريل لم تترك الغواصة سطح البحر، وقد جاءتنا شباك الصيد بكميات هائلة من الأحياء المرجانية وأسماك الزواحف المائية.

وكانت بعض الأحياء المرجانية قد أخرجت من البحر معلقة فى سلاسل الشباك وكان معظمها من أنواع العشبيات المنتمية إلى أسرة الإشعاعيات. وكان بين الأنواع الأخرى الخمائر العشبية التى تستوطن هذه المنطقة من المحيط، وهى عبارة عن جذوع أسطوانية محلاة بخطوط رأسية، ومرقطة بنقط حمراء تتوج أذرعتها التى تبدو فى ازدهار الورد البديع، أما اللافقاريات فهى تتكون من أنواع سبق لى ذكرها، ثم البراجيات «حيوانات بحرية أرجلها فى رأسها وتسمى الرسجلية» والفبورفوريات الزيتونية ذات الخطوط المنتظمة المتشابكة والنقط الحمراء التى تبدو بوضوح على مسطح من اللحم. والسرخسيات الحية العجيبة التى تبدو كالعقارب المتحجرة، وأسماك الشفافيات والأرجونات والحبارات ذات الطعم اللذيذ وبعض أنواع خاصة من أسماك الكالمر التى يضعها بعض علماء عجائب الطبيعة بين أنواع السمك الطائر، وهى تستخدم فى معظم الأحوال طعمًا لصيد سمك البكلاه.

أما أسماك هذه المنطقة التى لم تتح فرصة دراستها، فقد شهدت أنواعًا عجيبة منها: فمن الأسماك الغضروفية رأيت التيرونيرون - بريكا. وهى من أنواع ثعابين البحر طولها خمس عشرة بوصة، برءوس مخضرة، وزعانف بنفسجية، وظهور رمادية مائلة للزرقة، وبطون فضية، ومكسوة بنقط لامعة، وتحيط بإنسانات عيونها حلقات ذهبية، وهى أسماك بحرية عجيبة لاشك أن تيارات نهر الأمازون هى التى تأتى بها إلى البحر لأنها عادة تستوطن المياه العذبة، وأسماك الاسكانا الدرفية بحيازيمها المدببة وذيولها الطويلة المعقوفة والمسلحة بمنشار طويل ونمور البحر الصغيرة التى لا يزيد طولها عن ياردة بجلود رمادية فى بياض، وصفوف عديدة من الأسنان المعقوفة إلى الخلف ويسميها العامة «البابوج» والوسير طبليات (الخفافيش البحرية) وهو نوع من الأسماك كالمثلث المتساوى الضلعين طولها قدمان، مائلة للحمرة تتصل زعانفها الصدرية بزوائد

غشائية تجعلها تبدو كالخفافيش، ولكن الزوائد العظمية القريبة من خياشيمها جعلت العلماء يسمونها (وحيدة القرن البحرية) وأخيرًا بعض أنواع السمك الفراز ذى الجوانب المرقطة التى تلمع بلون ذهبى وأسماك القبريص ذات اللون البنفسجى الفاتح والظلال المتدرجة كأعناق الحمام.

وإنى هنا أختتم هذه القائمة الجافة نوعًا بأسماء سلسلة من الأسماك العظمية التى رأيتها فى هذه المنطقة، فقد رأيت سمك الباسان المنتمى إلى فصيلة المعاريات بحيازيم بيضاء كالثلج شديدة الانفراج، وأجسام سوداء ناعمة مزودة بزنار طويل معقوف وأسنان شائكة. وأسماك السردين التى يبلغ طولها تسع بوصات وتتألق بلون فضى، وأنواع من أسماك الاسكوبر المزودة بزعانف شرجية وسمك النمر - سنترونت ذى الأطراف السوداء الذى يصاد بالمشاعل - وطول السمكة منه ستة أقدام ولحمها أبيض متماسك، له - وهو ظازج - مذاق لحم ثعابين البحر ولكن وهو جاف كالرنجة، وسمك الشناف الأحمر الذى تتركز قشوره فقط فى أطراف زعانفه الظهرية والشرجية. والسمك العقيقى الذى يتألق بالألوان الذهبية والفضية المموهة ببريق الياقوت الأحمر والأصفر. وسمك الأسبار الذهبى الذيل الذى يمتاز بطيب مذاق لحمه والذى تكشفه فى الماء خصائصه الفسفورية وسمك الحفار ذى الألسنة الرقيقة والأطراف البرتقالية وسمك الظليل بزعانف الذيل الذهبية - والذيول الشوكية الفاتحة وسمك أنابيب سوريتام.. الخ.

ولكن «الخ» هذه لا تدعنى أنسى سمكة لن يستطيع كونسايل أن ينساها أمدًا طويلاً..

فقد جاءتنا إحدى الشباك بسمكة من نوع الاسكانة شديدة الفرطحة، بحيث إذا قطع ذيلها أصبحت كالقرص المستدير وكانت تزن أربعين رطلا. بيضاء البطن، محمرة الظهر، ذات نقط كبيرة مستديرة زرقاء تحيط بها دوائر سوداء، وجلد ناعم ينتهى بزعنفة مشطورة، ولما وضعناها على سطح الغواصة جعلت تكافح وتحاول بحركات تشنجية أن تنقلب على بطنها، وقد بذلت محاولات عدة

حتى انتهى الأمر فى وثبتها الأخيرة باندفاعها نحو الماء، ولكن كونسايل الذى كان حريصا على الاحتفاظ بها اندفع إليها وأمسكها بكلتا يديه قبل أن أستطيع منعه.

وسرعان ما سقط على الأرض وساقاه فى الهواء، ونصف جسمه مشلول، وهو يصيح:

- سيدى.. سيدى.. أدركنى..

وكانت تلك أول مرة ينادينى فيها صاحبى المسكين بصيغة المخاطب بدلا من صيغة الغائب..

وأدركته أنا ونيد لاند، وشرعنا ندلكه بقوة، حتى إذا استرد صوابه راح يتمتم فى صوت مضعضع بسلسلة من التعنيفات لهذه السمكة قائلا:

- مرتبة الغضروفيات فصيلة الاسكانه، أسرة الراى، نوع الطوربيد و...

- نعم يا صديقى.، أنها سمكة من نوع الراى المكهرب الذى فعل بك كل هذا..

- آه.. أرجو من سيدى أن يصدقنى إذا قلت إننى سأنتقم من هذه الملعونة.

- كيف؟

- سآكلها..

وهذا ما فعله فى المساء.. أكلها بدافع الانتقام فقط. لأن لحمها شديد الخشونة..

كان كونسايل المسكين أمسك بيديه نوعًا من سمك «الرعاش» وهو من أخطر أنواع السمك،. إن هذا السمك العجيب يرسل شحنات كهربائية فى الماء - وهو موصل جيد للكهرباء - فيصعق الأسماك الأخرى إلى مسافة ياردات عديدة، وإن نطاقه المكهرب لشديد القوة بحيث لا تقل مسافته السطحية عن سبعة وعشرين قدمًا مربعًا.

وفى اليوم التالى ٢١ من شهر إبريل اقتربت الغواصة أثناء النهار من الساحل بالقرب من مصب نهر مرونى، وهناك رأيت قطعانًا كثيرة من أبقار البحر ترعى

مـعًـآ، وهى من نـوع المناطات التى تنتـمـى ـ كـالأطوم والنجـمـيـات ـ إلى مـرتبـة الخيلينيات «حيوانات بحرية ثديية»، ويبلغ طول هذه الحيوانات البديعة الهادئة المسالمة من ثمانية عشر إلى واحد وعشرين قدمًا وتزن الواحدة نحو ثمانمائة رطل. وقد ذكرت لنيد لاند وكونسايل أن الطبيعة البعيدة النظر قد عهدت إلى هذه الحيوانات بمهمة كبيرة، لأنها كالفقمات، تعيش على أعشاب المراعى البحرية وهى لذلك تقضى على تكاثر الأعشاب التى تسد مصبات الأنهار الاستوائية، وقد أضفت إلى حديثى قائلا:

ـ وهل يعرف أحدكما النتائج التى ترتبت على وشك انقراض هذه الحيوانات المفيدة، إن تكاثر الأعشاب وتعطنها يسمم الهواء، والهواء المسمم هو سبب الحمى الصفراء التى جعلت هذه المناطق الجميلة خالية من السكان لقد تكاثرت النباتات المتعفنة تحت سطوح البحار الاستوائية مما أدى إلى انتشار الأوبئة والأمراض ابتداء من مصب نهر رويودى لابلاتا حتى شواطئ فلوريدا.

وإذا صحت نظرية العالم تاوسينل فى هذا الشأن، فإن الأجيال التالية من البشر سوف تعانى الكثير من الحميات والأوبئة عندما تخلو البحار من الحيتان والفقمات والثدييات آكلة العشب، ذلك لأن البحار ستصبح موبوءة بالهلاميات وقناديل البحر والحبارات، ومرتعًا ضخمًا للأوبئة ما دامت المياه تخلو من هذه البطون الواسعة التى خلقها الله لتطهير البحار، ومهما يكن فإن بحارة الغواصة رغم هذه النظرية أمسكوا بست من هذه الأبقار البحرية لتزويد مخازنها باللحم الطيب. ولم تحاول هذه الأبقار أن تقاوم عمليات صيدها بالحراب، وهكذا أضيفت إلى مخازن الغواصة بضعة آلاف رطل من اللحم الذى تقرر تجفيفه.

وفى ذلك اليوم جاءتنا إحدى الشباك بمزيد من اللحم صالح للحفظ، إذ حملت إلينا كمية من الأسماك تنتهى رءوسها بصحاف بيضاوية ذات أطراف لحمية. إنها من الشوكيات التى تنتمى إلى الأسرة الثالثة من اللعنفيات البحرية «اللعنفيات أى اللينة الزعانف من القشريات» وكانت أقراصها المفرطحة تتكون من عظام غضروفية معقوفة متخالفة تمكن هذه الأسماك من إحداث خلخلة فراغية تجعلها تلتصق بأى جسم كالقدح المفرغ.

وينتمى سمك؛ الرامور «سمك له عضو امتصاص فى ظهره يلتصق به فى غيره» الذى شاهدته فى البحر الأبيض إلى هذا النوع إلا أن النوع المعروف فى هذه البحار من نوع الشوكيات البحرية وقد عمد بحارة الغواصة إلى وضع هذه الأسماك بعد نقلها من الشبكة فى دلاء مملوءة بالماء.

وبعد انتهاء الصيد اقتربت الغواصة من الشاطئ فقد رأينا فى تلك المنطقة عددًا من السلاحف المائية نائمة على سطح الماء ولم يكن من السهل اصطياد هذه السلاحف، لأن أقل حدث كان يكفى لإيقاظها، كما أن دروعها القرنية تحميها من ضربها بالحربة، ولكن أسماك الرامور كانت كفيلة باصطيادها حقًا، ذلك أن هذه الأسماك هى فى الواقع خطاطيف حية يسعد بها صياد السمك ويثرى.

فقد ربط بحارة الغواصة حلقات فى ذيول هذه الأسماك، وكانت حلقات واسعة لا تعوق حركتها وشدوا فى الحلقات حبلا طويلا مثبت إلى جانب من الغواصة من الناحية الأخرى.

وما أن ألقيت أسماك الرامور فى البحر حتى بدأت عملها فورًا، فقد التصقت بدروع السلاحف وكانت شدة الالتصاق تبلغ حدًا يجعل الأسماك تفضل أن تمزق إربًا على أن تفصل من دروع السلاحف. وهكذا رفعت إلى سطح الغواصة ومعها الصيد الثمين الملتصق بها.

وبهذه الطريقة ظفرنا بعدد كبير من السلاحف يبلغ عرض كل منها نحو ياردة ووزنها نحو أربعمائة رطل. وكانت دروعها المكسوة بصحائف قرنية كبيرة رقيقة شفافة بنية بنقط بيضاء وصفراء ترفع أثمانها فى سوق البيع والشراء. ثم إنها من ناحية المذاق تشبه السلاحف «الترسة» العادية ذات النكهة اللذيذة.

ووضع لصيدنا فى هذا اليوم حد لقربنا من شواطئ نهر الأمازون. وما أن حل المساء حتى كانت الغواصة قد ابتعدت إلى عرض المحيط.

الفصل الثانى والأربعون

الأخطبوطات

استمرت الغواصة بضعة أيام مبحرة بعيدًا عن الشاطئ الأمريكى. وقد وضح أن الريان لا يريد أن يجوب مياه خليج المكسيك أو بحار جزر الأنتيل. نعم إن المياه فى هذه المناطق جد موفورة، لأن معدل عمق هذه البحار هو ألف وثمانمائة ياردة ولكن ربما كانت كثرة الجزيرات فيها والسفن التى تمخر عبابها، من الأسباب التى جعلت الريان نيمو يجتنبها.

وفى اليوم السادس عشر من شهر إبريل شاهدنا جزائر المارتنيك وجواديلوب على مسافة ثلاثين ميلا وقد رأيت لمحات من قممها المرتفعة.

وكان نيد لاند قد أعد مشروع الهرب لينفذه فى خليج المكسيك إما بالوصول إلى الشاطئ أو الاستعانة بإحدى السفن المتنقلة من جزيرة إلى أخرى. ولهذا اشتد حنقه لضياع هذه الفرصة. لقد كان الهرب عندئذ ممكنًا لو استطاع نيدلاند الاستيلاء على زورق الغواصة دون علم الريان ولكن الاستيلاء على الزورق فى عرض المحيط يصبح بلا فائدة.

ومرة أخرى تبادلت مع كونسايل ونيدلاند حديثًا طويلا فى هذا الموضوع فقد مضى على أسرنا فى الغواصة ستة أشهر وقطعنا ١٧ ألف فرسخ دون أن يتضح لنا كيف تكون نهاية هذا كله كما قال نيدلاند ولذلك اقترح على شيئًا لم أكن أتوقعه وهو أن أسأل الريان مرة أخرى وأخيرة هل ينوى استبقاءنا فى غواصته حتى نهاية أعمارنا.

وكنت أشعر بنفور شديد من القيام بهذه المهمة لاعتقادى فى عدم جدواها فإن من العبث أن نتوقع شيئًا كهذا ، من الريان نيمو. إذ كان علينا أن نعتمد على أنفسنا فقط. وفوق هذا فقد بدا الريان فى الفترة الأخيرة أميل إلى الكآبة والعزلة وأبعد عن المخالطة بل بدا لى أنه يحاول أن يتحاشانى ولذلك لم أكن ألتقى به إلا فى فترات نادرة وقد كان من قبل يشعر بشىء من البهجة وهو يشرح لى عجائب الغواصة. أما الآن فكان يتركنى لدراستى ولايغشى الصالون إطلاقًا.

فأى تغيير طرأ عليه؟ إننى أشعر أنى غير مسئول عن هذا التغيير. ربما كان وجودى فى الغواصة عبئًا ثقيلا عليه. ولكن مهما يكن من شىء، فلا أعتقد أنه الرجل الذى يرضى بإطلاق سراحنا.

ولهذا كله رجوت نيدلاند أن يتريث ويفكر مليًا قبل أن يفعل شيئًا. فإنه إذا لم ينجح فى محاولته فسوف يثير الشك ويضاعف من حرج موقفنا ويمكن أن أزيد على ما تقدم أنه لم يكن ثمة مدعاة للشكوى من الناحية الصحية. ففيما عدا المحنة التى ألمت بنا أثناء احتباسنا تحت الشاطىء الجليدى فإن حالتنا الصحية تعد من جميع الوجوه على ما يرام. فالطعام صحى والجو نقى والمعيشة المنتظمة والحياة المعتدلة كل أولئك وقانا عوادى الأمراض. وبوسعى أن أدرك عوامل الرضى والارتياح التى يشعر الريان الكاره للحياة على الأرض فى الانتقال بغواصته إلى حيث يشاء بوسائل خفية على غيره ميسورة له، مما يتيح له المضى رأسًا إلى حيث يريد. أما نحن فلم نقطع علاقتنا بإخواننا فى البشرية. ثم إنى لا أحب أن تدفن معى دراساتى الفريدة المبتكرة. وقد صار من حقى الآن تدبيج مؤلف صادق عن البحار، وبودى أن يظهر هذا المؤلف عاجلا أو آجلا.

ومرة أخرى.. يا لهذه العجائب البحرية التى كان على أن أسجلها فى مذكراتى ونحن فى مياه جزر الأنتيل على عمق عشر ياردات!.. لقد كان من بين ما رأيت من أنواع الدويبات النباتية تلك الحيتان المعروفة باسم «فيزالى بيلاجيكا» وهى نوع من أنواع المثانيات كبيرة بيضاوية الشكل بأطراف من عرق اللؤلؤ رافعة أغشيتها فى اتجاه الريح تاركة مجساتها الزرقاء، تطفو وراءها كخيوط الحرير. وقناديل البحر الجميلة مشهدا، المنفرة ملمسًا، المفرزة سوائل

مهيجة للجلد. كما رأيت بين المفصليات «ذوات المفاصل» أنواعًا من الحلقيات الدودية طولها خمسة أقدام. مسلحة بخرطوم قرمزى، ومزودة بألف وسبعمائة عضو حركى تدور تحت الماء وترسل عند مرورها كل ألوان الطيف الشمسى.

أما فى محيط الأسماك فقد رأيت أنواعًا من راى المالابار. وهى أسماك غضروفية ضخمة طول الواحدة عشرة أقدام ووزنها ستمائة رطل. ولكل منها زعنفة ظهر مثلثة الشكل ويرتفع وسط ظهرها قليلا كالسنام وتقع عيناها فى أقصى طرفى وجهها خلف الرأس. وكانت تسبح كأشرعة السفن وتحجب نوافذ الصالون البللورية كأنها مصاريع خشبية. ومما رأيت بعض الحيتان الأمريكية كستها الطبيعة باللونين الأبيض والأسود فقط. وسمك القوبيون الطويل المكتنز، بزعانفه الصفراء وأشداقه البارزة وسمك المقريل الذى طول الواحدة منه خمسة أقدام مكسوة بقشور صغيرة ولها أسنان قصيرة مدببة وهى تنتمى إلى نوع سمك البياض. ثم رأيت سمك البورى يسبح جماعات وهو مكسو بخطوط ذهبية تمتد من الرأس إلى الذيل. وكان هذا السمك يدير زعانفه اللامعة، فتبدو وكأنها قطع من الجواهر النادرة. وكان للرومان شغف بهذا النوع من السمك الملون الذى ورد عنه فى الأمثال : «إن الذى يظفر به لا يأكله» وأخيرًا السمك التفاحى الذهبى المزين بحلقات زمردية والمكسو بالمخمل والحرير الذى كان يمر أمام نواظرنا كموكب من أشراف فيرونا، وكذلك رأيت أسماكًا مهمازية تسبح بعيدًا بزعانفها الظهرية السريعة. والصابوغيات التى يبلغ طول الواحدة منها خمسة عشرة بوصة يحيط بها لألاء فسفورية، والبورى الذى يضرب الماء بذيوله السمينة العريضة. وسمك القريجوس الذى يقطع الماء بزعانفه المنجلية الشكل. والهلاليات الجديرة باسمها . التى كانت تطفو إلى أفق الماء الفضية كمجموعة أقمار.

وكان يمكن أن أرى غير هذا كله كثيرًا من العجائب والألوان، لو لم تهبط الغواصة إلى أعماق أبعد. فقد غاصت بها ألواحها المائلة إلى عمق ألفى ياردة ثم أربعة آلاف. وفى مثل هذا العمق كانت المملكة الحيوانية ممثلة فى أنواع من الأسكرفيات، ونجيمات البحر، والخماسيات والبنكارينات الفاتنة برءوسها التى

تشبه رءوس قناديل البحر، والتى تحمل سويقاتها ما يشبه الأقداح الصغيرة ثم اللافقاريات الساحلية ذات الحجم الكبير. وفى اليوم العشرين من إبريل صعدنا إلى عمق معدله ألف وأربعمائة ياردة. وكانت أقرب نقطة لليابسة إلينا عندئذ هى أرخبيل باهما الذى تتناثر جزائره على سطح الماء كأكوام من الصخور، وكنا نرى فى الأعماق مرتفعات صخرية وجدرانا مستقيمة من الكتل المتآكلة ، وبينها فجوات عميقة سوداء لم يكن ضوء الغواصة الكهربائى يصل إلى نهايتها.

كانت هذه الصخور مكسوة بأعشاب كبيرة، وطحالب ضخمة ودروع هائلة ونباتات مائية جديرة بمملكة البحر حقًا.

وتطرق بثلاثتنا الحديث عن هذه النباتات الهائلة إلى ذكر حيوانات البحر الضخمة التى قدر على بعضها أن يكون طعامًا لغيرها ومهما يكن فإننى لم أر من نوافذ الغواصة التى كانت أقرب إلى الوقوف، من هذه النباتات الطويلة الأوراق سوى النباتات المفصلية المتفرعة من أقسام السويقات الخاصة ببحار جزر الأنتيل.

وكانت الساعة نحو الحادية عشرة عندما لفت نيدلاند نظرى إلى تجمعات ضخمة بين الأدغال العشبية، فقلت له:

ـ حسنا.. هذه كهوف خفية للأخطبوطات.. ولن يدهشنى أن أرى بعض هذه الوحوش.

فهتف كونسايل قائلا:

ماذا؟.. أ حيوان الكالامارى البحرى من مرتبة الرسجليات؟.

ـ لا. إنها أخطبوطات من الحجم الكبير.. ولكن لاشك أن الصديق نيدلاند قد أخطأ النظر فإنى لا أرى شيئًا.

قال كونسايل:

ـ يؤسفنى هذا. فقد كان بودى أن أرى الأخطبوطات التى سمعت عنها الكثير. والتى يقال إن فى مقدروها جذب السفن إلى قاع البحر.

فقال نيدلاند:

- لاشيء يجعلنى أصدق بوجود مثل هذه الحيوانات.

- لماذا ؟ لقد صدقنا جميعًا وجود الكركدن البحرى الذى حدثنا عنه سيدى.

- لقد كنا مخطئين ياكونسايل.

- بالتأكيد. ولكن هناك كثيرين ممن يعتقدون بوجودها.

- هذا محتمل ياكونسايل. أما أنا فلايمكن أن أسلم بوجود هذه الوحوش ما لم ألمس إحداها بيدى.

- إذًا فإن سيدى لايؤمن بوجود الأخطبوطات الهائلة.

فهتف نيدلاند قائلاً:

- ومن ذا يصدق بوجودها؟

- كثيرون يا صديقى نيد.

- ليس بينهم صيادون، ربما آمن العلماء بوجودها.

- معذرة يانيد! يستوى فى هذا العلماء والصيادون.

وعندئذ قال كونسايل بلهجة جادة:

- أما أنا فأذكر أنى رأيت سفينة كبيرة يجرها إلى أعماق البحر رسْحَبْلى «أخطبوط» ضخم بأذرعه الثمانية.

فسأله نيدلاند قائلا:

- رأيت هذا حقًا؟

- نعم يا نيد.

- رأيته رأى العين:

- نعم.

- وأين كان هذا بالله؟

فقال كونسايل بهدوء.

- فى سانت مالو...

فقال نيدلاند متهكمًا:

- فى الميناء؟

- لا.. فى الكنيسة.

فهتف نيدلاند قائلا فى دهشة:

- فى الكنيسة؟

- نعم يا صديقى نيدلاند.. رأيت صورة تمثل الرَسّخّبَلى «الأخطبوط» الذى نتحدث عنه.

فضحك نيدلاند قائلا:

- لا بأس أن كونسايل يحاول أن يسخر منى.

فقلت: إنه يقول الحقيقة. لقد سمعت عن هذه الصورة، ولكن الموضوع يمثل مشهدًا من أسطورة وأنت تعرف طبعًا قيمة الأساطير إذا اتصلت بالتاريخ الطبيعى. وفضلا عن هذا فإن الخيال يشط عادة إذا تناول موضوع الوحوش ألم يقولوا فقط إن فى مقدور هذه الرسحبليات «الأخطبوطات» أن تجر سفينة إلى القاع بل قيل إن شخصًا يدعى أوليوس مانوس تحدث عن رسحبلى «أخطبوط» طوله ميل وكان يبدو أقرب إلى جزيرة منه إلى حيوان. ومما قيل فى هذا الصدد أيضًا أن أسقف مدينة نيودروس أقام قداسًا على صخرة كبيرة. فلما انتهى القداس عادت الصخرة إلى البحر وقيل إنها لم تكن سوى رسحبلى «أخطبوط» ضخم.

فقال نيدلاند:

- أهذا كل شيء؟

- لا.. إن أسقفًا آخر هو راعى كنيسة برجيم تحدث عن «أخطبوط» رسحبلى استطاعت كتيبة من الفرسان أن تقوم بمناورتها فوقه.

- يبدو أن الأساقفة كانوا جد خياليين فى تلك الأيام.

وأخيرا يصف علماء التاريخ الطبيعى القدماء هذه الوحوش بأن لها أفواها كالخلجان وأنها أكبر حجمًا من أن تمر فى مضيق جبل طارق.

فقال الكندى:

- ما أبدع هذا الخيال.

فقال كونسايل:

- ولكن ما هى الحقيقة فى كل هذه الحكايات؟

فقلت:

- لا أثر فيها للحقيقة يا صديقى نيد. لاشىء إلا إذا تجاوزنا حد الاحتمال ودخلنا فى نطاق الأساطير والخرافات فلا شك أن هناك عوامل أذكت خيال رواة الأساطير. فلا يمكن إنكار وجود. هذه الوحوش الأسطورية فى العصور السابقة، ولكن فى أحجام أقل من أحجام الحيتان الضخمة. فقد ذكر أرسطو أن طول الأخطبوط نحو عشرة أقدام وفى متاحف تريستا ومونبلييه هياكل لهذه الوحوش طولها ستة أقدام وطبقًا لتقديرات علماء التاريخ الطبيعى فإن الوحش من هذا النوع الذى يبلغ طوله ستة أقدام له زعانف كالأذرع طولها سبعة وعشرون قدمًا وهذا ما يجعل منه وحشًا رهيبًا.

فقال نيدلاند:

- وهل يمكن صيدها الآن؟

- إذا لم يمكن صيدها فإن البحارة يرونها. فكثيرًا ما أكد لى أحد أصدقائى وهو الريان بول بوز من الهافر، أنه رأى أحد هذه الوحوش الهائلة فى بحار الهند. ولكن الحادث المدهش الذى يثبت بصفة قاطعة وجود هذه الوحوش، وقع منذ أعوام قلائل.. أى فى عام ١٨٦١.

- ما هو هذا الحادث؟

- فى عام ١٨٦١ وفى الشمال الشرقى من تيناريت. أى فى نفس خط العرض الذى نحن فيه الآن شاهد بحارة سفينة البريد (اليكتون) أخطبوطًا هائلا يسبح فى مياه قريبة واقترب الربان بوجير بالسفينة من الوحش وهاجمه بالحراب

وبالمدافع بلا جدوى، إذ كانت الحراب وقنابل المدفع تنزلق على جسمه الطرى الهلامى القوام. وبعد عدة محاولات فاشلة استطاع البحارة أن يلقوا أنشوطة من الحبال حول جسمه اللافقارى ولكن الأنشوطة انزلقت إلى زعانفه الذنبية واستقرت عندها وقد حاولوا رفع الوحش إلى سطح السفينة. ولكن ثقل وزنه جعل الحبل يفصل ذيله عن جسمه وما لبث الوحش بعد أن حرم من الذيل أن اختفى فى الماء.

وعندئذ قال نيد لاند:

ـ أهذه حقيقة راهنة؟

ـ نعم حقيقة لاجدال. وقد اقترح بعضهم تسمية هذا الوحش الهلامى باسم أخطبوط بوجير.

فقال نيدلاند:

ـ كم كان طول هذا الوحش؟

فقال كونسايل الذى كان ينظر من النافذة البللورية إلى كهوف الجدار الصخرى:

ـ ألم يقدر طوله بثمانية عشر قدمًا..

فقلت:

ـ تمامًا.

ـ ألم تكن عيناه بارزتين أو كبيرتين جدًا؟

ـ أجل ياكونسايل..

ـ ألم يكن فمه كمنقار الببغاء تمامًا.. ولكنه منقار ضخم.

نعم ياكونسايل.

ـ حسنا إذن .. إذا تفضل سيدى بالحضور إلى هذه النافذة فسوف يرى... أعنى إذ لم ير وحش بوجير فسيرى على الأقل أخًا له..

فنظرت إلى كونسايل بينما اندفع نيدلاند إلى النافذة فإذا هو يهتف قائلا:

ـ الوحش الرهيب..

فنظرتُ بدورى ولم أتمالك من الشعور بالتقزز. فقدد رأيت أمام عينى وحشًا جديرًا بأن يتصدر عالم الأساطير والخرافات.

كان أخطبوطًا هائل الحجم لايقل طوله عن اثنين وثلاثين قدمًا، وكان يسبح بحركات عكسية بسرعة مخيفة نحو الغواصة وكان يحدق فينا بعينيه الخضراوين الهائلتين . وكانت أذرعه الثمانى أو على الأصح سيقانه الثمانية تبدأ من رأسه. ولهذا سمى رَسّحبَلى «رأس حبلى» وكان طول كل منها ضعف طول جسمه، ملتفة كالشعر المنفوش ولاحت لنا بوضوح المسام المائتين والخمسين فى الجوانب الداخلية من أذرعه وهى على هيئة كبسولات شبه كروية وكانت هذه المسام تلتصق ببللور النوافذ بطريقة الكئوس المفرغة الهواء. أما فم الوحش وهو منقار قرنى على هيئة منقار الببغاء فكان يفتح ويقفل رأسيًا، وكان لسانه وهو مادة قرنية مزودة بصفوف عديدة من الأسنان الحادة يخرج منتفضًا من منقاريه الحادين كالنصال. وكان فى جملته إحدى خوارق الطبيعة الساخرة، إذ كان له فى جسم هلامى لا فقارى منقار عظمى. وكان جسمه المنتفخ والمنبعج من الوسط عبارة عن كتلة لحمية تتراوح وزنها بين أربعين ألف طن وخمسين ألفًا. أما لونه المتقلب الذى كان يتغير بسرعة بالغة تبعًا لاهتياج الوحش، فهو يتدرج بين الرمادى القاتم إلى البنى المحمر...

ترى ما الذى أثار هذا الوحش الهلامى. لاشك أنها الغواصة التى هى أكبر منه وأقوى، والتى تعجز مسامه الماصة عن الالتصاق بها. ومع ذلك فما أشد وحشية هذه الأخطبوطات وما أعظم الحيوية التى أودعها الخالق فيها. وما أوفر القوة التى تبعثها قلوبها المثلثة فى حركاتها.

لقد جاءت بنا المصادفة وحدها إلى هذا المكان لنشاهد هذا الوحش العجيب؛ وما كنت لأضيع فرصة كهذه لدراسة هذا النوع من الأخطبوطات بعناية. وهكذا تغلبت على الفزع الذى اعترانى لدى رؤيته وتناولت قلمًا وشرعت أرسم معالمه.

وقال كونسايل :

ـ لعله نفس الوحش الذى حاول بحارة السفينة (اليكتون) اصطياده فقال نيدلاند:

ـ لا إن لهذا الوحش ذيل. أما الآخر فقد فُقِدّ ذيله.

فقلت:

ـ ليس هذا هو التعليل. فإن ذيول هذه الوحوش وأذرعها تنمو مرة أخرى بطريقة التجديد؛ وإن مُضى سبعة أعوام على حادث السفينة اليكتون تتيح لأخطبوط بوجير أن يجدد ذيله.

فقال نيدلاند:

ـ وفضلا عن ذلك فإذا لم يكن هو، فقد يكون واحدًا من هذه..

والواقع أنى رأيت أخطبوطات أخرى أحصيت منها سبعة كانت تتبع الغواصة فى شبه موكب وكنت أسمع صوت احتكاك مناقيرها بالهيكل الحديدى. وهكذا توافر أمامنا عدد كبير نختار منه ما نريد دراسته. وتابعت مهمتى وبقيت هذه الوحوش فى مستوى الغواصة حتى بدت كأنها لاتتحرك. وكان فى مقدورى أن أرسم معالمها على زجاج النوافذ. ثم إن الغواصة كانت تسير بسرعة معتدلة.

وما لبثت الغواصة أن توقفت بصورة مفاجئة جعلتها تهتز بعنف.

فقلت:

ـ تُرى هل جنحت الغواصة؟

فأجاب نيدلاند قائلا:

ـ مهما يكن فلابد أن تستمر ثانية لأننا نطفو فى الماء.

وكانت الغواصة طافية فعلا ولكنها لم تكن تتحرك إلى الأمام، لأن ألواح الرفاص كفت عن ضرب الماء. ومرت دقيقة ثم أقبل الربان نيمو إلى الصالون يتبعه ضابطه الأول.

ولم أكن رأيت الريان منذ فترة طويلة وقد بدا لى هذه المرة شديد الوجوم وهو يقصد إلى النوافذ البللورية دون أن يتحدث إلينا أو يختصنا بنظرة واحدة، ثم شرع ينظر إلى الوحوش الهلامية. وبعد أن تحدث قليلاً إلى ضابطه الأول انصرف هذا من الصالون وسرعان ما أسدلت الألواح على النوافذ وأضيئت أنوار الغرفة. فاقتربت من الريان وقلت له بغير اكتراث وكأنى متفرج أمام زجاج معرض بحرى..

- إنها مجموعة عجيبة من الأخطبوطات...

- نعم يا بروفسور... وسنشتبك معها فى معركة سافرة.. وجهًا لوجه.

فنظرت إليه كمن أخطأ السمع ثم كررت كلماته الأخيرة قائلاً:

- وجهًا لوجه؟

- نعم يا سيدى.. لقد توقف الرفاص. وأعتقد أن منقار أخطبوط منها قد اشتبك بأحد ألواحه وهذا ما يعوقنا عن التقدم.

وماذا تنوى أن تفعل؟

- سنخرج إلى الماء ونذبح هذه الوحوش كلها.

- إنها مهمة عسيرة.

- نعم هى كما تقول فإن الرصاص الكهربائى لا يجدى مع هذا النوع من الأجسام لأنها لن تجد فيها المقاومة التى تجعلها تنفجر ولكننا سنهاجمها بالمعاول.

فقال نيدلاند.

- وبالحراب. إذا لم ترفضوا مساعدتى لكم.

فقال الريان:

- إننى أتقبلها يا مستر نيد لاند.

فقلت وأنا أتبع الريان إلى السلم المركزى مع صاحبى:

- سنصحبكم نحن الثلاثة.

وألفينا عشرة رجال مسلحين بالفئوس الحادة واقفين على أهبة الاستعداد. وتناولت فأسًا حادة وكذلك فعل كونسايل فأما نيد لاند فأمسك بحربة صيد الحيتان....

وكانت الغواصة عندئذ فوق سطح الماء. وكان أحد البحارعلى درجات السلم السفلى يفك مغاليق المنفذ الخارجى. ولكنه ما كاد يفرغ حتى انفتح الغطاء بعنف أيقنا منه أن ماصات أخطبوط قد جذبته بقوة.

وسرعان ما انسابت إلينا أحد هذه الأذرع الأفعوانية، بينما كانت عشرون ذراعًا أخرى تستعدلاقتحام المنفذ إلينا؛ ولكن الربان نيمو استطاع بضربة قوية من فأسه الحادة قطع الذراع الرهيبة فانزلقت على السلم وهى تنتفض بشدة.

وفى تلك اللحظة جعلنا نتزاحم للصعود إلى سطح الغواصة، وفجأة امتدت ذراعان إلى بحَّار واقف أمام الربان نيمو وجذبتاه بقوة غلابة؛ وعندئذ أرسل الربان صيحة عالية. واندفع فى أثر البَّحار ونحن نتبعه.

وياله من مشهد!

كان البحار المسكين بين براثن الذراعين ملتصقًا بالمسام الماصة معلقًا فى الهواء تبعًا لنزوات الوحش الهائل. وكان صوته مختنقًا وهو يصيح مستنجدًا بلغة فرنسية جعلتنى أجمد فى مكانى برهة من فرط الدهشة. إذن فإن هذا البحارفرنسى مثلى.. ومن يدرى، فلعل بين البحارة غيره من أهل الوطن. الحق أنى لم أنس ماعشت رنين هذه الصيحة الممزقة للقلوب.

كان ذلك الرجل البائس مقضيًا عليه لا محالة. فمن ذا الذى يستطيع إنقاذه من براثن ذلك الوحش؟ ولكن الربان نيمو ألقى بنفسه على الأخطبوط وفصل بفأسه ذراعًا أخرى. وكان الضابط الأول يصارع فى غضب وحشا آخر كان يحاول التسلق إلى الغواصة واشتبك البحارة فى المعركة بفئوسهم.

وكنت وكونسايل ونيد لاند نغوص بفئوسنا طعنًا فى لحم الوحوش، وغمرت الجو رائحة نفاذة عنيفة كان لها تأثير شنيع.

وأيقنت برهة أن البحار المسكين الواقع بين براثن الوحش ستجذبه الماصات القوية وتذهب به. لقد قطعت سبعة من أذرعه ولم يبق غير الثامن ممسكًا بالرجل كالريشة المتأرجحة فى الهواء، ولكن ما أن اندفع الربان نيمو والضابط الأول نحو الوحش حتى أطلق عمودًا من سائل أسود كان مختزنًا فى كيس داخل معدته، ففقدنا الرؤيا فى الحال حتى إذا تلاشت هذه الغشاوة كان الوحش قداختفى مع مواطنى المسكين.

واندفعنا فى غضب شديد إلى قتال هذه الوحوش التى غزا عشرة أو اثناعشر منها سطح الغواصة وجوانبها، وكنا نتدحرج بلا انتظام بين هذه الخراطيم الأفعوانية التى كانت تتلوى على السطح فى بحيرات من الدماء والمداد الأسود. وبدا لنا كأن هذه الأذرع تنبثق متجددة كرءوس الغدار «ثعبان خرافى له تسعة رءوس» وكانت حربة نيد لاند تصيب فى كل ضربة عين أحد الوحوش ولكن صاحبى الباسل ما لبث أن سقط فجأة بضربة ذراع لم يستطع تفاديها.

آه... شد ما خفق قلبى انفعالا ورعبًا. فقد انفتح منقار الوحش الرهيب فوق رأس نيد لاند وأوشك المسكين أن يشطر إلى نصفين فأسرعت إلى نجدته. ولكن الربان نيمو كان أسرع منى. وإذا فأسه تغوص فى فم الوحش بضربة أنقذت نيد لاند بأعجوبة. وسرعان ما نهض ودفع حربته إلى قلب الوحش بضربة قاضية.

وقال الربان نيمو لنيد لاند:

- لقد سددت دينى لك.

فأحنى نيدلاند رأسه دون أن يجيب.

واستمرت المعركة ربع ساعة انسحبت الوحوش بعدها من سطح الغواصة جريحة ممزقة واختفت فى أعماق الماء.

ووقف الربان نيمو بغير حراك قرب مقصورة الكشاف وهو مغطى بالدماء وراح ينظر إلى البحر الذى ابتلع واحدًا من رفاقه والدموع تنحدر من عينيه.

الفصل الثالث والأربعون

تيــار الخليـج

لن ينسى أحد منا ذلك المشهد الرهيب الذى كان يوم ٢٠ إبريل. لقد كتبت وصف ذلك المشهد متأثرًا بأشد الانفعال. ولما راجعته بعد ذلك وقرأته على نيد لاند وكونسايل وجدناه مطابقًا للواقع، ولكن تعوزه قوة التأثير. والواقع أن تصوير مشهد كهذا لا ينهض به سوى قلم أعظم شعرائنا... فيكتور هوجو...

قلت إن الربان نيمو بكى وهو ينظر إلى البحر. فقد كان حزنه بالغًا. ذلك لأن البحار كان ثانى رفيق فقده منذ ركوبنا الغواصة. ويالها من ميتة.. إن هذا الرفيق الذى تحطم واختنق تحت ذراع الوحش الرهيب بل طحن طحنًا فى قبضته الفولاذية، لم تتح له فرصة الرقاد فى سلام مع زملائه الثاوين فى المدافن المرجانية تحت سطح الماء.

لقد مزقت قلبى صيحة اليأس التى أطلقها ذلك البائس أثناء المعركة. إن هذا الفرنسى المسكين قد نسى لغته الموقوتة، واستغاث فى لحظته الأخيرة بلغة بلاده، ومعنى هذا أنه كان لى مواطن فرنسى بين بحارة الغواصة.. مواطن منضم بجسمه وروحه إلى الربان نيمو، مجتنب مثله كل علاقة بالبشر. ترى أكان هذا هو الفرنسى الوحيد فى هذه المنظمة الخفية المكونة كما يبدو من أعضاء مختلفى الجنسية. ذلك لغز جديد من ألغاز هذه الغواصة التى لا تبرح تتوارد فى ذهنى، وعاد الربان نيمو إلى غرفته ولم أره بعد ذلك فترة طويلة. ولكن لشد ما كان حزينًا بائسًا مترددًا، فقد أدركت ذلك من أسلوب مسير الغواصة التى هو

روحها والتى تتأثر بكل ما يطرأ عليه. ومن ثم لاحظنا أن نيمو يقودها على غير هدى حين وجدتها تروح وتجىء طافية فوق سطح الماء كأنها شىء لا حياة فيه. لقد تحرر رفاصها مرة أخرى. ولكنه لم يستخدم إلا قليلاً، وذهبت الغواصة تضرب حيثما اتفق. ولكنها لم تستطع أن تنتزع نفسها من مسرح المعركة الأخيرة.. من البحر الذى التهم واحدًا من أبنائها...

ومرت عشرة أيام على هذه الحال. ولم تتخذ الغواصة طريقًا مرسومًا نحو الشمال إلا فى أول شهر مايو بعد أن لمحنا جزائر باهاما عند مدخل قناة باهاما. وكنا عندئذ نسير مع تيار أكبر الأنهار البحرية الذى له شاطئاه الخاصان وأسماكه وحرارته. وهو الذى أسميته «تيار الخليج».

إنه فى الواقع نهر ينساب طليقًا وسط المحيط الأطلنطى دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط - إنه بحر مالح، أشد ملوحة من المياه المحيطة به، ويبلغ معدل عمقه ثلاثة آلاف قدم ومعدل اتساعه ستين ميلاً. وينساب تياره فى بعض أجزائه بسرعة تتجاوز الثلاثة أميال فى الساعة؛ أما كثافة مياهه النوعية فهى أشد تركيزًا من مياه جميع أنهار العالم.

وينبع تيار الخليج - الذى اكتشفه الربان مورى فى خليج بسكاى فهناك تبدأ مياهه - الخفيفة فى الحرارة واللون - فى التكوين وهو ينحدر نحو الجنوب ويمر بشاطئ أفريقيا الاستوائية حيث تُدفئ مياهه أشعة الشمس الحامية، ثم يعبر المحيط الاطلنطى، ويصل إلى رأس سان روك على الشاطئ البرازيلى ثم يتشعب إلى فرعين أحدهما يغمر بحار جزر الأنتيل بجزئياته الدافئة ثم يبدأ عندئذ تيار الخليج الذى تنحصر رسالته فى موازنته لمختلف درجات الحرارة أى خلط المياه الاستوائية بالمياه الشمالية. وعندما ترتفع درجة حرارة مياهه إلى الذروة فى خليج المكسيك، فإنه يصعد إلى الشمال بمحاذاة الشواطئ الأمريكية حتى جزر نيوفوند لاند. وهناك يندفع تحت التيار البارد الآتى من مضايق دافيز، ثم يتخذ طريق المحيط متتبعًا إحدى الانحناءات للكرة الأرضية ثم ينقسم عند الخط ٤٣ درجة تقريبًا إلى ذراعين يعود أحدهما إلى خليج فرساى وجزر أزور بمساعدة الرياح التجارية الآتية من الشمال الشرقى ويتجه الثانى بعد تدفئة شواطئ

إيرلندا والنرويج إلى ما وراء ميناء بنزبرجن حيث يكوّن بعد هبوط حرارته أربع درجات البحر المفتوح فى القطب الشمالى.

كانت الغواصة تبحر فى تيار هذا النهر إذن. وبعد أن خرجت من قناة جزر باهاما حيث كان اتساع تيار الخليج عندئذ ثمانية وأربعين ميلاً وعمقه ١٠٠ باردة وسرعته ٥ أميال فى الساعة، وكانت هذه السرعة تقل بانتظام كلما تقدمنا نحو الشمال. وفى الواقع كان المطلوب أن يبقى هذا الانتظام دائمًا لأنه إذا تغيرت سرعة التيار واتجاهه، فإن الأجواء الأوروبية تتعرض لاضطرابات خطيرة لا تقدر عواقبها.

وحوالى الظهر كنت مع كونسايل على سطح الغواصة أحدثه عن الخصائص المختلفة لتيار الخليج فلما فرغت من الشرح طلبت منه أن يغرق يديه فى التيار.

ولما أطاعنى دهش إذ لم يشعر بأى إحساس للبرودة أو الدفء

فقلت له:

- يرجع هذا إلى أن حرارة تيار الخليج عند خروجه من خليج المكسيك تساوى حرارة الدماء، إن تيار الخليج هذا ما هو إلا موقد تدفئة ضخم يمنح الخضرة الدائمة للشواطئ الأوروبية. وإذا صحت أقوال مورى، فإن الحرارة الكامنة فى هذا الخليج يمكنها بالتركيز أن تطلق سعرًا حراريًا يكفى لإبقاء نهر من الحديد المنصهر سائلاً، ولو كان هذا النهر فى حجم نهر الأمازون أو نهر ميسورى.

وكانت سرعة التيار عندئذ خمسة أقدام فى الثانية. وكان مجراه واضحًا مميزًا عما حوله من مياه البحر، لأن مياهه المضغوطة المركزة كانت مرتفعة قليلاً عن مياه المحيط. ولما كانت مياهه موفورة الملح. فقد كان لونها أزرق قاتمًا، بينما كانت مياه المحيط حوله خضراء. وكان الخط الفاصل بينهما واضحًا إلى حد أن الغواصة كانت وهى تحاذى جزر كارولينا، تقطع بمقدمتها مياه تيار الخليج، بينما يضرب رفاصها مياه المحيط.

ويحمل هذا التيار عالمًا من الأحياء المائية، وكانت أسماك الأرجونوت المعروفة فى البحر الأبيض المتوسط تسبح معه فى مجموعات كبيرة. وكان من أهم أنواع

الأسماك الغضروفية، سمك الراى الذى يكوّن ذيله المعقوف ثلث جسمه، والذى يبلغ طوله - كأسماك اللوزنج الكبيرة - نحو خمسة وعشرين قدمًا. ثم سمك الكلب وطول الواحدة ثلاثة أقدام برأس كبير وحيزوم قصير مستدير وأسنان مدببة فى صفوف عديدة وجسم يبدو مكسوًا بالقشور والحراشيف.

أما عن الأسماك العظمية فقد لاحظت وجود أنواع من سمك الراص الرمادى الخاص بهذه المياه وسمك الحفار الذى تتألق عيونه كالنار والينشور وسمك البركيت «الملون كالببغاوات» والذى يُرسل فى مياه المحيط ألوانًا من قوس قزح تفوق فى بهائها ألوان الطيور الاستوائية. والمزجناحيات برءوسها الفضية وذيولها الصفراء وأنواع مختلفة من السالمون، والبورى البياج المرن الناعم اللامع الذى كان الملك الاسيبيد يكرّسه لطعام زوجته الجميلة. وأخيرًا السمك المعروف باسم «الفارس الأمريكى» المزين بعدد لا يحصى من الشرائط والأوسمة. وهو يكثر على شواطئ البلاد الأمريكية التى لا يكاد شعبها يهتم بالأوسمة والنياشين.

ويسوغ لى القول أن مياه تيار الخليج تشع فى الليل ضوءًا فسفوريًا يفوق الضوء الكهربائى المنبعث من كشاف الغواصة. ولاسيما فى الأجواء العاصفة التى كانت تتهددنا بين حين وآخر.

وفى الثامن من شهر مايو كنا تجاه رأس هاتيراس فى نهاية ولاية كارولينا الشمالية. وهنا كان اتساع تيار الخليج خمسة وسبعين ميلاً وعمقه مائة واثنين وعشرة ياردات. وظلت الغواصة تسير حيثما اتفق. وبدا لى أنه لم يعد ثمة أى إشراف عليها. وأعترف أنه يمكن الهرب بنجاح فى مثل هذه الظروف. ذلك أن الشواطئ المأهولة تتيح فى الواقع أكثر من ملجأ ميسور فى جميع الجهات. وكانت البواخر العديدة تشق عباب البحر دوامًا فى تنقلها بين نيويورك وبوسطن وخليج المكسيك وكانت السفن الصغيرة لا تنقطع ليلاً ونهارًا عن الإبحار على الشواطئ الأمريكية لأغراض التجارة. وكان يمكن أن تلتقطنا إحدى هذه السفن. ولهذا كله كانت الفرصة سانحة للهرب. رغم الأميال الثلاثين التى تفصل بين الغواصة والساحل الأمريكى.

ولكن شيئًا واحدًا معاكسًا خيب آمال نيدلاند وذلك هو الجو المكفهر. فقد كنا نقترب من منطقة تكثر فيها الزوابع، هى منطقة العواصف والأعاصير المتولدة عن تيار الخليج. وكان الخروج إلى بحر كهذا فى زورق صغير معناه الرغبة فى الموت وقد اعترف نيد لاند بهذا. وما برح يشقى نفسه بحنين إلى موطنه لا شفاء له منه إلا بالهرب.

وفى ذلك اليوم قال لى:

- سيدى.. ينبغى أن تكون لهذه الحالة نهاية. فأنا أريد أن أعرف ما هو موقفنا الآن. إن صاحبك نيمو يبتعد عن اليابسة نحو الشمال ولكنى أعلن لك أننى نلت كفايتى من القطب الجنوبى ولن أتبعه إلى القطب الشمالى.

- ولكن ماذا نستطيع أن نفعل يانيد والهرب غير ممكن الآن.

- إننى أعود إلى اقتراحى الأول وهو وجوب التحدث مع الربان. إنك لم تحدثه عندما كان فى بحار وطنك. ولكنى سأتحدث إليه الآن وهو فى بحار وطنى. فإنى كلما فكرت فى أن الغواصة ستكون بعد أيام قليلة تجاه نوفا سكوتيا، وأن هناك بالقرب من نيوفوندلاندخليجًا واسعًا تصب فيه شلالات نهر لورنس، وأن نهر لورنس هو نهر بلادى.. نهر مدينة كويبك عاصمة كندا بلادى.. وطنى. عندما أفكر فى هذا كله يشتد غضبى ويقف شعر رأسى وأقول لك يا سيدى إنى أفضل إلقاء نفسى فى هذا البحر على البقاء هنا... فإنى سأختنق.

وبدا لى بوضوح أن نيدلاند قد نفد صبره وأن طبيعته العنيفة لم تألف هذا الأمر الطويل وكان وجهه ينم عن الغضب المتزايد يومًا بعد يوم ومزاجه يزداد سوءًا. وشعرت بما يعانيه يقينًا لأن روح الحنين إلى الوطن سرت إلى نفسى أيضًا. فقد مضى نحو سبعة أشهر لم تصلنا فيها أنباء ما عن اليابسة وفوق هذا كانت عزلة الربان وتقلب أهوائه لاسيما بعد معركة الأخطبوط وانطواؤه، مما جعلنى أرى الأمور بنظرة مختلفة. إن على الإنسان أن يكون هولنديًا - مثل كونسايل - لكى يتقبل هذه الحياة القائمة على الحيتان وغيرها من الأحياء البحرية. والواقع لو كان لكونسايل خياشيم بدل الرئة. لكان سمكة عظيمة.

وقال نيدلاند حين وجدنى لا أجيب:

ـ حسنًا يا سيدى.

ـ حسنًا يا نيد. تريد منى أن أعرف نوايا الربان نيمو بشأننا.

ـ نعم يا سيدى.

ـ وذلك رغم أنه صارحنا بهذه النوايا من قبل.

ـ نعم فإنى أريد أن أتأكد من نواياه للمرة الأخيرة. ويمكنك أن تتكلم عنى فقط إذا شئت.

ـ ولكنى لا أراه إلا نادرًا. إنه يتحاشانى.

ـ وهذا سبب يزيد من ضرورة السعى لمقابلته.

ـ سأكلمه يا نيد.

فقال الكندى ملحًا:

ـ متى؟!

ـ عندما ألتقى به.

ـ يامسيو أروناكس. أتريدنى أن أذهب إليه بنفسى؟

ـ لا. دع هذا الأمر لى. غدًا.

ـ بل اليوم.

ـ حسنًا جدًا.. سأقابله اليوم.

قلت هذا لنيد لئلا يتصرف من تلقاء نفسه فيسىء إلينا جميعًا.

وبقيت وحدى. لقد استقر عزمى على إتمام هذه المهمة فورًا مادمت قد اتخذت قرارًا بشأنها فأنا أحب العمل الحاسم بدلاً من الإرجاء والتسويف.

ودخلت غرفتى، وهناك شعرت بشخص فى غرفة الربان نيمو يسير جيئة وذهابًا، فلم أشأ أن تفلت هذه الفرصة من يدى وطرقت الباب ولكنى لم أسمع

جوابًا، فكررت الطرق ثم أدرت المقبض وفتحت الباب.

ودخلت ورأيت الريان فى الغرفة عاكفًا على العمل فوق منضدته.

ولذلك لم يسمع شيئًا فقررت ألا أخرج قبل أن أعرف رأيه فاقتربت منه فرفع رأسه فجأة وقطب جبينه وقال بخشونة:

- أأنت هنا ماذا تريد؟

- أريد التحدث معك يا كابتن.

- ولكنى مشغول يا سيدى. إننى أقوم بعملى. إن الحرية التى تتمتع بها هنا للانفراد بنفسك ألا يحق لى أن أتمتع بمثلها أيضًا؟

ورغم أن هذا الاستقبال لم يكن مشجعًا فقد قررت أن أسمع كل شىء لأعرف كل شىء. فقلت بهدوء:

- يجب أن أتحدث إليك يا كابتن فى مسألة لا يمكن تأجيلها.

- فقال متهكمًا:

- وما هى هذه المسألة يا سيدى، هل اكتشفت شيئًا فاتنى اكتشافه، هل باح لك البحر بسر جديد؟

ولكن هذا الحديث كان بعيدًا عن موضوعنا، وقبل أن أرد عليه أشار إلى مخطوط أمامه وراح يقول برصانة:

- هذا مخطوط مكتوب بعدة لغات يا مسيو أروناكس. إنه يتضمن دراستى عن عجائب البحار إن شاء الله. إن هذا المخطوط الموقع باسمى والمذيل بتاريخ حياتى سيوضع فى خزانة محكمة لا تغرق. وآخر من يبقى على قيد الحياة فى هذه الغواصة سيكون عليه أن يلقى بالخزانة العائمة إلى البحر حيث تحملها الأمواج إلى أى مكان.

- اسم هذا الرجل. تاريخ حياته مكتوب بقلمه؟ إذن فإن الأسرار التى تكتنفه ستذاع يومًا، مهما يكن فقد وجدت الآن ثغرة أنفذ منها إلى موضوعى فقلت له:

- إننى يا كابتن متفق معك فى الفكرة التى حفزتك إلى هذا العمل. إن ثمار دراساتك لا ينبغى أن تضيع. ولكن الوسائل التى تستخدمها تبدو لى بدائية جدًا. فمن يدرى إلى أين تلقى الرياح بالخزانة وفى أيدى من تقع؟ ألا تستطيع أن تجد وسيلة أفضل؟ ألا يمكن أن تقوم أنت أو أحد رجالك؟..

فقاطعنى قائلاً:

- هذا مستحيل.

- إذن فأنا وصاحباى يمكننا الاحتفاظ بمخطوطك إذا منحتنا الحرية.

فنهض الريان قائلاً:

- الحرية يا سيدى؟

- نعم يا كابتن. وهذا ما جئت أحدثك عنه فقد مضى علينا الآن سبعة أشهر فى غواصتك. وإنى أسألك الآن عن نفسى وصاحباى هل تنوى أن تبقينا هنا دائمًا؟.

- يا مسيو أروناكس! إن جوابى هو نفس الجواب الذى قلته لك منذ سبعة أشهر. إن من يدخل غواصتى لا يخرج منها أبدًا.

- ولكن هذا نوع من الاستعباد!

- سمه ما شئت.

- ولكن العبد له فى كل مكان الحق فى استرداد حريته. إنه يعتبر كل فرصة تتهيأ له للتحرر مشروعة فى نظره.

- وهل أنكر أحد عليكم مثل هذا الحق؟ هل قيدتم بقسم غليظ؟

وتطلع الريان إلىَّ وهو يعقد ذراعيه على صدره.

فقلت له:

- سيدى. لم يكن ثمة موجب للعودة إلى الحديث فى هذا الموضوع ولكن مادمنا قد بدأنا الحديث فلنستمر. إن الدراسة المثلى شىء مفيد وهواية متأصلة

وإندماج يجعلنى أنسى كل ما عداه بوسعى مثلك أن أعيش مجهولاً مغمورًا مؤملاً تقديم نتائج أعمالى إلى الناس فى المستقبل بواسطة خزانة تبقى تحت رحمة الرياح والأمواج وبالإجمال أستطيع الإعجاب بك والمضى معك مسرورًا فى الاضطلاع بعمل أفهمه إلى حد معين. ولكن فى حياتك جوانب يكتنفها الغموض والأسرار. وهى محجوبة عنى وعن صاحبى فقط. وحتى لو نبضت قلوبنا من أجلك وخفقت بآلامك، وامتلأت إعجابًا بأعمالك وبسالتك فإننا مضطرون إلى كتم كل إحساس بالمشاركة الوجدانية التى تثيرها المشاركة فى كل ما هو طيب أو جميل سواء كانت صادرة عن عدو أو صديق. إن شعورنا بالغربة عن كل شىء يتعلق بك هو الذى يجعل موقفنا لا يحتمل. حتى بالنسبة لى. وإن كان بالنسبة لنيد لاند جحيم لا يطاق. إن كل إنسان بوصفه إنسانًا ـ أهل للرعاية والتقدير. فهلا سألت نفسك عن المعنى الذى تثيره حب الحرية وكراهية الاستعباد عند رجال مثل نيد لاند وعما قد يفكر فيه أو يندفع إليه.

وأخلدت إلى الصمت ونهض الربان نيمو قائلاً:

ـ لا يهمنى قط ما يفكر فيه نيد لاند أو يحاوله. أنا لم آسره، ولا أبقيه فى غواصتى إرضاء لنفسى. أما أنت يا مسيو أروناكس فإنك من القلائل الذين يمكنهم إدراك كل شىء، حتى الصمت. وليس لدى ما أقوله لك أكثر مما قلت. إن المرة الأولى التى حدثتنى فيها عن هذا الموضوع يجب أن تكون الأخيرة. لأنى لا أستطيع أن أنصت إليك مرة أخرى.

وهكذا انسحبت من الغرفة مدركًا أن موقفنا منذ هذا اليوم أصبح واضحًا ولما ذكرت لصاحبى هذا الحديث قال نيد لاند:

ـ نحن نعرف الآن أنه لا يمكن أن نتوقع شيئًا من هذا الرجل. وإن الغواصة تقترب من جزيرة «لونج إيلاند» ومهما تكون حالة الجو فسوف نحاول الهرب.

ولكن السحب ازدادت تكاثفًا فى السماء وبدت لنا بوضوح بوادر عاصفة عاتية فى الطريق. فقد استحال الجو إلى هذا اللون الأبيض المشبع بالضباب. وتعاقبت فى الأفق شرائط السحاب الخفيف تتلوها كتائب من السحب الملبدة وثمة سحب

أخرى خفيفة تطير فوقنا بسرعة وارتفعت أمواج البحر ضخمة عالية واختفت الطيور إلا أطيار النورس صديقة العاصفة وهبط جهاز الضغط الجوى بسرعة مسجلاً وجود ضغط بخارى شديد فى الجو وتحلل المزيج فى «زجاجة العاصفة» بسبب الشحنات الكهربائية فى الجو وعلى الجملة كانت إحدى ثورات الطبيعة فى الطريق إلينا.

وهبت العاصفة فى اليوم الثامن عشر حين كانت الغواصة تطفو تجاه جزيرة «لونج إيلاند» على مسافة أميال قليلة من ميناء نيويورك وبوسعى أن أصف ثورة هذه العناصر الطبيعية، لأن الريان نيمو رأى بسبب ما أن يواجهها على سطح الماء.

كانت الرياح تهب من الجنوب الغربى بسرعة خمسة وأربعين قدمًا فى الثانية. وقبل الساعة الثالثة بعد الظهر بلغت خمسة وسبعين قدمًا فى الثانية وهذه هى سرعة العاصفة.

واتخذ الريان نيمو الذى لم يحفل كثيرًا بالعاصفة مكانه على سطح الغواصة بعد أن شد نفسه بحبل لمقاومة الأمواج الرهيبة التى كانت تكتسح السطح فاقتديت به وشددت نفسى بحبل وأنا أوزع إعجابى بين العاصفة وبين هذا الرجل الفريد الذى وقف يتحداها.

وكانت السحب المهلهلة تكتسح البحر. وتنغمس فى ذؤابات الموج حتى لم أعد أرى الأمواج المتوسطة بل كنت أرى منبسطًا مائيًا ضخمًا مائجًا لا يبدو على سطحه شىء من الزبد لفرط تكاثفه. واشتد ارتفاع الموج حتى كانت الغواصة ترقد على جانبها حينًا. وحينًا آخر تبدو رأسية كالصارى وهى فى كل حين تتمايل وتتأرجح بصورة مروعة.

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر انهمرت الأمطار سيولاً، ولكنها لم تخفف من ثورة الرياح أو هياج البحر. وظلت العاصفة مندفعة بسرعة أربعين ميلاً فى الساعة وهى فى مثل هذه الظروف تحطم البيوت وتطير الأسقف والأبواب وتقتلع البوابات الحديدية وتدحرج مدفعًا عيار قذيفته ٢٤ رطلاً ومع هذا كانت

الغواصة بين هذا الإعصار تؤكد قول مهندس خبير إنه لا توجد سفينة محكمة البناء تعجز عن تحدى البحر. إنها لم تكن مجرد صخرة راسية تستطيع الأمواج اقتلاعها بل كانت بمثابة مغزل حديدى طيع متحرك، بلا أشرعة أو صوار تدمرها العاصفة.

وفى خلال ذلك كنت أتأمل هذه الأمواج الثائرة الفائرة، كان ارتفاع الموجة لا يقل عن ٤٥ قدمًا وطولها عن ٢٥٠ قدمًا وسرعتها مثل سرعة الرياح أى ٤٠ قدمًا فى الثانية وقد فهمت عندئذ الدور الذى تلعبه الأمواج فهى تأسر الهواء وتلقى به إلى أعماق البحار محملة بالحياة المتمثلة فى الأوكسجين. وقد ثبت أن شدة ضغط الأمواج تصل أحيانًا إلى ستة آلاف رطل على كل قدم مربع من سطح الماء الذى تصطدم به. وبلغ من قوة الأمواج العالية أنها ابتلعت فى جزائر هبريد صخرة زنتها ٨٤ ألف رطل وفى عاصفة ٢٣ ديسمبر عام ١٨٦٤ قلبت الأمواج جزءًا من مدينة ميدو اليابانية. وكانت تنطلق بسرعة سبعمائة كيلو متر فى الساعة وتكرر فى اليوم نفسه على الشواطئ الأمريكية.

وازداد عنف العاصفة أثناء الليل وهبط البارومتر كثيرًا كما حدث فى إعصار لاريونيون عام ١٨٦٠ وشاهدت فى مستهل الليل سفينة تمر فى الأفق وهى تقاوم فى استماتة. ولم أشك فى أنها إحدى بواخر الخط الملاحى بين نيويورك وليفربول أو الهافر. وسرعان ما اختفت فى الظلام.

وفى العاشرة مساء كان البحر شعلة نار. إذ كان البرق المتواصل يغمر الجو بأضوائه الساطعة حتى لم أستطع احتمالها. هذا بينما بدا الربان نيمو الذى جعل يحدجه بنظراته كأنه روح العاصفة.

وملأ الجو دوى رهيب منبعث من الأمواج والرياح والرعد. كانت الرياح تندفع إلى كل مكان والإعصار يبدأ من الشرق ليدور ويعود إليه، مجتازًا الشمال والغرب والجنوب مضادًا لاتجاهات عواصف الأجواء الجنوبية. يالتيار الخليج هذا إنه يثبت جدارته باسم «ملك العواصف» فإن هذه الأعاصير الهائلة من صنعه: سببها اختلاف الحرارة فى طبقات الهواء فوق تياراته.

وبعد سيول المطر، انهمرت سيول النار فقد استحالت قطرات الماء إلى وهج خاطف وقد يخيل للناظر أن الريان يلتمس لنفسه موتة جديرة به وهو يحاول أن يصعقه البرق. ورأيت الغواصة ترفع مقدمتها فى الهواء بحركة عنيفة مفاجئة كأنها موصل كهربائى وترسل شررًا. وعندما برخ بى التعب زحفت على يدى وقدمى إلى فتحة الغواصة فرفعت عنها الغطاء وهبطت إلى الصالون. وكانت العاصفة عندئذ قد بلغت ذروتها فاستحال على الإنسان أن يقف متوازنًا داخل الغواصة.

وحوالى منتصف الليل أقبل الريان نيمو وسمعت صوت الخزانات تملأ بالماء. فأخذت الغواصة تهبط إلى الأعماق ببطء.

ومن خلال نوافذ الصالون رأيت الأسماك الكبيرة المذعورة تنساب كالأشباح بين المياه النارية وشهدت بعضها يصعقها البرق...

وتابعت الغواصة هبوطها إلى الأعماق وقد خطر لى أننا سنجد منطقة هادئة على عمق ست عشرة ياردة، ولكن لا.... لقد كان سطح الماء شديد الاهتياج والعنف، وهكذا اضطررنا أن نهبط إلى عمق خمسين ياردة لالتماس منطقة هادئة.

حقًا ما أروع الهدوء والسكون فى تلك الأعماق وما أجملها مثابة أن يسودها السلام... فمن ذا يصدق أن هناك على سطح هذا المحيط ذاته عاصفة رهيبة تهب.

الفصل الرابع والأربعون

فيما بين خط العرض ٢٤-٢٧
وخط الطول ١٨-١٧

طوحت بنا العاصفة شرقًا مرة أخرى، وهكذا تلاشى كل أمل للهرب على شواطئ نيويورك أو خليج سانت لورنس. ومن ثم اعتكف نيدلاند المسكين فى مقصورته كالريان نيمو وبقيت مع كونسايل لا يفترق أحدنا عن الآخر.

والتزامًا للدقة أقول إن الغواصة كانت تتجه صوب الشمال الشرقى. وقد ظلت بضعة أيام تبحر كيفما اتفق. أحيانًا فوق السطح وأحيانًا فى الأعماق، ودائمًا فى خضم طبقات الضباب الكثيف الذي يفزع منه البحَّارة، فما أكثر الحوادث التى سيسببها الضباب. وما أكثر اصطدام السفن بالحواجز المرجانية أو الصخرية عندما يحجب زئير العاصفة صوت تكسر الأمواج على الصخور وما أكثر اصطدام السفن بعضها ببعض رغم إشارات الضباب وأجراس الإنذار.

كانت قيعان هذه البحار تبدو كميدان معركة تهادى فيه ضحايا المحيط. بعضها قد أصبح قديمًا مغلفًا بالصدأ وبعضها مازال مصفرًا يعكس أضواء مصباح الغواصة على الألواح والجوانب الحديدية والنحاسية. وكان بينها سفن غرقت بكل من عليها من بحَّارة وركاب ومهاجرين عند هذه الرءوس الصخرية الخطيرة المسجلة على الخرائط. رأس سيرس. وجزيرة سانت بول. ومضيق بيل آيل. ومصب نهر سانت لورنس. وقد أضيف إلى قيمة الخسائر المؤلمة عدد كبير من ضحايا السفن الغارقة منذ إنشاء خطوط الشركات الملاحية رويال ميل، وأنان ومونتريال، وكانت هذه السفن الغارقة مثل سالوى وإيزيس وبارموتا التابعة لدول

مختلفة مثل المجر وكندا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا ومنها السفينة ليونيز المعدة للمناطق القطبية التي غرقت نتيجة اصطدامها بسفينة أخري ومنها السفن بنزدنت «وباسفيك» و «سيتى أوف جلاسجو» التى غرقت لأسباب غير معروفة، وكانت الغواصة تسير بين هذه البقايا المحزنة كأنها تمر بمعرض للموتى.

وفى اليوم الخامس عشر من شهر مايو كنا فى أقصى الطرف الجنوبى لشاطئ نيو فوندلاند. ويتكون هذا الشاطئ من الرواسب المؤلفة من أكوام كبيرة من مواد عضوية حملها تيار الخليج من المناطق الاستوائية أو التيار المضاد الآتى من المياه بالقطب الشمالى مارًا بالشواطئ الأمريكية وكذلك من الكتل الصخرية التى تدفع بها مياه الثلوج الذاتية. وهذا الشاطئ أيضًا مستودع ضخم للافقاريات والجسيمات النباتية التى تهلك فى أرجائه بالملايين.

ولم يكن البحر شديد العمق عند شاطئ نيوفوندلاند، إذ لم يكن عمقه يجاوز بضع مئات من الياردات ولكن ثمة منخفض عند الجنوب يبلغ عمقه نحو ثمانية آلاف ياردة وفيه يتسع تيار الخليج فيفقد كثيرًا من سرعته وحرارته. ويصبح بحرًا...

وعلى هذا الشاطئ النيوفوند لاندى العامر بخيرات البحر دائمًا، فوجئت برؤية مقادير ضخمة من سمك القد «البكلاه» فى المياه المفضلة عند هذا النوع.

ويمكن القول أن القد من أسماك المناطق الجبلية. لأن جزيرة نيوفولاند ما هى إلا جبل غاطس. وبينما كانت الغواصة تخوض بين جماعات هذا السمك الكثيفة قال لى كونسايل:

ـ أهذه أسماك البكلاه؟ كنت أحسبها مفلطحة كالنعال.

ـ إنها كذلك عند البقال فقط. أى بعد أن تشق أجسامها وتجفف.

ولكنها فى هذه المياه تبدو ملفوفة الأجسام كالبورى وهذا التكوين يتيح لها سرعة الحركة.

ـ ولكنها هنا بمقادير ضخمة..

ـ كـان يمكن أن تكون أوفـر من هـذا لولا أعـداء هذا النوع من السـمك. الإنسان ونمور البحر.

ـ هل تعرف كم يبلغ عدد البيض فى الأنثى الواحدة منه؟

ـ نعم أعرف .. نصف مليون بيضة.

ـ لا.. إن عدد البيض فى السمكة الواحدة أحد عشر مليونًا.

ـ أحد عشر مليونًا.. لن أصدق حتى أفحص هذا العدد بنفسى.

ـ افـعل إذا شـئت. ولكن أسـرع لك أن تصـدقنى. وفـضـلاً عن هـذا فـإن الصيادين الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين والدانمركيين والنرويجيين يصيدون هذا النوع بالآلاف، وهكذا تتعرض كميات كبيرة منه للاستهلاك ولولا خصوبة أنثاه العجيبة لخلت البحار منه تمامًا. وفى أمريكا وإنجلترا فقط خمسة آلاف سفينة يعمل عليها ٧٥ ألف بحار تستخدم لصيد هذا السمك. وتصيد كل سفينة نحو أربعين ألف سمكة فى العام أى أن مجموع ما يصيده الأسطولان يبلغ ٢٥ مليون سمكة ويصاد مثل هذا القدر من شواطئ النرويج أيضًا.

فقال كونسايل:

ـ إننى أثق فى إحصائيات سيدى. ولهذا فلن أعد...

ـ تعد ماذا؟

ـ أعد الأحد عشر مليون بيضة. ولكن لى ملاحظة واحدة.

ـ وما هى؟

ـ إذا تم فقس هذا البيض كله فإن أربع سمكات فقط تكفى لإطعام إنجلترا وأمريكا والنرويج.

وقد رأيت بالقرب من شواطئ تيوفوندلاند حبال الصيد المزودة بمئات الخطاطيف التى تعلقها زوارق الصيد بالعشرات وهى تطفو فوق سطح الماء بالعائمات من الفلين. وكان على الغواصة أن تسير فى حذر بين هذه الشبكة المائية.

ومهما يكن فإن الغواصة لم تبق طويلاً فى تلك المناطق المأهولة وإنما اتجهت شرقًا إلى الدرجة ٤٢ من خط العرض المحاذى لرأس سانت مون فى نيوفوندلاند ورأس هارت كونتنت حيث توجد إحدى نهاية خطوط الكابلات التلغرافية التى تعبر المحيط.

ولكن الغواصة لم تلبث أن انحرفت شرقًا بدلاً من استمرارها فى الإبحار شمالاً كأنما تتبع الهضبة التلغرافية التى ترقد عليها الكابلات والتى حددت موقعها كثرة قياسات الأعماق التى أجريت عليها.

وفى اليوم السابع عشر من شهر مايو رأيت الكابل التلغرافى راقدًا فى القاع على عمق ٢٨٠٠ ياردة وعلى بعد خمسمائة ميل تقريبًا من رأس هارت كونتنت وقد حسبه كونسايل الذى لم أخبره بشىء عنه ثعبانًا بحريًا هائلاً واستعد لتصنيفه بين الأنواع البحرية بطريقته المعهودة ولكنى هونت عليه الأمر وشرعت أحدثه عن التفاصيل الخاصة بوضع هذه الكابلات فى الأعماق.

لقد وضع أول كابل فيما بين عامى ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ولكنه توقف عن العمل بعد إرسال نحو أربعمائة برقية. وفى عام ١٨٦٣ أتم المهندسون تصميم وضع كابل جديد بلغ طوله ألفى ميل ووزنه ٤٥٠٠ طن ونقلته السفينة جريت ايسترن ولكن هذه العملية منيت كذلك بالفشل.

والآن ونحن فى الخامس والعشرين من شهر مايو وعلى عمق ٢٨٠ ياردة كنا مع الغواصة نوتيليوس فى الموضع الذى حدث فيه تمزق الكابل وفشل العملية. إن هذا الموضع يبعد ٦٣٨ ميلاً عن الساحل الإيرلندى وقد شوهد موضع الخلل فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر وكانت الاتصالات التلغرافية مع أوروبا قد توقفت ولكن الكهربائيين على سطح السفينة جريت إيسترن لم ييأسوا وصمموا على قطع طرفى الكابل لرفعه مرة أخرى إلى سطح السفينة واستطاعوا فى الساعة الحادية عشرة مساءً أن يرفعوا الجزء الممزق منه، فصنعوا له توصيلة محكمة ثم أعادوه إلى القاع مرة أخرى ولكنه تمزق ثانية بعد أيام قليلة ولم يستطيعوا العثور عليه فى أعماق المحيط.

على أن الأمريكيين لم ييأسوا. فقد عمد الرجل المكافح بدروس فيلد - صاحب المشروع الذى غامر فيه بكل ثروته إلى القيام باكتتاب جديد وسرعان ما تم صنع كابل آخر وضع فى الأعماق فى حالة أفضل. فقد غُلفت الأسلاك الموصلة بالطبرخى «جوتابركا» وحفظت فى جراب من نسيج القُنب المتين المغلف بالمعادن. وقد أبحرت السفينة جريت إيسترن بهذا الكابل الجديد فى الثالث عشر من شهر يوليو عام ١٨٦٦.

وسارت العملية كما ينبغى دون أن يعترضها سوى عائق واحد. فقد لاحظ المهندسون مرارًا فى أثناء إنزال الكابل إلى الماء أن ثمة مسامير دقت فيه حديثًا بغية إفساد الأسلاك بتسرب المياه إليها فعقد الربان أندرسون وضباط السفينة والمهندسون اجتماعًا تبادلوا فيه الرأى ثم أعلنوا أنهم إذا قبضوا على الجانى الأثيم فسيلقون به إلى البحر دون محاكمة. وعندئذ لم تتكرر المحاولة الإجرامية لإفساد الكابل.

وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر يولية لم تكن السفينة جريت ايسترن تبعد أكثر من خمسمائة ميل عن جزيرة نيوفوند لاند عندما وردت عن طريق الكابل الحديد أنباء الهدنة بين بروسيا والنمسا بعد موقعة سادوا. وفى اليوم السابع والعشرين لمحت السفينة من خلال الضباب رأس هارت كونتنت.

وهكذا كلل هذا المشروع بالنجاح فكانت البرقية التى أرسلتها القارة الأمريكية الشابة إلى أوروبا العجوز تتألف من هذه الكلمات الحكيمة التى قلما يدرك معانيها أحد (المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام والمحبة لجميع البشر).

ولم أكن أتوقع أن أرى الكابل بنفس الحالة الطبيعية التى خرج بها من المصنع فقد كان الثعبان الطويل (مكسوًا بمخلفات البحر والمحار وغيره كما لم يخل من عبث اللافقاريات وقرضها له. وكان ملقى فى القاع ساكنًا بعيدًا عن حركة الأمواج وواقعًا تحت ضغط مناسب يسمح بمرور الشرارة الكهربائية التى تنطلق من أمريكا إلى أوربا فى ٣٢ من مائة من الثانية واحتمال هذا الكابل غير

محدود. فقد لوحظ أن مادة المطاط (الجوتاباركا) التى تغلف الأسلاك تزداد تحسنًا بماء البحر.

ومن حسن الحظ أن الكابل بوضعه على هذه الهضبة البحرية لا يحتاج إلى إنزاله فى أعماق بعيدة تؤدى إلى تمزقه وقد تتبعته الغواصة إلى أعمق مكان، فكان ممددًا بسكون فوق قاع يبلغ عمقه ٤٤٠٠ ياردة وبعد ذلك اقترينا من المكان الذى وقع فيه حادث التمزق عام ١٨٦٣.

كان قاع المحيط فى هذه المنطقة مكونًا من وادٍ فسيح يمكن أن يستقر فيه جبل مونت بلانك الأوربى دون أن ترتفع قمته فوق سطح الماء وهذا الوادى تسده من ناحية الشرق مرتفعات صخرية يبلغ ارتفاعها ستة آلاف قدم وكان وصولنا إلى هذا المكان فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو بحيث لم يصبح بيننا وبين الشاطئ الإيرلندى سوى مسافة مائة وعشرين ميلاً.

ترى هل كان الربان نيمو ينوى المسير شمالاً مارًا بالشواطئ الإنجليزية؟ كلا لقد دهشت حين رأيته يعود إلى الجنوب مرة أخرى. شطر البحار الأوربية وعندما كانت الغواصة تدور حول جزيرة أميرالد لمحت من بعيد منارة رأس كلير ومنارة فاستنت اللتين تسترشد بضوئها آلاف السفن بين جلاسجو وليفربول وعندئذ دار بذهنى سؤال مهم؛ وهو: هل تجرؤ الغواصة على دخول مياه بحر المانش؟ لقد ظل نيد لاند ـ الذى عاد إلى الظهور منذ اقترابنا من اليابسة ـ يلقى علىّ هذا السؤال مرارًا. فكيف كان بوسعى أن أجيبه؟ لقد ظل الربان نيمو مختفيًا عن أنظارنا بعد أن أرانا لمحة من الشواطئ الأمريكية، فهل يرينا جزءًا من الشواطئ الفرنسية؟

وتابعت الغواصة اتجاهها إلى الجنوب. وفى اليوم الثلاثين من شهر مايو رأينا رأس لاندزايند الواقعة بين الطرف الأقصى لإنجلترا وجزر شيللى التى كانت لدى الجانب الأيمن من الغواصة. وكان على الغواصة أن تتجه إلى الشرق إذا أرادت دخول بحر المانش، ولكنها لم تفعل.

وفى خلال اليوم الواحد والثلاثين من شهر مايو قامت بسلسلة من الحركات الدائرية على سطح الماء أثارت أشد اهتمامى. فقد بدا أنها تبحث عن موضع ليس من اليسير العثور عليه. وأقبل الريان نيمو وقت الظهيرة ليحدد موضع الغواصة بنفسه ولم يتحدث إلى بكلمة. وإنما بدا أشد ما يكون اكتئابًا. تُرى ما السبب فى حزنه الشديد هذا؟ أهو اقترابه من الشواطئ الأوربية؟ أهى بعض الذكريات عن بلاده التى هجرها؟ ترى ما هو الشعور الذى يستبد به؟ أهو الأسى أم الندم لقد ظل هذا الخاطر يطوف بذهنى طويلاً. وأحسست فى أعماق نفسى بأن الأقدار ستكشف لى أسرار الريان قبل وقت طويل.

وفى اليوم التالى الأول من شهر يونيه استمرت الغواصة فى مناورتها الدائرية؛ وكان الواضح أنها تبحث عن موضع محدد فى المحيط، وقام الريان نيمو بتحديد مكان الغواصة وقت الظهيرة كما فعل فى اليوم السابق. وكان البحر هادئًا والسماء صافية. وعلى بعد ثمانية أميال إلى الشرق بدت عند الأفق سفينة تجارية كبيرة ولم يكن ثمة راية ترفرف على ساريتها. فلم أستطع معرفة جنسيتها.

وقبل أن تجاوز الشمس سمت الظهيرة بلحظات، تناول الريان آلته الراصدة وأخذ يقوم بملاحظاته فى دقة بالغة. وكان هدوء البحر التام يساعده على القيام بهذه العملية؛ لأن الغواصة لم تكن تتأرجح أو تميل.

وكنت إذ ذاك فوق السطح، فلما فرغ الريان من ملاحظاته فاه بهاتين الكلمتين فقط:

- إنها هنا.

ثم هبط إلى الداخل. تُرى هل رأى السفينة التى استدارت وبدا كأنها تنوى اللحاق بنا. ذلك ما لم يكن لى به علم.

وعدت إلى الصالون حيث كانت الألواح مسدولة على النوافذ البللورية. ولكنى سمعت صوت الماء وهو يتدفق إلى الخزانات وسرعان ما بدأت الغواصة فى الهبوط رأسيًا إلى الأعماق بينما توقف رفاصها ولم يعد يثير فى جوانبها أية حركة.

ويعـد لحظات توقفت على عـمق ١٨٣٦ ياردة حيث اسـتـقـرت فـوق القـاع وعندئذ أطفئت أنوار الصالون ورفعت الألواح عن النوافذ البللورية فاستطعت أن أرى من خلالها مياه البحر مضاءة فى محيط نصف ميل بمصباح الغواصة الكهربائى.

ونظرت من نافذة الجانب الأيسر فلم أر شيئًا غير خضم المياه الساكنة. أما فى الجانب الأيمن فقد رأيت نتوءًا ضخمًا استرعى اهتمامى. فقد بدا كأطلال مدفونة تحت طبقة من المحار المائل للبياض وكأنه كساء من الثلج. وبعد أن دققت النظر فى الكتلة الضخمة، أحسست أنى أرى منها هيكل سفينة تجردت من ساريتها وهوت رأسًا على عقب. ولا شك أن هذه السفينة منيت بالكارثة منذ أمد بعيد. فإن بقاياها كانت مكسوة بطبقة جيرية تكونت عليها وهى راقدة فى القاع أعوامًا مديدة.

ترى ما هى هذه السفينة. ولماذا هبطت الغواصة لتزور قبرها، أهى مجرد حطام غارق أثار اهتمام الربان فهبط بالغواصة إليه.

وبينما كنت فى حيرة من هذا سمعت الربان نيمو عن كثب يقول بصوت متئد:

ـ كانت هذه السفينة تسمى المارسليز يومًا ما. وكانت تحمل أربعة وسبعين مدفعًا. وقد نزلت إلى البحر أول مرة عام ١٧٦٢. وفي الثالث عشر من أغسطس عام ١٧٧٨ خاضت بقيادة ربانها لابوليت فيرتيرو غمار معركة مريرة ضد السفينة الحربية بريستون. وفى عام ١٧٧٩ ساعدت الأميرال داستلنج فى الاستيلاء على جزر جرانادا. وفى الخامس من شهر سبتمبر عام ١٧٨١ اشتركت فى معركة خليج تشيرابيك البحرية وفى عام ١٧٩٤ غيرت فرنسا الجمهورية اسمها. وفى السادس عشر من شهر إبريل من العام نفسه انضمت فى ميناء بريست إلى قوة بحرية يقودها فيلاريه ـ جويس لحماية قافلة من حاملات القمح كانت آتية من أمريكا بقيادة الأميرال فان ستايل. وفى اليوم الحادى أو الثانى عشر من شهر برايريال «الشهر التاسع بتقويم الثورة الفرنسية» من العام الثانى

للثورة التحمت بالقوة البحرية للسفن الإنجليزية. واليوم ياسيدى، هو الثالث عشر من شهر برايريال ـ الموافق اليوم الأول من شهر يونية عام ١٨٦٨. لقد مضى على هذا اليوم ٧٤ عامًا وفى هذا الموضع الواقع بين خط العرض ٤ ـ ٤٧ وخط الطول ١٨ ـ ١٧ آثرت هذه السفينة بعد معركة باسلة فقدت فيها صواريها وجرح ثُلث بحّارتها أن تغرق ببحارتها الثلاثمائة والستة والخمسين دون أن تقبل الاستسلام. وكان كل من عليها يهتفون وهم يغرقون (تحيا الجمهورية).

وعندئذ صحت قائلاً:

ـ إذن فهى السفينة فانجير (المنتقم).

فغمغم الربان قائلاً وهو يعقد ذراعيه على صدره:

ـ نعم ياسيدى ... فانجير .. وإنه لاسم عظيم.

الفصل الخامس والأربعون

المجـــزرة

كان هذا المشهد المفاجئ وأسلوب الحديث عنه وسرد تاريخ هذه السفينة الوطنية بلهجة فاترة أولاً. ثم الانفعال الذى اعترى هذا الرجل العجيب وهو يفوه بكلماته الأخيرة فضلاً عن اسم هذه السفينة ودلالته التى لم تكن تخفى على. كل ذلك قد أثار خيالى إلى حد بعيد، لقد رحت أشخص إليه طويلاً وهو باسط ذراعيه نحو البحر ويرنو بعينين كلهما الإعجاب إلى الحطام المجيد.

وقد يُحتمل الا أعرف قط من يكون هذا الرجل ومن أين جاء، وإلى أين يمضى. ولكنى ألفيته ينسلخ شيئًا فشيئًا من شخصية العالم الباحث وأحسست أن اجتماع الريان ورفاقه فى هذه الغواصة لم يكن وليد مجافاة للمجتمع.. بل هى نزعة من نوازع الكراهية بشعة أو متسامية لم يستطع الزمن أن يخفف من حدتها.

ترى أما تزال تلك الكراهية تزكى نزعة الانتقام فى قلبه، إن المستقبل كفيل بالجواب.

وفى خلال هذا كانت الغواصة ترتفع ببطء إلى سطح الماء وأخذ حطام السفينة فانجير يختفى عن ناظرى تدريجيًا. ولم ألبث أن أدركت من تأرجح صفير أننا قد وصلنا إلى سطح البحر والهواء الطلق.

وفى تلك اللحظة سمعنا صوت انفجار مكتوم فنظرت إلى الريان فإذا هو لم يتحرك فقلت:

- كابتن نيمو.

ولما لم يجبنى انصرفت عنه إلى سطح الغواصة حيث رأيت كونسايل ونيد لاند قد سبقانى إليه فسألتهما قائلاً:

- ما هذا الصوت؟

فقال نيد لاند:

- إنها طلقة مدفع.

فنظرت فى اتجاه السفينة التى لمحتها من قبل فإذا هى تقترب من الغواصة بسرعة متزايدة بحيث لم يبق بيننا وبينها غير ستة أميال.

وقلت لنيد لاند:

- ما نوع هذه السفينة؟

- يبدو من أدفالها وصواريها القصيرة أنها فرقاطة حربية... ليتها تأتى وتغرقنا إذا لزم الأمر مع هذه الغواصة اللعينة.

فقال كونسايل:

- بأى ضرر يمكن أن تصيب هذه الغواصة ياصديقى نيد لاند؟... هل يمكنها مهاجمتها تحت سطح الماء؟ هل يمكنها أن تقصفها بالمدافع وهى فى أعماق البحر؟

وقلت له بدورى:

- أيمكن أن تخبرنى بجنسية هذه السفينة ياصديقى نيد لاند؟

فزوى نيدلاند مابين حاجبيه وحدق بقوة إلى السفينة ثم قال:

- لا أستطيع ياسيدى أن أعرف إلى أية دولة تنتمى هذه السفينة فإن أعلامها غير مرفوعة ولكنى أذكر أنها سفينة حربية لأنى أرى علمًا مستطيلاً يرفرف وراء صاريها الكبير.

وقضينا ربع ساعة نتطلع إلى هذه السفينة التى جعلت وجهتها إلينا وكنت أعتقد أنها لم تكن قد رأت الغواصة بعد من تلك المسافة، وبالأحرى لم تعرف بعد كنهها.

وسرعان ما أعلن نيد لاند أن السفينة بارجة حربية ذات سطحين ودروع من الصلب، وكان الدخان الكثيف ينساب من مدخنتيها. ولم تكن صواريها القصيرة تبدو بوضوح بين دروعها وأبراجها. ولم يكن ثمة أعلام ترفرف عليها. وكانت المسافة بيننا لا تتيح لنا رؤية لون رايتها القصيرة التى كانت ترفرف وراء الصارى القصير كشريط ضيق.

وجعلت تقترب منا بسرعة بالغة. ولو تركها الربان نيمو تزيد اقترابًا فربما تهيأت لنا فرصة الهرب.

وقال نيد لاند:

- سيدى إذا مرت هذه السفينة على بعد ميل واحد منا فسألقى بنفسى فى البحر لأسبح إليها وأنصحك أن تحذو حذوى.

فلم أجب بشىء على اقتراح نيد لاند بل عدت بنظرى إلى السفينة التى كانت تزداد اقترابًا. ولم يكن لدى شك فى أنها ستنقذنا إذا نحن ألقينا بأنفسنا فى الماء سواء كانت إنجليزية أو فرنسية أو أمريكية أو روسية.

فقال كونسايل:

- أرجو أن يتذكر سيدى أن لى خبرة بالسباحة، فإذا عمل بنصيحة نيدلاند فأرجو أن يسمح لى بمعاونته فى الوصول إلى هذه السفينة.

وقبل أن أجيب انبعث دخان أبيض من مقدمة السفينة ولم تمض لحظات حتى ارتفع الماء خلف الغواصة كأنما ألقى إليه بجرم ثقيل. وعلى الأثر سمعنا دوى القذيفة.

- عجبًا.. إنهم يطلقون المدافع علينا.

وقال نيد لاند:

- إنهم أذكياء لم يصدقوا أننا بحارة نجوا من سفينة غارقة وتعلقوا بطوف خشبى.

وقال كونسايل وهو ينفض عن نفسه الماء الذى تناثر عليه بعد طلقة ثانية:

- إذا سمح لى سيدى أن أدلى برأى. فإنى أوافق نيد لاند وأستميح سيدى القول إنهم يحسبون الغواصة نوعًا من الكركدن البحرى ولهذا يطلقون عليه المدافع الآن..

فهتفت قائلاً:

- ولكن عليهم أن يدركوا أنهم يهاجمون رجلاً من بنى البشر.

فقال نيد لاند وهو ينظر إلى:

- لعل هذا هو فعلاً سبب هجومهم علينا.

وسطعت الحقيقة فى ذهنى. لاشك أنهم يعرفون الآن ما هو ذلك الوحش البحرى المزعوم. ولا شك أن الربان فارجوت قد أدرك أن النوتليوس ليست إلا غواصة، وأنها كانت أشد خطرًا من أى وحش بحرى عندما اصطدمت بسفينته الحربية إبراهام لنكولن.

نعم لا ريب أن الأمر كذلك... ولا ريب أنهم يطاردون هذه الأداة الرهيبة للدمار فى كل البحار...

وهى رهيبة إذا صح أن الربان نيمو يستغلها فى أعمال انتقامية. ألم يكن يهاجم إحدى السفن فى تلك الليلة حين أغلق علينا باب الزنزانة الحديدية فى المحيط الهندى. وذلك الرجل الذى دفناه فى المقبرة المرجانية بقاع المحيط. ألم يكن ضحية اصطدام الغواصة بالسفينة المجهولة؟ أجل أكرر القول إن هذه الغواصة لابد أن تكون أداة للانتقام؛ وهكذا انكشفت لى جوانب خفية من حياة الربان نيمو. وإذا ظلت شخصيته يحوطها الغموض والخفاء فبوسع الدول أن تتكتل ضده على الأقل وهى الآن لا تطارد شخصية خرافية وإنما تطارد رجلاً طوى حياته على الكراهية المريرة.

لقد بدا الماضى الرهيب كله أمام عينى: فبدلاً من أن نلتقى بأصدقاء فى السفينة المقتربة سنواجه أعداء لايرحمون. وفى خلال هذه كانت قذائف المدافع تتكاثر حولنا وكان بعضها حين تلتقى بسطح الماء يتواثب مسافات بعيدة ولكن لم تصل واحدة منها إلى الغواصة.

وصارت المدرعة على بُعد لا يزيد عن ثلاثة أميال. ورغم قذائفها المتوالية علينا، فإن الربان نيمو لم يصعد إلى السطح. ومع ذلك لو أن قذيفة منها أصابت هيكل الغواصة إصابة مباشرة لكانت القاضية.

وعندئذ قال لى نيد لاند:

- ينبغى ياسيدى أن نحاول شيئًا للنجاة من هذا الخطر. هيا نشير لهم فلعلهم يدركون أننا رجال شرفاء.

وتناول منديله ليلوح به فى الهواء، ولكنه ما كاد يبسطه حتى أمسكت به قبضة حديدية، وسقط رغم قوته الشديدة على سطح الغواصة وإذا الربان نيمو يقول له صائحًا:

- أيها الشقى. أتريد أن أشدك إلى مقدمة الغواصة الحديدية قبل أن أضرب بها هذه السفينة؟

كان الربان نيمو رهيبًا لسامعه، وأشد رهبة لمن ينظره، لقد أشتد شحوب وجهه بسبب انتفاضات قلبه الذى لا شك أنه توقف برهة. وضاقت حدقتاه إلى حد مروع. ولم يكن يتحدث بل كان يزأر وهو منحنى فوق نيد لاند يهز كتفيه بقوة وعنف.

وتركه أخيرًا واستدار نحو المدرعة التى كانت قذائفها تتهمر حول الغواصة.

ثم قال بصوت رهيب:

- آه .. أتعرفين من تهاجمين ياسفينة الدولة الملعونة؟ لست بحاجة إلى رؤية أعلامك ومعرفة جنسيتك انظرى. سأجعلك ترين أعلامى..

ونشر الربان نيمو علمًا أسود فى مقدمة الغواصة كالعلم الذى رفعه فوق القطب الجنوبى.

وفى تلك اللحظة أصابت إحدى القذائف سطح الغواصة أفقيًا وتأرجحت قرب الريان نيمو ثم سقطت فى البحر.

وهز الريان كتفيه وقال لى بصوت جاف:

ـ اهبط إلى داخل الغواصة ... أنت وصاحباك.

فصحت قائلاً:

ـ سيدى ... هل تنوى مهاجمة هذه السفينة؟

ـ إننى سأغرقها ياسيدى.

ـ لن تفعل هذا.

ـ بل سأفعله. لا تجعل من نفسك قاضيًا علىَّ يا سيدى. لقد أراك القدر ما لم يكن ينبغى أن تراه، لقد بدأت الهجوم علينا وسيكون الرد عنيفًا رهيبًا. أهبطوا إلى الداخل.

ـ ما جنسية هذه السفينة؟

ـ ألا تعرف. حسنًا هذا أفضل كثيرًا، إن جنسيتها ستبقى خافية عليك على الأقل.. أهبطوا إلى الداخل.

ولم يسعدنا إلا أن نطيع أمره، وكان خمسة عشر من بحارة الغواصة قد وقفوا حول الريان نيمو وأخذوا ينظرون إلى السفينة المقتربة منهم نظرات مفعمة بالكراهية وأحسسنا أن هذا الشعور مشترك بينهم جميعا. وهبطت إلى الداخل عندما أصابت قذيفة أخرى سطح الغواصة، وسمعت الريان وهو يهتف قائلاً:

ـ اضربى أيتها السفينة المجنونة .. انثرى قذائفك التافهة، فلن تهربى من ضربة الغواصة لك.. ولكن ليس هذا هو المكان الذى سيكون فيه غرقك، فإنى لن أسمح لحطامك أن يختلط بحطام السفينة فانجير.

وقصدت إلى غرفتى. بينما بقى الريان والضباط على سطح الغواصة. وعاد الرفاص إلى العمل وابتعدت الغواصة بسرعة عن مرمى مدافع السفينة. ولكن المطاردة استمرت. وقنع الريان بحفظ هذه المسافة بينه وبين السفينة المطاردة.

وفى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر لم أستطع مغالبة شعور القلق واللهفة الذى استبد بى، فعدت إلى السلم المركزى. ولما رأيت غطاء منفذ السطح مرفوعًا غامرت بالصعود، فرأيت الربان مازال يذرع السطح جيئة وذهابًا وهو مهتاج وقد اتجه بنظره إلى السفينة التى كانت على مسافة خمسة أو ستة أميال فى الجانب الأيسر؛ فخطر لى أنه ربما كان مترددًا فى مهاجمتها.

ومرة أخرى رغبت فى التدخل ولكنى ما كدت أهم بالكلام حتى ألزمنى الصمت قائلاً:

- إننى هنا أمثل الحق والعدل. أنا المظلوم... وهذه رمز الظلم.. فبواسطتها فقدت كل شىء فى الحياة كنت أحبه وأعتز به وأقدسه.. فقدت الوطن .. والزوجة .. والأبناء، والأب .. والأم .. فقدتهم جميعًا.. وأمامى الآن رمز كراهيتى.. فأصمت.

فألقيت نظرة أخيرة على المدرعة التى زادت من سرعتها. ثم عدت إلى نيد لاند وكونسايل وقلت لهما بحماس...

- يجب أن نهرب.

فقال نيد لاند:

- حسنًا وما جنسية السفينة؟

- لا أعرف .. ولكن أيًا كانت جنسيتها فإنها ستغرق قبل حلول الليل. ومهما يكن فخير لنا أن نموت من أن نشترك فى قصاص لا ندرى مداه من الحق..

فقال نيد لاند ببرود..

- وهذا هو رأيى أيضًا .. يجب أن ننتظر حتى المساء.

وأقبل الليل، وخيم الصمت على الغواصة. وعلمت من البوصلة أن الغواصة لم تغير اتجاهها، وكنت أسمع رفاصها وهو يضرب الأمواج بانتظام وظلت الغواصة فوق سطح الماء وهى تتأرجح قليلاً من جانب إلى آخر.

وكنت وزميلاى قد قررنا الهرب عندما تغدو السفينة قريبة منا بحيث يستطيع بحارتها أن يرونا أو يسمعونا لأن القمر الذى سيكتمل بعد ثلاثة أيام كان يضىء الماء بسطوع. وإذا استطعنا الوصول إلى سطح السفينة فسنحاول بذل كل ما تتيحه لنا الظروف لإنقاذها إن عجزنا عن تجنيبها الضربة التى تهددها. وقد ظننت أكثر من مرة أن الغواصة تستعد للهجوم ولكنها كانت تستدرج السفينة للاقتراب. ثم لا تلبث أن تبتعد سريعًا.

وانصرم جانب من الليل دون أقل حادث. وكنا نتحين الفرصة للعمل ولم يطل حديثنا لفرط انفعالنا. وقد أراد نيد لاند أن يلقى بنفسه فى البحر ولكنى استطعت حمله على الانتظار، فقد قدرت أن الغواصة ستهاجم المدرعة على سطح الماء وعندئذ لا يكون هربنًا ممكنًا فقط بل وسهلاً كذلك.

وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل دفعنى القلق إلى سطح الغواصة حيث رأيت الربان فى مكانه... كان واقفًا عن كثب من علمه الذى كان النسيم الرقيق يحركه فوق رأسه. ولم يكن يحول عينيه عن السفينة.

وبدا كأن نظراته المسلطة عليها تجذبها وتستهويها وتشدها إليه بأسرع ما يمكن وأقوى مما لو كانت مشدودة بالحبال.

وكان القمر عندئذ ينحدر نحو المغيب. ونجم المشترى يبزغ من الشرق وكان الهدوء يخيم على الماء والسماء، والبحر يهيئ (لملكة الليل) أصفى مرآة يمكن أن تعكس فيها صورتها.

وعندما ذهبت أقارن بين سكون العناصر الطبيعية وبين الغضب المتأجج فى جوانب الغواصة لم أتمالك أن أحسست برعدة تسرى فى كيانى.

وظلت المسافة بيننا وبين السفينة نحو ميلين دون تغيير، وما برحت السفينة تقترب منا مسترشدة بالضوء الفسفورى المنبعث من الغواصة. وكان فى مقدورى أن أرى الأضواء الخضراء والحمراء والمصابيح البيضاء المعلقة فى صاريها الكبير. وقد كشف لنا انعكاس يسير فى جوانبها عن مدى تأجج النيران داخل أفرانها. وكان الشرر وألسنة اللهب تنبثق من مداخنها وتملأ الجو حولها وميضا.

وبقيت هكذا حتى السادسة صباحًا دون أن يبدو على الريان نيمو أنه يرانى، وغدت السفينة على بعد ميل ونصف. وقد بدأت مع شروق الشمس فى ضربنا بالمدافع مرة أخرى. وأيقنت أن اللحظة قد حانت - عند هجوم الغواصة على السفينة - لكى نفترق إلى الأبد عن هذا الرجل الذى لم أجسر قط أن أحكم عليه أو أدينه.

وعندما هممت بالهبوط إلى داخل الغواصة لأخبر زميلى بالأمر صعد الضابط إلى السطح يصحبه عدد كبير من البحارة. ولم يرهم الريان أو لعله أبى أن يراهم. وقد اتخذوا بعض إجراءات يمكن القول أنها استعدادًا للمعركة. ولم تكن سوى إجراءات جد يسيرة: فقد طوى السياج الحديدى المحيط بالسطح. وأدخلت مقصورة الكشاف الكهربائى ومقصورة عجلة القيادة إلى فجوتها حتى صارت فى مستوى واحد على السطح وحتى لم يبق شىء يعوق هيكل الغواصة الانسيابى المستطيل الشبيه بالسيجار الضخم. عن الحركة والمقاومة.

وعدت إلى الصالون. وظلت الغواصة طافية فوق الماء. وبزغت خيوط الصباح من مرقدها المائى وكانت الأمواج المتأرجحة تعكس على نوافذ الصالون البللورية وهجًا أحمر للشمس المشرقة فى ذلك اليوم الرهيب الثانى من شهر يونية.

وفى الساعة الخامسة صباحًا، أبان جهاز السرعة أن الغواصة بدأت تخفف من انطلاقها فأدركت أنها تترك للسفينة المهاجمة فرصة الاقتراب. وفضلاً عن هذا فقد بدا قصف المدافع يسمع بوضوح تام؛ وكانت القذائف التى تحرث سطح الماء حول الغواصة تنطفئ مقترنة بفحيح غريب.

وقلت لنيدلاند وكونسايل:

- حان الوقت يا صاحباى ... خطوة واحدة والله معنا..

وبدا نيد لاند قوى التصميم. وكونسايل هادئًا، أما أنا فقد كنت لفرط الانفعال لا أكاد أسيطر. على نفسى.

وذهبنا معًا إلى غرفة المكتبة، وفيما نحن نفتح الباب المؤدى إلى ردهة السلم المركزى سمعت صوت غطاء المنفذ العلوى وهو يغلق بقوة.

ووثب نيدلاند إلى السلم ولكنى أمسكت به، فقد أدركت من صوت الخرير المعروف. أنهم يملأون الخزانات بالماء وما هى إلا لحظات حتى هبطت الغواصة بضع ياردات تحت سطح الماء.

وعرفت عندئذ هدف الغواصة. كما أدركت أن الوقت قد فات للقيام بأى عمل من جانبنا. فإن الغواصة لا تنوى ضرب المدرعة فى جوانبها المحصنة بالصلب بل تحت علامة الماء حيث لا يوجد هذا الوقاء الحصين.

مرة أخرى أصبحنا سجناء.. نشهد برغمنا هذه المأساة الرهيبة التى توشك أن تتم. ولم يكن لدينا وقت للتفكير والتأمل. فذهبنا إلى غرفتى نحتمى بها ونحن نتبادل النظر دون أن يفوه أحدنا بكلمة. وانتابنى ذهول عميق استحوذ على عقلى. وخيل إلى أن تفكيرى بطل وانعدم وصرت فى شر حال من الترقب المؤلم الذى يسبق الانفجار الرهيب.. وجعلت أنتظر وأرهف السمع حتى لكأننى استحلت إلى آذان.

وفى تلك الفترة زادت سرعة الغواصة زيادة واضحة وبدا لى أنها تتحفز للانقضاض. إذ كان هيكلها يهتز بقوة اندفاعها.

وفجأة بدرت منى صيحة .. فقد أحسست بالاصطدام ولكنه كان اصطدامًا خفيفًا نسبيًا كما شعرت بدرع الغواصة الحاد فى مقدمتها وهو ينفذ فى هيكل السفينة.. نعم .. وسمعت صوت الاحتكاك والاصطدام والنفاذ.. فقد اندفعت الغواصة بكل قوتها ونفذت فى قلب السفينة الضخمة كما تنفذ الإبرة فى قلع المركب.

ولم أستطع أن أحتمل أكثر من هذا، فاندفعت إلى الصالون كالمجنون حيث رأيت الربان نيمو واقفًا فى هدوء وصمت وثبات ينظر من خلف إحدى النوافذ البللورية.

وكان ثمة جرم ضخم يغوص فى الماء.. وإمعانًا فى رؤية عذاب السفينة الغارقة، جعلت الغواصة تغوص معها وقد رأيت على بعد ثلاثين قدمًا هيكل

السفينة المحطم والماء يندفع فيه هادرًا كقصف الرعد، ثم رأيت صف المدافع المزدوج ثم الجانب المدرع ثم السطح المغطى بظلال سوداء متحركة.

وأخذت المياه ترتفع بسرعة... ورأيت بحارة المدرعة التعساء وهم يهرعون هنا وهناك كالفيران ويتعلقون بالصوارى والحبال أو يسبحون فى الماء مغالبين الغرق.. وكان مشهدهم كمشهد قرية من النمل اجتاحها ماء البحر.

وأحسست بشعر رأسى يقف وأنا واقف مشلول الحركة جامد من فرط الألم والضنى أنظر بعينين جاحظتين وأنفاس لاهثة وصوت مختنق وكأنما تشدنى إلى النافذة قوة غلابة.

وجعلت السفينة الضخمة تغرق ببطء والغواصة تتبعها وترقب كل حركاتها.

وفجأة وقع انفجار رهيب أطار الهواء المضغوط على سطح السفينة كأنما اشتعلت النيران فى مخازن ذخيرتها. وبلغ اضطراب الماء حولها أن الغواصة أخذت تتأرجح بقوة.

ثم شرعت المدرعة المنكودة تغوص بسرعة فظهرت لنا سطوحها العالية المثقلة بالضحايا ثم أدفالها التى تنوء بالرجال ثم قمة صاريها الكبير.. وأخيرًا اختفت السفينة بكل من عليها من البحارة الأحياء والقتلى الذين جذبتهم إلى الأعماق تلك الدوامة الرهيبة التى أثارها غرق السفينة.

واستدرت إلى الريان نيمو فإذا هذا المنتقم الرهيب: نموذج الحقد المجسم مازال فى مكانه يتفرج. ولما انتهى كل شىء يمم شطر غرفته ففتحها ودخل وأنا أتبعه بنظراتى. وهناك رأيت من مكانى تحت مجموعة اللوحات المصورة صورة سيدة شابة وطفلين، وقد تطلع الريان إلى الصورة برهة ثم ركع وانفجر باكيًا.

الفصل السادس والأربعون

كلمات الريان نيمو الأخيرة

وأغلقت النوافذ البللورية على هذا المشهد الرهيب ولكن الصالون بقى مظلمًا. كما خيم الظلام والسكون فى أرجاء الغواصة التى أخذت تبتعد عن هذا المكان الموحش بسرعة بالغة وهى على عمق مائة قدم تحت سطح الماء. نرى إلى أين هى ذاهبة إلى الشمال أو الجنوب؟ ما هى وجهة هذا الرجل بعد ذلك الانتقام المروع.

وعدت إلى غرفتى حيث وقف نيد لاند وكونسايل صامتين. لقد ساورنى فزع شديد من ذلك الريان.. إذ مهما تكن الآلام التى كابدها، فهو غير محق فى الانتقام على هذه الصورة، وهو إذا لم يجعلنى شريكًا فيما حدث فقد جعلنى على الأقل شاهدًا على انتقامه.. وهذا أكثر مما يجب.

وفى الساعة الحادية عشرة سطع الضوء الكهربائى مرة أخرى فقصدت إلى الصالون ونظرت إلى مختلف الأجهزة حيث علمت أن الغواصة تندفع نحو الشمال بسرعة خمسة وعشرين ميلا فى الساعة. أحيانًا فوق سطح الماء وأحيانًا على عمق ثلاثين قدمًا.

ولما نظرت إلى مكاننا على الخريطة رأيت إننا نجتاز مدخل بحر المانش فى طريقنا إلى البحار الشمالية بسرعة بالغة.

وبسبب هذه السرعة كان يتعذر علىّ أن أرى سمك الكلب بخيشومه الطويل وسمك المطرقة. والروجيت الذى يكثر فى تلك المياه وسمك نسور البحر

وفرسان البحر والثعابين المائية التى كانت تتلوى كأنها حيات: وحشود سرطانات البحر والتى كانت تندفع فى خطوط متعرجة وقد عقدت مخالبها على صدفاتها. وأخيرًا جموع سمك الرنجة الذى كان يسابق الغواصة بسرعة. وهكذا لم يكن ثمة فرصة للملاحظة والدراسة والتصنيف.

وفى المساء قطعنا المائتى فرسخ الباقية من المحيط الأطلسى وهبط الليل وانتشر الظلام فوق الماء ريثما يبزغ القمر.

وقصدت إلى غرفتى ولكنى لم أستطع النوم إذ وقعت فى قبضة كابوس ثقيل. فإن مشهد الدمار الفظيع أخذ يتعاقب فى ذهنى.

من يدرى بعد اليوم إلى أين ستمضى بنا الغواصة فى حوض الأطلنطى الشمالى هذا. إنها تسير بسرعة متغيرة. بين غلائل من الضباب المتصل. ترى هل وصلت فى انطلاقها إلى قرب ميناء سبتزبرجن أو بلغت شواطئ نوفازميلا. هل كنا فى الطريق إلى ارتياد البحر الأبيض «القطبى» أو بحر كارا. أو خليج أوبى أو أرخبيل لياردف أو شاطئ آسيا المجهول لا أدرى بل لم أكن أدرى كيف كان الوقت يمر. فقد توقفت الساعات داخل الغواصة. وبدا كأن الليل والنهار لا يتعاقبان بنظامهما المعتاد. كما هو الحال فى الأصقاع القطبية. لقد شعرت كأنى مسوق إلى منطقة العجائب التى طالما صال فيها خيال الكاتب ادجاريو. وكذلك كنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن أبصر كما حدث لجوردن بايم بطل قصة بو «ذلك الوجه الإنسانى المقنع الذى يبدو أكبر حجمًا من وجوه سكان الأرض وقد اندفع عبر الشلال الذى يحمى مدخل القطب الشمالى...».

وقد قدرت - وربما كنت مخطئًا - أن الغواصة استمرت فى طريقها المحفوف بالمخاطر نحو أسبوعين أو عشرين يومًا.. وما كان لى أن أعلم إلى أى مدى هى ذاهبة لولا الكارثة التى وضعت حدًا لرحلتها.. ولم يظهر لنا الربان نيمو لحظة واحدة خلال هذه المرحلة ولا الضابط ولا أحد من البحارة... وتابعت الغواصة طريقها تحت سطح الماء باستمرار.. وإذا صعدت إلى السطح لتجديد الهواء كنت أرى المنافذ تفتح وتغلق آليًا. ولم يعد أحد يرصد مكاننا من العالم. وهكذا لم أستطع أن أعرف أين نحن.

ويجب أن أقول أيضًا أن نيد لاند لم يكن يظهر كذلك لفرط شعوره بالضيق ونفاد الصبر وعبثًا حاول كونسايل أن يستدرجه إلىَ الحديث وهو يخشى أن يقتل المسكين نفسه فى نوبة جنون مفاجئ ولذلك راح يراقبه فى إخلاص واهتمام.

ومفهوم أن الموقف فى ظروف كهذه لا يمكن أن يحتمل طويلا. وهكذا حدث صباح يوم لا أعرف تاريخه أن استيقظت عند الفجر بعد نوم مضطرب فرأيت نيدلاند ينحنى فوقى وهو يهمس قائلاً:

- إننا سنهرب.

فانتصبت جالسًا وقلت:

- متى؟

- الليلة.. يبدو أن الرقابة قد اختفت من الغواصة. وأن نوعًا من السبات العميق يخيم فى جوانبها فهل تستعد يا سيدى؟

- نعم.. وأين نحن الآن من العالم؟

- على مرأى من اليابسة التى رأيتها منذ لحظات من خلال الضباب...

على بعد عشرين ميلا نحو الشرق.

- وأية أرض هذه؟

- لا أدرى.. ولكن مهما تكن فسنلجأ إلى حماها.

- نعم يانيد.. نعم.. فسنهرب الليلة حتى لو ابتلعنا البحر:

- إن البحر هائج والريح عاصفة.. ولكن قطع عشرين ميلا فى زورق الغواصة الخفيف ليس بالأمر المخيف. لقد وضعت فيه بعض المؤن وزجاجات الماء دون علم البحارة.

- سأمضى معك..

فأردف الكندى قائلا:

- إذا وقعت فى قبضتهم سأدافع عن نفسى حتى الموت.

- سنموت معًا ياصديقى نيدلاند.

وقررت أن أواجه كل احتمال فى هذا السبيل. ولما تركنى نيدلاند انتقلت إلى سطح الغواصة حيث لم أكد أحتمل ثورة الأمواج؛ وكانت السماء مكفهرة ولكن مادامت الأرض تقع وراء أستار هذا الضباب. فلابد معه من الهرب بل يجب ألا نضيع يومًا أو ساعة.

وهبطت إلى الصالون وأنا أشعر بالرغبة فى مقابلة الربان نيمو والخوف معه فى هذه المقابلة فى وقت واحد. ترى ماذا يمكن أن أقول له؟ هل أستطيع أن أخفى عنه شعور الفزع الغريزى الذى أثاره فى نفسى؟.. كلا. من الخير ألا أجد نفسى أمامه وجهًا لوجه؟ من الخير أن أنساه.. ومع هذا...

ما أطول ذلك اليوم الأخير الذى كان علىّ ان أقضيه فى الغواصة لقد بقيت وحدى كما حرص نيدلاند وكونسايل على اجتنابى لئلا يكشفا السر بالحديث معى..

وفى الساعة السادسة مساء تناولت طعام العشاء بلا شهية ولكنى أرغمت نفسى على الأكل رغم نفورى منه حتى أحتفظ بقواى كاملة...

وأقبل نيدلاند إلى غرفتى فى منتصف السابعة مساءً وقال لى:

- لن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى قبل الهرب. إن القمر لن يبزغ حتى العاشرة مساءً وسوف نستغل فرصة الظلام.. فتعال إلى الزورق حيث أكون أنا وكونسايل فى انتظارك.

وانصرف على الأثر قبل أن يدع لى فرصة الرد.

وأردت أن أعرف اتجاه الغواصة فذهبت إلى الصالون ورأيت أنها تتجه نحو الشمال الشرقى بسرعة مخيفة وعلى عمق خمسين ياردة.

ورحت أجيل النظر للمرة الأخيرة فى مجموعات العجائب الطبيعية والكنوز الفنية التى ضمها ذلك المتحف. تلك المجموعات النادرة التى قضى عليها أن تضيع فى أعماق الماء مع الرجل الذى جمعها. وبدأ لى أن أطبع دقائقها فى

مخيلتى. فلبثت ساعة على هذه الحال أستوعب تلك الكنوز المتألقة فى خزانتها الزجاجية يغمرنى الضوء المنبعث من السقف وأخيرا قفلت عائدا إلى غرفتى . وهناك ارتديت ملابس البحر المتينة وجمعت مذكراتى وشددتها حول وسطى بعناية وكان قلبى يخفق بقوه حتى لم أستطع تهدئة دقاته. ولو أن الريان نيمو رآنى لفضح انفعالى الشديد أمرى .

ترى ماذا عساه يفعل فى تلك اللحظة ؟ لقد أرهفت السمع وراء باب غرفته فسمعت وقع أقدام. إذن فالريان فى الغرفة. إنه لم يأو إلى فراشه بعد ومع كل حركة منه كنت أتوقع أن أراه يبرز أمامى ويسألنى لماذا أريد الهرب. ولذلك لزمت أشد الحذر. وكان خيالى يجسم فى نظرى كل شيء وقد بلغ من وطأة هذا الشعور أنى سألت نفسى أليس من الافضل أن أدخل غرفته وأقف أمامه وجها لوجه وأتحداه بالنظر والإيماءة.

هذه نزوة مجنون لا شك. ولحسن الحظ استطعت أن أتمالك نفسى.

ورقدت فى فراشى تسكينًا لاضطراب جسمى ثم هدأت أعصابى رويدًا. ولكنى جعلت أستعيد فى ذهنى المضطرب كافة التفصيلات التى اقترنت بفترة وجودى فى الغواصة، كافة الأحداث السعيدة والمحزنة التى مرت بى منذ اختفائى عن سطح السفينة الحربية إبراهام لنكولن: تذكرت جولات الغواصة تحت سطح الماء ومضايق توريز وسكان جزائر بابو الهمج، وجنوح الغواصة، والمدافن المرجانية. ونفق خليج السويس وجزيرة سانتورين والغواص الكريتى، وخليج فيجو، وقارة الاطلانتيس. وشاطئ الجليد والقطب الجنوبى، وحصار الثلوج لنا ومعركة الأخطبوطات وعاصفة تيار الخليج. والسفينة الباسلة فانجير والمشهد الرهيب لغرق المدرعة ببحارتها جميعًا.. تواردت كل هذه الأحداث فى ذهنى كأنها مشاهد على خشبة المسرح ومن بين هذه الذكريات العجيبة بدا لى الريان نيمو محفوفًا بأشد الغرابة والغموض بحيث لم يعد فى نظرى إنسانًا من بنى البشر. بل مارد البحر.

وبلغت الساعة التاسعة والنصف وأنا على هذه الحال حتى لم أتمالك أن وضعت رأسى بين كفى لئلا تنفجر، وأغمضت عينى وصممت أن أكف عن كل

تفكير؛ فقد كان عليَّ أن أنتظر نصف ساعة أخرى. وإن فترة أخرى تحت وطأة هذا الكابوس المروع قمينة بأن تفقدنى الصواب.

وفى تلك اللحظة سرى إلى سمعى عن بُعد عزف الأرغن.. كانت نغمات حزينة لأغنية كلها الشجن.. نغمات كأنها أنات روح تريد أن تحطم قيودها الأرضية.. وأرهفت السمع بكل حواسى وقد كتمت أنفاسى وشعرت - كالريان نيمو - بهذا اللون من الاستغراق الموسيقى الذى يرتفع بالإنسان فوق حدود هذا العالم.

ثم خطرت ببالى فكرة أفزعتنى؛ وهى أن الريان قد غادر غرفته وجلس فى الصالون الذى كان عليَّ أن أجتازه فى طريقى للهرب.. وهناك سألتقى به للمرة الأخيرة.. سيرانى وقد يتحدث إلى.. وأن إيماءة منه قد يكون فيها نهايتى وكلمة واحدة يفوه بها تقيدنى إلى الغواصة.

وأوشكت الساعة أن تدق العاشرة.. أى حانت اللحظة التى أترك فيها غرفتى للانضمام إلى زميلىّ.

ولم أتردد فى مغادرة الغرفة حتى لو اعترض الريان نيمو سبيلى، وفتحت الباب بحذر. رغم ذلك أحسست كأنى أصدرت صوتًا رهيبًا ولكن لعل هذا الصوت لم يصدر إلا فى خيالى.

وتحسست طريقى إلى وسط الغواصة. وكنت أتوقف بعد كل خطوة لأهدئ من ضربات قلبى.

ووصلت إلى باب الصالون وفتحته فى رفق. وكان الصالون مطبق الظلام وكانت نغمات الأرغن تنساب خافتة.. ومعنى هذا أن الريان نيمو مازال موجودًا به، ولكنه لم يرنى وأعتقد أنه ما كان يستطيع رؤيتى حتى لو كان الضوء ساطعًا فى الصالون إذ كان مستغرقًا فى نشوته الموسيقية.

وسرت فوق السجادة بخفة متحاشيًا الاصطدام بشىء حتى لا يفضح وجودى أدنى صوت. واستغرقت خمس دقائق فى الوصول إلى باب المكتبة وبينما كنت أهم بفتحه جمدت فى مكانى حين سمعت الريان نيمو يتنهد. فقد أدركت

أنه نهض من مكانه.. بل لقد رأيته فعلاً فى الضوء اليسير المنبعث من غرفة المكتبة إلى الصالون .. وراح يقترب من مكانى عاقدًا ذراعيه على صدره صامتًا. يمشى كأنه شبح وكان صدره المحزون يرتفع ويهبط بنحيب مكتوم وسمعته يغمغم بهذه الكلمات.. وهى آخر كلمات سمعتها منه.

ـ كفى.. كفى يا إلهى العظيم.

أكانت كلمات ندم تفلت من ضمير ذلك الرجل؟

واندفعت فى يأس إلى غرفة المكتبة واتجهت إلى السلم المركزى وانحرفت إلى مكان القارب حيث سبقنى زميلاى وهتفت قائلاً:

ـ هيا بنا: .. هيا بنا:

وأجاب نيدلاند قائلاً:

ـ فورًا..

وأغلقنا المنفذ المؤدى إلى القارب بمفتاح كان نيدلاند قد تزود به كما أغلقنا المنفذ العلوى أيضًا ثم بدأ نيدلاند يفك الأربطة الحديدية التى تشد القارب إلى الغواصة.

وفجأة سمعنا صوتًا داخل الغواصة.. بل أصوات يجيب بعضها على بعض ماذا حدث؟ هل اكتشفوا أمر فرارنا؟ وشعرت بنيدلاند وهو يمسك بخنجر حاد.

فقلت له:

ـ نعم. سنعرف كيف نموت.

وتوقف نيدلاند عن عمله ثم انبعثت كلمة واحدة تكررت عشرين مرة.. كلمة رهيبة كشفت عن سبب الاهتياج الذى حدث داخل الغواصة.. وكان البحارة هم الذين راحوا يكررونها فى فزع هاتفين:

ـ الملسطروم ... الملسطروم...

الملسطروم.. إنها أرهب كلمة يمكن أن تسمعها أذن فى أرهب موقف كموقفنا.. إذن فقد كنا فى أخطر منطقة من الساحل النرويجى.. ترى هل تجذب

الغواصة إلى تلك الدوامة الرهيبة فى نفس اللحظة التى نستعد فيها للهرب بالزورق.

كان المعروف جيدًا أنه فى وقت المد تندفع المياه المحصورة بين جزيرتى فارو ولوفدن بقوة هائلة مكونة دوامة مائية لا يمكن أن تنجو منها سفينة مهما تكن قوتها. فقد كانت الأمواج العنيفة فى تلك المنطقة تندفع من كل مكان وتكوّن الخليج المعروف باسم «سرة المحيط» والذى تمتد قوة جاذبيته مسافة عشرة أميال. وهو لا يجذب إلى أعماقه السفن وحدها بل يجذب كذلك الحيتان والدببة الآتية من المناطق القطبية الشمالية.

إلى هذه المنطقة كانت الغواصة تندفع شاء ربانها أو أبى . وكانت فى انطلاقها تنساق بطريقة حلزونية كانت مجالاتها تضيق تدريجيًا وكذلك كان الزورق المشدود إليها يندفع بسرعة تصيب الرأس بالدوار. لقد انتابنى ذلك الشعور السقيم الذى يشعر به المرء حين يركب عجلة سريعة الدوران. واشتد بنا الفزع واضطراب الأعصاب حتى غمرنا عرق بارد كالذى يكسو الإنسان فى لحظة الموت.. وما أفظع ذلك الصوت الذى كان يحيط بزورقنا الخفيف. وما أشد ذلك الهدير الذى كان صداه يتردد من مسافة بضعة أميال. وما أرهب ذلك الدوى الذى كان يصدر عن تكسير الأمواج على الصخور الحادة فى القاع حيث تتحطم أصلب الأجسام. وحيث تتآكل جذوع الشجر، وتتحول إلى فراء كما يقول أهل النرويج.

وياله من موقف، لقد كان يقذف بنا بعنف داخل الغواصة وكانت الغواصة تدافع عن كيانها كأنها كائن آدمى. فكانت (عضلاتها) الحديدية تصلصل وكانت تنصب أحيانًا واقفة ونحن معها.

وقال نيدلاند:

ـ يجب أن نتماسك ونعمل على شد أربطة الزورق مرة أخرى إلى الغواصة إننا قد ننجو إذا بقينا فيها..

لكن ما كاد يتم عبارته حتى حدثت فرقعة شديدة. فقد انفلتت الأربطة الحديدية وإذا الزورق الذى انفصل عن فجوته فى جانب الغواصة يطير كحجر من (مقلاع) إلى وسط الدوامة.

واصطدمت رأسى بهيكله الحديدى فغبت عن صوابى بقوة الصدمة.

الفصل السابع والأربعون

الخاتمــة

وهكذا انتهت هذه الرحلة تحت سطح البحر.. أما ماذا حدث فى تلك الليلة وكيف نجا الزورق من الدوامات العاتية فى هاوية (الملسطروم) وكيف خرجت مع كونسايل ونيد لاند من الخليج فهذا ما لاأعرف عنه شيئًا. ولكنى عندما أفقت من غشيتى ألفيتنى راقدًا فى كوخ صياد بجزائر لوفدن. وجلس زميلاى بقربى سالمين آمنين يضغطان على يدى فجعلنا نتصافح بحرارة.

ولم نستطع إذ ذاك أن نفكر فى العودة إلى فرنسا ووسائل المواصلات بين شمال النرويج وجنوبه لم تكن ميسورة. ولهذا اضطررت إلى انتظار السفينة التجارية التى تصل رأس نورت مرتين فى الشهر.

وكذلك أقمت فى ضيافة هؤلاء القوم الأوفياء عاكفًا على مراجعة مادونته عن هذه المغامرات وقد وجدته مطابقًا للأصل.. لم أغفل حقيقة واحدة، ولم أبالغ فى شئ من التفاصيل.. إنها قصة واقعية عن رحلة عجيبة فى ذلك العالم الذى لايزال مغلقا فى وجه الإنسان. ولكن المدنية ستفتح الطريق إليه يوميًا..

ترى هل يصدقنى أحد؟ لا أدرى ، مهما يكن من شيء فإن ذلك لن يعنينى كثيرًا. إن ما أستطيع أن أوكده هو حقى فى الحديث عن البحار التى عشت فى أعماقها أقل من عشرة شهور. حيث قطعت عشرين ألف فرسخ فى رحلة مائية

حول أماطت الكثير من عجائب المحيط الهادى والمحيط الهندى والبحر الأحمر والبحر الأبيض والمحيط الأطلسى والمناطق القطبية الجنوبية والشمالية.

ولكن ما ذا كان مصير الغواصة نوتيليوس. هل قاومت دوامات الملسطروم؟ أما زال الربان نيمو على قيد الحياة؟ أما زال ماضيًا فى قصاصه المروع تحت سطح المحيط أم كانت نهايته لدى ذلك القبر المائى الرهيب؟ ومخطوطاته التى تتضمن تاريخ حياته كلها، هل تقذف الأمواج بها ذات يوم؟ هل يقدر لى أخيرًا أن أعرف اسم الرجل كاملاً؟ والمدرعة التى غرقت هل تكشف لنا جنسيتها عن جنسية الربان نيمو؟

ذلك ما أرجو أن يتحقق كله كما أرجو أن تكون غواصته القوية قد تغلبت على دوامات ذلك الخليج الرهيب. ونجت من كارثة أودت بكثير من السفن قبلها. فإذا صح هذا أى إذا كان الربان نيمو ما برح يتخذ من المحيط وطنه المختار، فعسى أن تكون الكراهية قد زالت من قلبه الوحشى... وعسى أن يكون التأمل فى مثل هذه العجائب الكثيرة قد أطفأ شهوة الانتقام فى نفسه... وعسى أن تختفى منه شخصية القاضى لتبرز شخصيته كعالم يواصل بحوثه العلمية فى أعماق البحر. وإذا كانت حياته عجيبة فهى أيضًا رفيعة الشأن. ألم ألابس هذا بنفسى؟ ألم أعش عشرة أشهر من هذه الحياة الخارجة عن مألوف الطبيعة؟ هناك رجلان فقط يحق لهما الجواب على السؤال الذى ورد فى سفر الأخبار منذ ستة آلاف سنة «من ذا عنده العلم بذلك الذى هو بعيد قصى وعميق سحيق»....

هذان الرجلان هما: الربان نيمو وصاحب هذه السطور...

الفهـرس

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٤٩٠٥
الترقيم الدولى: X-٩٧٨٤-٠١-٩٧٧



إن القراءة كانت ولاتزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة .. وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك

الثمن ٤٠٠ قرشًا